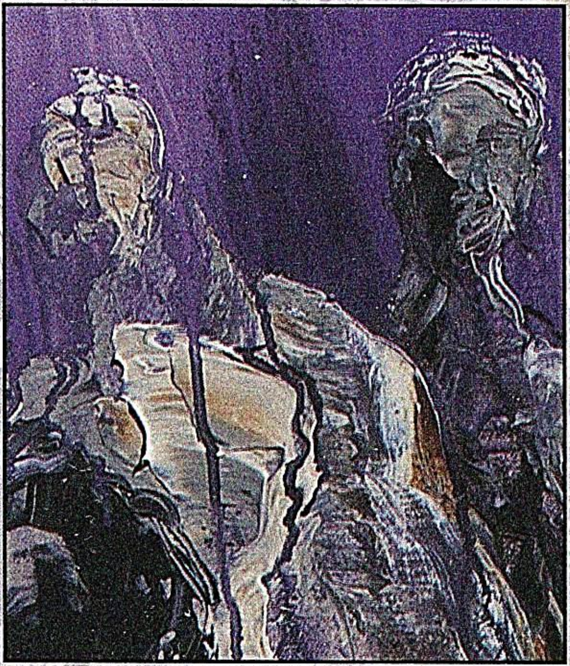
هنري ميلر

الوشيجة

الصلب الوردي «3»



ترجمة : خالد الجبيلي

الوشيجة

* هنري ميلر
* الوشيجة
* ترجمة: خالد الجبيلي

* الطبعة الأولى 2009
* الناشـــــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق، ص.ب: 30249، ☎ 5141441
الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان، ص. ب: 6435 ـ 113
☎00961 1 750054 ، فاكس: 00961 1 750053
* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
* لوحـــــة الغلاف: أحمد معلّا
* الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
* التوزيـــــــــع: دار ورد☎ 5141441 ص. ب 30249

هنري ميلر

الوشيجة

«الصلب الوردي ـ الجزء الثالث»

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

العنوان الأصلي للكتاب:

The Rosy Crucifixion

III. Nexus

1

عواء! عواء! عواء!

عواء في الليل. نباح، نباح. صراخي يشق عنان السماء لكن ما من مجيب. أصرخ لكن لا شيء يُسمع، حتى الصدى.

«ماذا تريد؟ شرق إكركسيس، أم شرق المسيح؟».

وحيد ـ مصاب بأكزيما الدماغ.

أصبح وحيداً في نهاية الأمر. ياله من شيء رائع! شيء لم أكن أتوقّعه. كم أتمنى أن أكون وحيداً مع الله!

نباح! نباح، نباح!

مغمض العينين، أستعيد صورتها. ها هي تطفو في الظلام، قناع ينشق من رذاذ الموج: فم تيلا ديوريو(*) يشبه القوس، ذو أسنان بيضاء مصفوفة بانتظام؛ عينان مظللتان بمجمّل الرموش، وجفنان لزجان زرقاوان يتلألآن، والشعر أسود كالأبنوس منسدل على الكتفين بوحشية. الممثلة القادمة من كارباثيانس ومن أسطح فيينا. مشرقة كزهرة تنبثق من أرض بروكلن المنبسطة.

نباح! نباح، نباح!

أصرخ، لكن صرختي تبدو للعالم وكأنها همسة.

(*) إشارة إلى زوجته جون مانسفيلد.

اسمي إسحاق داست. أحلّق في سماء دانتي الخامسة. ومثل ستريندبيرغ في هذيانه، أكرّر: «ماذا يهمّ؟ إن كان المرء الوحيد في هذا الكون، أم كان له منافس، ماذا يهمّ؟».

لماذا تخطر لي هذه الأسماء الغريبة بغتة؟ جميع الرفاق من المدرسة القديمة الغالية: مورتن شناديغ، وليام مارفين، إسرائيل سيغيل، برنارد بيستنير، لويس شنيدر، كلارينس دونوهو، وليام أوفيريند، جون كورز، بات ماكافري، وليام كورب، آرثر كونفيسسار، سالي ليبويز، فرانسيس غلانتي... لم يرفع أحدهم رأسه على الإطلاق. مشطوب من سجل الحسابات. مجروح كالأفاعي.

هل أنتم هناك يارفاق؟

لم يُحِرْ أحد جواباً.

هل هذا أنت، يا أغسطس الغالي، الذي يرفع رأسه في هذا الظلام؟ نعم، إنه ستريندبيرغ، ستريندبيرغ الذي يبرز من جبهته قرنان. الديوث بامتياز.

في زمن سعيد ـ متى؟ منذ متى؟ وعلى أيّ كوكب؟ كنت أتنقل من حائط إلى حائط أحيّي هذا وذاك، الأصدقاء القدامى جميعهم: ليون باكست، ويسلر، لوفيس كورينث، بريوجهيل غريت، بوتايسلي، بوش، غيوتو، سيمابو، بيرو ديلا فرانسيسكا، غرانيوالد، هولبين، لوكاس كراناتش، فان كوخ، وتريلو، غوغان، بيرانيسي، وتامارو، هوكوسي، هيروزهيغ وحائط المبكى، وكذلك غويا وتيرنر. كان لكلّ منهم شيء ثمين يريد أن يفضي به، وخاصة تيلا ديوريو، بشفتيها الشهوانيتين البارزتين الداكنتين مثل تويجات الورد.

الجدران جرداء الآن. حتى لو امتلأت بالتحف فلن أميّز شيئاً. الظلام حالك. ومثل بيزاك أعيش مع اللوحات الخيالية. حتى الإطارات خيالية.

إسحاق داست، ولد من التراب، وإلى التراب يعود. من التراب إلى التراب. أضف ملحقاً من أجل الأزمنة الغابرة.

ستاسيا، الشهيرة بهيجوروبورو، المعروفة باسم بيرثا فيليغري من بحيرة تاهوي تيتيكاكا وبلاط القياصرة الإمبراطوري، تقبع مؤقتاً في قسم المراقبة والفحص. لقد ذهبت إلى هناك بملء إرادتها، لتتأكد إن كان عقلها سليماً أم لا. شاول ينبح في هذيانه، ظناً منه أنه إسحاق داست. تحاصرنا الثلوج في غرفة نوم فيها مغسلة وأسرّة تتسع لشخصين. البرق يومض متقطعاً. الكونت بروجا، ذلك العزيز الألعوبة، يسترخي على طاولة المكتب وهو محاط بتماثيل من جاوة والتيبت. له نظرة خبيثة كنظرة مجنون يجرع زبدية من زيت الطهي. وباروكته، المصنوعة من الخيوط الأرجوانية، تعلوها قبعة صغيرة، على الطريقة البوهيمية مستوردة من غاليري دوفايل. وظهره يستند إلى بضع مجلدات مختارة كانت ستاسيا قد أودعتها في بيتنا قبل أن تنتقل إلى المصح العقلي، وقد كتب عليها من اليسار إلى اليمين: حفلات العربدة الإمبراطورية - دجل الفاتيكان - فصل في الجحيم - الحرمان الكنسي - بطل لزماننا - الإحساس المأساوي بالحياة - قاموس الشيطان - أغصان نوفمبر - ما بعد مبدأ المتعة - ليسيستراتا - ماريوس، الأبيقوري - الحمار الذهبي - جود الغامضة - الغريب المجهول - بيتر ويفل - الزهرة الصغيرة - فلويرفيرجينيبوس بويريسكوي - الجنية الصغيرة - ميزان الله - رحلات ماركو بولو - أغاني بيليتيس - الحياة المجهولة للسيد المسيح - تريسترام شاندي - الخزف الذهبي - بريوني الأسود - الجذر والزهرة.

ثغرة واحدة فقط: ماورائيات الجنس بقلم روزانوي.

أجد الفقرة التالية المكتوبة بخط يدها (مكتوبة على قطعة من ورق الصرّ الذي يستخدمه الجزّارون)، التي من الواضح أنها قد استلت من أحد المجلدات: «سيشكّل المفكّر الغريب ن. فيدروف،

الروسي القح، نموذجه الأصلي من الفوضوية، نموذجاً معادياً للدولة».

لو أني أريت هذه الفقرة لكرونسكي لهرع على الفور إلى مشفى المجانين، وأبرزها لهم كإثبات. إثبات على ماذا؟ إثبات بأن ستاسيا تتمتع بعقل سليم.

هل كان ذلك البارحة؟ نعم، البارحة، قرابة الساعة الرابعة صباحاً، وفيما كنت متجهاً إلى محطة قطار الأنفاق أبحث عن مونا، فمن أرى سوى مونا وصديقها المصارع جيم دريسكول يتمشيان بخطى وئيدة تحت الثلج الهاطل. كان سيخيّل إليك، إذا ما رأيتهما، أنهما يبحثان عن أزهار البنفسج في مرج ذهبي. كانا غير مكترثين للثلج أو للجليد، لا يعبآن بالإنفجارات القطبية القادمة من النهر، ولا توجد في قلبيهما ذرة خوف من الله أو من الإنسان. بل كانا يتمشّيان، يتضاحكان، يتحدثان، يدمدمان. طليقان مثل قبرات المروج.

اسمع، اسمع القبرة تغرد عند أبواب السماء!

تبعتهما قليلاً، وكدت أتأثر بعدم مبالاتهما المطلقة. ثم استدرت فجأة يساراً باتجاه شقّة أوسيكي. يجب أن أقول «غرفه». وكما هو متوقع، كانت الأنوار مضاءة، والبيانو الآلي يعزف بهدوء مقاطع مختارة من ألحان دي دوناني.

«أهلاً بك ايها القمل الجليل»، قلت لنفسي وواصلت سيري. وكانت غلالة من السحاب تصعد باتجاه قناة غووانوس. ربما كانت كتلة جليدية آخذة في الذوبان.

عندما وصلت إلى البيت، كانت تدهن وجهها بالكريم.

«أين كنت بحق السماء؟»، سألتها بطريقة تنم عن اتّهام.

«هل عدت منذ فترة طويلة؟» قالت محتجة.

«منذ ساعات».

«غريب. أقسم أني غادرت المنزل منذ عشرين دقيقة فقط. لعلي كنت أسير في نومي. إنه أمر مضحك، لكن خيّل لي أني رأيتكِ وجيم دريسكول تسيران وكان يتأبط ذراعك...».

«فال، لا بد أنك تهذي».

«لا، كنت سكراناً. أعني مهلوساً».

وضعت يداً باردة على حاجبي، تجسّ حرارتي. يبدو أن كلّ شيء على مايرام. إن ذلك يحيّرها. لماذا أخترع مثل هذه القصص؟ هل لأعذّبها فقط؟ أليس هناك ما يكفي من الأشياء التي تثير قلقنا، وستاسيا في مشفى المجانين، والإيجار متأخر عن الدفع؟ يجب عليّ أن أراعي الظروف أكثر.

أتوجه إلى ساعة المنبّه وأشير إلى العقارب. الساعة السادسة.

تقول: «أعرف».

«إذاً لست أنتِ من رأيتها منذ بضع دقائق».

تنظر إليّ كما لو كنت على وشك أن أصاب بالخرف.

أقول: «لا داعي للقلق يا عزيزتي. فقد كنت أحتسي الشمبانيا طوال الليل. أنا متأكّد الآن أنك لست أنتِ من رأيتها ـ بل كان جسدك الكوكبي». أتوقف برهة ثم أضيف: «على أية حال، ستاسيا في صحة جيدة. لقد تحدثت مطولاً مع أحد الأطباء المقيمين».

«أنت...؟».

«نعم، شعرت أن من واجبي أن أذهب وأطمئن على صحتها. لقد أحضرت لها قليلاً من نبيذ شارلوت روس».

«يجب أن تخلد إلى النوم يا فال، إنك منهك»، ثم أضافت «إذا أردت أن تعرف لماذا تأخرت كثيراً فإني سأقول لك. لقد غادرت ستاسيا للتو. كنت عندها منذ ثلاث ساعات تقريباً»، أخذت تضحك ـ أم أنها كانت تقوقئ؟ «سأحكي لك كل شيء غداً. إنها قصة طويلة».

ولدهشتها أجبت: «لا تكترثي للأمر، فقد سمعت كلّ شيء منذ لحظات».

أطفأنا النور وانسللنا إلى الفراش بهدوء. سمعتها وهي تضحك لنفسها.

وكبادرة مني متمنياً لها ليلة سعيدة همست: «بيرثا فيليغري من بحيرة تيتيكاكا».

في معظم الأحيان، بعد أن أكون قد أمضيت وقتاً في قراءة شبينجلر أو إلي فور، كنت أرتمي على السرير وأنا بكامل ثيابي، وبدلاً من التأمل في الثقافات القديمة، كنت أجد نفسي أتلمّس طريقي في عالم معقّد من الافتراءات. لا تستطيع ولا واحدة منهما قول الحقيقة، حتى عن مسألة تافهة كالذهاب إلى الحمّام. وقد اكتسبت ستاسيا، التي تتمتع بروح صادقة في جوهرها، هذه العادة لإرضاء مونا. وحتى في تلك الحكاية الخيالية كان فيها شيء من الحقيقة عن كونها لقيطة رومانوف. ولم تكن تعرف أنها تكذب كذباً صراحاً، كما هو شأن مونا. وعندما كان أحد يواجهها بالحقيقة، لم تكن تعتريها نوبة هستيرية، أو تغادر الغرفة وهي تتشدق بكلمات غير مفهومة. لا، بل ترتسم على وجهها ابتسامة عريضة، وتتحول شيئاً فشيئاً إلى ابتسامة سعيدة كالتي تراها على وجه طفل ملائكي. وتمر لحظات كنت أظن فيها أنه يمكنني أن أتفاهم مع ستاسيا. لكن ما أن أحسّ أنّ الوقت قد حان، حتى كانت مونا تنقض مثل حيوان يحمي شبله.

كانت إحدى أكثر الثغرات غرابة في أحاديثنا الحميمية، إذ تدور بيننا أحاديث طويلة بين الحين والآخر، مناقشات مخلصة على ما يبدو، تلك الثغرة العصية على التفسير، التي بوسعي أن أقول أنها تتعلق بالطفولة.

إن مسألة كيف كانتا تلعبان، وأين، ومع من، ما تزال لغزاً يكتنفه الغموض. إذ يبدو أنهما أصبحتا امرأتين من المهد مباشرة.

فلا تسمع أبداً عن صديق طفولة، أو قبرة رائعة تلعبان بها؛ ولم تأتيا مطلقاً على ذكر أي شارع كانتا تحبانه، أو حديقة تلعبان فيها، أو لعبة تتمتّعان بلعبها. وسألتهما بصريح العبارة: «هل تعرفان كيف تمارسان رياضة التزحلق؟ هل تعرفان السباحة؟ هل لعبتما jacks في حياتكما؟» نعم في الحقيقة، فبإمكانهما أن تفعلا كلّ هذه الأشياء بل وأكثر. لم لا؟ رغم أنهما لم تسمحا لنفسيهما بالعودة إلى الماضي على الإطلاق. ولم يحدث أن تذكرت أي منهما على نحو مفاجئ، كما يحدث أثناء الأحاديث الحيوية، تجربة غريبة أو رائعة ترتبط بطفولتهما. وكانت إحداهما تلمح بين الحين والآخر إلى أن ذراعها كُسرت ذات مرة، أو أن كاحلها خُلع، لكن أين ومتى؟ ولا أحد يعرف المحاولات الكثيرة التي كنت أبذلها لأعيدهما إلى الماضي بلطف، واستمالتهما، كما يقود المرء حصاناً إلى الإسطبل، لكن دون جدوى. فالتفاصيل تشعرهما بالملل. وكانتا تسألان ماذا يهمّ، متى أو أين حدث؟ حسناً، لنغيّر الموضوع! فأنتقل بالحديث إلى روسيا أو رومانيا، آملاً في أن أكشف بصيصاً من الاعتراف. وكنت أفعل ذلك بمهارة أيضاً، بادئاً بتاسمانيا أو باتاغونيا، وشيئاً فشيئاً أشقّ طريقي بشكل غير مباشر باتجاه روسيا، ورومانيا، وفيينا وبروكلن الجرداء. وكما لو أنه لم يكن ينتابهما أدنى شكّ بلعبتي، كانتا تبدآن أيضاً، وعلى نحو مفاجئ، بالتحدث عن أماكن غريبة، بما في ذلك روسيا ورومانيا، لكن كما لو أنهما تعيدان رواية شيء حكاه لهما شخص غريب، أو أنهما قرأتا ذلك في كتاب سياحي. بل حتى أن ستاسيا، الأكثر مكراً وحذاقة بعض الشيء، كانت تتظاهر بأنها تمنحني دليلاً أو إشارة. فقد تقرر مثلاً أن تروي لي حادثة تنتحلها من دوستويفسكي، شيئاً لم أعد أتذكره جيداً، إذ لا يمكنني أن أتذكر آلاف الأحداث التي يحتمل أن يكون دوستويفسكي قد حشرها في أعماله الضخمة. وكيف لا أكون متأكّداً بنفسي أنها لا تروي لي دوستويفسكي الأصلي؟ لأني أملك ذاكرة رائعة عن هالة الأشياء التي كنت قد قرأتها. ويستحيل عليّ ألا أميّز لمسة

دوستويفسكية زائفة. ولكي أخرجها من هذا الكذب أتظاهر بأني أتذكر الحادثة التي تحكيها، فأهزّ برأسي موافقاً وأضحك، وأصفّق بيديّ، لكني لا أشعرها أبداً بأنها تكذب. لكني كنت أذكّرها بين الحين والآخر، بروح اللعبة ذاتها، بشيء تافه تجاهلته أو شوهته أو اختلقته، بل حتى كنت أجادلها بإسهاب عن أحد التفاصيل التي ادعّت أنها روت الحادثة بصدق. وكانت مونا تجلس هناك طوال الوقت، تصيخ السمع، لا تعرف أين تكمن الحقيقة وأين يقع الكذب، لكنها كانت سعيدة لأننا نتحدّث عن معبودها، إلاهها، دوستويفسكي.

يا له من عالم ساحر، بهيج، عالم الأكاذيب والتزييف هذا، عندما لا يوجد شيء آخر يمكن عمله سوى الكذب، لا شيء يهدّد بالضياع. ألسنا رائعين، نحن الكذابين المرحين؟ وكانت مونا تقول أحياناً «ومن المؤسف حقاً أن دوستويفسكي نفسه ليس معنا!»، كما لو أنه هو الذي اختلق جميع هؤلاء المجانين، كلّ تلك المشاهد الجنونية التي يغرق فيها رواياته. أعني، أنه اختلقها لمتعته الخاصة، أو لأنه كان أحمق وكذاباً بطبيعته. ولم يخطر ببالهما أبداً أنهما كانتا الشخصيات «المجنونة» في كتاب تُدوّن فيه سيرة حياة بحبر سرّي.

ولهذا السبب، فليس من المستغرب أن جميع من تكنّ لهم مونا احتراماً، ذكوراً كانوا أم أناثاً هم «من فئة المجانين»، أو أن كلّ من تمقتهم هم «من الحمقى». ومع ذلك، عندما كانت تريد أن تمتدحني تنعتني بالحمق. «يالك من أحمق عزيز يا فال». وهي بالطبع تعني، في تقديرها على الأقل، أني رجل عظيم ومعقّد، مما يجعلني أنتمي إلى عالم دوستويفسكي. وعندما كانت تريد أن تعبّر عن شدة إعجابها بكتبي التي لم أكتبها بعد، كانت تذهب إلى حدّ القول بأني دوستويفسكي الثاني، لكن ينقصني للأسف أن تعتريني بين الحين والآخر نوبات الصرع التي ستمنحني حقاً المكانة الضرورية. لكن

ماكان يحدث لسوء الحظ، الشيء الذي يبطل ذلك السحر، هو أني كنت أنحدر وبسرعة كبيرة إلى مستوى «البورجوازي». بمعنى آخر، أصبح فضولياً أكثر من اللازم، بل وتافهاً أيضاً، وغير متسامح إلى درجة كبيرة. ففي رأي مونا، لم يكن دوستويفسكي يبدي أدنى اهتمام «بالحقائق» (إحدى الأشياء القريبة من الحقائق التي تجعل المرء يجفل أحياناً)، ولكي أصدقها، كان دوستويفسكي محلقاً في الغيوم على الدوام أو مدفوناً في أعماق الأرض. ولم يكن يبدى اهتماماً بالسباحة على السطح. إذ لم يكن يبدي أي اهتمام بالقفازات، أو بالأكمام المصنوعة من الفراء أو بالمعاطف. ولم يكن ينقّب في حقائب النساء بحثاً عن أسماء وعناوين. فهو لم يكن يعيش إلا في الخيال.

وهكذا كوّنت ستاسيا رأيها عن دوستويفسكي: أسلوب حياته وطريقته في العمل ورغم نزواتها كانت تقارب الحقيقة قليلاً. إذ كانت تعرف أن الدمى تُصنع من الخشب أو من الحشيات، وليس من «الخيال» فقط. ولم تكن واثقة تماماً أنه قد يكون لدوستويفسكي جانب «بورجوازي» أيضاً. فكلّ ما كانت تستمتع به في دوستويفسكي على نحو خاص هو العنصر الشيطاني. فالشيطان كان شيئاً حقيقياً بالنسبة له، وكذلك الشرّ. أما مونا، من الناحية الأخرى، فكان يبدو أنها متأثّرة بعنصر الشرّ في دوستويفسكي، الذي كان بالنسبة لها مجرد عنصر آخر من «خياله»، إذ لم يكن يخيفها شيء في الكتب. ولم يكن هناك شيء في الحياة يخيفها أيضاً. ولعلها لهذا السبب، كانت تمشي فوق النار ولا يصيبها مكروه. أما ستاسيا، فعندما ينتابها مزاج غريب، يصبح حتى تناول طعام الفطور محنة. فهي تملك أنفاً قادراً على أن يشتم الشرّ، ويمكنها أن تكتشفه في أي مكان. وكان الشيطان بالنسبة لستاسيا، كائناً كليّ الوجود يتربص بضحيته دائماً. لذلك كانت تحرص على وضع تعاويذ لتبعد قوى الشرّ عنها، وتؤدي إشارات خاصة عندما تدخل بيتاً غريباً، أو تردد تعويذات لطرد الأرواح بلغات غريبة، التي

كانت مونا تبتسم لها بتسامح شديد وتقول إنه من «الرائع» أن تكون ستاسيا بدائية جداً، تؤمن بالخرافات إلى درجة كبيرة. وتقول: «إنه العنصر السلافي فيها».

أما الآن، وبعد أن وضعت السلطات ستاسيا في رعاية مونا، أصبح يتعين علينا أن ننظر إلى الوضع بوضوح أشدّ، وأن نوفّر نمطاً من الحياة أكثر أماناً، وأكثر هدوءاً لهذا المخلوق المعقّد. ووفقاً لرواية مونا الحزينة، فقد أخرجت ستاسيا من المصحة بامتعاض وتردد شديدين. فلا يعرف إلا الشيطان ما قالته لهم عن صديقتها وعن نفسها. فعلى مدى أسابيع، وبمناورة مفعمة بالدهاء والحنكة، تمكنت من تجميع أشلاء الصورة المتقطعة التي صورّت فيها لقاءها مع الطبيب المسؤول. ولولم يكن لديّ شيء آخر يتعين عليّ أن أفعله، لقلت إن أفضل مكان ملائم لهما هو مشفى المجانين. ولحسن الحظ حصلت فجأة على نسخة أخرى من اللقاء من كرونسكي. ولا أعرف ما الذي أثار اهتمامه في هذه المسألة. فمما لا ريب فيه أن مونا هي التي أعطت اسمه للسلطات ـ مثلما أعطت اسم طبيب عائلة. ولعلها اتصلت به هاتفياً في منتصف الليل، ورجته وهي تشهق وتبكي، أن يفعل شيئاً من أجل صديقتها الحبيبة. لكن الشيء الذي لم تخبرني به، هو أن كرونسكي مَنْ سعى لإخراج ستاسيا من المصحة، لأنه لم يكن ثمة أحد يرعى ستاسيا، وأن كلمة منه (إلى السلطات) قد تكون حاسمة. وأنا أعتبر هذا الأمر شيئاً تافهاً. وربما كانت أجنحة المصحة تعج بالمرضى. وكنت قد عزمت على زيارة المصحة بنفسي ذات يوم جميل، لأقف على حقيقة ماحدث بنفسي. (للسجلّ فقط). لم أكن في عجلة من أمري. وقد انتابني شعور بأن الوضع الحالي لم يكن سوى مقدمة أو نذير بالأشياء القادمة.

في تلك الأثناء كنت أتوجه إلى حي الفيليج كلما شعرت بالرغبة

في ذلك. وكنت أجوب الفيليج مثل كلب ضالّ. وعندما كنت أقترب من عمود مصباح، أرفع ساقي الخلفية وأبول عليه. عواء، عواء! انبح!

وهكذا كنت أجد نفسي في معظم الأحيان أقف خارج حانة *القِدْر الحديدي*، عند السور المحيط بالبقعة الجرباء التي يصل عمق الثلج الأسود فيها حالياً حتى الركبتين، أراقب الغادين والرائحين. وكانت المنضدة بالقرب من النافذة هي المنضدة التي تجلس إليها مونا. أراقبها وهي تخب غادية رائحة في ضوء الشموع الناعم، تقدّم الطعام، والسيجارة لا تفارق شفتيها، وابتسامة عريضة ترتسم على وجهها، وهي تحيي زبائنها أو تأخذ طلباتهم. وكانت ستاسيا تأتي بين الحين والآخر وتجلس إلى المنضدة، وظهرها باتجاه النافذة دائماً، تسند مرفقيها على المنضدة، وتضع رأسها بين يديها. فهي لا تبرح مكانها هناك إلا بعد أن يغادر آخر زبون المكان، فتنضم إليها مونا. ومن القسمات المرتسمة على وجه مونا، يبدو أن المناقشة التي تدور بينهما حامية دائماً. وكانتا أحياناً تضحكان من قلبيهما حتى تنثنيان على نفسيهما. وإذا اقترب منهما شخص أثير لديهما، وهما في هذا المزاج الرائق، كانتا تصدانه وتبعدانه كما تنش الذباب عن القنينة.

ماهو ذاك الحديث الهام الذي يدور بين هذين المخلوقين العزيزين بهذا الاهتمام الشديد؟ والمضحك إلى حد لايطاق؟ أجبني وسأكتب لك تاريخ روسيا في جلسة واحدة.

وما أن أشعر بأنهما تتهيآن للمغادرة، حتى ألوذ بالفرار، وأهيم على وجهي، أتسكع ببطء يغمرني الحزن، أدخل في حارة تلو الأخرى حتى أصل إلى ساحة شريدان. وفي أحد أركان الساحة، المضاءة دائماً مثل حانة قديمة، كانت تقبع استراحة ميني دوتشيباغ. وكنت أعرف أن المطاف سينتهي بهما إلى هذا المكان في نهاية الأمر. وكان كلّ ما انتظره هو أن أتأكّد أنهما جلستا. ثم أنظر إلى ساعة الحائط، وأقدّر أنه بعد ساعتين أو ثلاث ساعات

ستعود إحداهن على الأقل إلى العرين. وكان من العزاء أن ألقي نظرة أخيرة باتجاههما، لأعرف أنهما كانتا محط رعاية واهتمام. ومن العزاء - يالها من كلمة - معرفة أنهما ستحظيان بحماية المخلوقات العزيزة التي فهمتهما جيداً وتسعى للاقتراب منهما. وكان من الممتع أيضاً أن أفكّر، عندما أصل إلى محطة قطار الأنفاق، أنه بتغيير طفيف لثيابهما، سيجد العالم الأنثروبولوجي بيرتيلون صعوبة في تحديد أيهما الفتى وأيهما الفتاة. فالفتيان على استعداد للموت دائماً في سبيل الفتيات - والعكس صحيح. فألا يذهبون جميعهم إلى المبولة الكريهة ذاتها التي يستخدمها كلّ شخص نقي ومحترم؟ كم كانوا مدللين حقاً، أحبة أعزاء. وكانت العوائق التي بإمكانهم أن يبتدعوها، رائعة، وكان كلّ واحد منهم، وخاصة الفتيان، فناناً بالفطرة. حتى تلك المخلوقات الصغيرة الخجولة التي كانت تختبئ في إحدى الزوايا وتقضم أظافرها.

هل اختلاطهما بهذه الأجواء التي سادها الحبّ والتفاهم المتبادلان هي التي جعلت ستاسيا تخرج بفكرة أن كلّ شيء لم يكن على ما يرام بيني وبين مونا؟ أم كان ذلك بسبب الضربات العنيفة التي أنهال بها عليهما في لحظات الصدق والحقيقة؟

«يجب ألا تتّهم مونا بأنها تخدعك وتكذب عليك»، قالت ذات مساء. عندما صادف وكنا وحدنا، لا يمكنني أن أتخيّل ذلك. ربما كانت تتوقّع أن تأتي مونا في أيّ لحظة.

«وبماذا تريدينى أن أتهمها؟» أجبت، متسائلاً عما سيحدث في ما بعد.

«إن مونا لا تكذب، وأنت تعرف ذلك. إنها تختلق، تحرّف، تلفّق... لأن ذلك يجعل الأشياء أكثر إثارة. إنها تظن أن حبك لها سيزداد عندما تعقّد لك الأمور. فهي تكنّ لك احتراماً كبيراً إلى درجة أنها لا تستطيع أن تكذب عليك حقاً».

لم أبذل أي جهد للرد عليها.

«ألا تعرف ذلك؟»، قالت، وقد ارتفع صوتها.

«بصراحة لا!» أجبت.

«أتقصد أنك تصدق كلّ تلك الحكايات الرائعة التي تحكيها لك؟»

«إذا كنتِ تقصدين أني أعتبر كلّ ذلك لعبة صغيرة بريئة، فلا».

«لكن لماذا تخدعك وهي تحبّك إلى هذه الدرجة؟ أنت تعرف أنك كلّ شيء في حياتها. نعم، كلّ شيء».

«ألهذا السبب تغارين مني؟».

«أغار؟ إني أستشيط غضباً لأنك تعاملها بهذه الطريقة، لأنك أعمى إلى هذه الدرجة، فظ وقاس...».

رفعت يدي. «إلى ماذا ترمين؟» سألتها. «ما قصدك من كل هذه اللعبة؟».

«اللعبة؟ اللعبة؟»، استوت واقفة ساخطة ومندهشة تماماً. ولم تكن تدرك أن أزرار فتحتها محلولة، وأن ذيل قميصها مدليّ.

قلت لها: «اجلسي. هيا خذي سيجارة أخرى».

رفضت أن تجلس، وأصرّت على أن تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً.

بدأت أقول: «الآن ماذا تريدين أن أصدّق، أن مونا تحبّني كثيراً، وتضطر لأن تكذب عليّ ليلاً ونهاراً؟ أم أنها تحبّكِ أنتِ كثيراً، وأنها لا تمتلك الشجاعة لأن تقول لي ذلك؟ أم أنك تحبّينها كثيراً إلى درجة أنك لا تقوين على رؤيتها حزينة؟ أو دعيني أسألك هذا أولاً - هل تعرفين ما معنى الحبّ؟ قولي لي، هل سبق لك وأن أحببتِ رجلاً؟ أعرف أنك كنتِ تمتلكين كلباً ذات يوم وكنتِ تحببينه، أو هذا ما قلته لي، وأعرف أنك مارستِ الحب مع الأشجار. أعرف أيضاً أنك تحببين أكثر مما تكرهين، لكن - هل تعرفين ما هو الحبّ؟ إذا التقيتِ بشخصين يحب أحدهما الآخر حباً جنونياً، فهل حبّك لأحدهما يزيد ذلك الحبّ أم يدمره؟ سأقولها بعبارة أخرى، لكي أوضّح لك الأمر

أكثر. إذا إعتبرتِ نفسك مجرد شيء مثير للشفقة، وأبدى لك شخص مودّة حقيقية، حباً حقيقياً، فهل يهمّك أن يكون ذلك الشخص ذكراً أم أنثى، متزوجاً أم عازباً؟ أقصد، هل ترضين أو هل يمكن أن تقبلي هذا الحبّ فقط؟ أم تريدينه لك كاملاً؟».

خيّم صمت. صمت ثقيل.

وتابعت قائلاً: «ما الذي يجعلك تظنين أنك جديرة بالحبّ؟ أو حتى أنك محبوبة؟ وإذا كنت تظنين أنك كذلك، فهل بمقدورك أن تقدمي الحبّ بالمقابل؟ اجلسي، لماذا لا تجلسين؟ أتعرفين، يمكننا حقاً أن ندير حديثاً مثيراً، فلعلنا نصل إلى نقطة ما. ربما نصل إلى الحقيقة. فأنا أريد أن أحاول». ألقت إليّ نظرة غريبة، وتابعتُ قائلاً: «تقولين إن مونا تظن أني أحبّ الكائنات المعقّدة. لكي أكون صادقاً تماماً معك، فأنا لست كذلك. أما بالنسبة لك الآن، فأنتِ كائن بسيط للغاية - أليس كذلك؟ شخص متكامل كما يقولون. شخص متصالح مع نفسه، ومع العالم العريض بأكمله إلى درجة أنك، للتأكيد على ذلك فقط، تسلّمين نفسك للعلاج. هل أنا قاسٍ جداً؟ هيا، اضحكي إن أردتِ. فالأشياء تبدو غريبة عندما تقلبينها رأساً على عقب. بالإضافة إلى ذلك، فأنت لم تذهبي إلى المصحة من تلقاء نفسك، أليس كذلك؟ هذه إحدى الأكاذيب التي اختلقتها مونا، ماذا! طبعاً فقد صدقت القصة بأكملها - لأني لم أرغب في أن أدّمر صداقة إحداكن للأخرى. والآن وبعد أن خرجتِ من المصحة، بفضل جهودي، فإنك تريدين أن تظهري لي امتنانك. أليس كذلك؟ لا تريدين أن تريني حزيناً، وخاصة عندما أعيش مع شخص بالقرب منك وعزيز عليك».

بدأت تقهقه رغم أنها وصلت إلى درجة كبيرة من الغضب.

«اسمعي، إن كنتِ سألتني عما إذا كنت أغار منكِ، فمع أني أكره أن أقرّ بذلك، فإني أقول نعم. ولا أخجل من الاعتراف بأنه يسيئني جداً أن أفكّر بأن شخصاً مثلكِ يمكن أن يجعلني أغار. فأنتِ لستِ من

ذلك النوع الذي أريد أن يكون منافساً لي. فأنا لم أعد أحبّ المخنثات، ولا أحبّ الأغبياء. أنا متحيّز، بورجوازي، إن أحببتِ. فأنا لم أحبّ كلباً في حياتي، لكني لم أكره كلباً أيضاً. لقد التقيت بحثالة الناس من الموهوبين، الأذكياء المسلّين، لكني يجب أن أقول إني لا أعير اهتماماً للعيش معهم. لا أتحدث عن الأخلاق هنا، بل أتحدث عن الأشياء التي أحبّها والتي لا أحبّها. بعض الأشياء تذكّرني بأني أسير في الطريق الخطأ. ومن المؤسف جداً، حتى نضع الأمور في نصابها، أن تشعر زوجتي بأنها منجذبة إليكِ بحماس. هذا يبدو شيئاً سخيفاً، أليس كذلك؟ يكاد يكون الأمر أدبياً. وما أقصد أن أقوله، أنه من الخزي أنها لم تتمكن من اختيار رجل حقيقي، إذا كان عليها أن تخونني، حتى لو كان شخصاً أحتقره. أما أنتِ... يا للخراء! فإن ذلك يتركني أعزلاً تماماً. أجفل لمجرد التفكير بأن شخصاً يقول لي ـ «ماذا دهاك؟»، لأنه لابد أن يكون ثمة خطأ مع رجل ـ على الأقل، هكذا يفكّر العالم ـ عندما تنجذب زوجته بقوة إلى امرأة أخرى. لقد بذلت ما بوسعي لكي أكتشف خطئي، إذا كان هناك أي خطأ، لكني لم أتوصل إلى معرفته. وإذا كان بإمكان امرأة أن تحبّ امرأة أخرى، بالإضافة إلى الرجل الذي ترتبط به، فلا يوجد ثمة خطأ في ذلك، أليس كذلك؟ ولا يمكن لأحد أن يلومها إذا كانت تتمتع بقدر كبير من المودّة، أليس كذلك؟ لكن لنفترض أني بصفتي زوج هذه المخلوقة الاستثنائية، فإن الشكوك تنتاب المرء في قدرة زوجته الاستثنائية على الحبّ، وماذا بعد؟ لنفترض أن للزوج سبباً كافياً يجعله يعتقد أن هذه الموهبة الاستثنائية للحبّ يشوبها مزيج من الكذب والحقيقة؟ فلكي تهيء زوجها، لتكيّفه، إذا جاز التعبير، فإنها تبذل ما بوسعها بمكر ودهاء لتسمم عقله، تلفّق أو تختلق أكثر الحكايات روعة، وجميعها بريئة بالطبع، عن تجارب مع صديقات قبل زواجها. ولا تعترف أبداً وبصراحة أنها نامت معهن، بل تشير إلي ذلك ضمناً، تدخل في عقله دائماً، أن الأمر قد يكون ذلك. وما أن يعتري الزوج... الذي هو أنا، بمعنى آخر... الخوف أو القلق، حتى

تنكر بشدة أيّ شيء من هذا القبيل، وتصرّ على أنه كوّن هذه الصورة من نسج خياله. هل تفهمين قصدي؟ أم أن الأمر يزداد تعقيداً؟».

جلست على حافة السرير وقد تجهم وجهها فجأة وراحت تنظر إليّ متفحصة. وبغتة افترت عن شفتيها ابتسامة، ابتسامة من النوع الشيطاني وصاحت: «هذه إذن لعبتك! إنك تريد الآن أن تسمّم عقلي!» وانفجرت الدموع من عينيها وراحت تجهش في البكاء.

وشاءت الأقدار أن تصل مونا ونحن في غمرة ذلك.

«ماذا تفعل لها؟» كان أول ما نطقت به. وطوقت ستاسيا المسكينة بذراعيها، وأخذت تمسّد شعرها، وتلاطفها بكلمات تهدئ من روعها.

يا له من مشهد مؤثّر. لكنه لم يكن صادقاً إلى درجة أن يحرّك مشاعري.

وكانت الخلاصة أنه يجب ألا تحاول ستاسيا أن تذهب إلى البيت، بل يجب أن تمضي الليلة معنا لكي ترتاح.

نظرت ستاسيا إليّ نظرة مليئة بالتساؤل.

قلت: «طبعاً، طبعاً، فلا يمكنني أن أسمح لكلب أن يخرج من البيت في ليلة كهذه».

كان الجزء الأكثر غرابة من هذا المشهد، عندما أتذكره، خروج ستاسيا برداء نوم رقيق شفاف. فقط لو أتمكن من إدخال أنبوب في فمها، لأصبح الأمر في غاية الروعة.

لنعد الآن إلى فيودور. فقد كانتا تثيران أعصابي أحياناً بالهراء الأبدي عن دوستويفسكي. ولم أدّعِ أنا نفسي أني أفهم دوستويفسكي، ليس كلّه، على أي حال. (مع أني أعرفه جيداً كما يعرف المرء شخصاً عزيزاً على قلبه). مع أني لم أقرأ جميع أعماله

حتى الآن. وكنت أفكّر دائماً بأن أترك الأجزاء الأخيرة حتى أقرؤها وأنا على فراش الموت. ولم أكن متأكّداً مثلاً، إن كنت قد قرأت كتابه «حلم الرجل السخيف» أو أني سمعت أحداً يتحدث عنه. ولست متأكداً أيضاً إن كنت أعرف من هو ماركيون، أو ما هي المركونية. ثمة أشياء كثيرة تتعلق بدوستويفسكي، كما هو شأن الحياة نفسها، ومما يسعدني أن أتركه لغزاً. فأنا أحبّ أن أفكّر بأن دوستويفسكي رجل محاط بهالة كتيمة من الألغاز. إذ لا يمكنني أن أتصوره مثلاً وهو يعتمر قبعة ـ كالقبعة التي قدمها سويدينبورغ إلى ملائكته كي تعتمرها. كما يفتنني دائماً أن أسمع ما يقوله الآخرون عنه، حتى عندما لا يكون لآرائهم أيّ معنى بالنسبة لي. في ذلك اليوم فقط عثرت بالمصادفة على ملاحظة كنت قد دوّنتها في دفتري. ربما كانت مأخوذة من بيرديايف، وهي: «بعد دوستويفسكي، لم يعد الإنسان هو نفسه كما كان من قبل». الفكرة سارّة لإنسانية مريضة.

أما بالنسبة لما تبقى، فمن المؤكد أنه لا يمكن لأحد سوى بيرديايف أن يكتب هذا الكلام: «لدوستويفسكي موقف معقّد من الشرّ. وقد يبدو أنه ضلّل. فمن ناحية، فإن الشرَّ شرٌ، ويجب كشفه وحرقه. أما من الناحية الأخرى، فإن الشرّ تجربة روحية للإنسان. إنه جزء من الإنسان. وفيما يواصل الإنسان طريقه، فقد تغنيه تجربة الشرّ، لكن من الضروري فهم هذا الأمر بالشكل الصحيح. فهو لا يقصد الشرّ نفسه، بل إن ما يعنيه هو تلك القوّة الروحية التي تنشأ فيه لتتغلّب على الشرّ. فالإنسان الذي يقول: «سأستسلم للشرّ حتى أغني روحي، فإنه لن يغنيها، بل يهلكها. لكن الشرّ هو الذي يضع حرية الإنسان على المحك...».

وها هنا اقتباس آخر (من بيرديايف أيضاً) لأنه يقرّبنا خطوة واحدة في السماء... «إن الكنيسة ليست مملكة الله، فقد ظهرت الكنيسة في التاريخ وعملت وفق التاريخ. إنها لا تعني أن هيئة العالم

قد تبدلت، وظهرت سماء وأرض جديدتان. إنّ مملكة الله هي التي تبدل شكل العالم، لا شكل الإنسان الفرد فقط، بل تبدّل كذلك هيئته الاجتماعية والكونية، وهذه نهاية هذا العالم، عالم الأخطاء والشناعة، وهو مبدأ عالم جديد، عالم الحقّ والجمال. فعندما قال دوستويفسكي إن الجمال ينقذ العالم فإنه كان يعني تبدل هيئة العالم وقدوم مملكة الله، وهذا الأمل الأخروي...».

وأقول متحدثاً بالأصالة عن نفسي إنه إن كانت لديّ آمال أخروية أو آمال أخرى، فإن دوستويفسكي قضى عليها. أو ربما كان عليّ أن أعدّل هذا بالقول إنه جعل هذه التطلّعات الثقافية التي نشأت بسبب تربيتي الغربية «تافهة». أما الجزء الآسيوي فيّ، باختصار، الجزء المنغولي، فقد بقي سليماً وسيبقى سليماً على الدوام. ولا علاقة لهذا الجانب المنغولي فيّ بالثقافة أو بالشخصية، بل إنه يمثّل الجذور التي تعود إلى سلالة نسب أبدية. وفي هذا الخزان الذي لا يُدرك قراره، ابتلعت جميع العناصر الفوضوية في طبيعتي الخاصة والتراث الأمريكي كما يبتلع المحيط الأنهار التي تصب فيه. ومن الغريب أني فهمت دوستويفسكي، أو بالأحرى شخصياته والمشاكل التي تكتنفها وتعذّبها، على نحو أفضل، لأني ولدت أمريكياً، لا أوروبياً. ويبدو لي أن اللغة الإنكليزية تعبّر عن آراء دوستويفسكي على نحو أفضل مما تعبّر عنه (إذا كان على المرء أن يقرأه مترجماً) اللغة الألمانية أو الفرنسية أو الإيطالية، أو أيّ لغة أخرى غير سلافية. ومن المفارقة أن للحياة الأمريكية، بدءاً من رجال العصابات والأشقياء وحتى المثقفين، علاقة كبيرة بحياة دوستويفسكي الروسية اليومية المتعددة الأوجه. فهل من حجة يمكن للمرء أن يسوقها لإثبات ذلك أكثر من مدينة نيويورك الكبيرة، التي يترعرع وينمو فوق ترابها كلّ خسيس ودنيء، ومعتوه كالأعشاب الضارة؟ وما على المرء إلا أن يفكّر بالشتاء هناك، وما يعني أن يكون المرء جائعاً، وحيداً، يائساً في تلك المتاهة من الطرق الرتيبة

التي تحف بها بيوت تكتظ بأناس رتيبين حشرت أدمغتهم بأفكار رتيبة. رتيبة وفي الوقت نفسه غير محدودة!

ومع أن الملايين منا لم يقرؤوا دوستويفسكي على الإطلاق، بل وحتى لا يعرفون كيف يلفظون اسمه، هناك، رغم ذلك، ملايين منهم، مثل أبطال دوستويفسكي، يعيشون الحياة «المجنونة» الغريبة ذاتها هنا في أمريكا، حيث عاشت مخلوقات دوستويفسكي في روسيا والتي كانت من بنات أفكاره ومخيلته. فإذا كانوا ما يزالون يعتبرون أنهم يمتلكون يوم البارحة وجوداً إنسانياً، فإن عالمهم سيمتلك في الغد شخصية وملامح تقع فريسة مشاكل وورطات أكثر من أيّ إنسان، أو من جميع مخلوقات الأدغال. إنهم يتحرّكون اليوم بجانبنا، ولا يفاجئون أحداً، على ما يبدو، ببسماتهم العتيقة. ويواصل بعضهم في الواقع دعواتهم ـ وعظ الإنجيل، إلباس الجثث، رعاية المجانين ـ تماماً كما لو أنّ شيئاً يحدث في كلّ لحظة. وهم لا يعرفون الحقيقة بأن «الإنسان لم يعد كما كان من قبل».

2

يا لتلك النشوة الرتيبة التي تتملكني عندما أسير عبر الشوارع في صبيحة يوم شتوي، عندما تكون القضبان الحديدية مجمّدة في الأرض، ويعلو الحليب في القنينة ليصبح على شكل جذع نبات الفطر. لنقل إنه يوم شديد البرودة، عندما لا تحدو أكثر الحيوانات غباء الرغبة في أن تدّس أنوفها خارج أوكارها. ولا يخطر ببال أحد أن يبادر شخصاً غريباً في مثل هذا اليوم ويطلب منه صَدَقة. في هذا البرد القارس، والرياح الجليدية تصفر في الشوارع الكئيبة التي تخترقها الأخاديد، لن ترى شخصاً عاقلاً يقف لفترة طويلة يدس يده في جيبه يبحث عن قطع معدنية. ففي صباح كهذا، صباح يصفه صاحب المصرف الذي يعيش حياة ملؤها النعيم بأنه «يوم رائق ونشيط»، لا يحق للشحاذ أن يكون جائعاً أو أن يكون بحاجة إلى أجرة سيارة. فقد خلق الشحاذون للأيام المشمسة الدافئة فقط، حيث يتوقف، حتى الأشخاص ذوو الطباع السادية، لرمي بضع فتات للطيور.

في يوم كهذا، أجمع عدداً من عينات الأقمشة، وأنطلق لزيارة أحد زبائن أبي، مع أني أعرف سلفاً أنه لن يسجل أي طلب، لكن ماكان يدفعني إلى زيارته شوق عارم للدخول في حديث معه.

كان هناك شخص واحد أحرص على زيارته دائماً في مثل هذه المناسبات، لأن اليوم قد ينتهي معه، وعادة لم يكن ينتهي بطريقة

تخطر على بال. وينبغي أن أضيف أن هذا الشخص نادراً ما طلب بدلة، وإذا ما فعل ذلك، فكان تسديد ثمنها يستغرق سنوات وسنوات. ومع ذلك، كان زبوناً. وكنت أدّعي لأبي أني ذاهب لزيارة جون ستيمير لأقنعه بشراء بدلة كاملة، لأننا كنا نظن أنه سيحتاج إليها في نهاية الأمر. (إذ لم يكفّ ستيمير هذا عن تذكيرنا بأنه سيصبح قاضياً ذات يوم).

أما الشيء الذي لم أبح به لأبي، فهو طبيعة الأحاديث التي كنت أتبادلها مع هذا الرجل عادة، والتي لم يكن لها علاقة بالثياب.

«مرحبا! لماذا تريد أن تراني؟».

فقد دأب على استقبالي بهذه الطريقة.

«لا بد أن تكون معتوهاً إن كنت تظن أني أحتاج إلى مزيد من الثياب. فأنا لم أسدد لك بعد ثمن البدلة الأخيرة التي اشتريتها منك، أليس كذلك؟ متى كان ذلك، منذ خمس سنوات؟».

لم يكد يرفع رأسه من بين كتلة الأوراق التي كان أنفه يغوص فيها. وثمة رائحة كريهة تعبق في المكتب، بسبب عادته المستمرة في الضراط حتى بحضور كاتب الاختزال الذي يعمل عنده. وكان كذلك لا يكفّ عن نكش أنفه بإصبعه. وإلا لبدا - أعني ظاهرياً - مثل أي شخص آخر، محام، مثل أيّ محام آخر.

كان رأسه مايزال يغوص في متاهة من الوثائق القانونية عندما قال مزقزقاً: «ماذا تقرأ هذه الأيام؟» وقبل أن أجيبه أضاف: «هل تستطيع أن تنتظرني في الخارج بضع دقائق؟ فأنا في حيرة من أمري. لكن لا تهرب... أريد أن أدردش معك». وفي اللحظة التي قال فيها ذلك دسّ يده في جيبه وأخرج ورقة من فئة الدولار وقال: «هيا، اشتر لنفسك قهوة خلال انتظارك. وعد بعد ساعة أو ما يقارب ذلك... فسنتناول الغداء معاً».

وكان في غرفة الانتظار ستة زبائن ينتظرون بفارغ الصبر

الفرصة لأن يستمع إليهم. وكان يطلب من كلّ واحد منهم أن ينتظر أكثر قليلاً. وكانوا ينتظرونه هناك أحياناً طوال النهار.

في طريقي إلى المطعم صرفت ورقة الدولار إلى قطع معدنية صغيرة لأشتري صحيفة. فقد كان إلقاء نظرة على الأخبار يمنحني دائماً ذلك الشعور اللاحسّي بأني أنتمي إلى كوكب آخر. كما كنت بحاجة لأن أستجمع كلّ قواي حتى أواجه جون ستيمير.

وفيما كنت أتصفح الجريدة، رحت أفكّر بمشكلة ستيمير الكبيرة وهي الاستمناء. إذ كان يبذل محاولات كبيرة للتخلي عن هذه العادة الشريرة منذ سنوات عديدة. وتذكرت شذرات من حديثنا الأخير. كما تذكرت جيداً كيف اقترحت عليه أن يذهب إلى ماخور جيد ـ وعلامات الاستياء التي ارتسمت على وجهه عندما عرضت عليه هذا الاقتراح. «ماذا! أنا، رجل متزوج أذهب لأضاجع عاهرات قذرات؟» وكان الشيء الوحيد الذي خطر لي أن أقوله له هو: «لسن جميعهن قذرات!».

أما الشيء المثير للشفقة، بما أني أذكر ذلك الآن، فقد كان الطريقة الحازمة المتضرعة التي قالها لي ونحن نودع بعضنا، بأن أخبره إن فكّرت بأيّ شيء يمكن أن يساعده في حلّ مشكلته. «لننتهِ من هذا الموضوع!»، أردت أن أقول له.

انقضت ساعة. والساعة بالنسبة له مثل خمس دقائق. نهضت أخيراً واتجهت نحو الباب. كان الجو في الخارج شديد البرودة، لدرجة أني شعرت بالرغبة في أن أجري.

ولدهشتي كان هناك بانتظاري. كان جالساً ويداه مضمومتان تستندان إلى سطح المكتب، وعيناه مثبّتتان في نقطة ما في اللانهاية. وكانت رزمة العيّنات التي تركتها على منضدته مفتوحة. قال إنه قرّر أن يطلب بدلة.

قال: «لست مستعجلاً، فأنا لست بحاجة إلى أية ملابس جديدة».

«إذن لا تشتريها. فأنت تعرف أني لم آت إلى هنا لأبيعك بدلة».

قال: «كما تعرف، أنت الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أخوض معه في حديث حقيقي. ففي كلّ مرّة أراك فيها أستفيض في الحديث... ماذا في جعبتك هذه المرة لتقترحه عليّ؟ أعني في مايتعلق بالأدب. وهذا الأخير، هل كان اسمه أوبلوموف؟ لم يعجبني كثيراً».

توقّف، لا ليسمع ما سأقوله رداً على كلامه، بل ليستعد كي ينطلق بزخم أكبر.

«منذ أن زرتني آخر مرة وأنا أعيش في علاقة غرامية. هل يفاجئك هذا؟ نعم، صبيّة، في ريعان الشباب، وشبقة حتى النخاع. إنها تمتص كلّ ما في طاقتي. لكن ما يزعجني هو زوجتي. فالطريقة التي تعاملني بها تعذّبني. تجعلني أريد أن أخرج من جلدي».

وعندما ارتسمت على وجهي ابتسامة عريضة أضاف: «ليس الأمر مضحكاً كثيراً، دعني أحكي لك».

رنّ جرس الهاتف. أخذ يصغي باهتمام. ثم، وبعد حديث لم يقل فيه شيئاً سوى نعم ولا، صاح فجأة في مبسم الهاتف: «لا أريد شيئاً من أموالك القذرة. دع شخصاً آخر يدافع عنه».

«تصوّر إنه يحاول أن يرشوني»، قال وخبط سماعة الهاتف. «ومن؟ قاض، ورجل مهم أيضاً». وهنا تمخّط بقوة. «حسناً، أين كنا؟» استوى واقفاً وقال: «ما رأيك بقليل من الطعام؟ نستطيع أن نتكلّم على نحو أفضل ونحن نتناول الطعام ونحتسي النبيذ، ألا تظن ذلك؟».

أوقفنا سيارة أجرة أقلتنا إلى حانة إيطالية يرتادها كثيراً. كانت مريحة ودافئة، تعبق فيها بشدة رائحة النبيذ ونشارة الخشب والجبن. وكانت شبه مهجورة أيضاً.

بعد أن طلب الطعام قال: «لا أظن أنك تمانع إن حدثتك عن

نفسي، أليس كذلك؟ هذه هي نقطة ضعفي، كما أظن. وحتى عندما أقرأ، حتى لو كان كتاباً جيداً، فلا يمكنني إلا أن أفكّر بنفسي، بمشاكلي. لا لأني أعتقد بأني شخص مهم للغاية، أظنك تفهم قصدي. أنا مجرد رجل مهووس، هذا كلّ ما في الأمر».

ثم أردف قائلاً: «وأنت مهووس أيضاً، لكن بشكل صحي. فأنا كما ترى مستغرق في عملي وفي نفسي، كما أني أكره نفسي. أبغض نفسي بغضاً حقيقياً، انتبه. لا يعتريني هذا الإحساس بوجود شخص آخر. فأنا أعرف نفسي جيداً، وإن فكرة من أنا، وكيف يجب أن أبدو أمام الآخرين، تثير فزعي. لديّ ميزة جيدة واحدة فقط وهي أني صادق. وليس لي فضل في هذا أيضاً... إنها ميّزة فطرية تماماً. نعم، فأنا صادق مع عملائي - وصادق مع نفسي».

قاطعته قائلاً: «قد تكون صادقاً مع نفسك كما تقول، لكن من الأفضل أن تكون كريماً أكثر. أقصد مع نفسك. فإذا لم يكن بوسعك أن تعامل نفسك باحترام، فكيف تتوقّع أن يعاملك الناس باحترام؟»

فأجاب على الفور: «ليس من طبيعتي أن تخطر لي مثل هذه الأفكار»، ثم أضاف: «إنني متدين متشدد منذ أمد بعيد. ومن المؤكد أني رجل منحطّ. لكن المشكلة هي أني لست منحطّاً بما يكفي. أتذّكر أنك سألتني ذات مرة إن كنت قد قرأت المركيز دي ساد؟ حسناً، لقد حاولت، لكنه كان يضجرني حتى الموت. ربما كان ذوقه فرنسياً إلى درجة تجعله لا يروق لي. لا أعرف لماذا يسمونه المركيز الإلهي، أليس كذلك؟».

كنا قد انتهينا من احتساء نبيذ تشيانتي، وغرقنا حتى أذنينا في السباغيتي. إن للنبيذ تأثيراً يجعلك رشيقاً مطواعاً. وكان باستطاعته أن يجرع كمية كبيرة دون أن يثمل. وفي الحقيقة، هذه إحدى مشاكله الأخرى - عدم قدرته على أن يفقد أحاسيسه، حتى بتأثير الشراب.

وكما لو أنه حدس ما يدور بخلدي، بدأ يقول إنه رجل يؤمن

بالعقل إيماناً مطلقاً إلى درجة أنه يستطيع أن يجعل قضيبه يفكّر. «أتضحك ثانية. لكنه شيء مأساوي. فالفتاة التي حدثتك عنها منذ قليل ـ تظن أني مضاجِع ممتاز، لا، فأنا لست كذلك. أما هي فمضاجِعة شبقة. إنها تعرف كيف تضاجع حقاً، أما أنا فإني أضاجعها بدماغي. أضاجعها كما لو كنت أجري استجواباً، لكن بقضيبي لا بعقلي. يبدو الأمر محض جنون لك، أليس كذلك؟ إنه بالفعل كذلك. لأني كلما مارست الجنس أكثر ازداد تركيزي على نفسي. وبين فترة وأخرى ـ وأنا معها ـ أسترد وعيي، وأسأل نفسي من هو ذلك الشخص القابع في الطرف الآخر. لا بد أنه الشعور بالغثيان بعد السكر بسبب الاستمناء. أنت تفهم ما أقصده، أليس كذلك؟ فبدلاً من أن أضاجعها أنا نفسي، يقوم شخص آخر بذلك نيابة عني. هذا أفضل من الاستمناء، لأنك تصبح أكثر تجرداً. وبالطبع، كانت الفتاة تمضي وقتاً ممتعاً. فبإمكانها أن تفعل لي ما يحلو لها. وهذا ما يدغدغ مشاعرها... يثيرها. لكن الشيء الذي لا تعرفه ـ وربما يثير مخاوفها إن أخبرتها بذلك ـ هو أني لا أكون معها. لا بد أنك تعرف عبارة «كلي آذان صاغية». حسناً، أما أنا فكلي عقل متيقظ. عقل يتصل به قضيب، إذا كان بوسعك أن تصوغها بهذه الطريقة... بالمناسبة، أريد أن أسألك كيف تشعر عندما تفعلها أنت... ردود أفعالك... وكلّ ما يتعلق بذلك. أعرف أن هذا لا يهم كثيراً. بل من باب الفضول».

وفجأة غيّر الموضوع. أراد أن يعرف إن كنت قد كتبت شيئاً حتى الآن. وعندما قلت لا، أجاب: «إنك تكتب، لكنك لا تدرك ذلك. إذ إنك لا تتوقف عن الكتابة، بيد أنك لا تدرك ذلك؟».

فقلت مستغرباً هذه الملاحظة الغريبة: «هل تقصدني أنا ـ أم تقصد الجميع؟».

«بالطبع لا أقصد الجميع! أقصدك أنت». وازداد صوته حدة وشراسة. «قلت لي ذات مرة إنك تريد أن تكتب. حسناً، متى تتوقع أن

تبدأ؟» وهنا توقّف ليتناول لقمة كبيرة من الطعام. ثم تابع كلامه وهو مايزال يزدرد لقمته: «لماذا تظن أني أحدثك بهذه الطريقة؟ لأنك مستمع جيد؟ فأنا أبوح لك بما يجيش في صدري لأني أعرف أنك غير مهتم كثيراً. ليس أنا، جون ستيمير، الذي يثير اهتمامك، بل ما يهمك هو ما أخبرك به، أو الطريقة التي أخبرك فيها. أما أنا فمهتمّ بك شخصياً، وهذا شيء مؤكد. وهناك فرق شاسع».

أخذ يمضغ لقمته بصمت.

ثم واصل كلامه: «تكاد تكون معقّداً مثلي، وأنت تعرف هذا، أليس كذلك؟ إن الفضول يدفعني لأن أعرف ما الذي يجعل الناس يتصرفون كما يفعلون، وخاصة أشخاص من أمثالك. لاتقلق فلن أسبر أغوارك لأني أعرف سلفاً أنك لن تعطيني أجوبة صحيحة. أنت ملاكم وهمي. أما أنا فمحام، وأتعامل بالقضايا. أما أنت، فلا أستطيع أن أتصوّر الشيء الذي تتعامل به مالم تفصح لي عن ذلك».

وهنا لم ينبس بكلمة، سعيداً بالبلع والمضغ، ثم قال: «كان لديّ سبب وجيه عندما دعوتك لمرافقتي بعد ظهر اليوم. فأنا لن أعود إلى المكتب. سأذهب لزيارة الفتاة التي حدثتك عنها. لماذا لا تأتي معي؟ فهي جذابة، والتحدث إليها ممتع. أريد أن أرى ردود فعلك». توقف لحظة ليرى كيف سأتلقى هذا الاقتراح، ثم أضاف: «هي تقيم في لونغ آيلاند. صحيح أنها مسافة بعيدة بعض الشيء، لكن الأمر جدير بذلك. سنأخذ معنا شيئاً من النبيذ وقليلاً من مشروب ستريغا. فهي تحبّ المشروبات الروحية. ما قولك؟».

وافقت. مشينا نحو المرآب حيث يركن سيارته. واستغرق إزالة الجليد عنها بعض الوقت. وما أن قطعنا مسافة قليلة، حتى بدأ يظهر عطل تلو الآخر. ولا بد أن التوقّف المتكرر عند محلات التصليح جعلنا نخرج من حدود المدينة بعد حوالى ثلاث ساعات، تجمّدت خلالها أوصالنا تماماً. كان مايزال أمامنا ستون ميلاً حتى نصل إلى بيتها، وبدأ ظلام دامس يخيم.

وما أن أصبحنا على الطريق السريع، حتى توقفنا عدّة مرات لنتدفأ. وبدا أنه معروف في جميع الأماكن التي توقفنا فيها، وكنا دائماً نُعامل باحترام. وكان يشرح لي وهو يقود السيارة كيف صادق هذا وذاك. وقال «أنا لا أقبل قضية أبداً إن لم أكن واثقاً من أني سأربحها».

حاولت أن أستجره ليتحدث عن الفتاة، لكن عقله كان مركزاً على أشياء أخرى. ومن الغرابة أن الموضوع الذي كان يشغل باله الآن هو الخلود. فهو يريد أن يعرف مغزى يوم القيامة، إذا مافقد المرء شخصيته عند الموت؟ وكان على قناعة بأن حياة واحدة فترة قصيرة جداً بالنسبة للمرء ولا تكفيه ليحلّ مشاكله، وقال: «لم أبدأ حياتي بعد، وقد شارفت على الخمسين من عمري. يجب على المرء أن يعيش مائة وخمسين سنة أو مئتي سنة لكي يتمكن من تحقيق شيء. إذ لا تنتهي مشاكل المرء الحقيقية إلا بعد أن ينتهي من الجنس ومن جميع الصعوبات المادية. فعندما كنت في الخامسة والعشرين كنت أظن أني أعرف كلّ شيء. أما الآن فأنا أشعر أني لاأعرف شيئاً عن أيّ شيء. فها نحن ذاهبان الآن للقاء فتاة صغيرة شبقة. فماذا يعني ذلك؟» أشعل سيجارة، وأخذ منها نفساً أو نفسين ثم رماها. وفي اللحظة التالية استل سيجاراً غليظاً من جيب صدره.

«أنت تريد أن تعرف شيئاً عنها. لكني سأخبرك بهذا أولاً ـ فلو كنت أمتلك الشجاعة الكافية لاختطفتها وأخذتها إلى المكسيك. لا أعرف ماذا سأفعل هناك. أظنني سأبدأ من البداية مرة أخرى. لكني لا أمتلك الشجاعة للقيام بذلك... فأنا في واقع الحال جبان من الناحية الأخلاقية. كما أني أعرف أنها تخونني. ففي كلّ مرّة أتركها أتساءل من سيكون معها في السرير ما أن أغيب عن نظرها. هذا لا يعني أني أغار ـ بل إني أكره أن أُخان، هذا كلّ ما في الأمر. طبعاً أنا أبله. فأنا أحمق في كلّ شيء سوى القانون».

أخذ يقود سيارته بهذا الشكل لفترة من الزمن. واتضح لي أنه

كان يحبّ أن يقلل من قدر نفسه. كنت قد استرخيت في مقعدي ورحت أنصت إليه.

وبدأ الآن موضوعاً جديداً. «هل تعرف لماذا لم أصبح كاتباً؟».

«لا»، أجبت، مستغرباً من أن تخطر بباله هذه الفكرة.

«تبين لي أنه لا يوجد لديّ ما أقوله. باختصار شديد فأنا لم أعش حياتي. لم أجازف بشيء، لم أكسب شيئاً. ما هو ذلك القول الشرقي؟ «الخوف هو ألا تبذر كي لا تلتقطها الطيور». وهذا ينطبق عليّ تماماً. فلدى جميع الروس المجانين الذين تعطيني كتبهم لأقرأها، خبرة في الحياة، حتى لو لم يغادروا المكان الذي ولدوا فيه. فلكي تحدث الأشياء، يجب أن يكون ثمة مناخ ملائم. وإذا لم يتوافر المناخ، فيجب أن تهيئه أنت بنفسك. هذا إن كنت عبقرياً. أما أنا فلم أبدع شيئاً. فأنا ألعب اللعبة، وألعبها حسب الأصول والقواعد. والجواب عن ذلك، إن كنت لا تعرفه، هو الموت. نعم، فأنا كالميت. لكن اسمع هذا الآن: فكلما كنت ميتاً أكثر أضاجع بشكل أفضل. تخيّل ذلك إن كان بوسعك أن تتخيل! ففي آخر مرّة نمت فيها معها، فقط لأعطيك مثالاً على ذلك، لم أخلع ثيابي. بل ضاجعتها وأنا أرتدي معطفي وحذائي وكلّ شيء. وقد بدا لي ذلك أمراً طبيعياً جداً، حسب الحالة العقلية التي كنت فيها، وهي لم تشعر بالضيق من ذلك. كما قلت لك، صعدنا إلى الفراش وأنا في كامل ثيابي وقلت: «لماذا لا نستلقى هنا ونمارس الجنس حتى الموت؟» فكرة غريبة، أليس كذلك؟ وخاصة أنها تصدر من محام موقر وعنده عائلة وكلّ ذلك. لكني ما كدت أتفوه بهذه الكلمات حتى قلت لنفسي: «أيها الأحمق! إنك ميت الآن. فلماذا تتظاهر؟ ما رأيك بهذا؟ أقصد أني ضاجعتها بكلّ جوارحي».

هنا ألقيت ملاحظة استفزازية. فسألته إن تصوّر ذات مرة أن له قضيب... ويستخدمه... في الآخرة؟

«هل تصوّرت؟» صاح، «هذا ما يؤرقني هذه الفكرة بالذات.

فأنا لا أحبّ أن أعيش إلى الأبد بقضيب كبير معلّق من دماغي. ولا أريد أيضاً أن أعيش حياة ملاك. أريد أن أكون أنا نفسي، جون ستيمير، بكلّ مشاكلي اللعينة. أحتاج إلى وقت لأتمعّن في الأشياء... ألف سنة أو أكثر. يبدو هذا ضرب من الجنون، أليس كذلك؟ لكني مجبول هكذا. كان لدى المركيز دي ساد وقت كثير. ويجب أن أعترف أنه كان يفكر بأشياء كثيرة، لكني لا أستطيع ان أوافقه على ما خلص إليه. لكن ما أريد ان أقوله هو - ليس من الفظاعة أن تمضي حياتك في السجن. إن كنت تملك عقلاً نشيطاً. لكن الشيء الفظيع هو أن تجعل من نفسك سجيناً. وهذا ما يفعله معظمنا - سجناء أنفسنا. ولا يكاد يوجد اثنا عشر شخصاً في كل جيل يمكنهم أن يخرجوا من هذه الدائرة. فما أن تكون قادراً على رؤية الحياة بعين واضحة حتى يتبين لك أنها عبارة عن مهزلة برمتها. مهزلة كبيرة. تصوّر رجلاً يهدر حياته وهو يدافع عن الآخرين أو يدينهم. القانون جنون مطلق. فبوجود القوانين الجميع متساوون، ولا يوجد أحد أفضل من الآخر بمقدار ذرّة. لا، إنها لعبة الأغبياء، إذ يتم تبجيلها وتقديرها بإعطائها اسماً طناناً فخماً. فقد أجد نفسي غداً أجلس على المنصة. قاض، لا أقل من ذلك. سأفكر بنفسي بعد أن أصبح قاضياً؟ هل سأقدر على أن أغيّر شيئاً؟ ليس في حياتك هذه. سألعب اللعبة مرة أخرى... لعبة القضاة. لهذا أقول لقد طفح الكيل بنا منذ البداية. وأنا أدرك جيداً الحقيقة القائلة بأنّ لكل منا دوراً يؤديه، وأن كلّ ما يمكن للمرء أن يفعله، على سبيل الافتراض، هو أن يؤدي دوره بقدر إمكانه. أما أنا فلا أحبّ دوري. إن فكرة أن أؤدي دوراً لا تستهويني. حتى لو كان ثمة تبادل للأدوار. هل تفهم ما أقصده؟ أظن أنه يوجد لدينا في هذا الزمن صفقة جديدة، بنية جديدة. فعلى المحاكم أن تذهب، وعلى القوانين أن تذهب، وعلى الشرطة أن تذهب، وعلى السجون أن تذهب. إنه محض جنون، وهذا ما يجعلني أفقد صوابي. وأنت كذلك، لا أعرف إن كنت ترى الأمور

بالطريقة التي أراها فيها»، توقّف فجأة، وأخذ يتفتف ويبصق كالمفرقعات النارية.

بعد برهة من الصمت قال لي إننا على وشك أن نصل إلى بيتها. «تذكّر، تصرف كما لو كنت في بيتك. افعل أيّ شيء، قل أيّ شيء يحلو لك. فلن يوقفك أحد. إذا أردت أن تنالها فافعل، فليس لديّ مانع. لكن لا تعتد على ذلك!».

كان الظلام يغلّف البيت عندما دلفنا بالسيارة إلى ممر حديقة المنزل. كانت هناك رسالة مثبتة على طاولة غرفة الطعام. من بِل، المضاجِعة الرائعة. لقد ملّت من انتظارنا، وقالت إنها حسبت أننا لن نأتي، وما إلى ذلك.

«أين هي إذاً؟» سألت.

«ربما ذهبت إلى المدينة لتمضي الليلة مع أحد الأصدقاء».

يمكنني أن أقول إنه لم يبد انزعاجاً كبيراً. فبعد بضع همهمات... «هذه الكلبة» و «تلك الكلبة...» توجه نحو الثلاجة ليرى إن كانت هناك بقايا طعام.

قال: «من الأفضل أن نمكث هنا الليلة. أرى أنها تركت لنا قليلاً من الفاصولياء المعلبة ولحم الخنزير البارد. هل يقيم ذلك أودك؟»

وفيما كنا نجهز على آخر لقيمات من الطعام قال لي إنه توجد غرفة مريحة في الطابق العلوي وفيها سرير يتسع لشخصين، وأضاف «يمكننا الآن أن نتحدث براحتنا».

كنت أرغب في السقوط على السرير، لكني لم أكن مستعداً للدخول في حديث من القلب إلى القلب. أما ستيمير، فقد بدا أن لا شيء يمكن أن يخفف من غلواء ماكينة عقله، لا الصقيع ولا الشراب، ولا حتى الإعياء نفسه.

كنت سأغط في نوم عميق ما أن أضع رأسي على الوسادة، مالم يفتح ستيمير النار بطريقته. وفجأة أصبحت يقظاً تماماً كما لو كنت

قد تناولت جرعة مضاعفة من البنزدرين. فقد حركت مشاعري كلماته الأولى التي راح ينطقها بثبات، وبنبرة متوازنة.

«ألاحظ أن لا شيء يفاجئك كثيراً. حسناً، خذ هذا...».

وهكذا بدأ.

«إن ما يجعلني محامياً ناجحاً هو وجود شيء فيّ من طباع المجرم. ولا أظن أنك تتخيل أني قادر على أن أخطط لجريمة قتل، أليس كذلك؟ لا، بمقدوري أن أفعل ذلك. فقد قرّرت أن أتخلص من زوجتي. كيف، لا أعرف حتى الآن. وهذا ليس بسبب بِل أيضاً. بل، لأنها كانت تضجرني حتى الموت، ولم أعد قادراً على تحملها. فمنذ عشرين سنة لم أسمع منها كلمة واحدة تنم عن ذكاء. أوصلتني إلى حافة الجنون، وهي تعرف ذلك. إنها تعرف كلّ شيء عن بِل؛ وليس في الأمر سرّ. وكلّ ما يهمها هو أن لا يتسرّب هذا الخبر. إنها زوجتي، لعنة الله عليها! هي التي جعلتني أستمني. لقد ضقت ذرعاً بها، منذ البداية تقريباً، إلى درجة أن مجرد فكرة النوم معها كانت تسبب لي الغثيان. صحيح أنه كان بإمكاني أن أطلقها، لكن لماذا أقوم بإعالة كتلة من الطين بقية حياتي؟ ومنذ أن وقعت في غرام بِل، أتيحت لي فرصة التفكير والتخطيط قليلاً. وكان هدفي الوحيد أن أغادر هذا البلد، وأذهب إلى مكان بعيد، وأبدأ حياتي من جديد. كيف، لا أعرف. إنني بالتأكيد لن أعمل في مهنة المحاماة، بل أريد العزلة وأن أعمل بأقل قدر ممكن».

أخذ نفساً. لم أبدِ أي تعليق. ولم يتوقع مني ذلك.

«ولكي أكون صريحاً معك، كنت أتساءل إن كان بوسعي أن أستميلك حتى تنضم إليّ. إذ إني سأرعاك مادمت أملك مالاً، هذا مفهوم. فكّرت بذلك ونحن في طريقنا إلى هنا. رسالة بِل هذه ـ أنا الذي أمليتها. لم أكن أنوي أن أحوّل الأشياء عن مسارها عندما انطلقنا، أرجوك صدقني. لكننا كلما تحدثنا أكثر شعرت أنك الشخص الذي أودّ مصاحبته، إذا ما هربت».

تردّد ثانية، ثم أضاف: «يجب أن أحدثك عن زوجتي لأن... لأن العيش في مكان ضيق مع شخص، وأنت تكظم غيظك يسبب لك ضغطاً وإجهاداً كبيرين».

«لكن لديّ أنا زوجة أيضاً!» وجدت نفسي أقول له. «ومع أنها لا تروق لي كثيراً، لكني لا أرى سبباً يجعلني أجهز عليها وأهرب معك إلى أي مكان في العالم».

«أفهم ذلك»، قال ستيمير بهدوء. «لقد فكّرت بذلك أيضاً».

«يمكنني أن أحصل لك على طلاق بسهولة دون أن تضطر إلى دفع نفقة. ما رأيك؟».

أجبت: «لست مهتماً بذلك. حتى لو قدمت لي امرأة أخرى، فعندي خططي الخاصة».

«لا أظن أنك ستحسبني شاذاً؟».

«لا، لا أبداً. أنت شاذ، نعم، لكن ليس بتلك الطريقة. ولكي أكون صادقاً معك، فإنك لست من ذلك النوع من الأشخاص الذين أريد أن أصاحبهم لفترة طويلة. كما أن كلّ شيء حولك يكتنفه الغموض. إنه أشبه بحلم سيء».

استمع إلى ذلك بهدوئه الرزين المعتاد. ثم سألته رغبة مني لأن أدفعه ليقول المزيد، ماذا يتوقع مني، وماذا يأمل أن يحصل عليه من هذه العلاقة؟

وبالطبع، لم تكن لديّ أدنى هواجس بأن يتمكن من استمالتي لمثل هذه المغامرة المجنونة، لكنني فكّرت أنه من الجيد أن أتظاهر بأني أستدرجه في الحديث. فضلاً عن أن فضولي كان يدفعني لمعرفة دوري في ذلك.

بدأ يتشدّق: «يصعب عليّ أن أعرف من أين أبدأ. لنفترض... لمجرد الافتراض، أقول... إننا وجدنا بلداً نلجأ إليه، مثل كوستاريكا، أو نيكاراغوا، حيث الحياة سهلة والمناخ جميل.

ولنفترض أنك وجدت فتاة أعجبتك... ليس من الصعب تصوّر ذلك، أليس كذلك؟ حسناً... لقد قلت لي إنك تحبّ... إنك تنوى... أن تكتب ذات يوم. أعرف أني لا أستطيع أن أكتب، لكن لديّ أفكاراً، أفكاراً كثيرة يمكنني أن أنقلها لك. فأنا لم أصبح محامياً جنائياً للاشيء، وأنت لم تقرأ دوستويفسكي وجميع أولئك الروس المجانين الآخرين للا شيء أيضاً. هل بدأت تفهم قصدي؟ انظر، إن دوستويفسكي ميت، انتهى. ومن هنا نبدأ. من دوستويفسكي الذي تعامل مع الروح، بينما سنتعامل نحن مع العقل».

كان على وشك أن يتوقّف ثانية. قلت له «واصل كلامك، فإن ذلك يبدو مثيراً».

«حسناً»، تابع كلامه، «سواء كنت تعرف ذلك أم لا، فلم يتبق شيء في العالم يسمى الروح. وهذا ما يفسّر لماذا تجد صعوبة كبيرة في البدء ككاتب. فكيف يمكن للمرء أن يكتب عن أناس ليست لديهم أرواح؟ أما أنا فأستطيع ذلك، لأني أعيش مع هؤلاء الناس، أعمل لحسابهم، أدرسهم، أحلّلهم. ولا أعني عملائي وحدهم. فمن السهل أن تعتبر المجرمين أناساً عديمي الروح. لكن ماذا لو قلت لك إنه لا يوجد سوى المجرمين في كل مكان، أينما ولّيت نظرك؟ فليس من المفروض أن يكون كلّ من توجه له تهمة مجرماً. لكن هذا ماأفكر فيه... أعرف أنك تستطيع أن تكتب. كما أني لا أهتم كثيراً إن قام شخص آخر بتأليف كتبي. ولكي تحصل على المادة التي قمت بجمعها، فأنت ستحتاج إلى حيوات كثيرة. فلماذا تضيّع مزيداً من الوقت؟ أوه نعم، هناك شيء نسيت ان أذكره... قد يثير ذعرك. إنه هذا... سواء نشرت الكتب أم لا فالأمر سيان عندي. أريد أن أُفرغ جعبتي من هذه الأشياء، لا شيء أكثر. فالأفكار عامة، ولا أعتبرها ملكي الخاص...».

رشف جرعة من الماء المثلّج من دورق بجانب السرير.

«قد تجد هذا شيئاً رائعاً. لا تحاول أن تتخذ قرارك على الفور.

فكّر في الموضوع! قلّبه من جميع جوانبه. فأنا لا أريدك أن تقبل ثم تتراجع بعد شهر أو شهرين. لكن دعني ألفت نظرك إلى شيء. إذا تابعت مسيرتك على هذا المنوال طويلاً فلن تكون لديك الشجاعة لأن تتوقف. ليس لديك عذر لإطالة طريقة حياتك الحالية. إنك تطيع قانون القصور الذاتي، لا شيء أكثر».

تنحنح، وكما لو أنه شعر بالإحراج من ملاحظاته، مضى في كلامه بسرعة ووضوح. «أتفق معك بأني لست الرفيق المثالي لك. ففيّ جميع العيوب التي يمكنك أن تتخيّلها، عدا عن أني أنانيّ ولا يهمني أحد سوى نفسي، كما قلت عدة مرات. لكني لست حسوداً أو غيوراً، أو حتى طموحاً في الأحوال العادية. وبالإضافة إلى ساعات العمل - فليس لدي نية أن أرهق نفسي - فستكون وحدك معظم الوقت، حراً في أن تفعل ما تشاء. وستكون معي وحدك، حتى لو أقمنا في غرفة واحدة. لا يهمني أين نعيش، مادمنا نقيم في أرض أجنبية ستكون لي بمثابة القمر من الآن فصاعداً. لقد قررت أن أطلّق نفسي من الذين أعيلهم. فلا شيء يمكن أن يستهويني للمشاركة في اللعبة. لا يمكنني أن أنجز شيئاً ذا قيمة، في نظري على الأقل، حالياً. لكي أكون صادقاً معك، فقد لا أنجز شيئاً على الإطلاق أيضاً. لكني سأشعر بالرضى على الأقل إذا ما فعلت الأشياء التي أؤمن بها... انظر، لعلي لم أستطع أن أوضح ما أقصده عن أعمال دوستويفسكي جيداً. إذ يجدر بنا أن نلج في عمق هذا الموضوع، إن كان بوسعك أن تحتملني. ففي رأيي، دخل العالم مرحلة جديدة كاملة من الوجود بموت دوستويفسكي، الذي لخّص العصر الحديث كما لخّص دانتي العصور الوسطى. أما العصر الحديث - وبالمناسبة فهو اسم على غير مسمى - فقد كان مجرد فترة انتقالية، فترة لالتقاط الأنفاس، يمكن فيها للإنسان أن يكيّف نفسه لموت الروح. إننا نعيش حالياً نوعاً من الحياة القمرية المشوّهة. فقد مضى عهد الاعتقادات والآمال والمبادئ والقناعات التي سادت حضارتنا. ولن يكون

بالإمكان إحياؤها مجدداً. خذ مسألة العقيدة في الوقت الحاضر. لا، فإننا سنعيش منذ الآن وإلى فترةٍ طويلة في العقل. وهذا يعني الدمار... التدمير الذاتي. إذا سألتني لماذا أقول ذلك ـ لأن الإنسان لم يخلق ليعيش بالعقل وحده. لقد خلق الإنسان ليعيش مع كينونته برمتها. لكن طبيعة هذا الكائن فُقدت، طواها النسيان، دُفنت. إن الهدف من الحياة على الأرض هو أن يكتشف المرء حقيقة كينونته وأن يلتزم بها! لكننا لن نخوض في هذا الموضوع الآن. سنتركه للمستقبل البعيد. المشكلة هي في الحاضر، وهذا ما أريد ان أتحدث عنه. دعني ألخّص لك بقدر ما يمكنني... يجب أن نضع حداً لكلّ ماقمعناه في حياتنا، أنت، وأنا، جميعنا، منذ أن بدأت الحضارة. يجب أن نعرف حقيقة أنفسنا. وما نحن سوى المنتج النهائي لشجرة لم تعد قادرة على أن تعطي ثماراً. يجب أن نهبط تحت الأرض كالبذرة، حتى ينبت شيء جديد، شيء مختلف. ليس المطلوب هو الزمن، بل المطلوب إيجاد طريقة جديدة ننظر فيها إلى الأشياء، بمعنى آخر، رغبة جديدة من أجل الحياة. أما الآن فليس لدينا سوى مظهر من مظاهر الحياة. إننا نعيش في الأحلام فقط، والعقل فينا هو الذي يرفض أن يقضي عليها. إن العقل قوي ـ وهو أكثر غموضاً من أجمل أحلام اللاهوتيين. ربما لا يوجد شيء سوى العقل... بالطبع لا أعني العقل الصغير الذي نعرفه، بل العقل العظيم الذي نعوم فيه، العقل الذي يتخلّل الكون برمته. ودعني أذكّرك بأن دوستويفسكي كان نافذ البصيرة على نحو مدهش، لا لسبره روح الإنسان فقط، بل لسبر عقل الكون وروحه أيضاً. ولهذا السبب يستحيل التخلص منه».

هنا تعين عليّ أن أقاطعه، فقلت: «المعذرة، لكن ما الذي يمثّله دوستويفسكي في رأيك؟».

«لا يمكنني أن أجيب عن ذلك في بضع كلمات. لا يمكن لأحد أن يفعل ذلك. فقد منحنا الإلهام والإيحاء، وعلى كل واحد منّا أن

يستفيد منه بطريقته الخاصة. فالبعض يُغرقون أنفسهم في المسيح، ويمكن للمرء أن يُغرق نفسه في دوستويفسكي أيضاً. إنه يوصلك إلى نهاية الطريق... هل يعني ذلك لك أيّ شيء؟».

«نعم ولا».

قال ستيمير: «بالنسبة لي، فإن هذا يعني أنه لا توجد في وقتنا الحالي إمكانية وجود رجال قادرين على التخيّل مثله. وهذا يعني أننا مضلّلون تماماً - في كلّ شيء. لقد استكشف دوستويفسكي الميدان سلفاً، ووجد الطريق مسدوداً عند كل منعطف. كان رجلاً طليعياً، بالمعنى الدقيق للكلمة. كان يتخذ موقفاً بعد آخر، عند كلّ نقطة واعدة وخطرة، ووجد أنه لا توجد قضية لنا، كما هو حالنا نحن. وقد لجأ أخيراً إلى الخالق الأعظم».

قلت: «هذا لا يبدو لي تماماً دوستويفسكي الذي أعرفه. فهنا توجد حلقة ميؤوس منها».

«لا، ليس ميؤوساً منها تماماً. بل واقعية - بمعنى الشيء الخارق للطبيعة البشرية. والشيء الأخير الذي قد يكون قد آمن به دوستويفسكي هو اليوم الآخر بالطريقة التي يعرضها رجال الدين. فجميع الأديان تقدم لنا حبة مغلفة بالسكر كي نبتلعها. إنهم يريدوننا أن نبتلع ما لا نستطيع أن نبتلعه أو نريد أن نبتلعه - الموت. لن يتقبّل الإنسان فكرة الموت على الإطلاق، ولن يتكيّف معها أبداً... لكني أظن أني بدأت أستطرد. إنك تتكلّم عن مصير الإنسان. لقد فهم دوستويفسكي، أكثر من أي شخص آخر، أن الإنسان لن يقبل الحياة بشكل مطلق حتى يصبح مهدداً بالانقراض. وأظن أنه كان على قناعة راسخة بأنه يمكن أن تكون للإنسان حياة أبدية إذا رغب في ذلك بكلّ جوارحه وكينونته. فلا يوجد ثمة سبب للموت، لا شيء البتة. إننا نموت لأننا نفتقر إلى الإيمان بالحياة، لأننا نرفض أن نستسلم للحياة تماماً... وهذا ما يجلبني إلى الحاضر، إلى الحياة كما نعرفها اليوم. أليست طريقة حياتنا كلها تكريس للموت؟ وفي

جهودنا المستميتة التي نبذلها لنحافظ على أنفسنا، نحافظ على ما أنشأناه، ونجلب موتنا. إننا لا نستسلم للحياة، بل نكافح لنتحاشى الموت، ما يعني أننا لم نفقد الثقة بالله، بل فقدنا الثقة بالحياة نفسها. ولكي نعيش حياة خطرة، كما قال نيتشه، يجب أن نعيش عراة وبلا حياء. وهذا يعني أن يضع المرء ثقته في قوة الحياة، وأن يكفّ عن المحاربة بشبح يدعى الموت، بشبح يدعى المرض، بشبح يدعى الخطيئة، بشبح يدعى الخوف، وما إلى هنالك. العالم الشبحي! هذا هو العالم الذي خلقناه لأنفسنا. فكّر بالجيوش وحديثها الذي لا يتوقف عن العدو. فكّر برجال الدين، بكلامهم الذي لا يتوقف عن الإثم والخطيئة. فكّر بالإخوان القانونيين، بكلامهم الدائم عن الغرامات والسجن. فكّر بمهنة الطب، بكلامهم الدائم عن المرض والموت. والمربّون، أعظم حمقى في التاريخ بما يرددونه كالببغاوات، وعدم قدرتهم الفطرية على تقبّل أية فكرة مالم يكن عمرها مائة أو ألف سنة. أما الذين يحكمون العالم، فهم أكثر الناس كذباً وخداعاً، أكثرهم نفاقاً، وأضعف الكائنات خيالاً. إنك تدّعي أنك قلق على مصير الإنسان، لكن المعجزة هي أن الإنسان تحمّل حتى وهم الحرية. لا، فالطريق مسدود، حيثما اتجهت. إن كلّ جدار، كلّ عائق، كلّ عقبة تحاصرنا وتطوقنا هي من صنعنا نحن، ولا حاجة لنا أن نحشر الله أو الشيطان أو الحظ في ذلك. إن إله جميع المخلوقات يأخذ غفوة فيما نحاول نحن حلّ الأحجية. لقد سمح لنا بأن نحرم أنفسنا من كلّ شيء سوى العقل، الذي لجأت إليه قوة الحياة. لقد حُلّل كلّ شيء حتى العدم. ولعل فراغ الحياة ذاته سيقدم الآن لنا معنى ما، فكرة ما».

توقّف تماماً، وظل هكذا لوهلة، ثم نهض مستنداً إلى أحد مرفقيه. وتابع قوله: «الجانب الإجرامي من العقل! لا أعرف كيف أو من أين جئت بهذه العبارة. لكنها بالتأكيد تسحرني وتستهويني. قد تكون ملائمة لعنوان شامل للكتب التي أفكّر في تأليفها. إن مجرد كلمة مجرم تهزّني من الأعماق. لقد أضحت كلمة خالية من أي معنى

اليوم، لكنها الكلمة الأكثر ـ ماذا يمكنني أن أقول؟ ـ الكلمة الأكثر خطورة في مفردات البشر. إن فكرة الجريمة بحد ذاتها فكرة رهيبة مرعبة. فهي تحمل تلك الجذور العميقة المتشابكة. ذات يوم كانت كلمة متمرد أعظم كلمة بالنسبة لي. لكني ما أن أنطق كلمة مجرم، حتى أجد نفسي مرتبكاً ومضطرباً بشدة. وأعترف أحياناً أني لا أعرف معنى هذه الكلمة، أو إذا خيّل لي أني أعرفها، فإني مضطر إلى اعتبار أن الجنس البشري كله ثعبان الهيدرا يتعذر وصفه واسمه مجرم. وفي بعض الأحيان أنظر إلى الأمر بطريقة أخرى ـ الإنسان هو مجرم بحد ذاته، ولا تكاد تعني شيئاً. إن ما أحاول قوله، مع أنه قد يكون تافهاً ومبتذلاً ومبسطاً على نحو مخلّ... أنه إذا كان ثمة إنسان يعتبر مجرماً، فإن الجنس كله ملوّث. ولا يمكنك أن تزيل العنصر الإجرامي من الإنسان بإجراء عملية جراحية على المجتمع. الإجرام شيء سرطاني، شيء قذر. ليست الجريمة متزامنة مع القانون والنظام، بل الجريمة أزلية. إنها في عمق وعي الإنسان ولن تتزحزح، ولن تُستأصل حتى ينشأ وعي جديد. هل ما أقوله واضح؟ والسؤال الذي ما فتئت أطرحه على نفسي هو ـ كيف بدأ الإنسان ينظر إلى نفسه، أو إلى أخيه الإنسان كمجرم؟ ما الذي يجعله يشعر بالذنب؟ ما الذي يجعل حتى الحيوانات تشعر بأنها مذنبة؟ كيف تمكّن من تسميم الحياة في الأصل؟ وما أسهل أن ننحي باللائمة على القساوسة، لكني لا أستطيع أن أقر لهم بفضل امتلاك هذا التأثير الكبير علينا. فإن كنا ضحايا، فهم ضحايا كذلك. لكننا ضحايا ماذا؟ ما هو ذلك الشيء الذي يعذبنا، سواء صغاراً كنا أم كباراً، حكماء وأبرياء؟ أعتقد أننا سنكتشف ذلك بعد أن نهبط تحت الأرض. وعندما نصبح عراة ومعدمين، سنتمكن من أن نستسلم للمشكلة الكبرى دون أن يعترض سبيلنا شيء. حتى الخلود، إذا دعت الحاجة. ولا شيء آخر ذو أهمية، ألا ترى ذلك؟ لعلك لا ترى. ربما أرى أنا ذلك بوضوح شديد إلى درجة أني لا أستطيع أن أعبّر عنه جيداً بكلمات. على أي حال، فهذه هي رؤيتنا للعالم...».

هنا غادر الفراش وذهب ليعدّ لنفسه كأساً من الشراب، وسأل وهو يقوم بذلك إن كنت أقوى على تحمّل سماع المزيد من هرائه. فأومأت بنعم.

واصل كلامه قائلاً: «كما ترى فأنا في غاية التوتر. وبدأت فعلاً أرى الأمر كله بوضوح شديد ثانية، وبعد أن أفضيت لك بما أفكر فيه، فإني أكاد أشعر الآن أنه أصبح بإمكاني أن أؤلّف الكتب بنفسي. فإن لم أعش لنفسي، فمن المؤكد أني عشت حيوات أناس آخرين. لعلي سأبدأ أعيش حياتي عندما أبدأ الكتابة. أتعرف، لقد بدأت أشعر بمزيد من العطف تجاه العالم، بمجرد أن أفرغت الكثير مما يجيش في صدري ورأسي من أفكار. لعلك كنت محقاً عندما قلت يجب أن أكون أكثر كرماً مع نفسي. إنها بالتأكيد فكرة مريحة. فأنا مصنوع في داخلي من عوارض فولاذية. يجب أن أذوب، وأن أجعل الألياف والغضاريف والغدد اللمفاوية والعضلات تنمو وتكبر. يجب أن أبدأ التفكير بأنه يمكن لأي شخص ترك نفسه يتصلب... شيء مضحك! هذه هي نتيجة أن يحارب المرء حياته».

توقّف لوهلة طويلة تكفي لأخذ استراحة جيدة، ثم عاد وبدأ.

«كما تعرف لا يوجد هناك شيء في العالم جدير بأن يقاتل المرء من أجله سوى راحة البال. فكلما حققت مزيداً من الانتصار في هذا العالم، هزمت نفسك أكثر. كان المسيح محقّاً. يجب على المرء أن ينتصر على العالم. «تغلّب على العالم»، كما قال. وبالطبع لكي تقوم بذلك، فهذا يعني أن تكتسب وعياً جديداً، رؤية جديدة للأشياء. وهو المعنى الوحيد الذي يمكن أن يضفيه المرء على الحرية. لايمكن لرجل متمسك بالدنيا أن ينال الحرية. مُتْ من أجل العالم وستجد حياة أبدية. وأنا أرى أن مجيء المسيح كان أكثر أهمية من دوستويفسكي. لم ينجح دوستويفسكي إلا في اعتناق فكرة الله من خلال ابتداعه لفكرة الرجل الإله. فقد أنسن مفهوم الله، قرّبه منا، جعله أكثر فهماً، وأخيراً، وبقدر ما يبدو غريباً، جعله إلهيّاً إلى

درجة أكبر... مرة أخرى يجب أن أعود إلى الإجرام. فالخطيئة الوحيدة، أو الجريمة التي قد يرتكبها الإنسان، هي في نظر المسيح أن ترتكب خطيئة ضد الروح القدس. إنكار الروح أو قوة الحياة إن شئت. ولم يقرّ المسيح بشيء يدعى إجراماً. لقد أهمل كلّ هذا الهراء، هذا التشويش، هذه الخرافة التي ربط بها الإنسان نفسه منذ آلاف السنين. «من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها أولاً بحجر!» وهذا لايعني أن المسيح اعتبر جميع الرجال خاطئين. لا، بل إننا جميعنا مشبعون، وملوثون بفكرة الخطيئة. وحسب ما أفهم كلماته، فإننا خلقنا الخطيئة والشرّ من إحساسنا بالخطيئة. فليست الخطيئة والشرّ شيئين حقيقيين بحد ذاتهما. مما يعيدني مرة أخرى إلى الطريق المسدود الحالي. فرغم كلّ الحقائق التي قالها المسيح، العالم مشبع ومفعم الآن بالخطايا. إذ إن كلّ إنسان يتصرف نحو أخيه الإنسان على أنه مجرم. لذلك، ما لم يبدأ أحدنا بقتل الآخر ـ ما لم تحدث مذبحة عالمية ـ فلن نتمكن من معالجة مشاكل القوة الشيطانية التي تحكمنا. ويجب أن نحوّلها إلى قوة دينامية صحية لن تحررنا وحدنا فقط ـ فلسنا بتلك الدرجة من الأهمية! ـ بل ستحرر قوة الحياة التي تغمرنا وتهيمن علينا كذلك. عندها فقط يمكننا أن نبدأ العيش. والعيش يعني حياة أبديّة، لا شيء أقل من ذلك. فالإنسان هو الذي خلق الموت، لا الله. إن الموت دليل على ضعفنا، لا شيء أكثر».

استرسل واستفاض في الحديث. ولم يغمض لي جفن حتى اقتراب طلوع الفجر. وعندما صحوت كان قد ذهب. ووجدت على المنضدة ورقة من فئة الخمسة دولارات ورسالة قصيرة تقول إنه يجب أن أنسى كلّ شيء تحدّثنا عنه، فهو شيء لا أهمية له. وأضاف: «إني أطلب بدلة جديدة. ويمكنك أن تختار لي نوع القماش الذي يعجبك».

من الطبيعي أني لم أتمكن من نسيان هذه الأفكار، كما طلب.

ولأسابيع عديدة، لم أتمكن من التفكير بشئ سوى أن «الإنسان مجرم»، أو كما قالها ستيمير «الإنسان هو مجرم بحد ذاته».

كانت إحدى العبارات العديدة التي قالها واستحوذت عليّ هي «لجوء الإنسان إلى العقل». فقد كانت تلك هي المرّة الأولى، على ماأظن، التي رحت أتساءل فيها عن وجود العقل كشيء منفصل. سحرتني فكرة أنه ربما كان كل شيء هو العقل. لقد بدت فكرة ثورية أكثر من أن أيّ شيء سمعته حتى الآن.

من الغريب تماماً، على أقل تقدير، أن رجلاً في مقام ستيمير تتملكه فكرة الاختفاء (الهبوط تحت الأرض)، واللجوء إلى العقل. وكلما فكّرت بالموضوع أكثر، ازداد شعوري بأنه يحاول أن يصنع من الكون مكاناً رحباً، غبياً ميؤوساً منه. وبعد شهور قليلة، عندما أرسلت له رسالة أدعوه فيها لقياس البدلة الجديدة، علمت أنه مات بسبب إصابته بنزيف في الدماغ، ولم أفاجأ على أقل تقدير. فمن الواضح أن عقله رفض الاستنتاجات التي توصل إليها. لقد استمنى نفسه عقلياً حتى الموت. وبهذا لم أعد أشغل نفسي بأن العقل ملاذ. فالعقل هو الكلّ. والله هو الكلّ. وما الضير في ذلك؟

3

عندما تصل الأمور إلى الدرك الأسفل، ولا تلوح في الأفق حلول ممكنة، لا يبقى أمامك سوى القتل أو الانتحار، أو كليهما. وإذا لم يتمكن المرء من القيام بهذا أو ذاك، فإنه يصبح مهرجاً.

من المدهش كيف يصبح المرء مفعماً بالنشاط عندما لا يتبقى شيء أمامه يغالبه سوى يأسه. إذ تبدأ الأحداث تتراكم من تلقاء نفسها. ويتحول كلّ شيء إلى دراما... إلى ميلودراما.

أخذت الأرض تميد تحت قدميّ عندما بدأت أدرك شيئاً فشيئاً أن عدم إظهار الغضب، وعدم التلويح بالتهديد، وعدم إظهار الحزن أو الرقة أو الندم، وعدم قول أو فعل شيء لا يهمها في شيء. لا شك أن ما يدعى «بالرجل» قد كظم غيظه أو حزنه، وصعد إلى خشبة المسرح. ليس بيلزيبوب الصغير هذا!

لم أعد رجلاً، بل مخلوقاً عاد إلى أصله المتوحش. أصبح يعتريني رعب دائم. وكلما قلّت رغبتي، ازددت التصاقاً. وكلما جُرحت وأُهنت أكثر، ازدادت رغبتي في العقاب. لا أكفّ عن الدعاء كي تقع معجزة، لكني لم أفعل شيئاً حتى تقع هذه المعجزة. والأكثر من ذلك، لم أكن أقوى على لومها، أو لوم ستاسيا، أو لوم أحد، حتى نفسي، مع أنني كنت أتظاهر بذلك في معظم الأحيان. كما لم يكن بإمكاني، رغم ميلي الطبيعي، أن أصدق أن هذا قد «يحدث». ولم يتبق لدي قدر كاف من الفهم كي أدرك أنه قد لا يكون من الممكن

حدوث ائتلاف كالذي نحن فيه. لا، يجب أن أقرّ بأنها كانت تستعد منذ زمن بعيد، فيما كنت أتتبع الطريق في معظم الأحيان إلى حد أني أصبحت أعرفه خطوة خطوة. لكن عندما يعتري المرء الإحباط حتى درجة اليأس المطلق، ما الفائدة من معرفة أين حدثت العثرة القاتلة الأولى أو متى؟ ما الذي يهمّ - وكيف يهمّ، يا ربي!

كيف يمكنك أن تتملّص وتخرج من ملزمة مطبقة عليك بإحكام؟

أضرب رأسي في الحائط مرات عديدة محاولاً أن أفكّ رموز ذلك السؤال. لو كان بوسعي أن أفعل ذلك لأخرجت دماغي ووضعته في العصّارة. مهما فعلت، ومهما فكّرت، ومهما حاولت، فلن أستطيع أن أتخلص من قيودي.

هل الحبّ هو الذي يبقيني مقيداً؟

كيف أجيب عن هذا السؤال؟ فعواطفي مشوّشة إلى درجة كبيرة. كما لو كنت تسأل رجلاً على فراش الموت إن كان جائعاً.

من الممكن طرح السؤال بطريقة مختلفة. مثل «هل يمكن أن يستعيد المرء ما فقده؟».

الرجل العاقل، الرجل الذي يمتلك حساً سليماً سيقول لا. أما الأحمق فسيقول نعم.

وما الأحمق سوى شخص مؤمن، مقامر على الاحتمالات؟

لا شيء فُقد لا يمكن تعويضه.

من يقول هذا؟ إن الله في داخلنا. فقد قاوم آدم النار والفيضان وجميع الملائكة.

فكّروا للحظة، أيها المتهكمون! إذا كان الخلاص مستحيلاً، ألن يتلاشى الحبّ نفسه؟ حتى حبّ الذات؟

ربما لن تكون هذه الجنة التي سعيت جاهداً لاستعادتها هي ذاتها... فما أن تصبح خارج الدائرة السحرية، حتى يصبح الباعث على الزمن يسير بسرعة كارثية.

ما هي هذه الجنة التي فقدتها؟ من أي شيء جُبلت؟ هل كانت مجرّد القدرة على استدعاء نعمة آنية بين الحين والآخر؟ هل كانت الإيمان الذي ألهمتني إياه؟ (أعني الإيمان بنفسي) أم أننا التصقنا كتوأمين سياميين؟

كم يبدو الأمر بسيطاً وواضحاً الآن! فالحكاية كلها تروى ببضع كلمات: لقد فقدت القدرة على الحبّ. تغلفني سحابة داكنة. وقد أعماني الخوف من فقدانه. من الأسهل عليّ أن أقبل موتها.

ضائعاً ومشوّشاً، رحت أجوب في الظلام الذي خلقته كما لو كان أحد الشياطين يلاحقني. وفي حيرتي كنت أجثو أحياناً على يدي وركبتي، وبيدي العاريتين أخنق، وأبتر وأسحق كل شيء يهدّد عريننا.

أحياناً كانت الدمية هي التي أمسكها مسعوراً ومهتاجاً، وأحياناً مجرد جرذ ميت. وذات مرة لم تكن أكثر من قطعة جبن فاسدة. كنت أقتل ليلاً نهاراً. وكلما قتلت أكثر كَثُرَ أعدائي والمعتدين عليّ.

كم هو واسع عالم الأشباح! فهو لا ينضب! لماذا لم أنتحر؟ لقد حاولت، لكن المحاولة باءت بالفشل الذريع.

وتبين لي أن تحويل الحياة إلى فراغ أمر أكثر فعّالية.

أن تعيش في العقل، في العقل فقط... فتلك طريقة أكيدة لجعل الحياة خاوية. أن تصبح ضحية آلة لا تتوقّف أبداً عن الدوران والفرم والطحن.

آلة العقل.

«الحبّ والبغض، القبول والرفض، الجشع والازدراء، الشوق والرفض: هذا هو مرض العقل».

سليمان نفسه لم يكن بوسعه أن يقول ذلك على نحو أفضل.

«إذا تخليت عن النصر والهزيمة»، تقول الدامابادا، «فإنك تنام في الليل بدون خوف».

يفضّل الجبان، وهكذا كنت، ألا يتوقف العقل عن الدوران. إنه يعرف، كما يعرف السيد المخادع الذي يخدمه، أن الآلة يجب أن تتوقف للحظة، وأنه سينفجر مثل نجم ميت. ليس موتاً... بل إبادة!

يقول سرفانتس في وصف الفارس إرانتِ: «يبحث الفارس إرانتِ في جميع أركان الدنيا، ويدخل أكثر المتاهات تعقيداً، يحقق المستحيل في كلّ خطوة، ويتحمّل أشعة الشمس اللاهبة في الصحارى غير المأهولة، وعنف الرياح العاصفة والجليد في الشتاء. لا تفزعه الأسود ولا تخيفه الشياطين، ولا التنانين، لأن إرادة الهجوم والسيطرة هي ما يفعله في حياته».

غريب مدى التشابه بين الأحمق والجبان وبين الفارس إرانتِ. فلدى الأحمق إيمان رغم كلّ شيء. إنه يؤمن بالمستحيل. أما الجبان فيتحدّى جميع الأخطار، ويقدم عليها، لا يهاب شيئاً، لا شيء يخيفه على الإطلاق، سوى أن يخسر ما يكافح من أجله عبثاً.

من المغري القول إن الحبّ لا يفزع أحداً. ربما كان الحب الحقيقي، لا. لكن من هو ذاك الذي عرف الحبّ الحقيقي؟ من هو ذاك العاشق المتيم، الواثق والمؤمن بأنه لن يبيع نفسه للشيطان ولا يرى حبيبه معذّباً، أو مقتولاً أو مسلوب الكرامة؟ من هو ذاك الواثق من نفسه والقوي الذي لن يتنازل عن عرشه ليعلن حبّه؟ صحيح أن ثمة شخصيات عظيمة قبلت قدرها، انعزلت بصمت وعاشت في حسرة. هل ينبغي لنا أن نحترمها أم نرثي لحالها؟ حتى ذاك الذي لم يذق طعم الحب لا يستطيع أن يسير مبتهجاً ويصيح - «إن كلّ شيء على ما يرام في هذا العالم».

«في الحبّ الخالص» (الذي لا ريب في أنه لا يوجد إلا في مخيلتنا)، يقول أحد أولئك الذين أكن لهم احتراماً كبيراً، «إن المانح

لا يدرك أنه يعطي وماذا يعطي، ولا لمن يعطي، ولا ينتظر من المتلقي أن يعرب له عن تقديره أم لا».

وأقول من كلّ قلبي «إني أوافق» لكني لم ألتق حتى الآن بذلك الشخص القادر على إظهار مثل هذا الحبّ. لعل أولئك الذين لم يعودوا بحاجة إلى الحبّ فقط هم الذين يتطلعون إلى القيام بهذا الدور.

أن تخلو من عبودية الحبّ، أن تحترق كالشمعة، أن تذوب عشقاً، أن تذوب في الحبّ - يا لها من نعمة! هل هذا ممكن بالنسبة لمخلوقات مثلنا: مغرورة، متباهية، ضعيفة، استحواذية، حسودة، غيورة، عنيدة، صارمة، قاسية القلب؟ بالطبع لا. بالنسبة لنا فإن التسابق المسعور - في فراغ العقل. بالنسبة لنا الموت، الموت الذي لا نهاية له. ولأننا نظن أننا نحتاج إلى الحبّ، فإننا نتوقف عن منح الحبّ، نكّف عن أن نكون محبوبين.

لكن حتى نحن، نشعر بهذا الحبّ الحقيقي رغم ضعفنا البغيض، الحبّ غير الأناني بين الحين والآخر. من منا لم يقل لنفسه وهو معجب بشكل أعمى بشخص لا يمكن أن يدركه - «وماذا يهمّ إذا لم تكن لي أبداً. فكلّ ما يهم هو أنها موجودة، ويكفيني أن أعبدها وأعشقها إلى الأبد!» ورغم أنه لا يمكن الدفاع عن هذا الرأي السامي، فإن العاشق الذي يفكّر بهذه الطريقة يقف على أرضية صلبة. فهو قد عرف لحظة من لحظات الحبّ النقي. لا حباً آخر، مهما كان وادعاً، مهما كان دائماً وصلباً، يمكن مقارنته معه.

ومهما كان هذا الحبّ عابراً، هل يمكننا أن نقول إن هذه خسارة؟ الخسارة المحتملة الوحيدة - وإلى أي مدى يعرفها الحبيب الحقيقي!» - هي انعدام تلك العاطفة المتأججة التي ألهمها الآخر والتي لا تموت. يا له من يوم كئيب، قاتم، مشؤوم هو اليوم الذي يدرك فيه الحبيب فجأة أنه لم يعد مفتوناً، وأنه برأ من حبّه العظيم! وعندما يشير إليه، حتى باللاشعور «بأنه جنون»، فقد يفضي هذا

الشعور بالراحة الذي تحدثه هذه اليقظة بالمرء إلى أن يؤمن بإخلاص شديد بأنه استعاد حريته. لكن بأي ثمن! يالها من حرية فقيرة بائسة. أليس من المفجع أن يجد نفسه مرة أخرى في العالم إزاء الحسرة اليومية، الحكمة اليومية؟ أليس من المجزع أن يجد المرء نفسه محاطاً بكائنات مألوفة ومعروفة؟ أليس من المفزع أن يفكر بأنه يجب على المرء أن يواصل، كما يقولون، لكن بأحجار في بطنه وحصى في فمه؟ ليجد رماداً، ولا شيء سوى رماد، حيث كانت تضيء الشموس، والعجائب، والأمجاد، وعجائب العجائب، ومجد الأمجاد، التي خلقت جميعها بحرية بدءاً من ينبوع سحري؟

إذن ثمة شيء يستحقّ أن يدعى إعجازي، أليس هو الحبّ؟ ماهي القوة الأخرى، ما هي القوة الغامضة الأخرى التي تستطيع أن تستثمر الحياة بهذه العظمة التي لا يمكن نكرانها؟

الكتاب المقدس مليء بالمعجزات، وقد آمن بها أولئك الذين يفكرون والذين لا يفكرون على حدّ سواء: أما المعجزة التي يسمح لكلّ شخص بأن يجربها في وقت ما في حياته، المعجزة التي لاتحتاج إلى تدخّل من أحد، ولا تحتاج إلى شفيع، ولا إلى إرادة خارقة، المعجزة المفتوحة للحمقى والجبناء كما هي مفتوحة للأبطال والقديسين، فهي الحبّ. إنها وليدة اللحظة، وتعيش إلى الأبد. وإذا كانت الطاقة خالدة، فكم خالد هو الحبّ! وكالطاقة، التي ما تزال لغزاً كاملاً، الحبّ موجود دائماً، ينبوعه لا ينضب. إن الإنسان لم يخلق ولا ذرة من الطاقة، ولم يخلق الحبّ. فالحبّ والطاقة موجودان على الدوام، وسيبقيان دائماً. ربما كانا في جوهرهما الشيء ذاته. لم لا؟ ربما كانت هذه الطاقة الغامضة التي تتماهى مع حياة الكون، التي هي الله في حالة الحركة، كما قال أحدهم، ربما لم يكن هذا السرّ، القوة الكلية الانتشار، سوى تجلي الحبّ. وإذا لم يكن هو الشيء الأكثر وجلاً، إذا لم يكن هناك شيء في كوننا لا يُعرف بهذه القوة التي لا يمكن إدراك حجمها، فماذا عن

الحبّ إذاً؟ ماذا يحدث عندما (على ما يبدو) يختفي الحبّ؟ لأن الواحد لم يعد أكثر رسوخاً من الآخر. إننا نعرف أنه حتى جزيئة المادة قادرة على منح طاقة متفجّرة. وإذا كان للجثّة حياة، كما نعرف، فاللروح كذلك التي نفخت فيها الحياة ذات مرّة. إذا قام أليعازر من بين الأموات، إذا قام المسيح من قبره، فقد تدبّ الحياة في أكوان كاملة زالت عن الوجود الآن، ولا شكّ أنها ستحيا ثانية، عندما يحين الآوان. بمعنى آخر، عندما يتغلب الحبّ على الحكمة.

كيف يمكننا إذاً، إذا كانت مثل هذه الأشياء ممكنة، أن نقول، بل حتى أن نفكّر، بأننا نخسر الحبّ؟ ومع أننا قد ننجح لفترة من الزمن في إغلاق الباب في وجهه، فإن الحبّ سيجد طريقه. مع أننا نصبح باردين ونتصلب كالمعادن، لا نستطيع أن نبقى غير مبالين وخامدين إلى الأبد. لا شيء يموت حقاً. فالموت مختلق دائماً. الموت ببساطة هو إغلاق الباب. لكن ليس للكون أبواب. بالتأكيد لا توجد أبواب لا يمكن فتحها أو اختراقها بقوة الحبّ. هذا ما يعرفه الأحمق في الواقع، يظهر حكمته مخاطراً بنفسه من أجل الآخرين. وأي شيء آخر يمكن أن يكونه الفارس إرانت، الذي يسعى للهجوم ليهيمن، إن لم يكن رسولاً للحبّ؟ والذي يكشف نفسه دائماً ليهين ويجرح، ممَ يهرب إن لم يكن من غزو الحبّ؟

في أدبيات الخراب المطلق يوجد دائماً رمز واحد (يمكن التعبير عنه رياضياً وروحياً كذلك) يتمحور حوله كلّ شيء: وهو الحبّ السالب. لأنه يمكن أن تعاش الحياة، وعادة ما تعاش، في الجانب السالب لا في الجانب الموجب. فقد يكافح الإنسان إلى الأبد، وباستماتة، ما أن يختار أن يستبعد الحبّ. ذلك هو ألم الخواء الذي لا يدرك غوره والذي يصبّ فيه جميع الخلق، ومع ذلك يبقى خواء. فماذا يكون هذا الألم من أجل الله، كما يدعى، إن لم يكن وصفاً لحالة انعدام حبّ الروح؟

ماذا يمكن تسمية هذه الحالة التي أمرّ فيها. لقد دخلت الآن

وأنا مجهّز تماماً بقضيب مسنن وعجلة. لقد تراكمت الأحداث من تلقاء نفسها، لكن على نحو مخيف. كان ثمة شيء جنوني حول الزخم الذي انزلقت فيه الآن إلى الأسفل وإلى الوراء. لقد تهدمت الأشياء التي تراكمت، والتي استغرقت دهراً طويلاً بومضة عين. انهار كلّ شيء بلمسة واحدة.

أما بالنسبة لآلة الفكر، فلا يهم كثيراً إن كان يُعبَّر عن مشكلة ما بالسالب أو بالموجب. فعندما يعتاد الإنسان على المزلقة يصبح الأمر سيان في نهاية الأمر، أو يكاد يصبح ذلك. فالآلة لا تعرف الأسف، ولا الندم، ولا الشعور بالذنب. إنها لا تبدي علائم الامتعاض إلا عندما لا تُلقم جيداً. أما الإنسان الذي وهب آلة العقل المخيفة، فلا يعرف هوادة ولا ورحمة. ومهما بلغ الوضع من الشدة فإنه لن يستسلم. ما دامت ومضة الحياة موجودة فهو سيقدم نفسه ضحيّة إلى أيّ شيطان يريد أن يستحوذ عليه. وإذا لم يكن هناك شيء أو أحد يزعجه، أو يخونه، أو يهينه أويهدده، فإنه سيزعج نفسه، أو يخونها، أو يهينها أو يهددها.

إن العيش في فراغ العقل هو العيش في «هذا الجانب من الجنة»، لكن بشكل كليّ أو تام، إلى حد أن قساوة الموت تبدو أشبه برقصة سانت فيتوس. ومهما بدت الحياة اليومية كئيبة ومتجهّمة وفاسدة، فهي لا تقترب أبداً من هذا النوع من ألم الفراغ اللانهائي الذي ينجرف فيه المرء وينزلق تماماً، ثم يستيقظ وعيه. ففي الحقيقة اليومية الراسخة، هناك الشمس والقمر، براعم الأزهار وأوراق الأشجار الميتة، النوم واليقظة، الحلم والكابوس. أما في فراغ العقل، فليس هناك سوى حصان ميت يجري بأقدام ثابتة، شبح يعانق العدم الذي لا يسبر غوره.

وهكذا، مثل حصان ميت لا يكلّ سيده من ضربه بالسوط، واصلت الجري إلى أقاصي أركان الكون، ولم أعثر على السكينة أو العزاء أو الراحة في أي مكان. وصادفت أشباحاً غريبة في هذه الرحلات المتهورة! وكانت أوجه التشابه التي قدمناها بشعة، ولكن

بأدنى حد من الوئام. وكان غشاء الجلد الرقيق يفصلنا مثل غطاء مغناطيسي عن الدرع الذي لا يمكن لأعتى تيار أن يخترقه.

إذا كان ثمة فرق سام واحد بين الأحياء والأموات، فهو أن الأموات قد توقّفوا عن التساؤل. لكن، كالأبقار التي ترعى في الحقل، يتاح للأموات زمن لانهائي يجترون فيه. فهي تقف حتى ركبها في وسط حقل البرسيم، ولا تتوقف عن الاجترار حتى عندما يغيب القمر. أما بالنسبة للأموات، فهناك أكوان وأكوان يمكن استكشافها. أكوان العدم من غير المادة. المادة الخالية من الجوهر. المادة التي تحرث فيها آلة العقل كما لو كانت ثلجاً ناعماً.

أتذكّر تلك الليلة التي متّ فيها لكي أتساءل. فقد جاء كرونسكي وأعطاني بضع حبوب بيضاء بريئة كي أبتلعها. ابتلعتها، وعندما ذهب فتحت النوافذ على مصراعيها، ورميت الأغطية، واستلقيت عارياً تماماً. وفي الخارج كان الثلج يهطل بغزارة شديدة. والريح الشديدة البرودة تعصف في زوايا الغرفة الأربعة كما لو أنها في مهب جهاز تهوية.

غططت في سبات عميق كبقة فراش. وبعيد الفجر فتحت عينيّ، اعترتني الدهشة بعد أن اكتشفت أنني أصبحت في العالم الآخر. مع أني أكاد أقول إني كنت ما أزال بين الأحياء، ولم أعرف من هو الذي مات. لم أعد أعرف إلا أن كلّ شيء يفضي إلى ما يدعى «بحياة المرء». أما الشيء الذي تخلى عني فهو الآلة... آلة العقل. وكالجندي الذي يحصل أخيراً على ما يصبو إليه، أُرسلت إلى الصفوف الخلفية، وتركت الآخرين يحاربون.

ولسوء الحظ لم يُحدد لجثتي اتجاه معينّ. إلى الوراء، إلى الخلف، تحرّكت، غالباً بسرعة قذيفة مدفع. ومع أن كلّ شيء بدا لي مألوفاً، لم أر نقطة دخول على الإطلاق. وعندما كنت أتكلّم بدا صوتي مثل شريط يُشغّل بالعكس. كان كياني كله خارج البؤرة.

كنت عرّافاً عندما كتبت هذا السطر الذي لا ينسى من أينياد على صندوق المرحاض المعلق فوق سرير ستاسيا.

ربما كنت قد وصفت المكان. لا يهم. فقد لا يستطيع ألف وصف أن يصف حقيقة تلك الأجواء التي كنا نعيش ونتحرك فيها. لأني هنا، مثل سجين تشيلون، مثل المركيز الإلهي، مثل ستريندبيرغ المجنون، عشت جنوني. قمر ميت توقف عن بذل أي جهد ليكشف عن وجهه الحقيقي.

كان الظلام يخيم عادة، هذا كلّ ما كنت أتذكّره. ظلام القبر البارد. وعندما استجمعت نفسي، وملكت أمري أثناء تساقط الثلج، تكوّن لدي انطباع بأن العالم كله، الكائن خارج باب بيتنا، سيظل مفترشاً إلى الأبد بالشعر الأبيض الناعم. وكانت تغطي الأصوات التي تخترق دماغي المشوّش دائماً ستارة أبدية من الثلج. كنت أقطن في سيبيريا العقل، لا ريب في ذلك. وكان أصحابي ذئاب وضباع، لايقطع عواءهم التقي سوى رنين أجراس الزلاجة، أو دمدمة عربة الحليب المتجهة إلى أرض الحسناوات اليتيمات الأم.

ومع اقتراب ساعات الصباح الأولى، بدأت أتمكن من الاعتماد عليهما كلتيهما، عندما تقدمان، تمسك إحداهن بيد الأخرى، طريتان كأقحوانتين، وجنتاهما تتألّقان من الصقيع، ومن حماس يوم حافل بالأحداث. وكان يأتي بين الحين والآخر محصّل الفواتير، يطرق الباب بقوة ولفترة طويلة، ثم يذوب في الثلج. أو أوسيكي المجنون، الذي ينقر دائماً بهدوء على زجاج النافذة. ولم يكن الثلج يتوقف عن الهطول، أحياناً في رقائق رطبة ضخمة، مثل نجوم تذوب، أو على شكل رياح عاصفة تمتلئ بإبر تلسع تحت الجلد.

وفيما كنت أنتظر كنت أشدّ حزامي. لم أكن أتمتع بصبر قدّيس، ولا حتى بصبر السلحفاة، بل كنت أتمتع بصبر مجرم بارد.

اقتل الوقت! اقتل الفكر! اقتل قرصات الجوع! قتل مستمر طويل... رائع!

إذا نظرت من وراء الستارة الفاهية اللون، ورأيت صورة جانبية لصديق فقد أفتح الباب، لأشمّ هواء نقياً لا لأقبل روحاً قريبة.

كان الحوار الافتتاحي دائماً ذاته. لقد تعودت عليه إلى درجة أني أصبحت أكرره على نفسي عندما كانتا تذهبان. دائماً افتتاحية راي لوبيز.

«ماذا تفعل وحدك؟».

«لا شيء».

«أنا؟ إنك مجنون!».

«لكن ماذا تفعل طوال النهار؟».

«لا شيء».

بعد تدخين بضع سجائر، والحصول على بضع قطع من النقود، وتناول قطعة من فطيرة جبن، أو حقيبة من الفطائر الأخرى. أقترح أحياناً أن نلعب لعبة شطرنج.

وسرعان ما تنطفئ السجائر، ثم الشموع، ثم المحادثة.

أعود وحيداً مرة أخرى، تغمرني الذكريات الأكثر لذّة، الأكثر استثنائية عن أشخاص، أماكن، أحاديث. أصوات، قسمات متجهمة، أعمدة، أفاريز، مروج، سواقي، جبال... تجتاحني كلها في موجات، دائماً محزنة... مثل جلطات الدم تقطر من سماء صافية. وكانت تأتيني بتفاصيل دقيقة، شركاء فراشي المجانين: أكثر الذكريات غرابة ويأساً التي يمكن لأيّ إنسان أن يجمعها. جميع المشردين، جميع الزوّار من عوالم غريبة، سكان جزر، الجميع. ومع ذلك كم كانت طرية ومحبوبة! مثل ملائكة منبوذة مؤقتاً، أجنحتها مخفية برصانة تحت قطع الدومينو المهلهلة.

كان يحدث ذلك غالباً في الظلام، وفيما كنت أنعطف في المنعطفات، حيث الشوارع خالية تماماً، والريح تصفر بجنون، كنت

أصادف واحداً من هؤلاء التافهين. ربما أوقفني ليطلب مني شعلة، أو ليستجدي خمسة سنتات. كيف حدث وأن شبكنا ذراعينا على الفور، ورحنا في الحال نتحدث حديثاً لا يتحدثه إلا المنبوذون والملائكة؟

في أغلب الأحيان كان قبولاً بسيطاً ومباشراً من جانب الغريب الذي جعل العجلات تتحرك. (قتل، سرقة، اغتصاب، هروب ـ كانت تُلقى مثل بطاقات النداء)

«إنك تفهم، يجب أن...».

«طبعاً!».

«كان الفأس ملقى هناك، الحرب مستعرة، الرجل العجوز ثمل دائماً، أختي تتسكع... بالإضافة إلى ذلك، كنت أريد دائماً أن أكتب... أتفهم؟».

«طبعاً!».

«وثم النجوم... النجوم الخريفية. وآفاق جديدة غريبة. مع أنه عالم جديد جداً وقديم جداً. أمشي، أختبئ، أبحث عن طعام. أبحث، أفتش، ألعب... أبدلّ جلدي الواحد تلو الآخر. كلّ يوم اسم جديد، لقب جديد. أهرب دائماً من نفسي».

«أتفهم؟».

«طبعاً!».

«فوق خط الاستواء، تحت خط الاستواء... لا راحة، لا توقف. لاشيء البتة، ولا مكان. العوالم براقة جداً، كاملة جداً، غنية جداً، لكنها متشابكة بالإسمنت المسلح والأسلاك الشائكة. دائماً المكان التالي، والتالي. دائماً اليد ممدودة، تستجدي، تناشد، تتوسّل. أصمّ هو العالم. أصمّ تماماً. البنادق تقرقع، المدافع تدوي، وتتناثر جثث الرجال والنساء والأطفال في كل مكان غارقة في بحيرات من

دمائها الداكنة. ومن حين لآخر كنت تجد زهرة، ربما بنفسجة، ومليون جثة متفسخة لتخصبها. هل تفهم ما أقول؟».

«طبعاً!».

«لقد جننت، جننت، جننت».

«بالطبع!».

لذلك يأخذ الفأس، حادة للغاية، لامعة جداً، ويبدأ يقطّع... هنا رأس، وهناك ذراع أو ساق، ثم أصابع يد وأصابع قدم. إفرم، إفرم، إفرم. كما تفرم السبانخ. وبالطبع فهما تبحثان عنه. وعندما تجدانه ستعتصرانه. سيحقق العدل. فلكلّ مليون شخص يذبح كالخنازير، يذبح وحش تعس واحد بطريقة إنسانية.

هل أفهم؟ تماماً.

ما الكاتب سوى مجرم أو قاض أو جلاد. ألا تجيد فن المكر منذ الطفولة؟ ألم أصب بالصدمات؟ ألم أُلطخ بجميع ذنوب وآثام راهب من القرون الوسطى؟ ما الشيء الأكثر طبيعية، الأكثر فهماً، الأكثر إنسانية وتسامحاً من هذا الهيجان البشع للشاعر المنعزل؟ وكما دخلتا على نحو لا يمكن تعليله كانتا تغادران، هاتان البدويتان.

إن التسكع في الشوارع على بطن فارغة يجعل المرء في حالة من التأهب واليقظة. ويجعله يعرف بالغريزة أيّ طريق يسلك، يعرف ما يبحث عنه: لا، لا يعدم المرء أن يرى رفيقاً له.

حين يضيع كلّ شيء تخطو الروح إلى الأمام...

كنت قد ألمحت إلى أنهما ملاكان متنكرتان. وهكذا كانتا، لكني لم أدرك هذه الحقيقة إلا بعد أن غادرتا. فنادراً ما يظهر الملاك وهو يتعقب غيوم المجد. لكن الأبله الذي يسيل لعابه، والذي يوقفه في الطريق ليحدّق فيه، يلائمك كما يلائم مفتاح الباب. ويُفتح الباب.

والباب الذي يُفتح هو دائماً الباب الذي يدعى الموت. وتبين لي أنه لا يوجد موت، ولم يكن ثمة قضاة أو جلادون إلا في مخيلتنا. كم كافحت مستميتاً لأعوض عن ذلك! وقد سددت التعويض. كله وبشكل كامل. الأمير الحاكم يعرّي نفسه. ولم يبق سوى الأنا، لكن الأنا المتكّبرة والمنتفخة كضفدع قبيح. ثم يغمرني جنونه المطلق. لايمكن منح أو أخذ شيء؛ لا يمكن إضافة أو طرح شيء؛ لا يمكن زيادة أو إنقاص شيء. نقف على الشاطئ نفسه أمام المحيط الهائل ذاته. محيط الحبّ. ها هو في الأبدية. مثل زهرة مقطوفة، صوت شلال، انقضاض طير ميت مثل مدفعية النبي المدوّية. نتحرّك بعيون مغمضة وآذان مشنفة: نحطّم الجدران فيما نتوقع أن تُفتح الأبواب بلمسة؛ نتلمّس طريقنا نحو السلالم، وقد نسينا أننا نملك أجنحة؛ نصلّي كما لو كان الله أصماً وكفيفاً، كما لو أنه في فضاء. لا عجب أن الملائكة في وسطنا، ولا نستطيع أن نتعرف عليها.

ذات يوم سيكون من الجميل تذكر هذه الأشياء.

4

وهكذا كنت أجوس في الظلام أو أقف لساعات طوال ثابتاً مثل رفّ القبعات في ركن الغرفة، ثم أسقط في أعماق الحفرة. لقد أصبحت الهستيريا ديدني. ولم تذب الثلوج بعد.

وفيما كنت أضع أكثر الخطط شيطانية لأدفع ستاسيا إلى الجنون، كي أتخلّص منها إلى الأبد، حلمت كذلك بأكثر الخطط حماقة، وهي أن أبدأ حملة لمغازلتها والتودد إليها مرة أخرى. وكنت أتوقف عند واجهات المحلات أتفرج على الهدايا التي كنت أرغب في شرائها. فالنساء يعشقن الهدايا، وخاصة الغالية الثمن. كما تحبّ النساء أيضاً الأشياء الصغيرة التافهة، وذلك حسب مزاجهن. وبين قرطين قديمي الطراز، غاليين جداً، وشمعة سوداء كبيرة، كان بوسعي أن أمضي النهار كله أناقش نفسي أيهما أجلب لها. ولم أكن أعترف لنفسي أبداً بأن القرطين الباهظي الثمن بعيدا المنال. لا، فلو اقتنعت بأنها تحبّ الأقراط أكثر، لاقتنعت أيضاً أنه يمكنني أن أجد وسيلة لشرائها. أقول يمكنني أن أقنع نفسي بذلك، لأني أعرف في قرارة نفسي أنني لن أشتري أياً منها. فقد كان ذلك مجرد ضرب من ضروب التسلية. وفي الحقيقة كان بوسعي أن أمضي الوقت في مناقشة قضايا أكثر أهمية، من قبيل إن كان بالإمكان إفساد الروح، أم أنها طاهرة لا يمكن إفسادها. إلا أن المشاكل جميعها تبدو ذاتها أمام آلة العقل. وفي هذا السياق يمكنني

أن أحفّز نفسي على السير مسافة خمسة أو عشرة أميال لأستدين دولاراً، وكنت أشعر بزهو الانتصار إذا ما نجحت في استجداء عشرة بنسات أو حتى خمسة. ولم يكن ما أريد أن أفعله بدولار واحد مهماً: بل المهم هو الجهد الذي كنت أبذله. وهذا يعني، من وجهة نظري المتدهورة للأشياء، أنه ما تزال لي قدم واحدة في العالم.

نعم، كان من المهم حقاً أن أذّكر نفسي بهذه الأشياء بين الحين والآخر، وأن أحيا مثل أكوند أوف سووت. وكان من الجيد أيضاً أن أصدمهما مرة بين الحين والآخر، لأقول لهما عندما تعودا إلى البيت في الثالثة صباحاً وهما خاليتا الوفاض: «لا تنزعجا، فسأذهب وأشتري لنفسي سندويشة». ففي بعض الأحيان كنت أتناول سندويشة خيالية فقط. لكني كنت أشعر بالراحة عندما أجعلهما تظنان أني لا أملك نقوداً. وكنت قد أقنعتهما مرّة أو مرّتين بأنني تناولت شريحة من اللحم. بالطبع كنت أفعل ذلك لإغاظتهما. (كيف يمكنني أن أتناول شريحة لحم وهما تمضيان ساعات طويلة جالستان في مطعم تنتظران أحداً يقدم لهما وجبة؟)

وكنت استقبلهما أحياناً هكذا: «إذن استطعتما أن تتناولا شيئاً؟».

وكان يبدو أن هذا السؤال يربكهما دائماً.

وكنت أقول لهما: «كنت أظن أنكما تتضوران جوعاً».

فتقولان إنهما لا تكترثان بالجوع. وتضيفان أنه لم يكن عليّ أن أتضور جوعاً كذلك. كنت أفعل ذلك إمعاناً في تعذيبهما.

وإذا كانتا في مزاج رائق، تستفيضان وتسهبان في الموضوع. ما هي الخطط الشيطانية الجديدة التي أزمع القيام بها؟ وهل رأيت كرونسكي مؤخراً؟ ثم يبدأ الكلام الملغز والغامض ـ عن أصدقائهما الجدد، والكنوز التي اكتشفتاها، والرحلات الجانبية إلى هارلم،

وغرفة الأستوديو التي ستستأجرها ستاسيا، وإلى ما هنالك من أحاديث. أوه نعم، فقد نسيتا أن تخبراني عن بارلي الشاعر، صديق ستاسيا، الذي صادفتاه في تلك الليلة، الذي كاد يتهاوى في عصر ذات يوم. وقالتا إنه يريد أن يلتقي بي.

ذات مساء راحت ستاسيا تتذكر. ذكريات صادقة بقدر ما يمكنني أن أتذكر عن جذع الشجرة التي راحت تفرك نفسها عليه في ضوء القمر، وعن المليونير المنحرف الذي وقع في حبّها بسبب ساقيها المشعرتين، وعن الفتاة الروسية التي حاولت أن تضاجعها لكنها صدتها بفظاظة شديدة. بالإضافة إلى أنها بدأت تعاشر في ما بعد امرأة متزوجة، ولذر الرماد في عينيّ الزوج كانت تدعه يمارس الجنس معها... لا لأنها كانت تجد متعة في ذلك، بل لأن الزوجة، التي أحبّتها، كانت تظن أن هذا ما يجب عمله.

«لا أعرف لماذا أخبرك بكلّ هذه الأشياء»، قالت.

«مالم...».

وفجأة تذكّرت السبب. كان ذلك بسبب بارلي الذي كان غريب الأطوار. إذ لم تكن تفهم سر الجاذبية بينهما. كان يزعم دائماً أنه يرغب في مضاجعتها، إلا أن ذلك لم يحدث على الإطلاق. لكنه كان شاعراً ممتازاً، وهي على ثقة من ذلك. وكانت تقول له بين الحين والآخر إنها ستكتب قصيدة أثناء وجوده. ثم أضافت تعليقاً فضولياً: «يمكنني أن أواصل الكتابة وأنا أستمني».

تُسمع أصوات ضحكة مكتومة.

«كيف ترى ذلك؟».

«تبدو وكأنها صفحة منسوخة من كرافت إبنغ»، تدخلت قائلاً.

وأعقب ذلك مساجلة طويلة عن المزايا النسبية لكرافت إبنغ، وفرويد، وفوريل، وستيكيل، وينينجير وآخرين، انتهاء بملاحظة ستاسيا بأنه عفا عليهم الزمن.

صاحت: «أتعرف ماذا سأفعل لك؟» سأدع صديقك كرونسكي يفحصني».

«ماذا تقصدين ـ يفحصك؟».

«يفحص جسدي».

«ظننت انك تقصدين رأسك».

«يمكنه أن يفعل ذلك أيضاً»، قالت ببرود شديد.

«وإذا لم يجد مرضاً جسدياً فيك، فسيتبين أنك امرأة منحرفة بأشكال متعددة، أليس كذلك؟».

أعجبهما هذا التعبير الذي استعرته من فرويد كثيراً. فقد أحبته ستاسيا كثيراً، إلى حد أنها أقسمت أنها ستكتب قصيدة بهذا العنوان.

وتنفيذاً لما قالته، جاء كرونسكي ليجري لها الفحص المطلوب. كان جذلاً، وراح يفرك يديه ويطقطق مفاصل أصابعه.

«كم الساعة يا سيد ميلر؟ هل يوجد لديكم فازلين؟ إنه شيء ضيّق، فأنا أعرف عملي جيداً. ومع ذلك فهي ليست فكرة سيئة. على الأقل سنعرف إن كانت خنثى أم لا. ربما اكتشفنا أنها تملك ذيلاً أولياً...».

خلعت ستاسيا بلوزتها وكشفت عن نهديها الرائعين بحلمتيهما المرجانيتين.

«لا عيب فيهما»، قال كرونسكي، وكوّرهما بيديه.

«الآن اخلعي بنطالك».

هنا جفلت وصاحت: «ليس هنا».

«أينما تشائين»، قال كرونسكي. «ما رأيك في الحمّام؟».

«لماذا لا تجري فحصك في غرفتها؟» قالت مونا. «إنه ليس عرضاً إباحياً».

«أوه لا؟» قال كرونسكي، ونظر إليهما نظرة فاحشة. «كنت أقول ذلك».

توجه إلى الغرفة المجاورة ليجلب حقيبته السوداء.

«لكي يكون الأمر رسمياً أكثر أحضرت معداتي معي».

«أرجو ألا تؤلمها»، صاحت مونا.

«لا، إلا إذا قاومت»، أجاب. «هل وجدت الفازلين؟ إن لم تجدينه، فلا بأس بزيت الزيتون... أو الزبدة».

لوت ستاسيا وجهها وسألت: «هل كلّ هذا ضروري؟».

«يتوقف الأمر عليك»، قال كرونسكي. «يتوقف الأمر على مدى حساسيتك. إذا استلقيت ولم تتحركي وأحسنت التصرف فلن تكون هناك صعوبة. وإذا شعرت بالارتياح فقد أحشر شيئاً آخر».

«أوه لا، لن تفعل ذلك» صاحت مونا.

«ماذا دهاك، هل تغارين؟».

«دعوناك إلى هنا كطبيب. هذا ليس بيت دعارة».

«من الأفضل لو كان بيت هوى»، قال كرونسكي باستهجان. «إنها، على الأقل... هيا، لننته من كلّ هذا».

وأمسك يد ستاسيا وقادها إلى الغرفة الصغيرة بجانب الحمّام. أرادت مونا أن تتأكد من أنه لن يسبب لستاسيا أي ألم. لكن كرونسكي لم يسمع شيئاً.

قال: «هذه زيارة مهنية»، وفرك يديه مبتهجاً. «أما بالنسبة لك يا سيد ميلر» ورمقني بنظرة العارف، «لو كنت مكانك لخرجت في نزهة قصيرة».

«لا، ابق» قالت مونا متوسلة. «فأنا لا أثق به».

وهكذا بقينا، أنا ومونا، نذرع الغرفة الطويلة جيئة وذهاباً دون أن نتبادل كلمة واحدة.

مضت خمس دقائق، ثم عشرة. وانطلقت فجأة صيحة ثاقبة من الغرفة المجاورة. «النجدة! النجدة! إنه يغتصبني!».

اندفعنا إلى الغرفة. وكما كان متوقعاً، كان كرونسكي يقف وبنطاله عند قدميه، ووجهه أحمر كالشوندر. كان يحاول امتطاءها. ومثل نمرة، انقضت عليه مونا وسحبته من السرير. ثم قفزت ستاسيا من السرير وألقت بنفسها عليه، وقرفصت فوقه. وأخذت تخمشه وتضربه بكلّ ما أوتيت من قوة. كان الشيطان المسكين حائراً من هذا الهجوم المباغت إلى درجة أنه لم يكد يقوى على الدفاع عن نفسه. ولو لم أتدخل لفقأتا عينيه.

«ابن الزانية!» صرخت ستاسيا.

«ساديّ!» صرخت مونا.

من الضجة التي أحدثتاها ظننت أن صاحبة البيت ستنزل ومعها ساطور.

وقف كرونسكي مترنحاً على قدميه، وبنطاله حول كاحليه. وأخيراً فتح فمه وقال: «لماذا كلّ هذه الضجة؟ إنها طبيعية، كما كنت أتوقع. في الواقع، هي طبيعية تماماً. وهذا ما أثارني. ما الضير في ذلك؟».

«نعم، ما الضير في ذلك؟» قلت وأنا أنظر من وجه إلى آخر.

«أخرجه من هنا!» صرختا.

«تمهلا! هدئا من روعكما!»، قال كرونسكي، وقد وضع شيئاً من الرقة في صوته. «لقد طلبتما مني أن أفحصها، وكنتما تعرفان كما أعرف أنا أنه لا توجد لديها مشكلة صحية. إن برجها العلوي هو الذي بحاجة للفحص، لا أجزاءها الخاصة. ويمكنني أن أفعل ذلك أيضاً، لكن ذلك يستغرق وقتاً. وماذا تريدانني أن أثبت؟ أجيبا على ذلك إذا أردتما! هل تريدان أن تعرفا شيئاً؟ يمكنني أن أسجنكم أنتم الثلاثة.» وفرقع أصابعه في وجوهنا. «هكذا!» قال وهو يفرقع

أصابعه مرة أخرى. «السبب؟ دناءة أخلاقية، هكذا. لن يكون لدى أحدكم ساق يمكنه الوقوف عليها».

توقف لحظة كاملة كي نستوعب ما قاله.

«إني لست خسيساً إلى هذه الدرجة لكي أفعل شيئاً كهذا. أنا صديق ممتاز، أليس كذلك يا سيد ميلر؟ لكن لا تحاولوا أن تلقوا بي إلى الخارج لأني صنعت لكم معروفاً».

كانت ستاسيا تقف عارية تماماً، سروالها الداخلي معلق في ذراعها. وأخيراً أدركت ذلك، وراحت ترتدي البنطال على الفور. وفيما كانت تدخل ساق البنطال في ساقها، تعثرت ووقعت. فأسرعت مونا في الحال لمساعدتها، لكنها دفعتها جانباً بضيق شديد.

«دعيني وشأني!» صاحت ستاسيا. «يمكنني أن أتدبر أمري. فأنا لست طفلة»، ونهضت. وقفت منتصبة للحظة، ثم مالت برأسها إلى الأمام، وراحت تنظر إلى نفسها، إلى وسط بدنها. ثم أطلقت ضحكة، ضحكة جنونية.

«إذن أنا طبيعية»، قالت وهي ما تزال تضحك على نحو أشد. «يا لها من نكتة! طبيعية، لأنه توجد هنا فتحة كبيرة تكفي لإدخال شيء فيها. هيا، أعطني شمعة! سأريكم كيف أني طبيعية».

وهكذا أخذت تفعل أكثر الحركات والتعابير بذاءة، تحرّك حوضها، وتتلوّى كما لو أن الرعشة قد أتتها.

صرخت: «شمعة! أحضروا لي شمعة غليظة سوداء وسأريكم كيف أني طبيعية!».

«أرجوكِ يا ستاسيا توقفي عن ذلك، أتوسل إليك!» صاحت مونا.

«نعم، هيا!» قال كرونسكي بصرامة. «لست بحاجة لأن تقدمي لنا عرضاً».

بدا أن كلمة عرض أججت من سعير رغبتها.

«إنه عرضي أنا»، صرخت. «وهو مجاني هذه المرة. عادة يدفعون لي لأجعل من نفسي موضوعاً للسخرية، أليس كذلك؟» التفتت إلى مونا. «أليس كذلك» قالت مهسهسة. «أو ألم تقولي لهم كيف نحصّل مبلغ الإيجار؟».

«أرجوك يا ستاسيا، أرجوك»، توسلت لها مونا، والدموع في عينيها.

لكن لم يكن بإمكان شيء أن يوقف ستاسيا الآن. فأخذت شمعة من فوق المكتب، وأدخلتها في فرجها، وفيما كانت تفعل ذلك أخذت تهز حوضها بشكل مسعور.

«ألا يساوي هذا خمسين دولاراً؟» صاحت. «من يدفع أكثر، وعندها سأدعه يلعقني، مع أني لا أحبّ أن يلعقني شخص منحرف».

«كفّي عن ذلك! توقفي، وإلا هربت»، قالت مونا.

هدأت. سقطت الشمعة على الأرض. ارتسم تعبير جديد على وجهها الآن. وفيما ارتدت بلوزتها قالت بهدوء شديد، موجهة كلماتها لي:

«أترى يا فال، إذا كان أحد قد جُرح أو أهين، فهو أنا، لا زوجتك العزيزة. فأنا لا أملك مشاعر أخلاقية. لديّ الحبّ فقط. وإذا كانت هناك حاجة للنقود، فأنا مستعدة على الدوام لأن أقدم عرضاً. فمنذ أن جننت، لم يعد الأمر يهمني». توقّفت برهة، ثم اتجهت نحو الخزانة في الزاوية الأخرى من الغرفة. فتحت أحد الأدراج، وأخرجت مغلفاً. «أترون هذا؟» قالت، وهي تلوح بالغلاف في الهواء. «يوجد في هذا المغلف شيك أرسله لي والدي. يكفي لدفع إيجار الشهر القادم. لكن» ـ وراحت تمزق المغلف بهدوء إلى قطع صغيرة ـ «إننا لا نريد هذا النوع من المال، أليس كذلك؟ نحن نعرف كيف نحصل عليه بطريقتنا بعرض جسدينا... نتظاهر بأننا

سحاقيتان... ندّعي أننا سحاقيتان. نتظاهر، نمثّل... لقد سئمت هذا. لماذا لا ندّعي بأننا مجرد بشر؟».

هنا تحدث كرونسكي.

«بالطبع أنتِ بشر، وإنسانة غير عادية. في لحظة ما أصبحت عاهرة، لا أعرف متى. والأهم من ذلك أني لا أريد أن أعرف. لو كنت أعرف أنك ستستمعين إليّ لشجعتك على الخروج من هنا، وترك هذين الشخصين». وألقى نظرة ازدراء إليّ وإلى مونا. «نعم، اتركيهما يحلان مشاكلهما بنفسيهما. إنهما ليسا بحاجة إليك، وبالتأكيد فأنت لست بحاجة إليهما. فلا مكان لك في مدينة مثل نيويورك. بصراحة، لا يوجد مكان يلائمك... لكن ما أريد أن أقوله هو... إني جئت إلى هنا كصديق. أنت بحاجة إلى صديق. أما بالنسبة لهذين الاثنين، فهما لا يعرفان ما معنى هذه الكلمة. من بين الثلاثة ربما كنت تتمتعين بصحة أفضل منهما هما الاثنان. كما أنك عبقرية...».

ظننت أنه لن يتوقف عن الكلام. لكنه تذكّر فجأة بصوت عالٍ أن لديه زيارة عاجلة وغادر على نحو غير متوقع.

في وقت لاحق من ذلك المساء قرّرتا ألا تخرجا ـ فقد حدث شيء غريب. كان ذلك بعد العشاء مباشرة، وفي وسط محادثة سارة. كانت السجائر قد نفدت، وطلبت مني مونا أن أنظر في حقيبتها. فعادة توجد سيجارة تائهة في قعر حقيبتها. نهضت، وتوجهت إلى الخزانة حيث تضع حقيبتها، وما أن فتحت الحقيبة، حتى لاحظت مغلفاً معنوناً إلى مونا بخط يد ستاسيا. وبلمح البصر أصبحت مونا بجانبي. فلو لم تظهر كلّ هذا الذعر، لربما تجاهلت وجود المغلف. ودون أن تتمكن من ضبط أعصابها أمسكت المغلف. لكني اختطفته من يدها، وعادت واختطفته مرة أخرى وأعقب ذلك شجار سقط فيه المغلف على الأرض ممزقاً. انقضّت عليه ستاسيا وأعادته إلى مونا.

«لماذا كلّ هذا الاهتمام؟» قلت، مكرراً كلمات كرونسكي بلاوعي مني.

أجابتا هما الاثنتان في وقت واحد: «هذا شيء لا يخصك».

لم أنبس بكلمة أخرى. لكن ذلك أثار فضولي. واعتراني شعور بأن الرسالة ستظهر ثانية، وأنه من الأفضل أن أتظاهر بعدم الاهتمام بها تماماً.

في وقت لاحق من ذلك المساء، عندما دخلت الحمّام، اكتشفت قطع المغلف تعوم في الطاسة. ضحكت. يا لها من طريقة سخيفة لإخباري بأن الرسالة قد أتلفت! لكني لم أستسلم بسهولة. فرحت أجمع قطع المغلف من الطاسة وفحصتها بدقة. إلا أنه لم يتطابق أي جزء من الرسالة بأيّ من القطع الأخرى. وتأكدت عندها أن الرسالة نفسها ما تزال موجودة، وأنها أخفيت في مكان ما، مكان لن يخطر لي أن أبحث فيه.

وبعد بضعة أيام حصلت على معلومة أثارت فضولي، ذكرتاها أثناء جدال حام بينهما. فقد كانتا في غرفة ستاسيا الصغيرة، حيث تجلسان عادةً عندما ترغبان في مناقشة الأمور السرية بينهما. ودون أن تدركا وجودي في البيت، أو ربما كانتا على درجة من الإثارة إلى حد أنهما نسيتا أن تخفضا صوتيهما، خرجت منهما كلمات ما كان يجب أن تصل إلى مسامعي.

كانت مونا وستاسيا تتشاجران. وكما فهمت، كان ذلك لأن الأخيرة تبدّد نقودها بطريقة حمقاء. أيّ مال؟ تساءلت. هل عثرت على ثروة؟ والشيء الذي أغضب مونا على ما يبدو، هو أن ستاسيا أعطت أحد الحمقى التافهين ـ لم اسمع الاسم جيداً ـ مبلغ ألف دولار. وكانت تحثّها على بذل جهد لاستعادة جزء من المال على الأقل. لكن ستاسيا ظلت تكرّر أنها لا تفكّر بالأمر، وهي لا تبالي ماذا فعل ذاك الأحمق بمالها.

ثم سمعت مونا تقول: «إذا لم تنتبهي فسيترصد بك أحدهم في إحدى الليالي».

فردت ستاسيا ببراءة: «لن يحالفهم الحظ. فلم يعد لديّ نقود».

«لم يعد لديك؟».

«طبعاً لا! ولا حتى شروى نقير».

«أنتِ مجنونة!».

«أعرف. لكن ما فائدة المال إذا لم يبذّر؟».

سمعت ما يكفي. قرّرت أن أخرج لأتمشى. عندما عدت لم تكن مونا في البيت.

«أين ذهبت؟» سألت. لم أكن قلقاً، بل فضولياً. وكردّ سمعت همهمة.

«هل هي غاضبة؟».

همهمة أخرى، تلتها عبارة: «أظن ذلك. لا تقلق، إنها ستعود».

كان أسلوبها يشي بأنها كانت سعيدة في سريرتها. فقد جرت العادة أن تغضب هي أيضاً، وتجري وراء مونا تبحث عنها.

«هل يمكنني أن أصنع لك قليلاً من القهوة؟» سألتني. كانت هذه المرّة الأولى التي تعرض فيها مثل هذا الاقتراح.

«لم لا؟» قلت، بلطف بقدر ما أمكنني.

جلست إلى الطاولة، قبالتها. قرّرت أن تحتسي قهوتها وهي واقفة.

«امرأة غريبة، أليس كذلك؟» قالت ستاسيا، متجاوزة جميع التمهيدات. «ماذا تعرف عنها حقاً؟ هل التقيت بأخوتها أو أمّها أو أختها؟ يقولون إن أختها تفوقها جمالاً. هل تظن ذلك؟ لكنها تكرهها. لماذا؟ إنها تخبرك الكثير، ثم تتركك معلقاً. هل لاحظت أنها تحوّل كلّ شيء إلى لغز؟».

توقفت لبرهة عن رشف قهوتها.

«لدينا الكثير من الأمور التي يمكننا أن نتحدّث عنها، إذا أتيحت لنا الفرصة. ربما كان بوسعنا أن نضع الأمور في نصابها».

كنت على وشك أن أقول إنه ليس ثمة فائدة حتى من مجرد المحاولة عندما استأنفت مناجاتها.

«لقد رأيتها على المسرح، كما أظن؟».

هززت رأسي.

«أتعرف لماذا أسأل؟ لأنها لا تبهرني كممثلة. ولا ككاتبة أيضاً. إنها لا تصلح لشيء. فكلّ شيء عبارة عن جزء من اختلاق ضخم، بما في ذلك هي نفسها. فالشيء الوحيد الحقيقي فيها هو ادعاؤها، وحبّها لك».

بعث ذلك رجفة في جسدي. «أتصدقين هذا حقاً؟».

«أصدقها؟» ردّدت. «لو لم تكن معها، لما وجدت سبباً لوجودها. إنك حياتها...».

«وأنتِ؟ ما موقعك بالنسبة لها؟».

ابتسمت لي ابتسامة غريبة وقالت: «أنا؟ أنا مجرّد قطعة أخرى من الوهم الذي تخلقه حولها. أو ربما مرآة ترى فيها نفسها الحقيقية بين الحين والآخر. مرآة مشوّهة بالطبع».

ثم انحرفت إلى الحديث عن الموضوع الأكثر ألفة، فقالت: «لماذا لا تجعلها تتوقف عن التنقيب عن هذا الذهب؟ فلا حاجة لها لأن تفعل ذلك. كما أن الطريقة التي تسير فيها تثير القرف. لا أعرف ما الذي يجعلها تفعل ذلك. إنها لا تسعى وراء المال. المال مجرد ذريعة لشيء آخر. تتقرب من الشخص لكي تثير الاهتمام بنفسها فقط. وما أن يبدي المرء شيئاً ينم عن اهتمام حقيقي، حتى تذلّه وتهينه. لقد جعلت ريكاردو المسكين يتعذّب، جعلته يتلوى مثل سمك الأنقليس... يجب أن نفعل شيئاً، أنا وأنت. يجب أن يتوقّف كلّ هذا».

ثم واصلت كلامها: «إذا كان عليها أن تعمل، فيجب ألا تذهب إلى ذلك المكان المروّع كلّ ليلة وتستمع إلى جميع تلك المخلوقات القذرة التي تتودّد وتتزلف إليها. ما الذي يوقفك عن منعها؟ هل تخاف ألا تكون سعيدة وتعيش حياة مملة؟ أو لعلك تظن أني أنا من أضِلّ طريقها؟ أليس كذلك؟ هل تظن أني أحبّ هذا النوع من الحياة؟ مهما كنت تفكّر فيّ، فيجب أن تدرك حقاً أنه ليس لي علاقة بكلّ هذا».

توقّفت فجأة.

«لماذا لا تتكلّم؟ قل شيئاً!».

ما أن أوشكتُ على فتح فمي، حتى دخلت مونا تحمل باقة من البنفسج. عرض للسلام. وسرعان ما خيّم جوّ من الهدوء والسلام، يسوده الانسجام، إلى درجة أنهما كادتا تخرجان عن طوريهما. أخرجت مونا عدة الرتق وأخرجت ستاسيا علبة ألوانها. خيّل إليّ أن كلّ هذا يحدث على خشبة المسرح.

وبسرعة كبيرة رسمت ستاسيا صورة عني ـ على الجدار قبالتي. كنت في صورة صيني، أرتدي سترة صينية زرقاء، تبرز القسمات الصارمة، الحكيمة التي كان من الواضح أنها ترتسم على وجهي.

كانت في رأي مونا رائعة. وأثنت عليّ أيضاً بطريقة أمومية لجلوسي ثابتاً وكوني لطيفاً مع ستاسيا. كانت تعرف دائماً أن أحدنا سيعرف الآخر ذات يوم، ونصبح صديقين جيدين.

بدت سعيدة للغاية إلى درجة أنها دلقت محتويات محفظتها دون أن تقصد ذلك على الطاولة وهي تبحث عن سيجارة ـ وسقطت الرسالة من حقيبتها. ولدهشتها أمسكتها وقدمتها لها، دون أن أحاول النظر إلى سطر واحد أو سطرين.

«لماذا لا تدعينه يقرأها؟» قالت ستاسيا.

«سأفعل ذلك»، قالت، «لكن ليس الآن. لا أريد أن أفسد عليه هذه اللحظة».

قالت ستاسيا: «لا شيء يدعو للخجل».

فقالت مونا: «أعرف».

قلت: «انسيا الموضوع، فلم أعد فضولياً».

«إنكما رائعان! كيف يمكنني ألا أحبكما؟ إني أحبكما كثيراً».

هنا انفجرت ستاسيا ضاحكة، وكانت في مزاج شيطاني قليلاً، وأجابت: «قولي لنا، من تحبين أكثر؟».

بدون أدنى تردد قالت: «لا يمكنني أن أحبّ أحداً منكما أكثر من الآخر. أحبكما كليكما. ولا علاقة لحبّي لأحدكما بحبّي للآخر. كلما أحببتك أكثر يا فال أحببت ستاسيا أكثر».

«هناك جواب لك»، قالت ستاسيا، وهي ترفع فرشاتها لتواصل رسم اللوحة.

ساد صمت لبضع لحظات، ثم تحدثت مونا.

«عما كنتما تتكلمان بحق السماء عندما كنت خارج البيت؟».

«طبعاً عنكِ» قالت ستاسيا. «أليس كذلك يا فال؟».

«نعم، كنا نقول كم أنت رائعة. لكن لا نفهم لماذا تحاولين أن تخبئي عنا أشياء».

انتفضت على الفور. «أيّ أشياء؟ ماذا تقصد؟».

«دعينا لا نخوض في هذا الأمر الآن»، قالت ستاسيا وهي تضرب الفرشاة. «لكن قريباً يجب أن نجلس نحن الثلاثة، ونعيد ترتيب الأمور، ألا تظنين ذلك؟» والتفتت ونظرت إلى مونا مباشرة.

«ليس لدي اعتراض»، جاء ردّ مونا ببرود.

«انظر، لقد انزعجت»، قالت ستاسيا.

«إنها لا تفهم»، قلت.

ثورة غضب مرة أخرى. «ما هو الشيء الذي لا أفهمه؟ ما هذا؟ ما قصدكما؟».

«في واقع الأمر لم يكن عندنا أشياء كثيرة نتحدث عنها عندما كنت في الخارج»، قلت، ثم أضفت «كنا نتحدّث عن الحقيقة والصدق في غالب الأحيان... فكما تعرفين أن ستاسيا صادقة جداً».

علت شفتا مونا ابتسامة خفيفة. بدت على وشك أن تقول شيئاً، لكني قاطعتها.

«لا داعي للقلق. فلن نستجوبك».

«إننا نريد فقط أن نرى مقدار صدقك»، قالت ستاسيا.

«إنك تتكلّمين كما لو كنت ألعب معك لعبة».

«تماماً»، قالت ستاسيا.

«هكذا إذن! أترككما وحدكما لبضع دقائق وتغتابانني. ماذا فعلت لأستحق منكما مثل هذه المعاملة؟».

هنا فقدت مسار الحديث. فكلّ ما كان بوسعي أن أفكّر فيه هو تلك الملاحظة الأخيرة ـ ماذا فعلت لاستحق منكما مثل هذه المعاملة؟ التي كانت عبارة أمّي المفضّلة عندما تكون في ضيق. وكانت تميل برأسها عادة إلى الوراء، كما لو أنها توجه كلماتها إلى الله. وحين سمعتها تقول هذه العبارة لأول مرّة ـ كنت مجرد طفل ـ امتلأت بالرعب والاشمئزاز. كانت نبرة الصوت هي التي أثارت استيائي أكثر من الكلمات. هذا الإحساس بأنها دائماً على حق! رثاء الذات ذاك! كما لو أنّ الله اختارها، مخلوق لا على التعيين، ليعاقبها بشكل عشوائي.

أما عندما سمعتها الآن من شفتي مونا، فقد أحسست كما لو أنّ الأرض انشقت تحت قدميّ. «إذن فأنت مذنبة»، قلت لنفسي. مذنبة بأي شيء، لم أبذل أي جهد لتحديده. مذنبة، وهذا ما في الأمر. فقد كان بارلي يأتي لزيارتنا بين الحين والآخر بعد الظهر، ويختلي

بستاسيا في غرفتها الصغيرة، ويفقس بضع بيضات (قصائد)، ثم يهرع خارجاً. وفي كلّ مرة كنت تسمع أصواتاً غريبة تصدر من قاعة غرفة النوم. صيحات حيوانية، ممزوجة بالخوف والنشوة. كما لو أن قطة ضالّة دخلت إلى بيتنا.

وفي أحد الأيام جاء أولريك، لكنه وجد الأجواء كئيبة وعندها عرفت أنه لن يكرّر هذه الزيارة ثانية. تحدث كما لو كنت أمرّ «بمرحلة أخرى». وكأنه كان يقول ـ عندما تخرج من النفق، ابحث عني! كان حريصاً على ألا يبدي أيّ تعليق حول ستاسيا. وكان كلّ ما قاله: «إنها غريبة الأطوار!».

وللاستمرار في التودد والتقرب منها قرّرت ذات يوم أن أشتري تذاكر للمسرح. واتفقنا على أن نلتقي خارج المسرح. حلّ المساء. انتظرت نصف ساعة بعد أن ارتفعت الستارة، لكن مونا لم تأتِ. ومثل تلميذ مدرسة، كنت قد اشتريت باقة من البنفسج لأقدمها لها. وعندما رأيت انعكاس صورتي في واجهة أحد الدكاكين، حاملاً باقة البنفسج في يدي، اعتراني شعور مفاجئ بأني أحمق إلى حد أني رميت البنفسج وانصرفت. وعندما اقتربت من ناصية الشارع، التفتت في الوقت المناسب، ورأيت فتاة صبية تلتقط البنفسج. رفعتها إلى أنفها، وأخذت نفحة عميقة، ثم رمتها.

حين وصلت إلى البيت لاحظت أنّ جميع الأضواء منارة. وقفت في الخارج بضع دقائق، وقد اعترتني الحيرة بسبب اندلاع صوت أغنية من الداخل. وللحظة تساءلت إن كان يوجد عندنا ضيوف. لكن لا، كانتا وحدهما. ومن المؤكد أنهما كانتا مفعمتين بالبهجة.

كانت الأغنية التي تغنيانها بأعلى صوتهما «دعني أدعوك حبيبي».

«لنغنّيها مرة أخرى!» قلت، عندما دخلت إلى البيت.

ورحنا نغني نحن الثلاثة.

«دعني أدعوك حبيبي، إني أحبك...» ورحنا نغنيها ونعيدها مرة وأخرى. وفي المرّة الثالثة رفعت يدي.

«أين كنتِ؟» صرخت في وجهها.

«أين كنت» قالت مونا. «لماذا، كنت هنا».

«وموعدنا؟».

«لم أكن أظن أنك كنت جدياً».

«لم تظنين؟» وصفعتها صفعة على وجهها أصدرت صوتاً قوياً. صفعة حقيقية.

«في المرة القادمة، سأجرك من ذيلك يا سيدتي».

جلست إلى المنضدة وألقيت نظرة فاحصة عليهما.

هنا تلاشى غضبي.

«لم أكن أقصد صفعك بقوة»، قلت، ورفعت قبعتي.

«تبدو في نفسية جيدة هذا المساء. ماذا حدث؟».

أمسكتا بذراعي وأخذتاني إلى الجزء الخلفي من البيت، حيث توجد أحواض الغسيل.

«هذا هو»، قالت مونا، مشيرة إلى كومة من مواد البقالة. «كان عليّ أن أكون هنا عندما وصلت. لم تكن هناك وسيلة لأخبرك في حينها. لهذا السبب لم ألتق بك».

غاصت في الكومة واستلت منها قنينة من البنيديكين.

واختارت ستاسيا قليلاً من الكافيار الأسود والبسكويت.

لم أعبأ بسؤاليهما كيف حصلتا على هذه الغنائم. لأنهما ستخبراني بذلك في ما بعد.

«ألا يوجد نبيذ؟» سألت.

«نبيذ؟ بالطبع يوجد. ماذا أحبّ، بوردياكس، نبيذ الراين، موسيل، تشيانتي، بيرغندي...؟».

فتحنا قنينة نبيذ الراين. ومرطبان من سمك السلمون المدخن، وعلبة من البسكويت الإنكليزي ـ الأجود. عدنا إلى أماكننا حول المائدة.

«ستاسيا حامل»، قالت مونا، وكأنها تقول: «لقد اشترت ستاسيا ثوباً جديداً».

«هل هذا ما تحتفلان به؟».

«طبعاً لا».

التفّت إلى ستاسيا وقلت: «خبرينا عن ذلك، كلي آذان صاغية». تضرج وجهها وراحت تنظر إلى مونا. ثم قالت: «دعها تخبرك».

التفت إلى مونا. «حسناً؟»

«إنها قصة طويلة يا فال، لكني سأختصرها. لقد هاجمها عدد من أفراد العصابة في القرية واغتصبوها».

«هم؟ كم عددهم؟».

«أربعة» قالت مونا. «هل تتذكّر الليلة التي لم نعد فيها إلى البيت؟ كان ذلك في تلك الليلة».

«إذن لا تعرفين من هو الأب الحقيقي؟».

«الأب؟» ردّدتا. «لسنا قلقتين على الأب».

قلت: «سيسعدني أن أعتني بالطفل»، ثم أضفت «لكن كلّ ماأحتاج إلى تعلّمه هو كيف أنتج الحليب».

«لقد تكلّمنا مع كرونسكي»، قالت مونا. «وعد بأن يتدبر الأمر. لكنه يريد أن يفحصها أولاً».

«مرة أخرى؟».

«يجب أن يتأكد».

«هل أنت متأكّدة؟».

«لقد توقف الحيض عند ستاسيا».

«هذا لا يعني شيئاً» قلت. «يجب أن يكون عندك دليل أفضل من هذا».

تكلّمت ستاسيا الآن وقالت: «بدأ ثدياي يصبحان ثقيلين»، وحلّت أزرار بلوزتها، وأخرجت أحد ثدييها. «انظر»، وعصرته بلطف. فظهرت نقطة أو نقطتان بدتا مثل صديد أصفر. قالت «إنه حليب».

«كيف عرفتِ؟».

«لقد ذقته».

طلبت من مونا أن تعصر ثدييها لنرى ما سيحدث، لكنها رفضت. قالت إنها تشعر بالإحراج.

«إحراج؟ تجلسين وتلفين ساقاً على ساق وترينا كلّ شيء لديك، ثم ترفضين أن تخرجي ثدييك. هذا ليس إحراج، إنه انحراف».

أخذت ستاسيا تضحك، وقالت: «صحيح، ما الضير في أن تكشفي عن صدرك؟»

«أنتِ الحامل، لا أنا»، قالت مونا.

«متى سيأتي كرونسكي؟».

«غداً».

صببت لنفسي كأساً آخر من النبيذ ورفعته إلى الأعلى.

«بصحة من لم يولد بعد!» قلت. ثم خفضت صوتي، وسألت إن كانتا قد أبلغتا الشرطة.

تجاهلتا سؤالي، كما لو كانتا تريدان أن تخبراني بأن الموضوع قد أغلق، وقالتا إنهما تزمعان الذهاب إلى المسرح بعد قليل. وستسعدان بمرافقتي لهما، إن أردت.

«ماذا ستشاهدان؟» سألت.

«الأسير»، قالت ستاسيا. «مسرحية فرنسية. إنها حديث البلد».

خلال الحديث كانت ستاسيا تحاول قصّ أظافر قدميها. وجدت صعوبة كبيرة في القيام بذلك فطلبت منها أن تدعني أفعل لها ذلك. وعندما انتهيت اقترحت أن تدعني أمشّط لها شعرها. كانت مسرورة.

وبينما كنت أمشّط شعرها، راحت تقرأ بصوت عال من قصة المركب السكران. وبما أني كنت استمع بمتعة واضحة، قفزت واقفة، وذهبت إلى غرفتها لتجلب السيرة الذاتية لرامبو. كان فصل في الجحيم. ولو لم تتضافر الأحداث لإحباطه، لأصبحت من محبي رامبو في ذلك الزمان والمكان.

يجب أن أقول إننا لم نكن نمضي الأمسية معاً بهذه الطريقة في أغلب الأحيان، أو لم تكن تنتهي بشكل جيد هكذا.

وبوصول كرونسكي في اليوم التالي، تبين لنا أن نتائج الفحص سلبية، وبدأت الأشياء تنحرف بشكل جديّ. كنت أحياناً أخلي المكان فيما تستضيفان صديقاً خاصاً جداً، عادة ما يكون محسناً يجلب لهما مواد البقالة، أو يترك شيكاً على الطاولة عندما يغادر. وعندما كانتا تتحدثان أمامي، تتحدثان في غالب الأحيان حديثاً مراوغاً، أو تتبادلان قصاصات من الورق تكتبانها أمامي. أو كانتا تدخلان إلى غرفة ستاسيا وتقفلان على نفسيهما لمواصلة حديثهما همساً لفترة لا يعلمها إلا الله. حتى القصائد التي كانت تكتبها ستاسيا، تصبح أشد غموضاً. على الأقل، القصائد التي تنازلت وأرتني إياها. تأثير رامبو، قالت. أو صندوق المرحاض، الذي لم يتوقف عن الغرغرة.

وكنوع من الترويح عن النفس، كان يأتي لزيارتنا من حين لآخر أوسيكي الذي اكتشفت أنه متحدث لبق. وكنت أحتسي معه قليلاً من البيرة، إلى أن تلمع عيناه ويبدأ يخدش نفسه. وأحياناً كنت أقرر أن أذهب إلى هوبوكين، وبينما أتجوّل وحيداً ويائساً، كنت أحاول أن أقنع نفسي أنها كانت حصناً هاماً. وكانت ويهاوكين مكاناً إلهياً

مهجوراً آخر أذهب إليه من حين إلى آخر، لمشاهدة عرض هزلي. أيّ شيء لأهرب من جوّ القبو الجنوني، حيث تسمع باستمرار أغاني الحبّ التي تغنيانها باللغة الروسية والألمانية، بل وحتى بلغة اليديش! - الأحاديث الغامضة تدور في غرفة ستاسيا، الأكاذيب السافرة، الكلام الكئيب عن المخدّرات، مباريات المصارعة...

نعم، كانتا تقيمان بين الحين والآخر مباراة مصارعة من أجلي. هل كانت مباريات مصارعة؟ يصعب قول ذلك. وكنت أستعير أحياناً، لتغيير الرتابة، فرشاة وألواناً وأرسم كاريكاتيراً عن ستاسيا. دائماً على الجدران. وكانت ترد الصاع صاعين. ففي أحد الأيام رسمت جمجمة وعظمتين على باب غرفتها. وفي اليوم التالي وجدت سكين جزار معلقاً فوق الجمجمة والعظام.

ذات يوم أخرجت مسدساً قبضته مكسوة باللؤلؤ وقالت «عسى ولعل».

بدأت تتهمني الآن بأني أتسلل إلى غرفتها وأعبث بأغراضها.

وفي إحدى الأمسيات، فيما كنت أتجوّل وحيداً في الحي البولندي في مانهاتن، صادفت قاعة للعب البلياردو حيث وجدت، لمفاجأتي الكبيرة، كيرلي وصديق له يلعبان البلياردو. كان هذا الصديق شاباً صغيراً غريباً، وأطلق سراحه من السجن منذ فترة قصيرة. كان مثيراً للغاية ومليئاً بالخيال. أصرّا على أن يعودا معي إلى البيت لنتحادث.

في قطار الأنفاق حدّثت كيرلي عن ستاسيا. وكانت ردة فعله كما لو أنّ الأمر كان مألوفاً تماماً له.

«يجب عمل شيء» قال بإيجاز.

وبدا أن عقلية صديقه تشبه عقليته.

قفزا ما أن أنيرت الأضواء.

«لا بد أنها مجنونة!» قال كيرلي.

تظاهر صديقه بأن اللوحات أخافته. ولم يستطع أن يرفع عينيه عنها.

«لقد رأيتها من قبل»، قال وهو يقصد في مستشفيات المجانين.

«أين تنام؟» قال كيرلي.

أريتهما غرفتها. كانت في حالة من الفوضى المستحكمة ـ كتب، مناشف، سراويل داخلية، فتات خبز مبعثرة على السرير وعلى الأرض.

«مجنونة! مجنونة حقيقية!» قال صديق كيرلي.

كان كيرلي في هذه الأثناء قد بدأ يتفحّص المكان. وراح يفتح الأدراج الواحد تلو الآخر، يخرج المحتويات، ثم يعيدها إلى مكانها.

«عما تبحث؟» سألته.

نظر إليّ وابتسم ابتسامة عريضة وقال: «وما يدريك». وثبّت عينيه في الحال على الصندوق الكبير الموجود في ركن الغرفة تحت صندوق المرحاض.

«ماذا يوجد فيه؟».

هززت كتفيّ.

«لنر»، قال. وحلّ الأربطة، لكن الغطاء كان مقفلاً. استدار إلى صديقه وقال: «أين مفكك؟ هيا ابدأ العمل! لديّ إحساس بأننا سنجد شيئاً مثيراً للاهتمام».

وبلحظة واحدة فتح صديقه القفل. وبدفعة واحدة ألقيا غطاء الصندوق. كان أول شيء تقع عليه عيوننا صندوق حديدي صغير، لاشكّ في أنه صندوق مجوهرات. لم يُفتح. أخرج الصديق مفكه ثانية. ولم يستغرق معه فتح الصندوق سوى لحظة واحدة.

وفي وسط كومة من الرسائل الغرامية ـ من أصدقاء مجهولين ـ

اكتشفنا الرسالة التي كان من المفترض أنها غرقت في مياه المرحاض. كانت مكتوبة بخطّ يد مونا، كما هو متوقع. وكانت بدايتها على النحو التالي: «يأس، يا حبيبتي...».

«احتفظ بها»، قال كيرلي، «ربما احتجتها في وقت لاحق». وبدأ يعيد الرسائل الأخرى إلى الصندوق. ثمّ التفت إلى صديقه ونصحه بأن يجعل القفل يبدو كما كان من قبل. «تأكد من أن قفل الصندوق يعمل جيداً أيضاً»، أضاف. «يجب ألا تشكا بشيء».

ومثل عاملين فنيين على خشبة المسرح، مضيا لإعادة الغرفة إلى حالتها الأصلية من الفوضى، حتى إلى بعثرة فتات الخبز. وتجادلا لبضع دقائق إن كان أحد الكتب ملقى على الأرض مفتوحاً أم لا.

وبينما كنا على وشك مغادرة الغرفة، أصرّ الشابّ على أن الباب كان موارباً، ولم يكن مغلقاً.

«اللعنة!» قال كيرلي. «لن تتذكّرا ذلك».

مفتوناً بهذه الملاحظة، قلت: «ماذا يجعلك متأكّداً إلى هذه الدرجة؟».

فأجاب: «مجرد إحساس. إنك لا تتذكر إلا إذا كان لديك نية تجعلك تترك الباب موارباً. لأيّ سبب تركته هكذا؟ لا شيء. إنه أمر بسيط».

«إنه في غاية البساطة»، قلت. «يتذكّر المرء أحياناً أشياء تافهة بدون منطق».

وكان جوابه أن أي شخص يعيش في حالة من القذارة والفوضى، ربما لا يمكن أن تكون لديه ذاكرة جيدة. وقال: «خذ اللص مثلاً. أتعرف ماذا يفعل، حتى عندما يرتكب خطأ. إنه يقتفي أثر الأشياء. يجب عليه أن يفعل ذلك، وإلا وقع في ورطة غير سعيدة. إسأل هذا الرجل!».

«إنه محق»، قال صديقه، «الخطأ الذي ارتكبته هو أني كنت شديد الحذر». وأراد أن يحكي لي قصته، لكني حثثتهما على الذهاب وقلت له: «ستروبها لي في المرة القادمة».

عندما خرجنا إلى الشارع، استدار كيرلي ليبلغني أنه يمكنني الركون لمساعدته في أيّ وقت، وقال: «سنتدبر أمرها».

5

أصبحت الأمور تبدو وكأنها سلسلة متتابعة من أحلام اليقظة. لكن ماذا عن قراءة الأحشاء، وكشف الأكاذيب، والنوبات التي تنتاب أوسيكي، والنزهات الفردية على طول الشاطئ في الليل، واللقاءات مع «الأساطين» في المكتبة العامة، واللوحات الجدارية، والحوارات التي أجريها مع نفسي الأخرى في الظلام، وهكذا دواليك. لم يعد ثمة شيء يفاجئني، حتى وصول سيارة الإسعاف. أحدهم، وعلى الأرجح كيرلي، هو الذي خرج بهذه الفكرة ليخلصني من ستاسيا. ولحسن الحظ أني كنت وحدي في البيت عندما توقفت سيارة الإسعاف. قلت للسائق إنه لا توجد امرأة مجنونة في هذا العنوان. بدا مستاءً. قال إن أحداً خابرهم وطلب منهم المجيء ليأخذوها. قلت إن ثمة خطأ في الأمر.

وكانت تأتي بين الحين والآخر الأختان الهولنديتان صاحبتا المبنى لتتأكدا من أن كلّ شيء على ما يرام. وما كانتا تبقيا أكثر من دقيقة أو دقيقتين. ولم أرهما قط إلا وهما ترتديان ثياباً رثة، وشعرهما أشعث، وغير نظيفتين. وكانت إحدى الأختين ترتدي جوارب نسائية زرقاء، وترتدي الأخرى جوارب بيضاء ووردية مخططة، بخطوط حلزونية، تشبه الخطوط الموجودة على عمود كرسي الحلاق.

لكن ماذا عن مسرحية الأسير... ذهبت لمشاهدة المسرحية وحدي، دون أن أبلغهما. وبعد أسبوع ذهبتا لمشاهدتها، وعادتا

بأزهار البنفسج، وكانت جعبتهما مليئتين بالأغاني. وكانت هذه المرة أغنية: «قبلة واحدة فقط في الظلام».

وذات مساء ـ لا أعرف كيف حدث ذلك؟ ـ ذهبنا نحن الثلاثة لتناول الطعام في مطعم يوناني. وهناك أفشتا السرّ عن مسرحية الأسير. يا لها من مسرحية رائعة، وكيف عليّ أن أشاهدها، فلعلها توسّع مداركي. «لكني شاهدتها!» قلت، «شاهدتها منذ أسبوع». وعندها بدأ الحديث عن مزايا المسرحية، وانتهى بشجار لأني لم أوافقهما الرأي، ولأني فسرت الأشياء بطريقة مملة وفظة. وفي غمرة الجدال أخرجت الرسالة المسروقة من الصندوق الصغير. وبدل أن تكونا كاسفتي البال أو ذليلتين، انقضتا عليّ بهذا السمّ المقذع، ووجهتا إليّ كلّ هذا العواء والنتانة، حيث كاد المطعم كله يضج بالفوضى والصراخ، وطُلب منا، بدون تهذيب، أن نغادر المطعم.

وكما لو أنها كانت ترغب في أن تعيد الأمور إلى نصابها، اقترحت مونا في اليوم التالي أن أخرج وإياها ذات ليلة وحدنا بدون ستاسيا. عارضتُ في البداية، لكنها أصرّت. خطر لي ربما كان لديها أسبابها، التي ستكشف عنها في الوقت المناسب، فوافقت. واتفقنا على أن نخرج ليلة بعد غد.

حلّ المساء، وفيما كنا على وشك مغادرة المنزل، بدأت تتردد. حقاً، فقد رحت أنتقد مظهرها، أحمر الشفاه، الجفون الخضراء، الخدان الأبيضان المكسوان بالمسحوق، القفطان الطويل الذي يلامس الأرض، التنورة التي تكاد تصل إلى ركبتيها، والأهم من كل هذا وذاك، الدمية، الكونتيسة بروجا القبيحة التي كانت تضمها إلى صدرها والتي تريد أن تأخذها معها.

قلت «لا. بحق السماء».

«لم لا؟».

«لأن... اللعنة، لا!».

أعطت الكونتيسة إلى ستاسيا، وخلعت القفطان، وجلست تفكّر في الأمر. ومن تجربتي معها عرفت أن أمسيتنا قد انتهت. ولدهشتي اقتربت ستاسيا ووضعت كلتا ذراعيها حولنا ـ تماماً كأخت كبيرة ـ ورجتنا أن لا نتشاجر. وقالت: «اذهبا، اذهبا واستمتعا بوقتكما! سأنظّف البيت بعد أن تخرجا». ودفعتنا إلى الخارج برفق، وبينما كنا نبتعد أخذت تردد «امضيا وقتاً طيباً! تمتّعا بوقتكما».

كانت بداية سيئة لكننا قرّرنا أن نتابع المشوار. وفيما رحنا نغذّ الخطى ـ لماذا؟ إلى أين نتجه بسرعة؟ ـ شعرت وكأني سأنفجر. لكني لم أنبس بكلمة واحدة، ولذت بالصمت. ها نحن هنا، نغذّ الخطى يداً بيد «لنستمتع بوقتنا»، لكن لم تكن توجد خطة محددة. هل خرجنا لنتنشق الهواء فقط؟

أدركت الآن أننا نسير باتجاه محطة قطار الأنفاق. دخلنا، انتظرنا قطاراً، ركبنا، جلسنا. ولم يكن أحدنا قد نبس بكلمة واحدة. نهضنا عند محطة تايمز سكوير، كشخصين آليين تم ضبطهما على الموجة نفسها، وهبطنا الدرج. برودواي. برودواي القديمة ذاتها، أضواء النيون القديمة المتلألئة نفسها. واتجهنا غريزياً شمالاً. كان الناس يتوقفون في دربهم ويحدقون فينا. تظاهرنا بأننا لم نكن نلاحظ.

وأخيراً وصلنا إلى أمام مطعم تشين لي. سألتني «هل نصعد؟» هززت رأسي. اتجهنا مباشرة إلى المقصورة التي جلسنا فيها في تلك الليلة الأولى ـ منذ ألف سنة.

ما أن جاء الطعام حتى انحلت عقدة لسانها. فاض كالطوفان: الطعام الذي تناولناه، الطريقة التي واجه فيها أحدنا الآخر، الشجون التي كنا نبثها، الأشياء التي قالها أحدنا إلى الآخر... لم نترك تفصيلاً واحداً.

وبينما راحت الذكريات تتدفق الواحدة تلو الأخرى بدأ التوهج العاطفي يستعر في قلبينا. «وقعت في الحبّ ثانية... لم أكن أرغب

أن أفعل ذلك أبداً... ماذا عليّ أن أفعل...؟» كما لو أن شيئاً لم يحدث خلال هذه الفترة ـ لا ستاسيا، لا حياة الأقبية، لا سوء تفاهم. فقط نحن الاثنان، طيران من طيور الحبّ، مع حياة أبدية.

البروفة النهائية، هذا ما كان. غداً سنعود لتأدية أدوارنا ـ في مسرح مكتظ بالجمهور.

لو سئلت ما الواقع الحقيقي، حلم الحبّ هذا، التهويدة هذه، أو المسرحية المطلية بالنحاس التي ألهمتها، لقلت «هذه. إنها هي!»

الحلم والحقيقة ـ أليسا قابلين للتبادل؟

ما وراء أنفسنا، منحنا ألسنتنا الحرية المطلقة. راح أحدنا ينظر إلى الآخر بعيون جديدة، بعيون أكثر شراهة، عيون أكثر نهماً من أي وقت مضى. تصدق، تعد كما لو أنها كانت آخر ساعة لنا على الأرض. وأخيراً عثر أحدنا على الآخر، فهم أحدنا الآخر، وسيحبّ أحدنا الآخر إلى أبد الآبدين.

كنا ما نزال نديين، ما نزال نترنّح من أبخرة النعمة، غادرنا وأيدينا متشابكة، ورحنا نطوف في الشوارع. لم يتوقف أحد لينظر إلينا.

جلسنا ثانية في مقهى برازيلي واستأنفنا الحوار. هنا أظهر التيار إشارات متقلبة. الآن توقفت الاعترافات المشوبة بالذنب والندم. كلّ ما فعلته، وقد فعلت أشياء أسوأ مما كنت أتخيّل، فعلتها بسبب خشيتها من أن تفقد حبي.

كم كنت ساذجاً، أصررت على أنها تبالغ، رجوتها أن تنسى الماضي. قلت ليس من المهم إن كان ذلك حقيقياً أم زائفاً، متخيّلاً أم واقعياً. وأقسمت أنه لا يمكن أن يكون هناك أحد سواها.

كانت الطاولة التي نجلس إليها مصنوعة على شكل قلب. ولهذا القلب الياقوتي، وجّهنا ولاءنا الأبدي.

وأخيراً لم أعد أتحمل أكثر من ذلك. فقد سمعت الكثير.

«لنذهب» رجوتها.

عدنا إلى البيت في سيارة أجرة، منهكين إلى حد أننا لم نتبادل ولا كلمة أخرى.

دخلنا إلى مشهد آخر. كان كلّ شيء مرتباً، مصقولاً، متلألئاً. أعدّت المائدة لثلاثة أشخاص. وفي وسط المائدة كانت تنتصب مزهرية ضخمة أزهرت فيها باقة ضخمة من البنفسج.

كان من الممكن أن يكون كلّ شيء مثالياً لولا البنفسج. فقد بدا أن وجوده فاق تأثير الكلمات التي عبرت بيننا. كانت لغتها الصامتة بليغة ومفحمة. ودون أن تفتح شفاهها، أوضحت لنا أن الحبّ شيء يجب تبادله وتقاسمه. «أحببني كما أحبك»، تلك هي الرسالة.

كان عيد الميلاد على الأبواب، وإجلالاً لروح موسم الأعياد قرّرتا دعوة ريكاردو لزيارتنا. فقد كان يرجو منحه هذا الشرف منذ أشهر. كيف استطاعتا تأجيل هذا الخاطب المثابر لفترة طويلة، كان أمراً يفوق طاقتي على الفهم.

لقد ذكرتا اسمي مرات عديدة لريكاردو - فقد كنت صديقهما، الكاتب الغريب الأطوار، وربما كنت عبقرياً! - وقد اتفقنا على أن أدخل إلى البيت بعد وصوله بفترة وجيزة. وكان هناك هدف مزدوج في هذه الاستراتيجية، لكن الهدف الرئيسي كان للتأكد من أن ريكاردو قد غادر عندما تغادران.

وصلت لأجد ريكاردو يرتق تنورة. كانت تسود أجواء فيرمير، أو غلاف صحيفة ساترداي إيفنينغ بوست الذي يصوّر نشاط جمعية بيت السيدات.

أحببت ريكاردو على الفور. فقد كان كلّ ما قالتاه عنه، فضلاً عن أشياء لم تتمكن هوائياتهما من التقاطه. وفي الحال بدأنا نتحدث كما لو كنا صديقين طوال حياتنا، أو أخوة. كانتا قد قالتا إنه من أصل كوبي، لكني سرعان ما اكتشفت أنه من كاتالونيا، وأنه هاجر

في شبابه إلى كوبا. وشأن آخرين من بني قومه، كانت تبدو عليه سماء الجدية، يكاد يكون عبوساً. لكنه ما أن يبتسم حتى تكتشف أن له قلب طفل. وكان صوته الحلقي الغليظ يجعل كلماته تبدو وكأنها تنقر نقراً. ومن الناحية الجسدية كان يشبه إلى حد كبير عازف التشيلو الاسباني كاسالس. كان جدياً، لكن ليس إلى حد مميت كما أوحيتا إليّ.

عندما رأيته منكباً على عملية الرتق، تذكرت حديث مونا عنه ذات مرة، وخاصة العبارة التي قالها بهدوء: «سأقتلكِ ذات يوم».

كان بالفعل رجلاً قادراً على القيام بشيء كهذا. والغريب أنه تولّد لديّ شعور بأنّ أيّ شيء يقرره ريكاردو يكون مبرّراً تماماً. فالقتل في حالته لا يمكن أن يسمى جريمة، بل عملاً من أجل تحقيق العدالة. فلم يكن بوسع الرجل أن يقدم على عمل شيء ملوّث. كان رجلاً طيباً، شديد الطيبة، في حقيقة الأمر.

وكان بين الحين والآخر يرشف الشاي الذي صبتاه له. ولولم يكن ساخناً جداً لارتشفه بذات الطريقة الهادئة، المطمئنة، على ما أظن. كان يتبع طقساً من الطقوس. حتى طريقته في الكلام كانت تعطي الانطباع بأنه جزء من الطقوس.

ففي إسبانيا كان موسيقاراً وشاعراً، وفي كوبا أصبح إسكافياً، وهنا أصبح نكرة. على أية حال، فكونه نكرة يلائمه تماماً. إذ لم يكن أحداً وكان كلّ شخص. لا شيء يثبته، لا شيء ينجزه. بل كان كاملاً كصخرة.

وكان بسيطاً كالخطيئة، لكنه ينضح رقة ورحمة وطول أناة من كلّ مسام من مساماته. هذا هو الرجل الذي خيّل لهما أنهما تصنعان له معروفاً كبيراً! إلى أي حد لم تتوقعا أن الرجل يتمتع بقدرة كبيرة على الفهم! من المستحيل أن تظنا ذلك، إذ لا يمكن لهذا الرجل إلا أن يمنح المودّة، أو أنه لم يكن يتوقع من مونا شيئاً أكثر من تأجيج عاطفته المشبوبة.

«ذات يوم»، قال بهدوء، «سأتزوجك. ثم سيصبح كلّ هذا كالحلم».

وببطء رفع عينيه، أولاً نحو مونا، ثم نحو ستاسيا، ثم نحوي. كما لو كان يريد أن يقول «لقد سمعتموني».

«يا له من رجل محظوظ»، قال مثبتاً نظرته الرقيقة. «يا لك من رجل محظوظ لأنك تتمتع بصداقة هاتين المرأتين. إذ لم يسمحن لي حتى الآن أن أدخل دائرتهن الداخلية».

ثم التفت إلى مونا وقال: «ستتعبين قريباً من كونك غامضة إلى الأبد. فذلك أشبه بالوقوف أمام المرآة طوال النهار. أنا أراك من خلف المرآة. فاللغز ليس في ما تفعلين، بل في ما أنتِ. وعندما أخرجك من هذه الحياة السقيمة ستصبحين عارية كتمثال. إن جمالك الآن مجرد أثاث، نُقل من مكان إلى مكان آخر مرات كثيرة. يجب أن نعيده إلى مكانه ـ على كومة القمامة. في السابق، كنت أظن أنه يجب التعبير عن كلّ شيء بطريقة شاعرية، أو بالموسيقى. ولم أدرك أنه كان يوجد مكان وسبب لوجود الأشياء القبيحة. إن أسوأ شيء بالنسبة لي هو السوقيّة. لكن السوقيّة يمكن أن تكون صادقة، بل وحتى ممتعة، كما اكتشفت. يجب علينا ألا نرفع كلّ شيء كي يصل إلى مستوى النجوم. فأساس كلّ شيء الطين. حتى هيلين طروادة. لا يجب على أحد، حتى أكثر النساء جمالاً، أن تختبئ وراء جمالها...».

وبينما كان يتحدث هكذا، بهدوئه، بأسلوبه الرصين، كان يواصل عملية الرتق. ها هو الحكيم الحقيقي، قلت في نفسي. ذكر وأنثى منقسمين مناصفة، عاطفي، وهادئ، وصبور، غير مكترث، ورغم ذلك يعي ذاته تماماً؛ يرى بوضوح روح محبوبته الصامدة المخلصة، الوثنية تقريباً، ومع ذلك يدرك أدق عيوبها. روح لطيفة حقاً، كما يقول دوستويفسكي.

وظنتا أني سأجد متعة في الالتقاء بهذا الشخص لأني ضعيف أمام الحمقى!

وبدلاً من أن تتحدثا معه، امطرتاه بوابل من الأسئلة، أسئلة سخيفة تهدف إلى كشف البراءة اللامعقولة في طبيعته. وكان يجيب عن جميع استفساراتهما بالطريقة ذاتها. ويردّ عليهما كما لو أنه يردّ على ملاحظات أطفال لا معنى لها. وبينما كان يدرك تماماً عدم اكتراثهما الشديد بتفسيراته، التي يتقصد إطالتها، كان يتحدث كما يتحدث الرجل الحكيم وهو يتعامل مع طفل: فقد زرع في عقليهما البذور التي ستنبت لاحقاً، والتي ما أن تنبت، حتى يذكّرهما بوحشيّتهما، وجهلهما الراسخ، ونوعية الحقيقة الشافية.

وفي الواقع لم تكونا قاسيتين كما قد يبدو من سلوكهما. فقد كانتا منجذبتين إليه، ويمكن للمرء أن يقول إنهما كانتا تحبانه، بطريقة كانت بالنسبة لهما فريدة. ولا يمكن لأحد تعرفانه أن ينتزع منهما هذه المودّة المخلصة، هذا الاحترام العميق. فهما لم تسخرا من هذا الحبّ إن كان ذلك هو الأمر. كانتا في حيرة من أمرهما. كان ذلك النوع من الحبّ الذي لا يقدر على استحضاره عادة إلا حيوان. لأن الحيوانات فقط، كما يبدو، هي القادرة على أن تبدي قبولها التام للبشر الذي يجلب استسلام الكائن بكامله - استسلام مطلق، كما أن الإنسان نادراً ما يمنح ذلك إلى إنسان آخر.

كان هذا المشهد غريباً بالنسبة لي وهو أن يحدث حول طاولة يكثر فيها تبادل الكلام عن الحبّ باستمرار. وبسبب الفوران المستمر هذا أصبحنا نطلق عليها طاولة الأمعاء. وكنت أتساءل غالباً أين يمكن العثور على مثل هذا الاضطراب المستمر، هذا الجحيم العاطفي، هذا الحديث المدمّر عن الحبّ الذي ينتهي دائماً بخلاف؟ الآن فقط، وبوجود ريكاردو، ظهرت حقيقة الحبّ. والغريب أنه لم تكد هذه الكلمة تذكر. لكنه الحبّ، لا شيء آخر، هو الذي أشرق في قسماته كلها، تدفق في كلامه كله.

أقول الحبّ. ربما الله أيضاً.

وفهمت أن ريكاردو هذا، كان ملحداً إلى أبعد حد. ولعلهما قالتا إنه مجرم عريق أيضاً. ربما كان من أكثر الناس محبة لله، بين الملحدين الراسخين، المجرمين العريقين. مجانين الحبّ، إذا جاز القول.

ولم يكن يهمّ ريكاردو على الإطلاق الرأي الذي يكوّنه أي شخص عنه. فقد كان بإمكانه أن يوهمك بأنه ما ترغب في أن يكون. ومع ذلك كان نفسه إلى الأبد.

قلت لنفسي إن لم تتح لي فرصة لقائه مرة أخرى، فلن أنساه ما حييت. ومع أنه قد لا تتاح لنا فرصة اللقاء بكائن عبقري وكامل إلا مرة واحدة في العمر، فهي تكفي. وليس من الصعب فهم لماذا كان باستطاعة المسيح أو بوذا أن يؤثّر بكلمة أو نظرة أو لمحة واحدة، على طبيعة الأرواح الملتوية التي تتحرك في فضاءاتها وقدرها. وأصبحت أفهم كذلك لماذا لا يتأثر البعض الآخر.

في غمرة هذا التفكير خطر لي أني ربما كنت أؤدي دوراً مماثلاً، ولكن بدرجة أقل بكثير. في تلك الأيام التي لا يمكن نسيانها، عندما كنت أستجدي قدراً قليلاً من الفهم، ذرة من المغفرة، لمسة من البركة والنعمة، كان يتدفق على مكتبي سيل لا ينقطع من الرجال والنساء والأطفال المنحوسين من جميع الأوصاف والأشكال. فمن المكان الذي كنت أشغله، كمدير للتوظيف، كنت أبدو لهم إما إلهاً رحيماً، أو قاضياً صارماً، بل وربما جلاداً. كانت لديّ سلطة لا على حياتهم فقط، بل وعلى الناس الذين يحبونهم. سلطة على أرواحهم الحقيقية، كما يبدو. فبعد أن كانوا يسعون للقائي لساعات كانوا يمنحونني الانطباع بأنهم متّهمون ينسلون غالباً إلى كرسي الاعتراف عبر باب الكنيسة الخلفي. ولم يكونوا يعرفون أنهم باستجداء الرحمة كانوا يجردونني من سلاحي، ينزعون عني قوّتي وسلطتي. لم أكن ذلك الشخص الذي يستطيع أن يمدهم بيد العون في تلك اللحظات، بل هم من كانوا يساعدونني. كانوا يذلونني، يجعلونني عطوفاً، يعلمونني كيف أبذل ما بوسعي.

كم مرة، بعد مشهد يمزق نياط القلب، كنت أشعر بالرغبة في أن أتمشى على الجسر لأستجمع أفكاري. كم كان مثبطاً للهمة، كم كان مدمراً، عندما يعتبرونني أني أملك قوة مطلقة! أليس من مهازل القدر والسخف أيضاً أني أثناء تأديتي لواجباتي الروتينية، أضطر للقيام بدور مسيح صغير! في منتصف الطريق أتوقف وأتكئ على الدرابزين. إن مشهد المياه الزيتية المظلمة في الأسفل كان يمنحني شعوراً بالراحة. وفي الجدول المتدفق كنت أفرغ أفكاري وعواطفي المضطربة.

ومما ساهم في تسكين أوجاعي، وما سحر روحي تلك الانعكاسات الملوّنة التي كانت تتراقص على سطح الماء في الأسفل. تتراقص مثل فوانيس مبتهجة تتأرجح في الرياح؛ فقد سخرت من أفكاري المتجهمة وأنارت هوّة البؤس العميقة التي كانت تتثاءب في داخلي. وفيما كنت معلقاً فوق النهر المتدفق، انتابني شعور بأنني بعيد عن جميع المشاكل، وشعرت بالخلاص من جميع الهموم والمسؤوليات. فالنهر لم يتوقف ولا مرة ليتأمل أو يسأل، ولم يسع ولا مرّة لتغيير مجراه. فهو يندفع دائماً إلى الأمام، متدفقاً بثبات وقوة. عندما تطلعت ورائي باتجاه الشاطئ، بدت لي ناطحات السحاب أشبه بكتل من الألعاب تغطي ضفة شاطئ النهر! يا لها من أشياء عابرة ضئيلة، متعجرفة ومتغطرسة! فإلى تلك القبور الفخمة يشق هؤلاء الرجال والنساء طريقهم كل يوم وطوال النهار، يقتلون أرواحهم ليكسبوا رزقهم، يبيعون أنفسهم، يبيع أحدهم الآخر، بل حتى يبيعون الله، وقبيل الليل، يخرج بعضهم مرة أخرى، ويتدفقون كالنمل، يسدون البالوعات، ويغوصون في محطات قطار الأنفاق، أو يدبّون نحو بيوتهم ليدفنوا أنفسهم ثانية، لا في قبور فخمة الآن، بل كالتعساء المهزومين المنهكين، إلى جحور أرانب وأكواخ يطلق عليها «بيوت». ففي النهار هناك مقبرة الكدح والعرق الخالية من الشعور، وفي الليل مقبرة الحبّ واليأس. وهذه المخلوقات التي

تعلّمت بإخلاص شديد أن تركض، أن تستجدي، أن تبيع نفسها وأتباعها، أن ترقص كالدببة أو أن تعمل ككلاب البودل المدربة، هي دائماً وأبداً تخدع طبيعتها. وقد تصاب هذه المخلوقات التعيسة بعطل أحياناً، تبكي مثل نافورات البؤس، تزحف كالأفاعي، تصدر أصواتاً لا تصدرها سوى الحيوانات الجريحة. وما يقصدون إيصاله بهذه الألاعيب المروّعة هو أنهم وصلوا إلى طرف الحبل، وأن القوى فوقهم قد هجرتهم، وأنه لو لم يتحدث إليهم شخص يفهم لغة الكآبة التي يتكلمونها لضاعوا إلى الأبد، وتحطموا، وخدعوا. يجب على أحدهم أن يجيب، أحد يمكن تمييزه بسهولة، أحد مبهم للغاية إلى حد أن الدودة لن تتردّد في لعق حذائه.

أما أنا فقد كنت ذلك النوع من الدودة. الدودة المثالية. المهزومة في مكان الحبّ، غير المستعدة لخوض معارك، بل تتعرض للإهانة والإيذاء. أنا الذي اختير ليكون المعزي. يا لها من مهزلة بأني أُدنت ونُبذت، فلم أكن الشخص المناسب، الخالي من أي طموح، لأمنح مقعد القاضي، وأعاقب وأكافئ، وأتصرف كالأب، كالكاهن، كالمحسن ـ أو كالجلاد؛ أنا الذي يخب في أعالي الأرض وأسفلها تحت لسعة السوط؛ أنا الذي يمكنني أن أتبع خطوات وولورث في الجري ـ إذا كان ذلك يعني أن أتمكن من الحصول على طعام غداء مجّاني ـ أنا الذي تعلّمت الرقص على أيّ لحن، والإدعاء بأني قادر على كل شيء؛ أنا الذي تلقيت ركلات كثيرة في مؤخرتي لأعود وأتلقى المزيد منها؛ أنا الذي لم أفهم شيئاً من كلّ هذه التركيبة المجنونة سوى أنها كانت خاطئة، مجنونة، شرّيرة؛ أنا الذي استدعيت الآن من بين كلّ الرجال لنشر الحكمة والحبّ والتفاهم. والله نفسه لم يكن بوسعه أن يختار عنزة أفضل مني. فأي فرد محتقر ووحيد في المجتمع يمكن أن يكون مؤهلاً للقيام بهذا الدور الحسّاس. هل قلت الطموح قبل لحظة؟ وأخيراً عرفت الطموح لأنقذ ما يمكنني أن أنقذه من الحطام. لأن أفعل شيئاً لهؤلاء التعساء

البؤساء ما لم يفعلوه لي. لمؤاخاة قدر ضئيل من الروح في أرواحهم المفرّغة. لتحريرهم من العبودية، لتشريفهم كبشر، أتخذهم أصدقائي.

وفيما كانت هذه الأفكار (اعتباراً من الحياة الأخرى) تجول في رأسي، لم أتمالك نفسي من أن لا أقارن ذلك الوضع، الذي بدا آنذاك في غاية الصعوبة، بالوضع الحالي. عندها أصبح لكلماتي وزن، وبدأت نصائحي تسمع؛ أما الآن فليس لما أقوله أو أفعله أي أهمية أو وزن. لقد أضحيت الأحمق مجسّداً. فمهما حاولت، ومهما اقترحت، كان هباء منثوراً. حتى لو رحت أتلوى على الأرض احتجاجاً، أو أرغي وأزبد في فمي كالمصاب بالصرع، فلن يجديني ذلك نفعاً. لم أكن سوى كلب ينبح على سطح القمر.

لماذا لم أتعلّم الاستسلام التام، مثل ريكاردو؟ لماذا لم أتمكن من الوصول إلى حالة من التواضع الكامل؟ ماذا كنت أرجو من هذه المعركة الخاسرة؟

فيما جلست أراقب هذه المهزلة التي كانتا تمثلانها لصالح ريكاردو، بدأت أدرك أكثر وأكثر الحقيقة بأنهما لم تفهمانه. وكنت أوضح موقفي في كلّ مرة أتحدث فيها. في الواقع، لم يكن ذلك ضرورياً، لأني كنت أشعر بأنه كان يعرف: لم تكن لديّ رغبة في أن أخدعه: وأصبحت أرتاب قليلاً في أن حبنا المشترك لمونا، هو الذي وحّدنا، والذي جعل هذه اللعبة في غاية السخف.

قلت في نفسي لا يمكن خداع بطل الحبّ، أو الغدر به على يد صديق حميم. ما الذي تخشيانه، روحان مؤتلفتان؟ إن خوف المرأة، عدم الثقة بنفسها، هو الذي قد يقوّض مثل هذه العلاقة. إن ما لا يستطيع العشاق فهمه هو أنه قد يوجد قدر ضئيل من الخيانة أو عدم الإخلاص من جانب عشاقها. إنها لا تدرك أن حافزها الأنثوي للخيانة هو الذي يوحّد عشاقها بقوة، الذين يضبطون ذواتهم الاستحواذية، ويسمح لهم بالمشاركة في ما لا يشاركون فيه أبداً

مالم تحركهم عاطفة أكبر من عاطفة الحبّ. في قبضة مثل هذه العاطفة، لا يعرف الرجل سوى الاستسلام المطلق. أما بالنسبة للمرأة التي هي موضوع هذا الحبّ، فلكي تحافظ على هذا الحبّ، يجب ألا تمارس إلا الشعوذة الروحية. إنها روحها من الأعماق هي المدعوة للإجابة. وروحها تكبر بالطريقة التي تلهم بها.

لكن إذا لم يكن موضوع هذا الإعجاب المهيب جديراً! فنادراً مايكون الرجل هو المتأثر بهذه الشكوك. ويصبح عادة الشخص الذي ألهم هذا الحبّ النادر والقاهر ضحية الشكوك. ولا تكون طبيعتها الأنثوية هي المذنبة فقط، بل العوز الروحي الذي، ما لم يوضع موضع الاختبار، لا يكون واضحاً أبداً. ومع هذه المخلوقات، وخاصة عندما تكون قد وهبت بجمال خارق، تبقى قوة جاذبيتهن الحقيقية مجهولة: إنهن لا يرين شيئاً سوى سحر اللحم. وتكمن المأساة بالنسبة لبطل الحبّ في اليقظة، وغالباً ما تكون وحشية، للحقيقة فإن الجمال، مع أنه من خواص الروح، قد يكون غائباً في كلّ شيء إلا في قسمات الحبيب وملامحه.

6

استمرت التأثيرات اللاحقة لزيارة ريكاردو تستحوذ عليّ لأيام عديدة وما زاد كربي أن عيد الميلاد على الأبواب. كان ذلك الفصل من السنة الذي لم أكن أبغضه فقط، بل أخشاه أيضاً. ومنذ أن بلغت مبلغ الرجال لم أعرف عيد ميلاد سعيد. لا يهم كم حاربته، إذ كنت تجدني دائماً في حضن العائلة في عيد الميلاد ـ الفارس السوداوي يرتدي درعه الأسود، مرغماً، شأنه شأن كلّ أبله في المسيحية يريد أن يحشو بطنه، ويستمع إلى تخاريف فارغة تماماً من أقاربه.

ومع أني لم أقل شيئاً بعد عن الحدث القادم ـ كم كنت أتمنى لو كان مجرد احتفال بولادة روح حرّة! ـ ظللت أتساءل في أية ظروف عقلية وقلبية، سنجد نحن الاثنين نفسينا يوم القيامة البهيج ذاك.

ومما زاد شعوري بالضيق زيارة غير متوقعة قام بها ستانلي، الذي اكتشف مكاننا بالمصادفة، ومع أنه لم يمكث طويلاً، كانت زيارته طويلة تكفي لأن تخلّف بضع أشواك تنخز خاصرتي.

بدت زيارته وكأنها تهدف إلى تأكيد صورة الفشل التي كان يراها فيّ دائماً. حتى أنه لم يعبأ بأن يستفسر عما كنت أفعله، وكيف تسير الأمور معنا، أنا ومونا، أو إن كنت أكتب أم لا. وكان مجرد إلقاء نظرة إلى المكان تكفي لأن يعرف كامل قصتنا. «إنها ذلة بعد عزّ!» كانت العبارة التي وصف بها حالتنا.

لم أبذل أي محاولة لإحياء الحديث معه. ورحت أدعو ربي كي

يغادر بأسرع ما يمكن قبل أن تصلا وهما في حالة من أمزجتهما المنتشية الزائفة.

لكنه لم يبذل أي محاولة للتباطؤ. وفيما كان على وشك المغادرة، لفت انتباهه فجأة صفحة كبيرة من ورق التغليف كنت قد علقتها على الجدار قرب الباب. كان الضوء خافتاً إلى درجة يستحيل قراءتها.

«ما هذه؟»، قال، وهو يقترب من الجدار ويشمّ الورقة مثل كلب.

«هذه؟ لا شيء»، قلت. «بضع أفكار عشوائية».

أشعل عود ثقاب لرؤيتها بأم عينه. ثم أشعل عوداً آخر وآخر. وأخيراً تراجع.

«إذاً فأنت تكتب الآن مسرحيات. همم».

ظننت أنه كان سيبصق.

«أنا لم أبدأ بعد»، قلت بخجل. «ما زالت الفكرة تداعبني. ربما لن أكتبها أبداً».

«وهذا رأيي تماماً»، قال، مبدياً تلك النظرة الجاهزة دائماً التي تظهر على وجه حفّار قبور. «إنك لن تكتب مسرحية أو أي شيء آخر يجدر التحدث عنه. ستكتب وتكتب ولن تصل إلى أي مكان».

كان من المفترض أن أغضب لكنني حافظت على برودة أعصابي. لقد سُحقت. فقد كنت أتوقع أن يصب قليلاً من الزيت على النار - ملاحظة أو ملاحظتان حول القصة «الرومانسية» الجديدة التي كان يكتبها. لكن لا، لم يأت على ذكر أي شيء من هذا القبيل. وبدلاً من ذلك قال: «لقد أقلعت عن الكتابة. حتى أني لم أعد أقرأ. فما الفائدة منها؟». وهزّ ساقاً واتجه نحو الباب. وبينما كانت يده على المقبض، قال بجدية وبغرور: «لو كنت مكانك لما استسلمت، حتى لو كان كلّ شيء يعترض سبيلي. أنا لا أقول إنك كاتب، لكن...» وتردّد ثانية، ليصوغها بدقة. «لكن الحظ في صالحك».

سادت لحظة من الصمت تكفي لملء القارورة بالفتريول. ثم أضاف: «وأنت لم تفعل شيئاً بعد لاستحضارها».

«إلى اللقاء الآن»، قال، وخبط الباب.

«إلى اللقاء»، قلت. وهذا ما كان.

لو كان قد ألقى بي أرضاً لما أحسست بأني أكثر تسطيحاً. فقد كنت مستعداً لأن أدفن نفسي في ذلك الزمان والمكان. فالقليل من السلاح الذي تبقى لديّ تلاشى. لم أكن سوى بقعة دهنية، لاشيء أكثر. بقعة على وجه الأرض.

بعد دخولي مرحلة الكرب أشعلت شمعة، ومثل مسرنم، وضعت نفسي أمام فكرة مسرحية في ثلاثة فصول ولثلاثة ممثلين فقط. ولم يكن يهمّ من هم الممثلون.

استعرضت المشروع ورسمت المشاهد: نقاط الذروة، الخلفية وما إلى هنالك. كنت أعرف كلّ شيء عن ظهر قلب. لكنني قرأتها هذه المرة كما لو كنت قد كتبت المسرحية. رأيت ما يمكن أن أفعله بهذه المادة. (حتى أني سمعت التصفيق الذي يعقب كلّ إسدال للستارة). أصبح كلّ شيء واضحاً للغاية. إلا أن ما لم أستطع أن أراه، هو أني أنا من يكتبها. فلم يكن بوسعي أن أكتبها بكلمات. كان عليها أن تُكتب بالدم.

فعندما أصيب كبد الحقيقة، كما أصبتها الآن، كنت أتكلّم بكلمات أحادية المقطع، أو لا أقول شيئاً على الإطلاق. بل حتى أن حركتي تزداد بطئاً. كان بوسعي أن أظل ثابتاً في بقعة واحدة، في موقع واحد، سواء كنت جالساً، أو منحنياً أو واقفاً، لفترة طويلة مدهشة.

عندما وصلتا وجدتاني في هذه الحالة من الخمود. كنت أقف أمام الحائط، رأسي مستند إلى ورقة الصرّ. وكانت هناك شمعة صغيرة تسيل على الطاولة. لم تلاحظاني وأنا ملتصق هناك إلى

الحائط عندما اندفعتا إلى الداخل. ولدقائق عديدة راحتا تتحركان بصمت. وبغتة رأتني ستاسيا. وأطلقت صرخة.

صاحت: «انظري! ما خطبه؟»

لم تتحرك سوى عينيّ. كنت تمثالاً، لا بل جثّة!

هزّت ذراعي الذي كان مدلّى باسترخاء. ارتعشت واختلجت قليلاً. ما زالت لم تصدر عني أية حركة.

«تعالي إلى هنا!» صاحت، وهرعت إليها مونا. «انظري إليه!».

حان الوقت لأحرك نفسي. ودون أن أتحرك من مكاني أو أغيّر موقعي، حركت فكّي وقلت ـ لكن مثل الرجل في القناع الحديدي ـ: «لا يوجد شيء ياعزيزتيّ. لا تخشيا شيئاً. كنت فقط... أفكّر فقط».

«تفكّر؟» صاحتا.

«نعم، يا ملاكيّ الصغيرين، أفكّر. ما الغريب في هذا؟».

«اجلس!» رجتني مونا، وسحبت كرسياً بسرعة.

غصت في الكرسي كما لو كنت أغوص في بركة ماء دافئة. كم كان جيداً القيام بتلك الحركة الصغيرة! ومع ذلك لم أرغب في أن أشعر بالارتياح. كنت أريد الاستمتاع بكآبتي.

هل أصبحت هادئاً هكذا بسبب وقوفي ملتصقاً بالحائط؟ لكن عقلي كان مايزال يعمل بنشاط، كان نشيطاً إلى درجة كبيرة. لم يعد يهرب معي. كانت الأفكار تروح وتأتي، ببطء، بتمهل، تتيح لي الوقت لأحضنهما، ألاطفهما. في هذا الانجراف البطيء اللذيذ وصلت إلى النقطة، قبل وصولهما بلحظة، حيث اتضح لي جيداً الفصل الأخير من المسرحية. لقد بدأ يكتب نفسه في رأسي، بدون أدنى جهد مني.

جلست الآن، ونصف ظهري باتجاههما، كما كانت أفكاري. بدأت أتحدث كما يفعل الرجل الآلي. لم أكن أتحدّث بل كنت أردد

سطور المسرحية، إن جاز التعبير. مثل ممثل في غرفة ملابسه، مايزال يقوم بحركاته رغم هبوط الستارة.

شعرت أنهما أصبحتا هادئتين على نحو غريب. فعادة كانتا تعبثان بشعرهما أو أظافرهما. أما الآن فقد لبثتا ساكنيتن إلى حد أن صدى كلماتي بدأ يرتد إليّ من الجدران. كان بوسعي ان أتكلم وأن أستمع إلى نفسي في الوقت نفسه. رائع! أهلوس بسعادة ومتعة.

أدركت أني إذا توقّفت عن الكلام لحظة واحدة لبطل السحر. لكني لم أشعر بالقلق عندما راودتني هذه الفكرة. سأستمرّ، كما قلت لنفسي، حتى أخمد.

هكذا، ومن خلال الشقّ في القناع، واصلت بدون توقّف، ودائماً بذات النبرة المستوية، القاسية، المجوّفة، كما يفعل المرء بفم مغلق عند إنهاء كتاب جيد إلى درجة لا تصدق.

كلمات ستانلي القاسية جعلتني أنهار، أصبحت وجهاً لوجه مع المصدر، مع التأليف ذاته. وكم كان هذا الدفق الهادئ من المنبع مختلفاً عن فعل الخلق القاسي وهو الكتابة! «غص عميقاً، اغطس ولا تخرج إلى السطح أبداً!» يجب أن يكون شعار كلّ من يجوع ليخلق فيّ الكلمات. لأننا في الأعماق الهادئة فقط نبدأ نرى ونسمع، نتحرّك ونكون. يا لها من نعمة أن يغوص المرء إلى قاع وجود المرء ولا يضطرب ثانية!

حين صحوت، رحت أتحرك ببطء مثل سمكة القدّ الضخمة، الكسولة، وربطتها بعينيّ الساكنتين. أعتراني شعور بأني وحش الأعماق الذي لا يعرف عالم البشر، دفء الشمس، عطر الزهور، صوت الطيور أو الوحوش أو الرجال. نظرت إليها بأجرام سماوية مقنّعة ضخمة لم تكن تنظر إليها إلا من الداخل. كم كان العالم مدهشاً عندما رأيتهما والغرفة التي كانتا تجلسان فيها بعينين غير مشبعتين: لقد رأيتهما في ديمومتهما، الغرفة أيضاً، كما لو أنها كانت الغرفة الوحيدة في العالم الفسيح الكامل؛ رأيت جدران الغرفة

تنحسر والمدينة خلفها تذوب إلى العدم؛ رأيت حقولاً وقد حرثت حتى اللا نهاية، بحيرات، بحاراً، محيطات تذوب في الفضاء، فضاءً مرصّعاً بأجرام سماوية نارية، وفي الضوء الصافي المشع الذي لا حدود له، بدأت تأتلق أمام عينيّ مخلوقات إلهية، ملائكة، كبار ملائكة، ساروف، الملاك حارس العرش الإلهي، ملاك الكروبيم.

ومثل سحابة بددتها ريح قوية على حين غرة، جئت بكلتا قدميّ وبهذه الفكرة التي كانت تقبع في قمة عقلي - كان عيد الميلاد ذاك يطلّ علينا. «ماذا سنفعل؟» قلت متأوهاً.

«تابع كلامك»، قالت ستاسيا. «لم أرك هكذا من قبل».

«عيد الميلاد!»، قلت، «ماذا سنفعل في عيد الميلاد؟».

«عيد الميلاد؟» صاحت. لوهلة ظننت أني كنت أتكلّم بشكل رمزي. وعندما أدركت أني لم أعد الشخص الذي فتنها قالت: «ياإلهي! لا أريد أن أسمع كلمة أخرى».

«حسناً»، قلت، وتوجهت إلى غرفتها. «الآن يمكننا أن نتكلّم».

«انتظر يا فال»، صاحت مونا، عيناها مغبشتان. «لا تفسد الأمر، أرجوك».

«انتهى»، أجبت. «انتهى الأمر. لا مزيد. أسدل الستارة».

«أوه، لكن هناك، لابدّ أن يكون هناك!» قالت متوسلة، «انظر، اسكت... اجلس هناك... دعني أحضر لك كأساً من الشراب».

«حسناً، اجلبي لي قليلاً من الشراب! وبعض الطعام! أنا أتضور جوعاً. أين هي ستاسيا تلك؟ هيا، لنأكل ونشرب ونتحدث. فليذهب عيد الميلاد إلى الجحيم، فليذهب بابا نويل إلى الجحيم! لندع ستاسيا تقوم بدور بابا نويل للتغيير».

اندفعتا الآن لتدخلا السرور إلى نفسي. كانتا متلهفتين لإرضاء أدنى نزواتي... كما لو أنّ النبي إلياس ظهر لهما من السماء.

«هل بقي شيء من نبيذ الراين ذاك؟»، صرخت. «هيا أخرجيه».

كنت في حالة شديدة من الجوع والعطش. لم يكن بإمكاني أن أنتظرهما لتضعا شيئاً أمامي.

«ذلك البولندي اللعين»، تمتمت.

«ماذا؟» قالت ستاسيا.

«عم كنت أتحدّث على أية حال؟ إنه مثل حلم الآن... ما كنت أفكّر فيه ـ هو أنك ماذا تريدين أن تعرفيه؟ ـ هو... كم من الرائع أن... إذا...».

«إذا ماذا؟».

«لا يهم... سأخبرك لاحقاً. أسرعي واجلسي».

صعقت الآن. كنت سمكة، أليس كذلك؟ بل سمك أنقليس. ربما لهذا السبب كنت متألقاً. وأتضور جوعاً. ربما لهذا السبب تألّقت واتقدت. أصبح لي جسم مرة أخرى. أوه كم من الرائع أن أعود وأصبح شخصاً ثانية! يا له من شيء جيد أن آكل وأشرب وأتنفّس وأصيح!

«يا له من شيء غريب»، قلت بعد أن التهمت بعض اللقيمات، «إننا لا نكشف إلا القليل من حقيقة نفوسنا حتى عندما نكون في أفضل أحوالنا. تريدينني أن أتابع طريقي بينما يتخلى الجميع عني. كما أظن؟ لا بد أن يكون ذلك شيئاً مثيراً، فلم يبق الآن من كلّ تلك الأشياء التي جرفتها من القاع سوى الهالة. لكني متأكد من شيء واحد ـ وهو معرفتي أني لم أكن خارج نفسي. بل كنت في داخلها، أعمق من أي مرة كنت فيها... كنت أتكلّم بطلاقة كسمكة. هل لاحظتما؟ ليس سمكة عادية أيضاً، بل ذلك النوع الذي يعيش في قاع المحيطات».

أخذت جرعة كبيرة من النبيذ. نبيذ رائع. نبيذ الراين. «الشيء الغريب هو أن كلّ شيء حدث بسبب مخطط المسرحية ذاك المعلق

على الحائط هناك. لقد رأيت وسمعت كلّ شيء. لماذا أحاول كتابتها، إيه؟ كان هناك سبب واحد فقط جعلني أفكر بالقيام بذلك، وهو أن أخفف من حدة بؤسي. إنكما تعرفان حالة البؤس التي تعتريني، أليس كذلك؟».

نظر أحدنا إلى الآخر. ساد السكون.

«إنه لأمر مضحك، لكن في تلك الحالة أصبح كلّ شيء يبدو كما ينبغي أن يكون تماماً. لم يكن عليّ أن أبذل أدنى جهد لأفهم: كان لكلّ شيء معنى، مبرّر وحقيقي بشكل أبدي. ولستما الشيطان الذي كنت أظنكما إياه أحياناً. ولم تكونا ملاكين أيضاً، لأني رأيت الملائكة الحقيقية. إنها شيء آخر. لا أستطيع أن أقول كما أريد أن أرى الأشياء بتلك الطريقة دائماً. تماثيل فقط...».

هنا قاطعتني ستاسيا. أية طريقة؟ أرادت أن تعرف.

«كلّ شيء دفعة واحدة»، قلت. «الماضي والحاضر والمستقبل؛ الأرض والهواء والنار والماء. عجلة ثابتة، لا تتحرك. عجلة من نور، أريد أن أقول. والنور يدور، لا العجلة».

مدّت يدها لتمسك قلم رصاص، كما لو أنها تريد أن تدوّن ملاحظة.

«لا!»، قلت، «فالكلمات لا تستطيع أن توضح حقيقة الأشياء. ما أقوله لكما لا شيء. أتكلّم لأني لا أستطيع أن أمسك نفسي، لكنه مجرد كلام. ربما لا أستطيع أن أخبركما بما حدث... إنه مثل تلك المسرحية. لا يمكن لأي إنسان أن يكتب المسرحية التي رأيتها وسمعتها. إن ما يكتبه المرء هو ما يريد أن يحدث. خذينا نحن مثلاً، فنحن لم نحدث، أليس كذلك؟ لم يفكر أحد بنا. إننا نحن، هذا كلّ ما في الأمر. كنا موجودين دائماً. ثمة فرق، ماذا؟».

استدرت نحو مونا مباشرة. «سأبحث حقاً عن عمل قريباً. إنك

لا تظنين أنني سأكتب عن هذا الضرب من الحياة، أليس كذلك؟ لنعبث بها ونفسدها، هذه هي فكرتي الآن».

خرجت همهمة من شفتيها كما لو أنها تريد أن تحتج، لكنها تلاشت على الفور.

«نعم، حال انتهاء العطلة سأبدأ في البحث. سأخابر غداً أبويّ وأبلغهما أننا سنزورهما للاحتفال بعيد الميلاد. لا تخذليني، أرجوك. لا أستطيع أن أذهب إلى هناك وحدي. وحاولي أن تكوني طبيعية لمرة واحدة، أليس كذلك؟ بدون مكياج... بدون ارتداء ثياب رجالية. يا إلهي، من الصعب مواجهتهما في أفضل الظروف».

«تعالي معنا»، قالت مونا لستاسيا.

«بحق المسيح لا!» قالت ستاسيا.

«يجب أن تذهبي!» قالت مونا. «لا أستطيع أن أذهب بدونك».

«نعم»، قلت، «تعالي! فبوجودك لن نكون في خطر أن نغط في النوم. ارتدي فستاناً أو تنورة، وارفعي شعرك بشكل كعكة، إذا استطعت».

أثار هذا حنقهما بعض الشيء. ماذا، ستاسيا تتصرّف كسيدة؟ غير معقول!

«أنت تحاول أن تجعل منها أضحوكة»، قالت مونا.

«أنا لست سيدة»، قالت ستاسيا.

«لا أريدك أن تكوني إلا ذاتك الحلوة»، قلت. «لكن لا تجعلي من نفسك مثل عربة وحصان، هذا كلّ ما في الأمر».

وكما توقّعت دخلتا عند حوالى الساعة الثالثة من صباح يوم عيد الميلاد، وهما تترنحان ثملتين تماماً. كان عليّ أن أساعدهما في خلع ثيابهما وأدسّهما بين الشراشف. وعندما ظننت أنهما غطتا في سبات عميق، قالتا إنهما تريدان أن تبولا. راحتا تترنحان

وتتعثران، تتلمّسان طريقهما إلى المرحاض. وأثناء ذلك راحتا ترتطمان بالطاولات والكراسي، تقعان، تنهضان ثانية، تصرخان، تشخران، تتأوهان، كلّ ذلك بأسلوب المدمنين الحقيقيين، بل كان هناك قليل من التقيؤ. وفيما تكومتا على السرير مرة أخرى، طلبت منهما أن تناما بسرعة بقدر ما يمكنهما. وقلت لهما أني عيّرت المنبه على الساعة التاسعة والنصف.

أما أنا فلم يكد يغمض لي جفن، بل رحت أتقلب وأنفث طوال الليل.

وفي تمام الساعة التاسعة والنصف انطلق جرس المنبه. انطلق بصوت مرتفع أكثر، كما بدا لي. وفي الحال نهضت واستويت واقفاً. كانتا هناك مستلقيتين كجثتين هامدتين. رحت أدفعهما وأخزهما وأجرهما؛ رحت أجري من واحدة إلى أخرى، أصفعهما، أشد غطاء الفراش، ألعنهما، أهدّدهما بربطهما بالحزام إذا لم تستيقظا.

استغرقت نصف ساعة تقريباً لأجعلهما تقفان على قدميهما وأن تفيقا.

«خذا دوشاً!» صرخت. «أسرعا. سأعدّ القهوة».

«كيف يمكنك أن تكون قاسياً إلى هذه الدرجة؟» قالت ستاسيا.

«لماذا لا تخابرهما وتقول إننا سنأتي في المساء، على العشاء؟» قالت مونا.

«لا أستطيع» صحت في وجهيهما. «ولن أفعل ذلك. إنهما ينتظراننا عند الظهر، لا في الليل».

«قل لهما إني مريضة»، قالت مونا متوسلة.

«لن أفعل ذلك. ستذهبين حتى لو متِ، هل تفهمين؟».

عندما كنا نحتسي القهوة أخبرتاني ما اشترتاه من هدايا. فالهدايا هي السبب في سكرهما، كما أوضحتا. كيف كان ذلك؟

حسناً، فلكي تحصلا على مبلغ لشراء الهدايا، كان عليهما أن تحوما حول أحد المحسنين السذج، الذي لم يتوقف عن الشراب لمدة ثلاثة أيام متواصلة. وهكذا ثملتا. لا لأنهما كانتا ترغبان في ذلك. لا، فقد كانتا ترغبان في أن تهربا منه بعد أن اشترى لهما الهدايا، لكنه كان نغلاً ماكراً هرماً ولم يكن لُيخدع بسهولة. واعترفتا أنهما كانتا محظوظتين لتمكنهما من العودة إلى البيت.

قصة جيدة وربما فيها شيء من الحقيقة. لكني ابتلعتها مع القهوة.

قلت: «والآن، ماذا سترتدي ستاسيا؟».

رمقتني بتلك النظرة المحيّرة العاجزة إلى حد كنت على وشك القول: «ارتدي أيّ شيء ملعون تريدينه!».

«سأساعدها»، قالت مونا. «لاتقلق. اتركنا في سلام بضع دقائق».

«حسناً»، أجبت. «لكن الساعة الواحدة تماماً، تذكّرا!».

قررت أن أفضل شيء أفعله هو أن أخرج وأتمشى. كنت أعرف أن ذلك سيستغرق ساعة كاملة، على الأقل، حتى تلبس ستاسيا شيئاً معقولاً. كما أني كنت بحاجة إلى تنشق هواء نقي.

«تذكّرا»، قلت وأنا أفتح الباب لأخرج، «أمامكما ساعة واحدة فقط، لا أكثر. إذا لم تكونا مستعدتين فسنذهب كما أنتما».

كان الجو صافياً ومنعشاً. هطل ثلج خفيف أثناء الليل، يكفي لجعل عيد الميلاد نظيفاً أبيض. وكادت الشوارع تكون مهجورة. كان جميع المسيحيين الطيبين والسيئين يتحلقون حول الشجرة الدائمة الخضرة، يفتحون رزم هداياهم، يقبّل ويعانق أحدهم الآخر، يقاومون الصداع الناجم عن الكحول ويدّعون أن كلّ شيء على ما يرام.

(«حمداً لله، لقد انتهى كلّ شيء»).

أخذت أتمشى بخطى وئيدة باتجاه منطقة أحواض السفن لأتفرج على السفن التي تمخر عباب المحيطات، والتي كانت مصطفة الواحدة بجانب الأخرى مثل كلاب مقيّدة. كان كلّ شيء هادئاً وساكناً كالقبر. الثلج يتّقد مثل حجر البلق في ضوء الشمس، يكسو الصواري كالقطن المندوف. كان ثمة شيء شبحي يكتنف المشهد.

رحت أصعد المرتفعات متجهاً إلى الحي الأجنبي الذي لم يكن تقطنه الأشباح فحسب، بل كان مريعاً أيضاً. حتى أن روح عيد الميلاد لم تمنح هذه الأكواخ مشهد مساكن بشرية. من يكترث بذلك؟ فهم من الكفار، معظمهم: العرب القذرون، الصينيون ذوو الوجوه المشقوقة، الهندوس، المكسيكيون القذرون، الزنوج... كان الرجل المتجه نحوي عربياً على الأغلب. يرتدي رداء عمل خفيف، وطاقية مجعلكة، ونعلين منزليين مهترئين. عندما تجاوزته غمغمت «الحمد لله». وبعد مسافة صادفت مكسيكيين يتشاجران. كانا سكيرين حتى الثمالة. وكانت تحيط بهما مجموعة من الأطفال يرتدون أسمالاً، ويحثونهما على الشجار. اضربه! اكسر وجهه! ومن باب جانبي لصالون قديم، خرجت أقذر عاهرتين يمكن أن يتخيلهما المرء إلى ضوء الشمس الصافي اللامع في يوم عيد الميلاد الأبيض النظيف. انحنت إحداهما لتشد جوربها فسقطت على وجهها. نظرت الأخرى إليها، كما لو أن ذلك لا يمكن أن يحدث فتعثرت وتهاوت فوقها، فردة حذاء في قدمها، والقدم الآخر بدون حذاء. وبطريقتها العرجاء، راحت تدندن أغنية وهي تسير خبباً.

يا له من يوم مجيد حقاً. صاف، رائق، منعش البرودة! كم كنت أتمنى لو أنه لم يكن عيد الميلاد! هل انتهيتا من ارتداء ثيابهما، تساءلت. معنوياتي أخذت ترتفع. يمكنني أن أواجههما، قلت لنفسي، أرجو ألا تجعلا من نفسيهما حمقاوتين. خطرت لي جميع أنواع الأكاذيب ـ كان عليّ أن أحبك قصصاً كي أجعل والديّ يشعران بالارتياح. كانا دائمي القلق، ولا يتوقفان عن الحديث عما يحدث

لنا، كما هو الحال عندما يسألان «هل تكتب هذه الأيام؟» فأقول: «طبعاً، لقد أنهيت عشرات القصص. إسألوا مونا». ومونا هل تحبّ عملها؟ (نسيت. هل يعرفون أين تعمل؟ ماذا قلت لهم آخر مرّة؟) أما بالنسبة لستاسيا، فلا أعرف بحق السماء ماذا سألفّق من أجلها هناك. صديقة قديمة لمونا، ربما. صديقة تعرفها منذ أيام المدرسة. فنانة.

دخلت فوجدت ستاسيا وقد اغرورقت عيناها بالدموع، تحاول أن تحشر قدمها بقوة بحذاء ذي كعب عال. كانت عارية حتى الخصر، ترتدي تنورة داخلية بيضاء لا يعرف سوى الله من أين أتت بها، أربطة تتدلى، والشعر أشعث بفوضى.

«لن ألحق أبداً»، قالت وهي تئنّ. «لماذا عليّ أن أذهب؟».

تشعر مونا بأن هذا أمر مضحك للغاية. كانت الثياب، والأمشاط ودبابيس الشعر متناثرة في أرض الغرفة.

«لا يتعين عليك أن تمشي»، تواصل كلامها «سنستقل سيارة أجرة».

«هل عليّ أن أرتدي قبعة أيضاً؟».

«سنرى يا عزيزتي».

أحاول أن أساعدهما لكني أزيد الطينة بلة. «دعنا وشأننا»، ترجواني.

أجلس في ركن الغرفة وأراقب ما تفعلانه. عين على الساعة. (ستصبح الثانية عشرة).

«اسمعا»، أقول لهما، «لا تبذلا جهداً كبيراً. فقط سوّي لها شعرها وألقي عليها تنورة».

راحتا تجربان أقراطاً وأساور. «توقّفا» صرخت. «إنها تبدو مثل شجرة عيد الميلاد».

كانت الساعة تقارب الثانية عشرة والنصف عندما خرجنا من البيت لنوقف سيارة أجرة. لم تظهر ولا سيارةِ على مرمى البصر، كان هذا شيئاً طبيعياً. بدأنا نمشي. كانت ستاسيا تعرج، وقد ألقت القبعة جانباً ووضعت قلنسوة. كادت تبدو الآن شرعية، بل ومثيرة للشفقة أيضاً. إنها محنة حقيقية بالنسبة لها.

وأخيراً أوقفنا سيارة أجرة. «شكراً لله، فلن نتأخر سوى بضع دقائق»، غمغمت لنفسي.

في السيارة خلعت ستاسيا حذاءها. راحتا تقهقهان. أرادت مونا من ستاسيا أن تضع مسحة من أحمر الشفاه لتبدو أكثر أنوثة.

«إذا بدت أنثى أكثر» قلت محذراً، «فسيظنون أنها مزيفة».

«إلى متى سنمكث هناك؟» سألت ستاسيا.

«لا أعرف. سنخرج عندما يمكننا ذلك. في حوالى السابعة أو الثامنة».

«هذا المساء؟».

«نعم هذا المساء. لا صباح الغد».

«يا إلهي!» قالت. «لن أتمكن من البقاء». عندما اقتربنا من المكان، طلبت من السائق أن يتوقف عند ناصية الشارع، لا أمام البيت.

«لماذا؟» سألت مونا.

«لأن».

توقفت السيارة وخرجنا. وقفت ستاسيا على قدميها ممسكة بحذائيها.

«البسي حذاءك» صرخت في وجهها.

كان هناك صندوق كبير من خشب الصنوبر خارج دكان الحانوتي عند الناصية. «اجلسي عليه والبسي حذاءك»، طلبت منها.

أطاعتني مثل طفلة. بالطبع، كانت قدماها مبتلتين، لكن لم يبدو أنها تبالي بالأمر. بذلت جهداً واضحاً لارتداء الحذاء. سقطت قلنسوتها وانحلّ شعرها. حاولت مونا مسعورة أن تعيده إلى وضعه السابق، لكن دبابيس الشعر اختفت.

«دعيه! ما الفرق؟» قلت.

هزت ستاسيا رأسها، مثل مهرة، وانسدل شعرها الطويل على كتفيها. حاولت أن تسوّي القلنسوة على رأسها، لكن بدا شكلها مضحكاً الآن من أي وجهة نظرت إليها.

«هيا، لننطلق!».

«هل المكان بعيد؟» سألت، وعادت تعرج.

«في منتصف الشارع. اثبتي الآن».

وهكذا رحنا نحن الثلاثة نسير جنباً إلى جنب في شارع الأحزان المبكرة. ثلاثي غريب الأطوار، كما كان أولريك يقول. كنت أحسّ بعيون الجيران الثاقبة تحدّق فينا، من وراء الستائر المنشّاة الصلبة. ابن عائلة ميلر. يجب أن تكون تلك زوجته. أيّ منهما؟

وقف أبي في الخارج لاستقبالنا. «لقد تأخرتم قليلاً، كالمعتاد»، قال، لكن بصوت بهيج.

«نعم، كيف حالك؟ عيد ميلاد سعيد!»، انحنيت قليلاً لأقبّله على خده، كما أفعل دائماً.

قدّمتُ ستاسيا على أنها صديقة قديمة لمونا. وقلت إنها لم تستطع أن تتركها وحدها.

رحب بستاسيا بحرارة وقادنا إلى البيت. في البهو وقفت أختي وعيناها مغرورقتان بالدموع.

«عيد ميلاد سعيد يا لوريت! لوريت، هذه ستاسيا».

قبّلت لوريت ستاسيا بمودة. «مونا!» صاحت، «وكيف حالك؟ ظننا أنك لن تأتي أبداً».

«أين أمي؟» سألت.

«في المطبخ».

خرجت أمّي في الحال، بابتسامتها الحزينة. كنت أعرف مايدور في رأسها: «كما هو الحال دائماً. دائماً متأخر. دائماً شيء غير متوقّع».

تعانقنا واحداً تلو الآخر. «اجلسوا، الديك الرومي جاهز». ثم، وبإحدى ابتساماتها الخبيثة تلك، قالت: «أظن أنكم تناولتم طعام الفطور؟».

«طبعاً يا أمي. منذ ساعات».

رمقتني بنظرة وكأنها تقول «أعرف أنك تكذب» واستدارت على عقبيها.

في هذه الأثناء راحت مونا توزّع الهدايا.

«ما كان يجب أن تفعلي ذلك»، قالت لوريت. وهي عبارة حفظتها من أمي، وأضافت: «إنه ديك رومي وزنه أربعة عشر رطلاً». ثم قالت لي: «القس يريد أن تتذكّره يا هنري».

ألقيت نظرة سريعة على ستاسيا لأرى كيف تتقبل الأمور. لم يكن يوجد سوى أثر ضعيف لابتسامة تنم عن طيبة قلب على وجهها. بدا أنها تأثرت من داخلها.

«ألا تريد كأساً من النبيذ أولاً؟» سأل أبي.

ملأ ثلاثة كؤوس مترعة وقدمها لنا.

«وماذا عنك؟» قالت ستاسيا.

«لقد توقفت عن الشراب منذ عهد بعيد»، أجاب، ثم رفع كأساً فارغا وقال «بصحتكم!».

وهكذا بدأ عشاء عيد الميلاد. عيد ميلاد سعيد، الجميع، الخيول، البغال، الأتراك، مدمنو الخمر، الخرسان، الطرشان، العميان، الكسيحون، الوثنيون، والمشلولون والمهتدون. عيد ميلاد سعيد! الشكر لله! الحمد لله! السلام على الأرض ولْيلِطْ أحدهم الآخر وليُذبحون حتى مجيء مملكة الرب!

(كان ذلك دعائي الصامت).

وكالعادة بدأت أغصّ بلعابي. وهي عادة تعود إلى أيام صباي. كانت أمي تجلس قبالتي، كما تفعل دائماً، تمسك بيدها سكين مطبخ. وعلى يميني جلس أبي، الذي اعتدت أن أنظر إليه من طرف عيني، أخشى أن ينفجر وهو في حالته من السكر بسبب إحدى دعابات أمي الساخرة. فقد كان يعاقر الشراب منذ عدة سنوات، لكني ما أزال أغصّ، حتى لو لم تكن توجد لقمة من الطعام في فمي. فكلّ ماقيل كان قد قيل، بالطريقة ذاتها بالضبط، بالنبرة نفسها تماماً، ألف مرة. كانت ردودي هي ذاتها أيضاً طوال الوقت. رحت أتكلم كما لو أني كنت في الثانية عشرة من عمري، وقد تعلّمت لتوي قراءة التعاليم المسيحية من القلب. صحيح أني لم أعد أذكر، كما كنت أذكر عندما كنت صبياً، أسماء مفزعة مثل جاك لندن، وكارل ماركس، وبلزاك أو يوجين ف. دیبس. كنت متوتراً قليلاً الآن لأني كنت أعرف جميع المحرمات عن ظهر قلب، كانت مونا وستاسيا ما تزالان «روحان طليقتان حرتان»، ومن يعرف أنهما قد تتصرفان بهذه الطريقة. من يمكنه أن يعرف في أي لحظة يمكن أن تختلق ستاسيا اسماً غريباً ـ مثل كاندينسكي، مارك تشاغال، زادكين، برانكوسي، أو ليبشيز؟ بل يمكنها أن تستحضر أسماء مثل راما كريشنا، سوامي فيفيكاناندا، أو غوتاما بوذا. رحت أتضرع من كلّ قلبي أنها، حتى عندما تثمل، ألا تذكر أسماء من قبيل إيما غولدمان، أو ألكسندر بيركمان أو برينس كروبوتكين.

ولحسن الحظ، كانت أختي مشغولة بسرد أسماء معلّقي الأخبار

والمذيعين والمغنين ونجوم الكوميديا الموسيقيين والجيران والأقارب، والقائمة الكاملة المتعلقة والمترابطة بسيل الكوارث التي جعلتها تبكي، وتروّل، وتشهق وتشخر.

إنها على خير ما يرام، يا ستاسيانا العزيزة، قلت لنفسي. وآداب المائدة الممتازة أيضاً. إلى متى؟ وبالطبع بدأت آثار الطعام الدسم بالإضافة إلى نبيذ موسيل الأبيض تظهر عليهما شيئاً فشيئاً. فقد أصابهما شيء من النعاس. وراحت مونا تكافح لتكبت التثاؤب الذي بدأ يرتفع كالموجات.

قال أبي، مدركاً حالتهما: «أظن أنكما نمتما في وقت متأخر؟»

«ليس كثيراً»، قلت مبتسماً. «إننا لا نأوي إلى الفراش قبل منتصف الليل، كما تعرف».

«أظن أنك تكتب في الليل»، قالت أمي.

قفزت. لم تكن عادة تشير أبداً إلى خربشتي، ما لم يكن مصحوباً بتأنيب أو دلالة على الاشمئزاز.

قلت: «نعم، أبدأ عملي في الليل حيث يكون الجو هادئاً. يمكنني أن أفكّر على نحو أفضل».

«وأثناء النهار؟».

كنت سأقول «العمل، بالطبع!» لكنني أدركت على الفور أن ذكر العمل لن يؤدي إلا إلى تعقيد الأمور. لذلك قلت: «أذهب عادة إلى المكتبة العامة... لأجري أبحاثاً».

والآن لستاسيا. ماذا تفعل؟

ولدهشتي المطلقة قال أبي: «إنها فنانة، يمكن لأي شخص أن يرى ذلك!».

«أوه؟» قالت أمي، كما لو أن الكلمة بحد ذاتها أثارت خوفها. «وهل لعملك مردود جيد؟».

ابتسمت ستاسيا تجاريها. فالفنّ لا يعود بفائدة كبيرة... في

البداية... بدأت تفسر بلطف شديد. مضيفة أنه لحسن الحظ أن والديها يرسلان لها بين الحين والآخر مبلغاً من المال.

«أظن أن لديك مرسماً؟» سأل أبي.

قالت: «نعم، عندي غرفة مثالية في حي الفيليج».

هنا استلمت مونا الحديث، لضيقي وبؤسي، وراحت تسهب كعادتها. كنت أسكتها بأفضل ما يمكنني لأن أبي يصدق كلّ ماتقوله، وأعلن أنه سيذهب لزيارة ستاسيا - في مرسمها - ذات يوم. وقال إنه يحبّ أن يرى الفنانين وهم يعملون.

وسرعان ما حوّلت الحديث إلى وينسلو هومير، وبوجويريو، ورايدر وسيسلي. (شخصياته الأثيرة). رفعت ستاسيا حاجبيها عند ذكر هذه الأسماء المتنافرة. بل بدت مندهشة أكثر عندما بدأ أبي يسرد أسماء الرسامين الأمريكيين المشهورين الذين كانت أعمالهم، كما قال يعلقها في محله للخياطة. (أي قبل أن يبيعه سلفه) وكرمى لستاسيا، بما أن اللعبة كانت ما تزال مستمرة، ذكّرته براسكين... أحجار فينيسيا، الكتاب الوحيد الذي قرأه طوال حياته. ثم ذكرته ببارنوم، وجيني ليند وعدد آخر من المشاهير في أيامه.

وعندما سادت فترة من الهدوء ذكرت لوريت أن تمثيلية موسيقية ستقدم في الراديو في الساعة الثالثة والنصف... هل نريد أن نسمعها؟

لكن حان وقت تناول فطيرة الخوخ التي تقدم - مع تلك الصلصة السميكة اللذيذة - ونسيت لوريت مؤقتاً التمثيلية الموسيقية.

ذكّرتني كلمة «الثالثة والنصف» بأنه مايزال أمامنا جلسة طويلة. تساءلت كيف يمكننا بحق السماء أن نستمر في الحديث حتى يحين وقت المغادرة. ومتى يمكننا أن نستأذن بالانصراف دون أن يبدو علينا أننا في عجلة من أمرنا؟ لقد بدأت فروة رأسي تحكني.

مستغرقاً في التفكير بهذا، بدأت أدرك أكثر وأكثر بأن النوم بدأ

يداعب أجفان مونا وستاسيا بقوة. وكان من الواضح أنه لم يعد بوسعهما أن تبقيا عيونهما مفتوحة. ما الموضوع الذي يمكنني أن أثيره حتى أحفزهما دون أن تفقدا في الوقت نفسه رأسيهما؟ شيء تافه، لكنه مع ذلك ليس تافهاً جداً. (استيقظا أيتها الحقيرتان!) ربما شيء عن المصريين القدماء؟ لماذا هم؟ لإنقاذ حياتي، لم أستطع أن أفكّر بشيء أفضل. حاول! حاول!

وفجأة أدركت أن الجميع قد لاذ بالصمت. حتى لوريت لاذت بالصمت. منذ متى بدأ هذا؟ فكّر بسرعة! أيّ شيء لكسر الجمود. ماذا، رمسيس مرة أخرى؟ اللعنة على رمسيس! فكّر بسرعة، أيها الأحمق! فكّر! بأيّ شيء!

«هل أخبرتكم...؟» بدأت أقول.

«أعذروني»، قالت مونا، ونهضت بتثاقل وأوقعت الكرسي وهي تنهض، «هل تمانعون إن استلقيت لبضع دقائق فقط؟ فلديّ صداع شديد».

لم تكن الأريكة تبعد سوى بضعة سنتيمترات. وبدون جلبة غاصت فيها وأغمضت عينيها.

(بحق المسيح، لا تبدئي في الشخير على الفور).

«لا بد أنها مرهقة»، قال أبي. ونظر إلى ستاسيا وقال: «لماذا لا تأخذين غفوة أيضاً؟ إنها ستريحك».

لم تكن بحاجة إلى إقناع ستاسيا هذه. فبسرعة تمددت بجانب جثة مونا الهامدة.

«احضري لها بطانية»، طلبت أمي من لوريت. «البطانية الرقيقة في الخزانة في الطابق العلوي».

كانت الأريكة ضيّقة ولا تتسع لهما جيداً. أخذتا تتقلبان، تفتلان، تضحكان، تئنان، تتثاءبان على نحو مخجل. وفجأة تدلت النوابض وسقطت ستاسيا على الأرض. كان الأمر بالنسبة لمونا

مدعاة للضحك الشديد. ضحكت وضحكت بصوت عال جعلني أشعر بالحرج. لكن كيف يمكنها أن تعرف أن هذه الأريكة الثمينة التي قاومت خمسين عاماً ربما كانت ستدوم عشراً أو عشرين سنة أخرى بالعناية والرعاية الملائمتين؟ ففي «بيتنا» لا يضحك المرء بشدة على حادثة كهذه.

في هذه الأثناء جثت أمي على يديها وركبتيها لترى كيف وأين هبطت الأريكة. (التي كانوا يطلقون عليها الصوفا). واستلقت ستاسيا حيث وقعت، كما لو أنها تنتظر تعليمات. وأخذت أمي تدور حولها مثل قندس يدور حول شجرة سقطت. ظهرت لوريت الآن وهي تحمل البطانية. أخذت تراقب المشهد مشدوهة. (لا شيء كهذا يجب أن يحدث) أما أبي فلم يكن يجيد تصليح أيّ شيء، فتوجه إلى الباحة الخلفية يبحث عن قطع من الآجر. «أين المطرقة؟» سألت أمي. أثار منظر أبي، وهو يحمل قطعة الآجر، ازدراءها. كانت ستصلحها على الفور.

«في ما بعد»، قال أبي، «تريدان أن تأخذا غفوة الآن». وبهذا جثا على ركبتيه ودفع قطع الآجر تحت النوابض المدلاة المرتخية.

رفعت ستاسيا الآن نفسها عن الأرض، بما يكفي لتعود وتنزلق على الأريكة، وأدارت وجهها إلى الحائط. استلقتا بشكل الملعقة، هادئتان كسنجابين منهكين. أخذت مقعدي إلى المائدة ورحت أراقب طقوس تنظيف المائدة. لقد شهدتها ألف مرة، وهي لم تتغير أبداً. وفي المطبخ كان الشيء ذاته. الأهم قبل المهم...

«كلبتان مخادعتان»، قلت لنفسي. كان عليهما أن تنظفا المائدة وتغسلا الصحون. صداع! بهذه البساطة. الآن يجب أن أواجه الموسيقى وحدي. ربما كان أفضل بهذه الطريقة، بما أني أعرف جميع حركاتهن. الآن لم يعد يهمّ ما سيطرح للمناقشة ـ قطط ميتة، صراصير السنة الماضية، تقرحات السيدة شوابنهوف، موعظة الأحد الماضي، منظّفو السجاد، فيبير وفيلدس أو آخر المنشدين.

سأبقي عينيّ مفتوحتين مهما كلف الأمر حتى لو طال الأمر حتى منتصف الليل. (إلى متى ستنامان، هاتان الثملتان؟) إذا شعرتا بالراحة عندما تستيقظان فربما لن تمانعا إن طال مكوثنا. كنت أعرف أننا يجب أن نتناول لقمة قبل أن نذهب. فلا يمكن للمرء أن ينسلّ في الساعة الخامسة أو السادسة. ليس في يوم عيد الميلاد. ولا يمكننا أن نخرج دون أن نتحلق حول الشجرة، وننشد تلك الأغنية الفظيعة «أو تانينبوم». ومن المؤكد أن يعقب ذلك عرض كامل لجميع الأشجار التي كانت عندنا وأوجه التشابه بينها، كم كنت متلهفاً، عندما كنت صبياً، لرؤية الهدايا التي تنتظرني تحت شجرة عيد الميلاد. (لا ذكر أبداً للوريت كفتاة). كم كنت صبياً رائعاً! هذا القارئ، عازف البيانو الجيد! والدراجات التي كانت عندي والمزلجات، والبندقية الهوائية، (لا ذكر لمسدسي). هل مايزال في الدرج حيث توجد السكاكين والشوك؟ كانت تلك حقاً لحظة سيئة أعطتنا إياها أمي، في الليلة التي ذهبت فيها لإحضار المسدس. ولحسن الحظ لم تكن توجد خرطوشة في المخزن. لعلها كانت تعرف الكثير.

لا، لم يتغير شيء. فقد توقف العمر عند الثانية عشرة من عمري. مهما همس المرء في آذانهم، كنت دائماً ذلك الطفل الصغير العزيز الذي سيكبر ذات يوم ليصبح خياطاً. كلّ ذلك الهراء حول الكتابة... وسأتجاوز الأمر إن عاجلاً أم آجلاً. وهذه الزوجة الجديدة الغريبة الأطوار... التي كانت تذوي أيضاً مع مرور الزمن. وأخيراً أعود إلى صوابي. كلّ شخص يعود إلى صوابه، إن عاجلاً أم آجلاً. لم يقلقا، مثل العم العزيز بول، بأن أنتحر، فلم أكن من ذلك النوع. كما أني أملك رأساً أفكر به. عاقل في قرارة نفسي. شديد الغضب وصعب المراس، لا أكثر من ذلك. يقرأ كثيراً... عنده الكثير من الأصدقاء العديمي القيمة. وكانوا يحرصون على عدم ذكر الاسم، لكني سرعان ما علمت، عندما طرح السؤال، خلسة دائماً

وبنبرات مخنوقة، وعيون تتجه يميناً، وعيون تتجه يساراً «كيف حال الصغيرة؟» أي ابنتي. وأنا الذي لم يكن لدي أدنى فكرة، حتى أني لم أكن متأكّداً إن كانت ما تزال على قيد الحياة، يجيب بهدوء، وبثقة: «أوه، إنها بخير، نعم». «نعم؟» تقول أمي. «وهل سمعت عنهما؟» وتعني بذلك ضمناً زوجتي السابقة. فأجيب «بصورة غير مباشرة». «ستانلي يحدثني عنهما أحياناً»، «وكيف حال ستانلي؟»، «على ما يرام...».

كم كنت أتمنّى أن أحدثهما عن جوني بول. لكنهما كان يعتبران ذلك شيئاً غريباً، غريباً جداً. لماذا لم أر جوني بول منذ أن كنت في السابعة أو الثامنة من عمري. لكن الشيء الذي لم يشكا فيه أبداً، وخاصة أنتِ يا أمي العزيزة، أن ذاكرته بقيت حيّة طوال تلك السنوات. نعم، مع مرور السنوات، كان جوني بول يبرز بشكل مشع ومشرق أكثر. أحياناً، وهذا يتجاوز مخيلتك، أفكّر به كإله صغير. أحد القلائل جداً ممن عرفتهم. إنكِ لا تتذكّرين على ما أظن أنه كان لجوني بول أرّق وألطف صوت يمكن أن يكون لدى إنسان؟ إنك لا تعرفين مع أني كنت خسيساً آنذاك، كنت أرى من خلال عينيه ما لم يكشفه لي أحد أبداً؟ كان بالنسبة لك مجرد ابن عامل في منجم الفحم: صبي مهاجر، إيطالي قذر، لم يكن يتكلم الإنكليزية جيداً، لكنه كان يرفع قبعته بأدب عندما كنت تمرين. كيف يمكنك أن تحلمي بأن مثل هذه العيّنة يمكن أن تكون بمثابة إله لابنك العزيز؟ هل كنت تعرفين شيئاً عما كان يدور في عقل ابنك المشاكس؟ لم تكوني توافقين على أيّ من الكتب التي كان يقرأها، ولا الرفاق الذين يختارهم، ولا الفتيات اللاتي وقع في حبهن، ولا الألعاب التي يلعبها، ولا الأشياء التي يريد أن يكونها. كنتِ دائماً تعرفين أكثر، أليس كذلك؟ لكنّك لم تضغطي كثيراً. كنت تتظاهرين بأنك لا تسمعين، لا ترين. سأتغلب على كلّ هذه الغباوة في الوقت المناسب. لكني لم أفعل ذلك! كانت الأمور تزداد سوءاً كلّ سنة. لذلك كنت تتظاهرين بأن الساعة توقّفت

عند الثانية عشرة. ببساطة لم يكن بوسعك أن تعرفي من هو ابنك في الحقيقة. كنت تختارين الموضوع الذي يناسبك. الصبي في الثانية عشرة من عمره. بعد ذلك الطوفان...

وفي السنة التالية، في هذا الفصل اللعين من السنة، ربما ستسأليني مرة أخرى إن كنت ما أزال أكتب، وسأقول لك نعم، وسوف تتجاهليني أو تعامليني مثل نقطة نبيذ تنسكب عرضاً على أفضل مفرش لمائدتك. إنك لا تريدين أن تعرفي لماذا أكتب، ولا تكترثين إن أخبرتك بالسبب. إنك تريدين أن تثبتيني بالمسامير على الكرسي، تجعليني أستمع إلى الراديو السخيف. تريدين أن أجلس وأستمع إلى ثرثرتك الفارغة عن الجيران والأقرباء. ستستمرين في عمل ذلك حتى لو كنت طائشاً، أو جريئاً بما يكفي، لأعلمك بتعابير محددة وواضحة بأن كلّ شيء تتحدثين عنه كان مجرد هراء بالنسبة لي. هنا أجلس وأنا غارق في هذا الهراء حتى الرقبة. ربما سأجرّب مسماراً جديداً ـ متظاهراً بأني متقد بالحماس، مفعم بالإثارة. «ما اسم تلك التمثيلية الموسيقية؟ صوت جميل. جميل! اطلبي منهم أن يعيدوا غناءها مرة أخرى... وأخرى... وأخرى!»، وإلا انسللت إلى الطابق العلوي وبحثت عن أسطوانات كاروسو القديمة. كان له صوت رائع، أليس الآن؟ («نعم، شكراً، سأدخن سيجاراً») لكن لاتقدمي لي كأساً آخر، أرجوك. يتجمع رمل في عينيّ؛ إنه ذلك التمرّد القديم الذي يبقيني يقظاً. ما الذي يجعلني أتسلل إلى تلك الغرفة الصغيرة في الطابق العلوي: غرفة نوم قذرة لا يوجد فيها كرسي، أو بساط أو صورة، وأنام كالأموات! كم من مرة، مرات كثيرة، كنت ألقي بنفسي على ذلك السرير، وأدعو ربي ألا أفتح عينيّ ثانية أبداً! ذات مرة، هل تتذكّرين يا أمي العزيزة، ألقيت دلواً من الماء البارد فوقي لأنني كنت كسولاً، تافهاً وعاجزاً. صحيح، كنت مستلقياً هناك مدة ثماني وأربعين ساعة. لكن هل كان هو الكسل الذي جعلني لاأغادر الفراش؟ إن الشيء الذي لا تعرفينه يا أمي، أن ذلك كان

بسبب حزن ممضّ. كنتِ ستسخرين من ذلك أيضاً، لو بلغت فيّ الحماقة وأفضيت إليك بمكنونات صدري. غرفة النوم الصغيرة تلك المروّعة الفظيعة! لا بدّ أني متّ ألف مرّة فيها. لكني رأيت أيضاً أحلاماً ورؤى هناك. نعم، حتى أني كنت أصلّي في ذلك السرير، ودموع رطبة غزيرة تنهمر على خديّ. (كم كنت أريدها، وهي فقط). وعندما فشل ذلك، حين أصبحت بعد لأي مستعداً وقادراً على النهوض ومواجهة العالم ثانية، لم يكن هناك سوى رفيق عزيز واحد يمكنني أن أتجه إليه: دراجتي. تلك الدورات الطويلة، اللانهائية على ما يبدو، أنا فقط ونفسي، أدخل الأفكار المرّة إلى ذراعيّ ورجليّ، أدفع، أندفع، أنزلق على الدروب الملساء المكسوة بالحصى كالريح، لكن بلا جدوى. وفي كلّ مرّة كنت أترجل عنها، كانت صورتها تبقى ماثلة هناك، ومعها يزول الألم، والشكّ، والخوف. لكن أن تكون جالساً على السرج ولا تعمل فتلك نعمة حقيقية. كانت الدراجة جزءاً مني، تستجيب لرغباتي. لم يستجب شيء غيرها. لا، يا والديّ العزيزين، القاسيين، الفاقديّ البصر، لم تقولا لي شيئاً أبداً، لم تفعلا لي شيئاً، لم تمنحاني البهجة والراحة التي كانت تمنحني إياها دراجة السباق تلك. كم كنت أتمنى أن أتمكن من تفكيكما، كما أفكك دراجتي، وأزيّتكما وأدهنكما بالشحم بكلّ مودّة!

«ألا تريد أن تخرج في نزهة مع أبيك؟».

أيقظني صوت أمي من أحلام يقظتي.

لا أذكر كيف انجرفت إلى الكرسي ذي المسند. لعلي غفوت قليلاً دون أن أعرف. على أية حال فقد جعلني صوتها أجفل.

بينما كنت أفرك عينيّ لاحظت أنها تقدم لي خيزرانة. خيزرانة جدّي. مصنوعة من الأبنوس الصلب ذات مقبض فضي في شكل ثعلب أو ربما كان قرداً.

وبسرعة استويت واقفاً على قدمي وألقيت معطفي على كتفي.

كان أبي جاهزاً، يمسك عكازته ذات المقبض العاجي. قال: «سينعشك الهواء».

وغريزياً توجّهنا إلى المقبرة. كان يحبّ أن يمشي في المقبرة، لا لأنه كان مولعاً بالموتى، بل بسبب الأشجار والزهور، والطيور والذكريات التي تستثيرها وداعة الموتى وهدوؤهم دائماً. وكانت تتخلل الدروب مقاعد يستطيع المرء أن يجلس عليها ويناجي الطبيعة، أو يناجي إله العالم السفلي، إذا أحبّ. لم يكن علّي أن أجهد نفسي لأواصل الحديث مع أبي؛ كان معتاداً على أجوبتي الموجزة المراوغة، ذرائعي الضعيفة. لم يحاول مطلقاً أن يحثني على الكلام. كان وجود شخص بجانبه يكفي.

في طريق العودة اجتزنا المدرسة التي درست فيها عندما كنت صبياً. وقبالة المدرسة كان هناك صفّ من الشقق الرديئة المظهر، فيها محلات تشبه صفاً من الأسنان المنخورة. كان طوني ماريلا قد تربّى في إحدى هذه الشقق. ولسبب ما، كان أبي يتوقع مني دائماً أن أتحمس لدى ذكر اسم طوني ماريلا. ولم يكن يألو جهداً في إخباري، لدى ذكر الاسم، عن جميع ترقياته الجديدة على سلّم الشهرة الذي كان يرتقيه ابن هذا الأوروبي القادم من الجنوب، الذي يشغل الآن وظيفة هامة في أحد فروع الخدمة المدنية، كما كان مرشحاً للانتخابات كعضو في الكونجرس أو شيئاً من هذا القبيل. ألم أقرأ عنه؟ سيكون شيئاً جيداً، قال لنفسه، إذا احتجت طوني ذات مرة... لايعرف أحد ماذا يمكن أن يصل إليه.

وبالقرب من منزلنا عبرنا البيت الذي يعود إلى عائلة غروس. وقال إن ابنيّ غروس حققا نجاحاً أيضاً. فقد أصبح أحدهما ضابطاً في الجيش برتبة نقيب، والآخر برتبة عميد في البحرية. حلمت قليلاً، وأنا أنصت إليه وهو يقول إن أحدهما سيصبح ذات يوم جنرالاً. (فقد كانت فكرة أن يولد جنرال في هذا الحيّ، في ذلك الشارع، مستحيلة).

سألته: «ماذا حلّ بذلك الرجل المجنون الذي كان يقيم في الشارع؟ أتعرف أين كانت تقع الإسطبلات»؟.

«لقد عضّ حصان يده وأصيب بالغنغرينا».

«تقصد أنه مات؟».

قال أبي: «في الواقع ماتوا جميعهم منذ زمن بعيد. الأخوة كلهم. أصابت أحدهم صاعقة وانزلق آخر على الثلج وانكسرت جمجمته... أوه نعم، وأصبح الآخر نزيل مشفى المجانين... ومات بسبب النزيف بعد فترة وجيزة. أما الأبّ فقد عاش حياة أطول. كان ضريراً كما أتذكر. وفي آواخر أيامه أصيب بلوثة في عقله. لا لم يكن يفعل شيئاً سوى صيد الفئران».

سألت نفسي «لماذا»، ألم أفكّر بأن أتنقل من بيت إلى بيت، من أول الشارع إلى آخره، وأكتب سجلاً بحياة قاطني الحيّ؟ كيف سيكون شكل هذا الكتاب! كتاب رعب. هذا الرعب المعروف أيضاً. تلك المآسي اليومية التي لا تظهر على صفحات الجرائد الأولى على الإطلاق. دي موباسان سيكون في مكانه الطبيعي هنا...

عدنا إلى البيت ووجدنا أن الجميع كانوا صاحين ويقظين ويتحدثون بمودة. كانت مونا وستاسيا ترشفان القهوة. لعلهما طلبتاها، فلا يمكن أن تحلم أمّي بأن تقدم القهوة بين وجبات الطعام. كانت القهوة مخصصة للفطور فقط، ولحفلات احتساء القهوة. إلا أن...

«هل استمتعتما بالنزهة؟».

«نعم يا أمي. تمشّينا في المقبرة».

«هذا جميل. هل كانت القبور بحالة جيدة؟».

كانت تقصد المقبرة العائلية، وخاصة قبر أبيها.

«هناك مكان لك أيضاً وللوريت»، قالت. اختلست نظرة إلى

ستاسيا لرؤية إن لم تلوي وجهها. تحدثت مونا الآن. ملاحظة في غير محلها أيضاً.

قالت: «إنه لن يموت أبداً».

بدا الاستياء على وجه أمي، كما لو أنها قضمت فطيرة إجاص. ثم ابتسمت ابتسامة حنونة، أولاً لمونا، ثم لي. في الحقيقة كانت على وشك أن تضحك عندما أجابت: «لاتقلقي، سيذهب مثلنا جميعنا. انظري إليه. لقد أصبح أصلعاً وهو مايزال في الثلاثينات من عمره. إنه لا يعتني بنفسه. وأنتِ أيضاً». تحولت نظرتها الآن إلى نظرة تنم عن تأنيب لطيف.

«إن فال عبقري»، قالت مونا، وهي تضع قدمها في مكان أكثر عمقاً.

كانت على وشك أن تسهب لكن أمي أوقفتها.

«هل يجب أن تكون عبقرياً لكي تكتب قصصاً؟» سألت.

كان ثمة تحدٍ مشؤوم في نبرتها.

«لا»، قالت مونا، «لكن فال عبقري حتى لو لم يكتب».

«صه، صه! من المؤكد أنه ليس عبقرياً في جمع المال».

«يجب ألا يفكّر بالمال»، جاء ردّ مونا سريعاً. «هذا ما يقلقني».

«أن يبقى في البيت ويخربش، أليس كذلك؟» بدأ السم يتدفق. «وأنتِ، شابّة جميلة مثلك، يجب أن تخرج وتجد عملاً. لقد تغيّر الزمن. عندما كنت فتاة كان أبي يجلس على المقعد من الصباح حتى المساء. كان يكسب المال من عرق جبينه. لم يكن بحاجة إلى إلهام... ولا إلى عبقرية. كان مشغولاً بأن يبقينا، نحن أطفاله، على قيد الحياة وسعداء. لم يكن لدينا أم... كانت في مستشفى المجانين. كنا نحبه كثيراً. كان أباً وأماً بالنسبة لنا. لم يكن ينقصنا شيء». توقفت لحظة لتسدد هدفاً جيداً. «أما هذا الرجل»، وأومأت نحوي،

«هذا العبقري، كما تطلقين عليه، فهو كسول إلى درجة أنه لا يحب أن يعمل. إنه ينتظر حتى ترعاه زوجته ـ وزوجته الأخرى وطفلته. لو كان يكسب شيئاً من كتابته لما اكترثت بالأمر. لكن أن يواصل الكتابة ولا يحقق شيئاً، فلا يمكنني أن أفهم ذلك».

«لكن يا أماه...» قالت مونا.

«انظري هنا»، قلت، «أليس من المستحسن أن نغيّر الموضوع؟ لقد تحدثنا في هذا الموضوع عشرات المرات، لكن بدون فائدة. لاأتوقع منك أن تفهمي. لكن يجب أن تفهمي هذا... لم يصبح أبوك خياط معاطف من الدرجة الأولى بين ليلة وضحاها، أليس كذلك؟ لقد قلتِ لي أنتِ نفسك أنه عمل صانعاً لفترة طويلة، وكان يسافر من بلدة إلى بلدة، في أرجاء ألمانيا، وذهب أخيراً إلى لندن تهرباً من الخدمة العسكرية. وينطبق الشيء ذاته على الكتابة. إذ يستغرق إتقانها سنوات. ويحتاج الأمر إلى سنوات أخرى كي يبدأ الآخرون يتعرفون عليه ويعترفون به. وعندما كان أبوك يخيط معطفاً كان هناك شخص جاهز لارتدائه. لم يكن يتعين عليه أن يطوف من مكان إلى آخر كي يجد شخصاً يبدي إعجابه بالمعطف ويشتريه...».

قالت أمي: «إنك تتكلّم فقط. لقد سمعت ما يكفي»، ونهضت لتذهب إلى المطبخ.

«لا تذهبي»، رجتها مونا. «استمعي إليّ أرجوك. أنا أعرف عيوب فال. لكني أعرف أيضاً ما بداخله. إنه ليس ذلك الحالم الكسول، بل يعمل حقاً. لعله يجيد الكتابة أكثر مما يجيد أي شيء آخر بكثير. هذا هو عمله، الخربشة، كما تسمينها. هذا ما فُطر على عمله. كنت أرجو من الله أن تكون لديّ مهنة، شيء يمكنني أن أتابعه بكلّ جوارحي، شيء أؤمن به تماماً. إن مجرد النظر إليه وهو يعمل يمنحني المتعة والبهجة».

«إنه يصبح شخصاً آخر عندما يكتب. حتى أني لا أعود أعرفه أحياناً. يبدو في غاية الجدية، رأسه يعج بالأفكار، يعكف على عمله

بكلّ حواسه... نعم، وأنا كان عندي أبّ جيد أيضاً، أبّ كنت أحبه كثيراً. كان يريد أن يصبح كاتباً أيضاً. لكن حياته كانت صعبة للغاية. كنا عائلة كبيرة، مهاجرين، فقراء مدقعين. وكانت أمي كثيرة التطلب. كنت أميل إلى أبي أكثر مما كنت أميل إلى أمي. ربما لأنه كان فاشلاً. لم يكن فاشلاً بالنسبة لي، تفهمين قصدي. كنت أحبه. لم يكن يهمني من هو أو ماذا كان يفعل. أحياناً، مثل فال هنا، كان يصنع من نفسه مهرّجاً...».

هنا أبدت أمي شيئاً من الانزعاج، ونظرت إلى مونا بعينين فضوليتين، وقالت: «أوه؟» من الواضح أن لا أحد أسهب في هذا الجانب من شخصيتي من قبل.

«أعرف أنه يتمتع بروح النكتة»، قالت، «لكن... مهرّج؟».

«هذه هي طريقتها في وضع الأمور»، قال أبي.

«لا»، قالت مونا بإصرار، «أعني ذلك... مهرّج».

«لم أسمع في حياتي أن كاتباً يكون مهرجاً أيضاً»، كانت ملاحظة أمي الشاملة الحمقاء.

عند هذه النقطة فإن أي شخص آخر سيستسلم، إلا مونا. لقد أدهشتني بإصرارها. هذه المرة كانت تتقد حماساً. (أم أنها استغلت هذه الفرصة لإقناعي بولائها وإخلاصها؟) على أي حال، قرّرت أن أدعها على سجيتها. جدال جيد، مهما كان الخطر الذي يمكن أن ينجم عنه، أفضل من حديث من نوع آخر. كان مثيراً للاهتمام.

«عندما يتصرف كالمهرج»، قالت مونا، «فهو يفعل ذلك عادة لأنه يشعر بالأذى. إنه شخص حسّاس، كما تعرفين. حسّاس جداً».

«كنت أظن أن له جلداً سميكاً بعض الشيء»، قالت أمي.

«لا بد أنك تمزحين. إنه أكثر كائن حيّ حسّاسية. جميع الفنانين حسّاسين».

«هذا صحيح»، قال أبي. ربما كان يفكّر براسكين، أو بذلك الشيطان المسكين ريدر الذي كانت لوحاته تتسم بحسّاسية سقيمة.

«انظري يا أمي، لا يهمّ متى يُعترف بفال وينال حقّه الذي يستحقه. سأكون معه دائماً. ولن أدعه يموت جوعاً أو يعاني». (أستطيع أن أشعر بأن أوصال أمي بدأت تتجمد ثانية). «لقد رأيت ما حدث لأبي، ولن يحدث ذلك لفال. أريده أن يفعل ما يحلو له. فلديّ ثقة به. وسأثق به حتى لو تخلى العالم كله عنه». توقفت لحظة طويلة، ثم واصلت بجدية أكبر: «أنا لا أفهم لماذا لا تريدينه أن يكتب. الكاتب لا يمكن أن يكسب رزقه من الكتابة. هذا ما يقلقه وما يقلقني، أليس كذلك؟ لا أقصد أن أجرحك بما أقوله، إنما يجب أن أقول هذا ـ إذا لم تقبليه ككاتب فلن تقبليه كابن. كيف تفهيمنه إذا لم تكوني تعرفين هذا الجانب عنه؟ ربما كان شيئاً آخر، شيئاً تفضلينه، مع أنه يصعب رؤية ماذا كنت تعرفينه ذات يوم... على الأقل، كما أعرفه أنا. وماذا ينفعه أن يثبت لك أو لي أو إلى أي شخص آخر بأنه يمكن أن يكون كأي شخص آخر؟ تتساءلين إن كان زوجاً جيداً، أباً جيداً، وإلى ما هنالك. هو كذلك، يمكنني أن أخبرك ذلك. لكنه أكثر من ذلك بكثير. إن ما يعطيه يخص العالم كله، لاعائلته، وأطفاله، وأمه أو أبيه فقط. ربما بدا ذلك غريباً بالنسبة لك، أو قاسياً؟».

«رائع!» قالت أمي، قطعتها كالسوط.

«حسناً، رائع إذن. لكن هكذا هو الحال. ربما قرأتِ ما يكتبه ذات يوم وشعرب بالفخر به كابن».

«ليس أنا!» قالت أمي. «فأنا أفضّل أن أراه يحفر خنادق».

«ربما كان عليه أن يفعل ذلك أيضاً ـ ذات يوم»، قالت مونا. «بعض الفنانين ينتحرون قبل أن يعترف بهم أحد. فقد أنهى رمبراندت حياته في الشوارع، كشحاذ. وكان أحد أعظم...».

«وماذا عن فان غوخ؟» زقزقت ستاسيا.

«من هو ذاك؟» قالت أمي. «مخربش آخر؟».

«لا، رسّام. رسّام مجنون أيضاً» بدأ صوت ستاسيا يعلو.

«جميعهم يبدون لي كالمجانين»، قالت أمي.

انفجرت ستاسيا في الضحك. وراحت تقهقه أكثر وأكثر.

«وماذا عني؟» صاحت. «ألا تعرفين أني أنا مجنونة أيضاً؟».

«لكن مجنونة رائعة»، قالت مونا.

«أنا مجنونة، هذا كلّ ما في الأمر!» قالت ستاسيا، وهي تواصل قهقهتها. «الجميع يعرفون ذلك».

كان بوسعي رؤية أمي وقد اعتراها الخوف. لم يكن ثمة مانع من المزاح بكلمة مجنون، لكن الاعتراف بأن يكون المرء مجنوناً، فهذه مسألة أخرى.

كان أبي هو من أنقذ الوضع. وقال: «واحد مهرّج، وآخر مجنون، وماذا أنتِ؟» مخاطباً مونا. «الا يوجد ثمة عيب فيك؟».

ابتسمت وأجابت بدون مبالاة: «أنا طبيعية تماماً. هذه هي مشكلتي».

التفت الآن نحو أمي وقال: «الفنانون جميعهم متشابهون. يجب أن يكونوا مجانين بعض الشيء حتى يرسموا أو يكتبوا. وماذا عن صديقنا القديم جون إمهوف؟».

«ماذا عنه؟» قالت أمي وهي تنظر إليه دون أن تفهم قصده. «هل كان عليه أن يهرب مع امرأة أخرى، هل كان عليه أن يهجر زوجته وأطفاله ليثبت أنه فنان؟».

«ليس هذا ما أقصده أبداً». بدأ يشعر بالاستياء منها، عارفاً حق المعرفة كيف يمكنها أن تصبح عنيدة وبليدة. «ألا تذكرين تلك النظرة التي كانت تظهر على وجهه عندما كنا نفاجئه في عمله؟ فقد كان هناك، في تلك الغرفة الصغيرة يرسم بألوان مائية بعد أن يخلد الجميع إلى النوم». ثم التفت نحو لوريت وقال: «اصعدي إلى الطابق

العلوي وأحضري تلك الصورة المعلقة في صالة الاستقبال. تلك اللوحة التي تصور رجلاً وامرأة في زورق تجذيف... وعلى ظهر الرجل حزمة قش».

«نعم»، قالت أمي بجدية: «كان رجلاً طيباً، جون إمهوف هذا، حتى بدأت زوجته تتعاطى الشراب. مع أني يجب أن أقول إنه لم يكن يبدي اهتماماً كبيراً بأطفاله. لم يكن يفكّر بشيء إلا بفنه».

«كان فناناً جيداً»، قال أبي. «إنه عمل جميل. هل تذكرين زجاج النوافذ الملونة التي رسمها في الكنيسة الصغيرة عند ناصية الشارع؟ على ماذا حصل لقاء عمله؟ بالكاد لا شيء. لا، سأذكر دائماً جون إمهوف، مهما فعل. كنت أتمنّى أن يكون لدينا المزيد من أعماله».

ظهرت لوريت الآن تحمل اللوحة. تناولتها ستاسيا منها وراحت تتفحصها باهتمام شديد ظاهر. خشيت أن تقول شيئاً عنها لكونها أكاديمية جداً، لكن لا، فقد اتسمت بكل الكياسة والتقدير. وقالت إنها لوحة جميلة... ومرسومة بمهارة كبيرة.

«إنه ليس عملاً سهلاً»، قالت. «هل كان يرسم بالألوان الزيتية؟ أنا لست حَكَماً ممتازاً في الألوان المائية. لكني أستطيع أن أرى أنه يعرف ما يفعل» توقّفت. ثم أضافت، كما لو أنها حدست المسار الصحيح: «هناك رسام واحد بالألوان المائية أكنّ له احتراماً شديداً».

«جون سينغر سارغينت»، صاح أبي.

«صحيح»، قالت ستاسيا. «كيف عرفت؟ أعني، كيف عرفت أني كنت أفكر فيه؟».

«لا يوجد سوى سارغينت واحد»، قال أبي. كان تصريحاً سمعه مرات كثيرة من شفتي سلفه، إسحاق ووكر. «يوجد سارغينت واحد، كما يوجد بيتهوفن واحد، موزارت واحد، دا فينشي واحد... صحيح؟».

أضاء وجه ستاسيا. تشجعت الآن لتعبّر عن رأيها بصراحة. نظرت إليّ وهي تفتح فمها وقالت: «لماذا لم تخبرني بهذه الأشياء عن أبيك؟».

قالت: «لقد درستها جميعها، وأحاول الآن أن اكتشف نفسي. أنا لست مجنونة كما ادعيت قبل لحظة. أعرف أكثر مما يمكنني استيعابه، هذا كلّ ما في الأمر. لديّ موهبة لكني لست عبقرية. بدون عبقرية، لا شيء يهم. أريد أن أكون بيكاسو... بيكاسو الأنثى. لا ماري لورينسين. تفهمون قصدي».

«بالتأكيد!»، قال أبي، وصادف أن غادرت أمي الغرفة. كان بوسعي أن أسمع صوت قرقعة القدور والمقالي. لقد منيت بالهزيمة.

«نسخ هذه من لوحة مشهورة»، قال أبي، مشيراً إلى لوحة جون إمهوف بالألوان المائية.

«لا يهم»، قالت ستاسيا. «فقد نسخ الكثير من الفنانين أعمال الفنانين الذين كانوا يحبونهم... لكن ماذا قلت حدث له... جون إيم... هذا؟».

«لقد هرب مع امرأة أخرى. أخذها إلى ألمانيا، حيث تعرف عليها عندما كان صبياً. ثم نشبت الحرب ولم نعد نسمع عنه شيئاً. ربما قُتل».

«وماذا عن رافائيل، هل تحبّ أعماله؟».

«لا يوجد رسام أعظم منه»، قال أبي على الفور.

«وكوريجيو ـ كان هناك رسام كبير آخر. وكوروت! لا تستطيع أن تنسى كوروت الجيد، أليس كذلك؟ ولم أهتم كثيراً بغاينسبورو. أما سيسلي...».

«يبدو أنك تعرفهم جميعهم»، قالت ستاسيا، مستعدة الآن لتلعب هذه اللعبة طوال الليل. «وماذا عن المعاصرين... هل يعجبونك أيضاً؟».

«تقصدين جون سلون، وجورج لوكس... أولئك؟».

«لا»، قالت ستاسيا، «أعني رجالاً من أمثال بيكاسو، وميرو، وماتيس، وموديلياني...».

«لم أطلع على أعمالهم»، قال أبي. «لكني أحبّ الانطباعيين الذين رأيت أعمالهم. ورينوار، بالطبع. لكنه ليس معاصراً، أليس كذلك؟».

«بطريقة ما، نعم»، قالت ستاسيا. «لقد ساعد في تمهيد الطريق».

«من المؤكد أنه كان يحبّ الرسم، يمكنكِ أن تري ذلك»، قال أبي.

«وكان رساماً جيداً. فجميع صوره عن النساء والأطفال جميلة للغاية؛ إنها تلتصق بمخيلتك. ثم الزهور والألبسة... كلّ شيء بهيج، ولطيف للغاية، ومفعم بالحياة. لقد رسم زمنه، يجب أن تقرّي بذلك. وكانت فترة جميلة - غاي، باري، نزهات على امتداد نهر السين، الطاحونة الحمراء، حدائق رائعة...».

«تجعلني أفكّر بتولوز - لوتريك»، قالت ستاسيا.

«مونيه، بيسارو...».

«بيونكاريه!» أضاف.

«ستريندبيرغ!» قالت مونا.

«نعم، كان هناك مجنون محبوب»، قالت ستاسيا.

هنا مدت أمي رأسها وقالت: «أما زلتم تتحدثون عن المجانين؟ ظننت أنكم انتهيتم من هذا الموضوع»، وتنقلت بنظراتها من واحد إلى آخر، ورأت أننا كنا مستمتعين بذلك، فولت أدبارها. كان هذا يفوق احتمالها. إذ لا يحق للناس أن يكونوا سعداء ويتحدثون عن الفن. كما أشعرها ذكر هذه الأسماء الأجنبية الغريبة بالإهانة. فهذا شيء غير أمريكي.

وهكذا انقضت فترة بعد الظهر على نحو أفضل مما كنت أتوقّع بفضل ستاسيا. فمن المؤكد أنها نجحت مع أبي. حتى عندما ذكر بشكل وديّ أنها يجب أن تكون رجلاً، لم تعلق شيئاً.

وعندما ظهر ألبوم صور العائلة فجأة، كدت أُستبعد تماماً. يالها من مجرة من الأشخاص الغريبي الأطوار! العم ثيودور من هامبورغ: ذلك الغندور الغبي. جورج شيندلر من بريمين: من نوع هيسيان باو بروميل الذي كان متعلقاً بأسلوب عام 1880 وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى. هينريتش ميوير، والد أبي، من بافاريا: الذي كان يشبه الإمبراطور فرانز جوزيف. جورج إنسيت، أبله العائلة، الذي كان يحدّق مثل عنزة بيلي المجنونة من وراء شارب ضخم على طريقة القيصر ويلهلم. أما النساء فكنّ أكثر غموضاً. والدة أمي، التي أمضت نصف حياتها في مستشفى المجانين: كان من الممكن أن تكون إحدى البطلات في إحدى روايات والتر سكوت. العمة ليزي، الوحش التي نامت مع أخيها: نظرة مرحة سليطة، وجرذان منتفخة في شعرها، وابتسامة حادة كالسكين. العمة آني، في ثياب سباحة من عهد ما قبل الحرب، تبدو مثل أحمق ماك سينيت وهي على استعداد للدخول إلى كِنِّ الكلب. والعمة أميليا، أخت أبي: ملاك ذات عينين بنيتين ناعمتين... جميلتين. والسيدة كيكينغ، مدبرة المنزل الهرمة: لا بد أنها كانت مجنونة وقبيحة كالخطيئة، ووجهها مليء بالثآليل والبثور...

ما الذي جلبنا إلى موضوع النسب... وبدون جدوى أمطرتهم بالأسئلة. فما يتجاوز آباءهم كان يلف الجميع بالغموض والريبة.

لكن ألم يتكلم آباؤهم عن أقربائهم أبداً؟

نعم، لكن لم نعد نتذكر جيداً الآن.

«هل كان أحدهم رساماً؟» سألت ستاسيا.

لا تظن أمي ولا أبي ذلك.

«لكن كان هناك شعراء وموسيقيون»، قالت أمي.

«وملاحون بحريون وفلاحون»، قال أبي.

«هل أنتما متأكدان من ذلك؟» سألت.

«لماذا تبدي اهتماماً بكل هذه الأمور؟»، قالت أمي. «لقد ماتوا منذ زمن بعيد».

«أريد أن أعرف»، أجبت. «سأذهب ذات يوم إلى أوروبا وأكتشف بنفسي».

«مشروع خائب»، ردّت.

«لا يهمني. أريد أن أعرف المزيد عن أجدادي».

«ربما لم يكونوا جميعهم من الألمان».

«نعم»، قالت مونا، «ربما يجري دم سلافي في العائلة».

«أحياناً يبدو أنه منغولي كثيراً»، قالت ستاسيا ببراءة.

أصاب هذا أمي بالدهشة واعتبرته أمراً سخيفاً. فبالنسبة لها المنغولي هو الأحمق.

«إنه أمريكي»، قالت. «جميعنا أمريكيون الآن».

«نعم»، صاحت لوريت.

«نعم، ماذا؟»، قال أبي.

«إنه أمريكي أيضاً»، قالت لوريت. وأضافت: «لكنه يقرأ كثيراً».

أخذنا نضحك جميعنا.

«ولم يعد يذهب إلى الكنيسة».

«هذا يكفي»، قال أبي. «ونحن لا نذهب إلى الكنيسة أيضاً، لكن مع ذلك فنحن مسيحيون».

«ولديه الكثير من الأصدقاء اليهود».

ضحكة مشتركة أخرى.

«لنأكل شيئاً»، قال أبي. «إني واثق من أنهم يريدون العودة إلى بيتهم قريباً. فغداً يوم آخر».

ومرة أخرى فُرشت المائدة. وجبة خفيفة رائعة هذا المرة، مع شاي ومزيد من فطيرة الخوخ. وكانت لوريت تشهق طوال الوقت.

بعد ساعة كنا عند الباب نودّعهم.

«دفّئوا أنفسكم»، قالت أمي. «ثلاثة شوارع وتصلون إلى المحطة». كانت تعرف أننا سنأخذ سيارة أجرة، لكنها كانت كلمة، مثل الفنّ، تكره أن تذكرها.

«هل سنراكم قريباً؟» سألت لوريت عند البوابة.

«أظن ذلك»، قلت.

«حتى السنة الجديدة؟».

«ربما».

«لا تطيلوا علينا الزيارة كثيراً»، قال أبي بلطف، وأضاف: «وحظاً طيباً مع الكتابة».

عند ناصية الشارع أوقفنا سيارة أجرة.

«أوف!»، قالت ستاسيا، ونحن نتكوم في السيارة.

«لم تكن سيئة كثيراً، أليس كذلك؟» قلت.

«لا.. أحمد الله أنه ليس لي أقارب أزورهم».

استرخينا في مقاعدنا. رفست ستاسيا حذاءها وخلعته. «ألبوم الصور ذاك!» قالت ستاسيا. «لم أر في حياتي مثل هذا المجموعة من أنصاف الأغبياء. إنها لمعجزة أنك عاقل، هل تدرك ذلك؟».

«أكثر العائلات هكذا»، أجبت. «إن شجرة الرجل ما هي إلا شجرة تانينبوم ضخمة متألقة عليها مجانين مهذبين ناضجين. لا بد أن آدم نفسه كان وحشاً أعور ثقيلاً... إن ما نحتاج إليه هو كأس من الشراب. أتساءل إن بقي شيء من نبيذ كيميل؟»

«لقد أعجبني أباك»، قالت مونا. «هناك الكثير منه فيك يا فال».

«لكن أمه»، قالت ستاسيا.

«ماذا عنها؟» قلت.

«كنت خنقتها منذ سنوات»، قالت ستاسيا.

اعتبرت مونا أن هذا شيئاً مضحكاً. قالت: «امرأة غريبة». «إنها تذكّرني قليلاً بأمي. منافقات، وعنيدات كالبغال، واستبداديات أيضا، ومحدودات الأفق. لا يوجد فيهن ولا ذرة حبّ واحدة».

«لن أصبح أماً»، قالت ستاسيا. ضحكنا جميعنا. «ولن أصبح زوجة أيضاً. يا إلهي، من الصعب أن أكون امرأة. أنا أكره النساء! إنهن جميعهن كلبات سيئات، حتى أفضلهن. سأبقى أنا أمثل دور المرأة. ولا تجعلني أرتدي هكذا مرة أخرى، أرجوك. أشعر فيها كأني حمقاء ومزيفة».

عدنا إلى القبو، أخرجنا القناني. كان هناك نبيذ كيميل وبراندي، وشراب الروم، والبنيديكين، والكوينتريو طوال الليل. أعددنا قليلاً من القهوة السوداء الثقيلة، وجلسنا إلى طاولة الأمعاء، ورحنا نتجاذب أطراف الحديث كأصدقاء قدامى. خلعت ستاسيا مشدّها. علقته على مؤخرة كرسيها، وكأنه أثر من المتحف.

«إذا لم تمانعا»، قالت، «سأخرج ثديي» وراحت تداعبهما بمحبة. «ليسا سيئين كثيراً، ألا تظنان ذلك؟ ربما كان من الممكن أن يكونا أكثر امتلاء قليلاً... فأنا ما أزال عذراء».

«أليس هذا غريباً»، قالت، «أن يذكر كوريجيو؟».

«هل تظن أنه يعرف حقاً عن كوريجيو».

«من الممكن»، قلت. «فقد كان يحضر المزادات مع سلفه إسحاق ووكر. وربما تعرّف على سيمابو أو كارافاجيو. يجب أن تسمعيه ذات مرة وهو يتكلم عن التيتيان! سيخيّل لك أنه دَرَس معه».

«لقد اختلط عليّ الأمر»، قالت ستاسيا، وهي تأخذ جرعة أخرى من البراندي. «أبوك يتحدث عن الرسامين، وأختك تتحدث عن الموسيقى، وأمك تتحدّث عن الطقس. لا أحد يعرف شيئاً عن أيّ شيء، حقاً. إنهم مثل الفطر يتكلّمون معاً... لا بد أنها كانت نزهة غريبة التي ذهبت فيها مع أبيك إلى المقبرة. لو كنت أنا لفقدت عقلي».

«إن فال لا يهمه ذلك»، قالت مونا. «يمكنه أن يتحمل ذلك».

«لماذا؟»، قالت ستاسيا. «ألأنه كاتب؟ مادة أكثر، هل هذا كلّ ما في الأمر؟».

«ربما»، قلت، «ربما كان عليك أن تخوض في أنهار الخراء لتعثر على جزء من الحقيقة».

«ليس أنا»، قالت ستاسيا. «أنا أفضّل حي الفيليج، مع أنه مزيف. على الأقل يمكنك أن تعبّر عن آرائك هناك».

تحدثت مونا الآن. فقد خطرت لها فكرة ذكية. «لماذا لا نذهب جميعنا إلى أوروبا؟».

«نعم»، قالت ستاسيا، «لماذا لا نذهب؟».

«يمكننا أن نتدبر ذلك»، قالت مونا.

«بالتأكيد»، قالت ستاسيا. «يمكنني أن أقترض نقوداً للسفر».

«وكيف سنعيش، عندما نذهب إلى هناك؟» أردت أن أعرف.

«كما نفعل هنا»، قالت مونا، «الأمر بسيط».

«وما هي اللغة التي سنتكلمها؟».

«الجميع يتكلم الإنكليزية يا فال، كما يوجد عدد كبير من الأمريكيين في أوروبا. وخاصة في فرنسا».

«ونكون عالة عليهم، أليس كذلك؟».

«أنا لم أقل ذلك. أقول إذا كنت حقاً تريد أن تذهب، فهناك وسيلة دائماً».

«يمكن أن نصبح عارضات هناك»، قالت ستاسيا، «أو يمكن أن تصبح مونا ذلك. فأنا كثيرة الشعر».

«وأنا، ماذا سأفعل؟».

«اكتب!» قالت مونا. «هذا كلّ ما يمكنك أن تفعله».

«أتمنّى أن يكون هذا حقيقي» قلت. نهضت ورحت أذرع الغرفة.

«ماذا ترغب؟» سألتا.

«أوروبا! تعلقانها أمامي مثل قطعة من اللحم النيء. أنتما الحالمتان، لا أنا! طبعاً أريد أن أذهب. لا تعرفان ما يحدث لي عندما أسمع هذه الكلمة. إنها مثل وعد بحياة جديدة. لكن كيف يمكن للمرء أن يكسب رزقه هناك؟ إننا لا نعرف كلمة فرنسية واحدة، ونحن لسنا أذكياء... كلّ ما نعرفه هو أن ننحني لنسلب الناس ونسلخ جلودهم. بل حتى إننا لسنا جيدين في هذا».

«أنت في غاية الجدية»، قالت مونا. «استعمل خيالك!».

«نعم»، قالت ستاسيا، «يجب أن تنتهز الفرصة. فكّر بالرسام الفرنسي غوغان!».

«أو بلا فاكاديو هيرن!» قالت مونا.

«أو بجاك لندن!» قالت ستاسيا. «لا يمكن للمرء أن ينتظر حتى يصبح كل شيء وردياً».

«أعرف، أعرف». جلست ودفنت رأسي بين يديّ.

فجأة صاحت ستاسيا: «وجدتها... سنذهب نحن أولاً، أنا ومونا، ونرسل في طلبك عندما تصبح الأمور جاهزة. ما رأيك؟».

شخرت لمجرد سماع ذلك. لم أكن أستمع جيداً. لم أكن أتبعهما، لقد سبقتهما. كنت أطأ شوارع أوروبا، أدردش مع عابري السبيل،

أرشف شراباً على شرفة مزدحمة. كنت وحدي لكني لم أكن وحيداً. كانت رائحة الهواء مختلفة، بدا الناس مختلفين. حتى الأشجار والزهور كانت مختلفة. كيف كنت أشتهي ذلك ـ شيء مختلف! لكي أكون قادراً على التكلم بحرية، أن أُفهم، أن أُقبل. أرض يعيش فيها الأهل الحقيقيون، هذا ما كانت تعنيه أوروبا لي. بيت الفنان، المشرّد، الحالم. نعم، لقد أمضى غوغان وقتاً صعباً، بل وحتى فان كوخ أمضى وقتاً أسوأ. لا ريب في أنه كان هناك آلاف، لم نعرف عنهم شيئاً، لم نسمع عنهم، الذين هبطوا، الذين غابوا عن البصر دون أن ينجزوا شيئاً...

نهضت متعباً، منهكاً من فرصة الذهاب إلى أوروبا، حتى لو في المخيلة فقط، أكثر من الساعات المضجرة التي أمضيتها في أحضان العائلة.

«ومع ذلك سأذهب إلى هناك»، قلت لنفسي فيما كنت أستعد لآوي إلى الفراش. «إذا كان بوسعهما أن يفعلاها، فأنا أستطيع كذلك (وبكلمة «بوسعهما» فأنا أقصد المشهورين والفاشلين على حد سواء) «حتى الطيور يمكنها أن تفعل ذلك»».

استطارت بي الفكرة، تصورت نفسي بأني موسى آخر، أقود شعبي إلى خارج البريّة. لوقف المدّ، لعكس العملية، إطلاق موكب كبير إلى الخلف، نحو المصدر! أُفرغ هذه البريّة الشاسعة التي تدعى أمريكا، أُنضَبها من كلّ وجوهها الشاحبة، أُوقف الهرج والمرج الذي لا معنى له... أعيد القارة إلى الهنود... ياله من نصر عظيم! ستقف أوروبا مذهولة من هذا المشهد. هل فقدوا عقولهم، يهجرون أرض الحليب والعسل؟ هل كانت إذن مجرد حلم، أمريكا؟ نعم! أصيح. يا لها من حلم سيء. لنبدأ ثانية من البداية. لنقيم كاتدرائيات جديدة، لنغنّي مرة أخرى مؤتلفين، لنكتب قصائد لا عن الموت، بل عن الحياة وهي تتحرك كالموجة متراصة، لا تفعل إلا الضروري والحيوي، نشيد ما سيدوم فقط، نخلق البهجة فقط. لنصلّي ثانية للإله

المجهول، لكن بحماس، بكلّ قلوبنا وجوارحنا. يجب ألا ندع فكرة المستقبل تجعلنا عبيداً. ليكن اليوم كافياً بحد ذاته. لنفتح قلوبنا وبيوتنا. لا لمزيد من البوتقات! فقط المعادن النقية، الأكثر نبلاً، الأكثر قدماً. أعطونا الزعماء مرة أخرى، والتراتبية، والنقابات، والحرفيين، والشعراء، وصانعي الجواهر، ورجال الدولة، والعلماء، والمشردين، والنصّابين. والمواكب الفخمة، لا استعراضات، لا مهرجانات، لا مواكب، لا حملات. أن نتحدث حباً بالحديث، أن نعمل حباً بالعمل؛ الشرف حباً في الشرف...

لقد ذكرتني كلمة الشرف بذلك. كانت مثل ساعة منبّه تدقّ في أذني. تخيّل القملة في شقّه تتحدث عن الشرف! غصت أكثر في السرير، وفيما غفوت، رأيت نفسي أحمل علماً أمريكياً صغيراً وألوّح به: النجوم والخطوط القديمة الجيدة. أحمله بيدي اليمنى بفخر، فيما انطلق بحثاً عن عمل. ألم يكن لديّ امتياز بأن أطلب عملاً، أنا الذي أمتلك جميع امتيازات المواطن الأمريكي، ابن أبوين محترمين، يعبد بإخلاص شديد الراديو، مشاغب ديمقراطي ملتزم بالتقدم، وبالتمييز العرقي والنجاح؟ أسير نحو وظيفة، بوعد على شفتي لأجعل أطفالي أمريكيين أكثر من آبائهم، لأحوّلهم إلى خنازير اختبار، إذا لزم الأمر، من أجل جمهوريتنا المجيدة. أعطني بندقية لأحملها على كتفي وأسددها وأطلق النار! سأثبت إن كنت وطنياً أم لا. أمريكا للأمريكيين، إلى الأمام سر! الحرية أو الموت! (ما الفرق؟) أمة واحدة، لا تتجزأ، وهلم جرا. الرؤية 20 على 20، الطموح غير محدود، غير قابل للصدأ، طاقة لا تنضب، المستقبل مليء بالأعاجيب. لا أمراض، لا أتباع، لا عقد، لا رذائل. ولدت لأعمل مثل طروادة، أقف في الطابور، أحيي العلم الأمريكي وعلى استعداد لتدمير الأعداء. كلّ ما أطلبه يا سيدي، هو أن تمنحوني فرصة.

«فات الآوان!» يأتي صوت من الظلّ.

«فات الآوان؟ كيف ذلك؟».

«لأنه! لأنه يوجد 493 595 26 شخص آخر قبلك، وجميعهم في مرحلة متقدمة من مرض الشُخُوص(*) ومن الفولاذ الذي لا يصدأ، جميعهم، من أولهم إلى آخرهم، وقد وافق عليهم جميعهم المجلس الصحي، جمعية المساعي المسيحية، بنات الثورة الأمريكية والكوكلاكس كلان».

«أعطوني بندقية!» أقول لهم متوسلاً. «أعطوني بندقية لكي أفجّر رأسي بها! يا له من شيء مخزٍ».

وكان حقاً شيئاً مخزياً. والأسوأ من ذلك، أنه كان الكثير من خراء الحصان المصدّق.

«اللعنة عليكم!» صحت، «أنا أعرف حقوقي».

(*) حالة مرضية تجمد فيها العضلات وأعضاء الجسم عن الحركة ويفقد المريض الشعور أحياناً. م.

7

استحوذت عليّ فكرة أنهما قد تتركاني مثل كلب وتذهبان لاستشكاف أوروبا، وجعلتني ازداد توتراً وعصبية أكثر من أي وقت مضى، واتسم سلوكي بالخبث أحياناً. ففي يوم أخرج لأبحث عن عمل، لأعتمد على نفسي، وفي اليوم التالي أمكث في البيت وأحاول أن أكتب المسرحية. وفي الليالي التي كنا نلتقي فيها حول مائدة الأمعاء كنت أدوّن ملاحظات عن حديثهما.

«لماذا تفعل ذلك؟» كانتا تسألاني.

فأجيب «لأكشف أكاذيبكما»، أو ـ «لأستخدم بعضاً منها في المسرحية».

وقد ساعدت هذه الملاحظات في إضافة توابل إلى حواراتهما. فقد بذلتا كلّ ما بوسعهما لأن تعزلاني. وكانتا أحياناً تتحدثان مثل ستريندبيرغ، وأحياناً مثل ماكسويل بودين هايم. وإمعاناً في هذا الاضطراب كنت أقرأ لهما مقاطع من دفتر الملاحظات الذي أحمله معي في حلي وترحالي في الفيليج. وكان أحياناً حديثاً (حرفياً) سمعته عرضاً خارج كافتيريا أو نادٍ ليلي، وأحياناً وصفاً حياً لمجريات الأمور التي تحدث في هذه المراقص الليلية الرخيصة. وكانت تتخلل ملاحظاتي بذكاء شذرات من الأشياء التي سمعتها عرضاً، أو ادعيت أني سمعتها خلسة عنهما. وكانت عادة من نسج خيالي، لكنها حقيقية أيضاً، بحيث تصبحان قلقتين، أو تفشيان الحقيقة، وهو ما كنت أرمي إليه تماماً.

وحين كانتا تفقدا السيطرة على نفسيهما، كانت الواحدة تناقض الأخرى، وتكشف أشياء لم يكن من المفترض أن أسمع عنها. وأخيراً ادّعيت أني مستغرق تماماً في كتابة المسرحية، ورجوتهما أن أملي عليهما: وقلت لهما إني قرّرت أن أكتب الفصل الأخير أولاً ـ وهذا أسهل بالنسبة لي. أما دافعي الحقيقي بالطبع، فكان لأريهما كيف ستنتهي هذه العلاقة الثلاثية. وكان ذلك يعني قليلاً من التصرف من جانبي، والتفكير بسرعة.

قررت ستاسيا أن تسجل الملاحظات بينما تنصت مونا وتقدم اقتراحاتها. وكان من الأفضل أن أتبع أسلوب إخراج المسرحيات، وأذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، وأنفث دخان عدد لا متناه من السجائر، وآخذ جرعة من الزجاجة أحياناً، بينما أحرك يدي مثل مخرج سينمائي يمثّل الأدوار، يقلّدها بالتناوب، ويدخل طبعاً في نوبات هستيرية، وخاصة عندما أتطرق إلى المشاهد الغرامية الزائفة التي صوّرتها متظاهراً بأن الواحدة منهما تحبّ الأخرى. وكنت أتوقّف فجأة بين الحين والآخر لأستفسر منهما إن كانتا تظنان أن هذه المشاهد غير واقعية جداً، أم أنها متكلّفة للغاية، وما إلى ذلك.وكانتا توقفاني أحياناً لتبديا تعليقاً على دقة تصويري أو حواري، وعندها تتنافسان لتزويدي بتلميحات وأفكار واقتراحات أخرى، وكنا نتكلّم جميعنا في وقت واحد، ونمثّل أدوارنا، كلّ بطريقته، ولم يكن أحد يسجّل ملاحظات، ولم يكن أحد يتذكر، عندما كنا نهدأ، ما قاله الآخر أو فعله، وما الشيء الذي كان في البداية والنهاية. وعندما كنا نحرز بعض التقدم كنت أعرض عليهما مزيداً من الحقائق والوقائع بدهاء، وأعيد إنشاء مشاهد لم أكن موجوداً فيها، أصعقهما باعترافهما، بسلوكهما السري. وكانت بعض تلك الطلقات العشوائية تصيبهما بالحيرة والاضطراب، ولاحظت أنه لم يكن لديهما ملاذ سوى أن توجه إحداهما الاتهام إلى الأخرى بالخيانة. وكانتا في بعض الأحيان، غير عابئ بمغزى كلماتهما، تتهماني بالتجسّس عليهما، وبأني ألصق أذني في ثقب المفتاح، وما إلى ذلك. وفي

أحيان أخرى، كانت الواحدة منهما تنظر إلى الأخرى بنظرات خالية من أية تعابير، غير قادرتين على التأكيد إن كانتا قالتا أو فعلتا حقاً ما نسبت إليهما أم لا. لكن بغض النظر عن مدى كراهيتهما لتفسيري تصرفاتهما، كانتا تتحمسان، وترغبان في المزيد. كأنهما تريان نفسيهما تمثلان أدوارهما الحقيقية على المسرح. كان أمراً لا يمكن مقاومته.

وفي لحظة الذروة كنت أتعمد أن أخذلهما، فأتظاهر بالصداع، أو بأني استنفدت جميع الأفكار، أو أن تلك الفكرة اللعينة لم تكن جيدة، وأنه من العبث تضييع مزيد من الوقت عليها. وكان هذا يضعهما حقاً في حالة من التردّد. ولإرضائي كانتا تعودان إلى البيت محملتين بما لذ وطاب من الطعام والشراب. بل تجلبان لي سيجار هافانا.

وللإمعان في تنويع تعذيبهما، كنت أدّعي، ما أن نبدأ التمثيل، بأني تعرضت لتجربة استثنائية في وقت سابق من ذلك اليوم، وكما لو كنت شارد الذهن، كنت أستطرد باتجاه رواية مغامرة أسطورية بإسهاب. فقد أخبرتهما ذات ليلة بأننا يجب أن نؤجل العمل في المسرحية لفترة من الزمن، لأني وجدت عملاً كدليل في مسرح هزلي. ثارت ثائرتهما. وبعد أيام قليلة أخبرتهما بأني تركت العمل وأصبحت عامل مصعد. مما أشعرهما بالاشمئزاز.

استيقظت ذات صباح وأنا عازم على البحث عن وظيفة، وظيفة هامة. لم تكن لديّ فكرة واضحة عن نوع تلك الوظيفة. مجرد وظيفة مفيدة ومهمة. وبينما كنت أحلق ذقني خطرت ببالي فكرة زيارة رئيس مؤسسة متاجر متعددة الفروع، لأطلب منه أن يجد لي وظيفة عنده. ولن أتحدث عن وظائفي السابقة، بل سأركز على أني كاتب، كاتب مستقلّ، يرغب في وضع مواهبه تحت تصرّف شركتهم. شابّ سافر كثيراً يشعر بالضجر من عدم التركيز على شيء معين، متلهّف

لإيجاد موقع لنفسه، موقع دائم، في شركة ذات مستقبل واعد مثل شركتهم. (فقد كانت الشركة المتعددة الفروع في بدايتها فقط) وإذا ما مُنحت لي هذه الفرصة، يمكنني أن أعرض... وهنا أطلق العنان لمخيلتي.

وفيما كنت أرتدي ثيابي، أخذت أزخرف الخطاب الذي كنت أنوي إلقاءه على السيد و. هـ. هيغينبوثام، رئيس سلسلة متاجر هوبسون وهولبين المتعددة الفروع. (تضرعت إلى الله ألا يكون أصماً).

انطلقت في وقت متأخر. كنت متأنقاً ومفعماً بالتفاؤل وأكثر نشاطاً. وتسلّحت بحقيبة من حقائب ستاسيا، ولم أعبأ بأن أتفحص محتوياتها. أيّ شيء يجب أن يكون «حسب الأصول».

كان يوماً شديد البرودة. وكان المقرّ الرئيسي يقع في مخزن لايبعد كثيراً عن قناة غووانوس. واستغرقت وقتاً طويلاً حتى أصل إلى هناك، وعندما ترجلت من عربة الترام بدأت أجري. وصلت إلى مدخل المبنى ووجنتاي ورديتان ونَفَسي متجمّد. وعندما دخلت إلى البهو الكالح رأيت لافتة ضخمة علقت فوق لوحة الدليل تقول: «مكتب التوظيف يغلق في الساعة 9.30 صباحاً». كانت الساعة الحادية عشرة. وبينما كنت أرمق اللوحة بعينيّ لاحظت عامل المصعد يراقبني على نحو غريب.

حين صعدت إلى المصعد أومأ العامل برأسه نحو اللوحة وقال: «هل قرأت هذه؟».

قلت: «إني لا أبحث عن عمل. لديّ موعد مع سكرتير السيد هيغينبوثام».

رمقني بنظرة فاحصة، لكنه لم ينبس بكلمة. أغلق باب المصعد وراح يصعد ببطء.

«الطابق الثامن، من فضلك!».

«ليس من الضروري أن تخبرني! ما هي مهمتك؟».

بدأ المصعد الذي أخذ يصعد يصدر صريراً وزقزقة مثل خنزيرة في المخاض. وتكون لديّ انطباع بأنه أبطأه متعمداً.

كان يحدّق فيّ الآن، بانتظار ردي. «ما الذي يشغل باله؟» سألت نفسي. ألم تعجبه نظراتي؟

بدأت أقول: «من الصعب أن أوضّح لك مهمتي في بضع كلمات». لقد أرعبتني نظرته المقطبة المروّعة التي كان يرمقني بها. تمالكت نفسي. بذلت ما بوسعي لكي أنظر إليه دون أن أجفل. «نعم» عدت لأقول، «بالأحرى...».

«توقّف عن ذلك!» صرخ وأوقف المصعد بين طابقين. «إذا تفوهت بكلمة أخرى...» ورفع يداً كما لو أنه سيقول «سأخنقك!».

اقتنعت الآن بأني أتعامل مع معتوه، فلذت بالصمت.

«أنت تتكلم كثيراً»، قال. حرك العتلة وتحرك المصعد وبدأ يصعد مرة أخرى وهو يهتز.

لذتُ بالصمت ورحت أنظر إلى الأمام. وعند الطابق الثامن فتح الباب وخرجت، حذراً أيضاً، كما لو كنت أتوقّع ركلة في مؤخرتي.

لحسن الحظ كان الباب أمامي هو الباب الذي كنت أسعى إليه. وعندما وضعت يدي على المقبض أدركت أنه يراقبني. انتابني هاجس مزعج بأنه سيكون هناك ليمسك بي عندما يقذفونني إلى الخارج مثل دلو فارغ. فتحت الباب ودلفت إلى الداخل. أصبحت وجهاً لوجه أمام فتاة تقف في قفص استقبلتني بابتسامة.

«جئت لرؤية السيد هيغينبوثام»، قلت. حتى الآن كان الخطاب الذي كنت سألقيه قد طار من رأسي، واضطربت أفكاري مثل كرات البولينغ.

ولدهشتي لم تسألني أي سؤال، بل رفعت سماعة الهاتف وقالت بضع كلمات غير مسموعة. عندما أعادت السماعة استدارت وقالت بصوت يقطر عسلاً: «سيراك سكرتير السيد هيغينبوثام للتو».

وما هي إلا لحظات قليلة حتى خرج السكرتير. كان رجلاً متوسط العمر، جميل الهيئة، مهذباً، لطيفاً. قلت له اسمي وتبعته إلى طاولة مكتبه التي كانت في نهاية غرفة مرصّعة بطاولات وآلات من جميع الأنواع. جلس وراء مكتب مصقول كبير لا يكاد يوجد عليه شيء، وأشار إلى كرسي مريح أمامه ارتميت فوقه بشعور مؤقت من الراحة.

قال: «إن السيد هيغينبوثام في أفريقيا، ولن يعود إلا بعد بضعة شهور».

«حسناً»، قلت، ورحت أفكر أن هذا هو سبيلي إلى الخروج، فلا يمكنني أن أثق إلا بالسيد هيغينبوثام نفسه. ومع أني فكرت بذلك أدركت أنه ليس من الحكمة أن أخرج بهذه السرعة، فهذا ما يتوقعه تماماً عامل المصعد.

«إنه في رحلة صيد كبيرة»، أضاف السكرتير وهو يرمقني طوال الوقت من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، ولا ريب أنه راح يتساءل إن كان لن يعبأ بي ويصرفني بسرعة ليتفرغ لعمله أو يسبر أغواري أكثر. لكنه كان لطيفاً، ومن الواضح أنه كان ينتظرني أن أفرغ ما في جعبتي.

«حسناً»، كرّرت قائلاً «هذا سيء. ربما يجب عليّ أن أنتظر حتى يعود...».

«لا، على الإطلاق ـ هذا إذا لم يكن أمراً سرّياً للغاية يجب أن تقوله له. حتى لو كان هنا فعليك أن تتعامل معي أولاً. فلدى السيد هيغينبوثام أعمال ومشاريع كثيرة؛ هذه فقط إحدى اهتماماته. دعني أؤكد لك بأن أيّ شيء تريد أن تبلغه له سيلقى اهتمامي واعتباري الجديين».

توقّف لوهلة قصيرة. جاء دوري في الرد.

«حسناً يا سيدي»، بدأت بتردد، لكني بدأت أتنفّس بحرية أكثر، «ليس من السهل شرح غرض زيارتي».

«أعذرني»، قال مقاطعاً، «لكن هل لي أن أسألك ما هي الشركة التي تمثّلها؟».

مال إلى الأمام كما لو كان يتوقع أن أضع بطاقة في يده.

«إني أمثّل نفسي... يا سيد لارابي. فأنا كاتب... كاتب مستقلّ. آمل ألا يشعرك هذا بالإحباط؟».

«لا أبداً، على الإطلاق»، أجاب.

(فكّر بسرعة الآن! بشيء جديد ومبتكر!)

«لا أظن أنك تفكر بحملة الإعلانات، أليس كذلك؟ فنحن حقاً...».

«أوه لا!» أجبت. «ليس الأمر كذلك! فأنا أعرف أنه يوجد لديكم الكثير من الرجال القادرين على القيام بذلك» وابتسمت ابتسامة واهية. «لا، فالأمر شيء عام أكثر... تجريبي أكثر، إذ جاز لي أن أقول؟».

تباطأت لحظة، مثل طير يحوم فوق مكان مريب يجثم عليه. مال السيد لارابي إلى الأمام، مشنفاً أذنيه ليسمع هذا «الشيء».

«إنه مثل هذا»، قلت، وأنا أتساءل ما سأقوله بحقّ الجحيم بعد ذلك. «خلال عملي تعرفت على جميع أنواع الرجال، جميع أنواع الأفكار. وبين الحين والآخر، وخلال تحركي، كانت تستحوذ عليّ فكرة ما... وأنا لست بحاجة لأن أخبرك أن الكتّاب يكوّنون أفكاراً في بعض الأحيان يعتبرها ذوو العقول العملية وهمية. إنها تبدو وهمية إلى أن يتم اختبارها».

«صحيح تماماً»، قال السيد لارابي، مستعداً لتلقي تأثير فكرتي، سواء كانت وهمية أم عملية.

كان من المستحيل مواصلة مناورات التأخير والتسويف أكثر من ذلك. «هيا هات ما عندك» قلت لنفسي. لكن ماذا أخرج؟

في هذه اللحظة، ولحسن الحظ، ظهر رجل من مكتب مجاور،

يحمل مجموعة من الرسائل في يده. «المعذرة»، قال، «أخشى أنه يجب أن تتوقّف لحظة وتوقّع هذه. إنها مهمة جداً».

أخذ السيد لارابي الرسائل، ثم قدّمني إلى الرجل. «السيد ميلر كاتب. لديه خطة يريد أن يقدمها إلى السيد هيغينبوثام».

تصافحنا بينما مضى السيد لارابي ودفن أنفه في ملف الرسائل.

«حسناً»، قال الرجل ـ واسمه مكاوليف كما أظن ـ «حسناً، ياسيد، يجب أن أقول إننا لا نرى الكثير من الكتّاب في هذه الأماكن». وأخرج علبة سجائر معدنية وقدم لي سيجارة بنسون وهيدجس. «شكرا لك»، قلت، وتركته يشعل لي السيجارة. «أجلس أرجوك»، قال. «أرجو ألا تمانع إن دردشت معك لحظة؟ فلا يحظى المرء بفرصة لقاء كاتب في كلّ يوم».

المزيد من المراوغات المؤدبة ثم سألني: «هل تؤلّف كتباً أم أنك مراسل إحدى الصحف؟».

ادعيت أني عملت قليلاً من كلّ شيء. ووضعتها بهذه الطريقة كما لو أنّ التواضع فرض ذلك.

«أرى، أرى»، قال، «وماذا عن الروايات؟».

توقفت برهة. كان بوسعي أن أرى أنه كان يريد أن يعرف المزيد.

أومأت برأسي وقلت: «حتى روايات بوليسية بين الحين والآخر».

ثم أضفت: «إن تخصصي هو السفر وإجراء البحوث».

استقام عموده الفقري فجأة. «السفر! آه، أنا مستعد لأعطي ذراعي اليمنى حتى أحصل على عطلة لمدة سنة، سنة للترحال. تاهيتي! أريد ان أزور هذا المكان! هل ذهبت إلى هناك؟».

«في واقع الأمر نعم»، أجبت، «لكن ليس لمدة طويلة. بضعة

أسابيع، هذا كلّ مافي الأمر. كنت في طريق عودتي من جزر كارولين».

«جزر كارولين؟»، بدا متحمساً الآن. «ماذا كنت تفعل هناك، إن جاز لي أن أسألك؟».

«كانت بالأحرى مهمة غير مثمرة»، ورحت أوضح له كيف أنه طُلب مني أن أنضم إلى بعثة أنثروبولوجية. لا لأني كنت كفؤاً لذلك، بل لأن صديقاً قديماً لي - زميلاً قديماً من المدرسة - الذي كان مسؤولاً عن البعثة قد أقنعني بأن أوافق. وكنت أفعل ما أشاء. لو كان فيها كتاب، وإن لم يكن... وهكذا».

«نعم، نعم! وماذا حدث؟».

«بعد بضعة أسابيع أصبنا جميعنا بمرض شديد. وقد أمضيت بقية الوقت في المستشفى».

رن الهاتف على طاولة السيد لارابي بشكل متواصل. «المعذرة»، قال السيد لارابي، ورفع السماعة. لبثنا صامتين بينما واصل حديثاً طويلاً عن الشاي المستورد. انتهى الحديث، استوى واقفاً، وسلّم السيد مكاوليف الرسائل الموقّعة، وكما لو أنه تلقى حقنة، قال:

«إذن يا سيد ميلر، ماذا عن خطتك...».

وقفت لأصافح السيد مكاوليف المغادر، جلست ثانية، وبدون جلبة بدأت أتحدث عن إحدى أعاجيبي. هنا فقط صممت أن أقول الحقّ. سأقول الحقّ، لا شيء غير الحقّ، ثم الوداع.

كانت قصة مغامراتي الدنيوية هذه سريعة ومكثفة، أدركت أني أتطفل على وقت السيد لارابي، دون الحاجة إلى ذكر نفاد صبره. وكان ذلك واضحاً من الطريقة التي يستمع فيها بإثارة، مثل ضفدع ينظر إليك من حافة البركة المليئة بالطحالب، مما حثّني على الاستمرار. وقد اختفى من حولنا جميع الموظفين، فقد حلّت ساعة

الغداء. توقفت لحظة لاستفسر إن كنت أعيقه عن تناول طعام الغداء. تجاهل السؤال وقال راجياً: «تابع، فأنا معك تماماً».

وهكذا، وبعد أن أطلعته على آخر المستجدات، مضيت لأعترف. حتى لو عاد السيد هيغينبوثام فجأة وعلى نحو غير متوقع من أفريقيا، فلا يمكن أن يوقفني شيء الآن.

«لا يوجد بالتأكيد عذر لإضاعة وقتك»، بدأت أقول «ليس عندي خطة حقاً، ولا يوجد لديّ مشروع أقترحه. على أية حال، لم أكن لأجعل من نفسي أحمقاً ولذلك اندفعت بدون استئذان. إذ تأتي أوقات يجب أن تطيع فيها نزواتك. حتى لو بدا ذلك غريباً عليك... بعد كل ما أخبرتك إياه عن حياتي... فإني أعتقد أنه يجب أن يكون هناك مكان لشخص مثلي في هذا العالم الصناعي. والإجراء المعتاد، عندما يحاول المرء أن يزيل العوائق، أن يطلب مكاناً في القاع. إلا أني أرى أن أبدأ بالقرب من القمة. لقد سبرت القاع ـ فهو لا يفضي إلى أي مكان. أنا أتكلّم معك يا سيد لارابي، كما لو أني أتكلّم إلى السيد هيغينبوثام نفسه. واثق من أنه يمكنني أن أقدم خدمة حقيقية لهذه الشركة، لكن بصفة ماذا فأنا لا أعرف. وكلّ ما يمكنني أن أقدمه، كما أظن، هو خيالي وطاقتي اللتين لا تنضبان. إن المسألة ليست مسألة الوظيفة، هي فرصة لحلّ مشكلتي الآنية، مشكلة شخصية بحتة، التي أمنحك إياها، لكنها ذات أهمية كبيرة بالنسبة لي. بوسعي أن أرمي نفسي في أيّ شيء، وخاصة إذا أُخذ من إبداعي. هذه المهنة المتقلّبة، التي لخصتها بسرعة، أشعر أن هناك هدفاً. أنا لست فرداً تائهاً، ولست غير مستقر. ربما كنت خيالياً وطائشاً في بعض الأحيان، لكني عامل بالفطرة. وأقدم أفضل ما لديّ عندما أكون على رأس عملي. ما أحاول أن أبلغك إياه ياسيد لارابي، أن من يجد مكاناً لي فلن يندم على ذلك أبداً. فهذه شركة كبيرة، بعجلات ضمن عجلات. مثل ترس في آلة سأكون عديم القيمة فيها. لكن لماذا أصبح جزءاً من آلة؟ لماذا لا تدعني ألهم الآلة؟ حتى لو لم تكن لديّ خطة أعرضها، كما أعترف تماماً، وهذا لا يعني أنني قد لا آتي

بخطة في الغد. صدقني، من المهم أن يصنع أحدهم ثقته بي في هذه اللحظة الهامة. فأنا لم أخن ثقة في حياتي، صدقني، فأنا لا أطلب منك أن توظفني على الفور، أقترح فقط أن تمنحني بصيصاً من الأمل، تعدني بأن تمنحني فرصة، إذا كان ذلك ممكناً، لأثبت لك أن كلّ ما أقوله ليس مجرّد كلمات».

قلت كلّ ما أردت أن أقوله. استويت واقفاً، مددت يدي وقلت: «كان لطفاً كبيراً منك».

«انتظر»، قال السيد لارابي. «دعني أستوعب ما قلته»، ونظر من النافذة لحظة كاملة، ثم التفت إليّ وقال: «أنت تعرف أنه لا يوجد لدى رجل واحد من بين عشرة آلاف رجل الشجاعة، أو الوقاحة، لأن يقدم لي عرضاً كهذا. فأنا لا أعرف إن كنت سأحترمك أو ـ انظر، مع كل هذا الغموض، أعدك بأني سأفكّر بطلبك. وبشكل طبيعي فأنا لاأستطيع أن أفعل شيئاً حتى يعود السيد هيغينبوثام. فهو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يهيء لك مكاناً...».

تردّد قبل أن يستأنف كلامه. «لكني أريد أن أقول لك هذا، من ناحيتي. فأنا لا أعرف الكثير عن الكتّاب أو الكتابة، لكني أظن أنه لا يمكن لأحد أن يتكلم كما تكلّمت أنت إن لم يكن كاتباً. وأضيف أن شخصاً استثنائياً هو من يملك الجرأة لأن يثق به رجل في موقعي. فأنا أشعر بأني مدين لك؛ فقد جعلتني أشعر بأني أكبر وأفضل مما كنت أظن نفسي. ربما كنت يائساً، كما تقول، لكن من المؤكد أنك لا تفتقر إلى سعة الحيلة. فشخص مثلك لا يمكنه أن يهبط إلى الأسفل. أنا لن أنساك بسهولة. مهما حدث، وأتمنّى أن تعتبرني صديقاً لك. وبعد أسبوع من الآن أشكّ بأن هذه المقابلة ستكون مجرد تاريخ قديم بالنسبة لك».

اعتراني خجل شديد حتى جذور شعري. فسماعي هذا الرّدّ كان أفضل بكثير من إيجاد مكان لي في شركة هوبسون وهولبين.

«هل تصنع لي معروفاً أخيراً؟» سألته. «هل لديك مانع بأن ترافقني إلى المصعد؟».

«هل لديك مشكلة مع جيم؟».

«إذن فأنت تعرف؟».

أمسكني من ذراعي، وقال: «ليس من المفروض أن يشغّل المصعد. إنه رجل متقلّب المزاج. لكن الرئيس يصرّ على إبقائه. فهو من المحاربين القدماء، وقريب من العائلة قرابة بعيدة، كما أظن. ومع ذلك فهو يشكل خطراً حقيقياً».

ضغط الزرّ وأخذ المصعد يصعد ببطء. وبدت الدهشة على وجه جيم، كما أطلق على هذا المعتوه، عندما شاهدنا نحن الاثنين نقف هناك. وعندما دخلت إلى المصعد، مدّ السّيد لارابي يده مرة ثانية وقال ليسمع جيم: «لا تنس، إذا صادف أبداً»، وشدّد على كلمة أبداً «ومررت في هذا الحيّ ثانية، تعال لزيارتي. ربما تناولنا طعام الغداء معاً في المرة القادمة. أوه نعم، سأكتب إلى السيد هيغينبوثام هذا المساء. أنا واثق من أنه سيبدي اهتماماً كبيراً. إلى اللقاء الآن!».

«إلى اللقاء»، قلت، «وشكراً على كلّ شيء!».

فيما بدأ المصعد يهبط أبقيت عينيّ مثبتتين إلى الأمام مباشرة. وبدا على وجهي كما لو كنت سارح الفكر. لكن لم تكن هناك سوى فكرة واحدة تجول في خاطري، وهي - متى سينفجر؟ فقد اعتراني شعور بأنه كان يمتلئ حقداً نحوي الآن أكثر من قبل لأنني كنت ماكراً. كنت حذراً ويقظاً مثل قطة. ماذا، تساءلت، سأفعل... ماذا بوسعي أن أفعل... إذا أوقف المصعد فجأة بين الطوابق، وهجم عليّ؟ لم تبد منه نظرة، ولا حركة. وصلنا إلى الطابق الأرضي، انزلق الباب وانفتح، وخرجت... بينوكيو(*) بساقيه المحترقتين.

لاحظت أن البهو كان خالياً تماماً. اتجهت نحو الباب، على بعد بضع ياردات. لبث جيم في مكانه، كما لو أن شيئاً لم يحدث على

(*) بطل قصة كارلو كولودي للأطفال، مغامرات بينوكيو (1883)، وهو عبارة عن دمية خشبية تدب فيها الحياة كصبي ويزداد أنفه طولاً كلما كذب. (م).

الإطلاق. على الأقل أحسست بأن ذلك موقفه. وفي منتصف الطريق نحو الباب التفت إلى الوراء بدون تفكير، وعدت. فهمت من القسمات الغامضة التي ارتسمت على وجه جيم أنه كان يتوقع فعل ذلك. وعندما اقتربت أكثر رأيت أن وجهه كان حقاً خالياً من أي تعبير. فهل تقوقع إلى ذاته الحجرية، أم أنه يكمن لي؟

«لماذا تكرهني؟» سألته ونظرت في عينه المربعتين.

«أنا لا أكره أحداً»، كان الجواب غير المتوقع. لم يتحرك فيه شيء سوى عضلات فمه، حتى أن مقلتيه كانتا ثابتتين.

«أنا آسف» قلت، والتفت نصف التفاتة لأبتعد.

«أنا لا أكرهك»، قال، وفجأة دبت فيه الحياة. «أنا أرثي لحالك! لا يمكنك أن تخدعني. لا يمكن لأحد أن يخدعني».

تملكني رعب داخلي. «ماذا تعني؟» تلعثمت.

«لا تعطني كلمات»، قال، «أنت تعرف ما أعني».

سرت الآن رعشة باردة إلى أعلى وأسفل عمودي الفقري. كما لو أنه قال: «أنا أتبصر الأمور. أستطيع أن أقرأ عقلك ككتاب».

«وماذا يعني هذا؟» قلت، مندهشاً من وقاحتي.

«اذهب إلى البيت ورتّب أفكارك، هذا كل ما في الأمر».

ذُهلت. لكن ما أعقب ذلك، هو كما قال السيد لارابي، إنه كان شديد التقلب.

كنت منوّماً وأنا أراقبه يشمّر عن كمّه ليكشف ندبة فظيعة، ثم رفع ساق بنطاله حيث كان فيها ندبة أكثر فظاعة، ثمّ حلّ أزرار قميصه. عندما رأيت صدره كدت أغيب عن الوعي.

«أخذ الأمر كلّ هذا»، قال، «حتى أفتح عينيّ. اذهب إلى البيت واعقد العزم. اذهب، قبل أن أضربك ضربة أرديك فيها قتيلاً!».

استدرت في الحال واتجهت نحو الباب. واستجمعت كلّ

شجاعتي حتى لا أجري. كان أحدهم قادماً من الشارع. إنه لن يضربني الآن، أليس كذلك؟ تحرّكت بالسرعة نفسها، ورحت أغذّ الخطى وأنا اقترب من الباب.

أووف! عندما خرجت وضعت الحقيبة وأشعلت سيجارة. كان العرق ينضح من كلّ مساماتي. رحت أناقش ما عليّ فعله. بدا من الجبن أن أهرب وذيلي بين ساقيّ. كانت العودة شيئاً انتحارياً. من المحاربين القدماء أم لا، مجنون أم لا. كان يعني ما قاله. الأكثر من ذلك، لقد كشفني. هذا ما حرق أعصابي.

ابتعدت، مدمدماً لنفسي وأنا أجرّ خطواتي. ابن العاهرة هذا. لم يذلني أحد من قبل. وددت أن أكتب رسالة إلى السيد لارابي أخبره فيها أنه مهما أعجبته كلماتي فكلّ شيء عنيّ كان عديم القيمة، غير صحيح. كنت ساخطاً للغاية مع نفسي إلى درجة أن الطفح انتشر في جسمي. ظهرت دودة أمامي ورحت أكرّر كلمات جيم، كنت سأخفض رأسي بخزي وأقول: «أنت على حقّ يا سيد دودة. دعني أنحني بجانبك وأتمسح بأعتابك».

.

عند محطة بورو هول اشتريت قهوة وسندويشة، ثم اتجهت غريزياً إلى «النجم»، المسرح الهزلي القديم الذي رأى أيام عزّ في الماضي. كان العرض قد بدأ لكن لا يهم: فلم يكن ثمة شيء جديد، لا في أسلوب النكات، أو في أسلوب السخرية. وما أن دخلت إلى المسرح حتى تذكرت أول زيارة لي قمت بها إليه. كان صديقي القديم أل بيرغر وصديقه الحميم فرانك شوفيلد، قد دعياني للذهاب معهما. لا بد أننا كنا في التاسعة عشرة أو العشرين من العمر آنذاك. وما تذكرته على نحو خاص دفء الصداقة الذي ينضح من فرانك شوفيلد هذا. ولم أكن قد قابلته إلا مرتين أو ثلاث مرات فقط قبل ذلك. أما بالنسبة لفرانك فقد كنت شيئاً خاصاً للغاية. إذ كان يحبّ أن يسمعني وأنا أتكلم، ويتعلق بكلّ كلمة أنطقها. ففي الواقع كان كلّ

شيء أقوله يسحره لسبب ما. أما فرانك فقد كان شخصاً عادياً جداً في هذا العالم، لكنه كان مفعماً بالحبّ والمودّة. ضخم الجثة ـ وكان يزن آنذاك زهاء ثلاثمائة رطل ـ ويشرب بشراهة، ولم تكن تراه بدون سيجار في فمه مطلقاً. وكان يضحك بسهولة، وعندما يضحك كانت بطنه تهتز كالهلام. «لماذا لا تأتي وتعيش معنا؟» كان يقول. «سنعتني بك. فإن مجرد النظر إليك يجعلني أشعر بالارتياح». كلمات بسيطة، لكنها صادقة ومخلصة. ولم يكن أحد من ندمائي آنذاك يمتلك هذه الخصال البسيطة. إذ لم تأكل أية دودة روحه بعد. فقد كان بريئاً، ودوداً، كريماً إلى درجة كبيرة.

لكن لماذا كان مولعاً بي إلى هذه الدرجة؟ سألت نفسي هذا السؤال وأنا أتلمس طريقي إلى مقعد في الصفوف الخلفية في المسرح. وبسرعة رحت أستعرض قائمة أسماء أصدقائي الحميمين، وأسأل نفسي عن رأي كلّ واحد منهم فيّ حقاً. ثم تذكرت رفيقي في المدرسة، ليستر فايبر، الذي كانت شفتاه تزمّان كلما التقينا، وهو ما يحدث كلّ يوم. ولم يكن يحبه أحد في الصف، ولا حتى المعلمون. فقد كان عبوساً وشرساً بالفطرة. اللعنة عليه! قلت لنفسي. أتساءل ماذا يفعل لكسب رزقه الآن؟ وليستر برينك. ماذا حلّ به؟ وفجأة رأيت الصف كله، ونحن ننظر في تلك الصورة التي التقطت في يوم تخرّجنا. كنت أتذكّر كلّ واحد منهم، أسماءهم، طولهم، وزنهم، مكانتهم، أين كانوا يقيمون، كيف كانوا يتكلمون، كلّ شيء عنهم. والغريب أني لم أصادف أحداً منهم...

كان العرض فظيعاً إلى حد أني كدت أنام في منتصفه. لكنه بدا دافئاً ومريحاً. كما أني لم أكن في عجلة من أمري للذهاب إلى أي مكان. كان عليّ أن أقتل سبع أو ثماني أو تسع ساعات قبل أن تعودا.

اعتدل الطقس البارد عندما خرجت من المسرح. كانت موجة خفيفة من الثلج قد بدأت تهطل. وثمة دافع يتعذر تفسيره وجّه

خطواتي نحو محل بيع الأسلحة في الشارع. وفي الواجهة هناك مسدس كنت أتوقف دائماً وأنظر إليه كلما مررت من أمامه. كان شكله يوحي بأنه سلاح قاتل.

وكدأبي توقّفت ورحت أضغط أنفي على واجهة المحل. صفعة قوية جعلتني أقفز. خيّل لي أن رصاصة انطلقت من مسدس. عندما التفت إلى الوراء صاح صوت ودود: «ماذا تفعل هنا بحق الشيطان؟ هنري، يا بنيّ، كيف حالك؟».

إنه طوني ماريلا. كان يضع سيجاراً مطفأً في فمه، وقبعته الناعمة مائلة، وعيناه الصغيرتان كالخرزتين الصغيرتين تلمعان.

حسناً، حسناً، وكلّ ما إلى هنالك. تبادل التحيات المعروفة، وبعض الذكريات الودّية، ثم السؤال: «وماذا تعمل الآن؟».

وفي بضع كلمات أفرغت جعبتي من الأحزان والنكبات.

«هذا سيء للغاية يا هنري. يا إلهي، لم أشكّ يوماً بأن تجري الأمور ضدك. لماذا لم تخبرني؟ يمكنك دائماً أن تتصل بي لأساعدك، كما تعرف». ولفني بذراعه. «ما قولك في قليل من الشراب؟ ربما بوسعي أن أساعدك».

حاولت أن أخبره أنه ـ لا ترتجى من مساعدتي شيء ـ فقلت له: «إنك ستضيّع وقتك».

فقال: «هيا، هيا، لا تقل هذا»، وأضاف «أنا أعرفك منذ زمن. ألا تعرف أني كنت أحترمك دائماً وأحسدك؟ فقد عانى كلانا من تقلبات الحياة. هنا، هنا توجد حانة صغيرة جيدة. لندخل ونأكل شيئاً ونشرب».

كانت حانة (مخفية من الشارع) وبدا واضحاً أنه معروف فيها جيداً. كان عليه أن يقدمني إلى الجميع، حتى إلى الصبي ماسح الأحذية. كان يقول «زميل قديم من المدرسة»، وهو يقدمني إلى شخص تلو الآخر. «كاتب، واللّه! ماذا تعرف؟»، ويقدم لي كأساً من كوكتيل الشمبانيا.

«هيا، لنشرب نخب ذلك! جو، ما رأيك بسندويشة لحم بقر مشوي لذيذة، مع الكثير من المرق... وبعض البصل النيء. كيف يبدو لك هذا يا هنري؟ يا إلهي، أنت لا تعرف كم أنا سعيد برؤيتك مرة ثانية. كنت أسأل عنك في معظم الأحيان، ماذا كنت تفعل. ظننت أنك ربما ذهبت إلى أوروبا. أمر مضحك، إيه؟ وأنت مختبئ بالقرب مني».

استمر هكذا، سعيداً كقبرة، يمرر مزيداً من المشروبات، يشتري سيجاراً، يستفسر عن نتائج السباق، يحيي قادمين جدد ويقدّمني إليهم ثانية، يستدين نقوداً من عامل البار، ويجري مكالمات هاتفية، وما إلى ذلك. مولّد صغير. بيضة جيدة، أي شخص يمكن أن يرى ذلك من أول نظرة. صديق الجميع، يطفح بالبهجة واللطف.

قال وهو يضع مرفقاً على طاولة الحانة، وذراعاً حول كتفي، وقد خفض صوته: «اسمع يا هنري، لنبدأ بالأمور الأكثر أهمية. لديّ عمل سهل لك الآن. إذا أحببت، يمكنني أن أفسح لك مجالاً. إنه ليس عملاً مثيراً لكنه قد يؤدي لك الغرض إلى أن تجد شيئاً أفضل. ما قولك؟».

«بالتأكيد»، قلت، «ما هو؟».

قال إنها وظيفة في إدارة الحدائق. فقد كان سكرتير المفوّض. مما يعني أن طوني كان يقوم بالأعمال الروتينية بينما يقوم المفوّض بالجولات. قال إنها السياسة. لعبة قذرة. أحدهم يترصدك دائماً ليطعنك في الظهر.

وتابع: «لن يكون ذلك في الغد، أو بعد غد. يجب أن ألعب اللعبة، كما تعرف. لكني سأضعك في القائمة على الفور. ربما يستغرق الأمر شهراً قبل أن أطلبك. هل يمكنك أن تتحمل هذه الفترة؟».

«أظن ذلك»، قلت.

قال: «لا تكترث للمال، إذ يمكنني أن أقرضك المبلغ الذي تحتاجه حتى ذلك الحين».

قلت: «لا! يمكنني أن أتدبر أمري...».

«أنت رجل غريب»، قال وهو يضغط على ذراعي. «يجب ألا تخجل مني. ففي رأيي المال يأتي ويذهب... هكذا! في هذا العمل يجب أن تكون غنياً. فكما تعرف لا يوجد سياسيون فقراء. كيف نحصل على المال، هذه مسألة أخرى. حتى الآن، أنا صادق. وهذا ليس سهلاً أيضاً... حسناً، إذن. إذا لم تأخذ شيئاً الآن فإنك تعرف أين تجدني عندما تريد. في أيّ وقت، تذكّر ذلك!».

أمسكت يده.

«ما رأيك بكأس آخر قبل أن نذهب؟».

هززت رأسي موافقاً.

«أوه هناك شيء نسيت أن أقوله. يمكنني أن أسجّلك في وظيفة حفّار قبور... كبداية. هل تمانع؟ لأسبوع واحد فقط أو ما يقارب الأسبوع. لا يجب عليك أن تقصم ظهرك، سأعتني بذلك. ثم سأنقلك إلى المكتب. ستخفف حملاً عن ظهري. لنقل، لكن ألن يكون بوسعي أن أستفيد منك! إنك كاتب رسائل بالفطرة ـ وهذا نصف عملي».

في طريقنا إلى الخارج قال: «تمسّك بالكتابة يا هنري. أنت مفطور على ذلك. لن أكون في هذه الوظيفة لو كنت أتمتع بموهبتك. كان عليّ أن أكافح حتى أصبح ما أصبحت عليه كما تعرف ياصديقي العزيز».

صافح أحدنا الآخر وقال: «لن تخذلني الآن. عدني بذلك وبلغ تحياتي إلى أبيك. إلى اللقاء الآن!».

«إلى اللقاء يا طوني!».

رحت أراقبه وهو يشير إلى سيارة أجرة وقفز فيها. لوّحت له ثانية. يا لحظي الجيد! طوني ماريلا، بلحمه ودمه. وعندها فقط قلت لنفسي إن الأرض مستعدة لاستقبالي.

8

من الغريب كيف تنقلب الأمور أحياناً. فقد تلعن وتصلّي، تهذر وتتذمر، ولا يحدث شيء. ثم، وما أن تتوافق مع المحتوم حتى تفتح لك كوة ينسلّ منها زحل وينتقل من مسار إلى آخر، وتتلاشى المشكلة الكبيرة، أو هكذا يبدو لك.

بهذه الطريقة البسيطة، غير المتوقعة، أخبرتني ستاسيا ذات يوم، أثناء غياب مونا، أنها ستغادرنا. ولولم أسمع ذلك من شفتيها لما صدقت.

ذُهلت، وسررت للغاية في الوقت ذاته، حتى أني لم أستفسر عن سبب مغادرتها. وبدا أنها لم تكن في عجلة من أمرها لأن تقدم هذه المعلومات طوعاً. وكما ألمحت لم يكن استياؤها من تصرفات مونا المسرحية سبباً كافياً لهذا الرحيل المفاجئ.

سألتني «هل تمانع في أن نخرج ونتمشى معاً؟ فأنا أرغب في أن أحدّثك بعض الأشياء على انفراد قبل أن أذهب. لقد حزمت حقيبتي».

ما أن غادرنا المنزل حتى سألتني إن كنت أمانع في أن نتمشى على الجسر. فأجبت «لا على الإطلاق». كنت سأوافق أن أمشي معها إلى وايت بلاينز، لو اقترحت ذلك.

أثار إعلانها بالمغادرة تعاطفي تجاهها. كانت مخلوقة غريبة، لكنها لم تكن سيئة. توقّفت لأشعل سيجارة، رحت أتفحصها. بدت

أشبه بجندي اتحادي عائد من الحرب. كانت في عينيها نظرة يائسة، لكنها لم تكن مجردة من الشجاعة. ومن الواضح أنها لم تكن تنتمي إلى أي مكان.

مشينا صامتين مسافة شارع أو شارعين. وعندما اقتربنا من الجسر بدأت تتكلم بهدوء، وبمشاعر حساسة. كان كلاماً بسيطاً من أجل التغيير. كما لو أنها تودع أسرارها لكلب. كانت نظرتها مركّزة إلى الأمام، كما لو أنها تشقّ طريقاً.

قالت إني لم أكن قاسياً معها بصورة عامة، بل الظروف هي التي كانت قاسية، لا أنا. ولم يكن بوسعنا أن نفعل أفضل مما فعلنا، حتى لو كنا في حال أفضل ألف مرة مما نحن عليه الآن. كان يجب أن تعرف بشكل أفضل. واعترفت أنه يوجد كذلك الكثير من التصنع والتمثيل في تصرفاتنا. نعم فقد كانت تحبّ مونا، لكنها لم تكن مغرمة بها. ولم يحدث ذلك مطلقاً، بل كانت مونا التي استماتت من أجلها. ولم يكن الحبّ هو الذي يربطهما، بقدر حاجتهما إلى الرفقة. فقد كانتا وحيدتين. ولعل الأمر يختلف في أوروبا. إلا أن الآوان قد فات الآن. وقالت إنها تتمنى أن تذهب إلى هناك وحدها ذات يوم.

سألتها: «لكن إلى أين ستذهبين الآن؟»

«ربما إلى كاليفورنيا. لا يوجد لديّ مكان آخر».

«لماذا لا تذهبين إلى المكسيك؟»

قالت إن المكسيك أحد الاحتمالات، لكن ليس الآن. إذ يجب عليها أولاً أن تستجمع نفسها. فلم تكن هذه الحياة البوهيمية الفوضوية التي تعيشها سهلة عليها. أما في أعماقها فهي شخص بسيط، ومشكلتها الوحيدة أنها لا تعرف كيف يمكنها أن تتوافق مع الآخرين. وأرادت أن تعلمني أن أكثر ما يزعجها في أسلوبنا أو حياتنا، هو أنها لم تكن تتيح لها فرصة قوية للعمل. قالت «يجب أن أعمل شيئاً بيدي»، وأضافت «حتى لو كان حفر خنادق. أريد أن

أكون نحّاتة، لا رسّامة أو شاعرة». واستدركت بقولها يجب ألا أحكم عليها من الدمى التي تصنعها ـ إذ كانت تصنعها لإرضاء مونا فقط.

ثم قالت شيئاً بدا لي كأنه خيانة عظمى. إذ قالت أن مونا لا تعرف شيئاً عن الفن على الإطلاق، وأنها لا تستطيع أن تميّز إن كانت القطعة الفنية جيدة أم رديئة. «وهو أمر لا يهم، أو بالأحرى لايهم لو أنها تمتلك الشجاعة للاعتراف بذلك. لكنها لم تكن تقرّ بذلك. فهي تزعم أنها تعرف كلّ شيء، وتفهم كلّ شيء. أنا أكره الإدعاء. وهذا أحد الأسباب التي تجعلني لا أتوافق مع الناس».

توقّفت قليلاً لتدعني استوعب ما قالته. «لا أعرف كيف ستتلقى ذلك! أنت مليء بالخدع الشريرة، تفعل أشياء حقيرة في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى تصبح متحيزاً وظالماً إلى درجة كبيرة، لكنك على الأقل صادق. فأنت لا تدّعي أبداً أنك شيء آخر. أما مونا... حسناً، فلا يمكنك أن تعرف من هي أو ما هي. إنها مسرح متنقّل. فأينما ذهبت، ومهما فعلت، ومع من تكلمت، فهي تكون على المسرح. إنه أمر مثير للغثيان...لا بد أنني أخبرتك بكلّ هذا من قبل. أنت تعرف هذا كما أعرفه».

تسللت ابتسامة ساخرة إلى وجهها. «أحياناً...» تردّدت لحظة. «أحياناً أتساءل كيف تتصرّف في السرير. أعني، هل تتظاهر بذلك أيضاً؟».

سؤال غريب، لكني تجاهلته.

«أنا طبيعية أكثر مما تظن»، تابعت كلامها. «وعيوبي مكشوفة للجميع. أما في قرارة نفسي فأنا فتاة صغيرة خجولة لم تكبر بعد. لعله اضطراب في الغدد. إنه أمر طريف، أليس كذلك، إذا كان تناول كمية قليلة من الهرمونات يومياً سيجعلني أنثى مثالية؟ ما الذي يجعلني أكره النساء إلى هذا القدر؟ فقد كنت دائماً هكذا. لا تضحك الآن، لكن صدقني، فإن رؤية امرأة تقرفص لتبول يثير غثياني. أمر

سخيف للغاية... آسفة لأني أقول لك مثل هذه الترهات. كنت أنوي أن أخبرك عن الأشياء الأكثر أهمية، الأشياء التي تضايقني حقاً. لكني لا أعرف من أين أبدأ. وبما أني سأغادر الآن فماذا سيجدي نفعاً؟».

كنا قد أصبحنا الآن في منتصف الجسر، وبعد دقائق سنصبح وسط باعة العربات، وسنمرّ من أمام المحلات التي يتكدس في واجهاتها السمك المدخّن، والخضراوات، وأكياس البصل، وأرغفة الخبز الضخمة، وكميات كبيرة من الجبن، والكعك المملّح، وأطايب المأكولات الأخرى. وفي الوسط ستجد بدلات زفاف، وبدلات رسمية، وقبعات، ومشدات، وملابس داخلية نسائية، وعكازات، وقدور، وخردوات.

تساءلت ما الذي تريد أن تخبرني إياه ـ أقصد ما هو ذلك الشيء المهم؟

قلت: «عندما نعود، فلا ريب أننا سنشهد ثورة من الهياج. لو كنت مكانك لتظاهرت بأني غيرت رأيي، ثم أنسلّ في أول فرصة تسنح لي. وإلا فإنها ستصرّ على الذهاب معك حتى تتأكد من وصولك إلى البيت بالسلامة».

قالت إنها فكرة رائعة. وجعلها ذلك تبتسم، وأقرّت: «يا لها من فكرة لم تخطر لي حقاً»، وأضافت «ليس عندي إحساس استراتيجي على الإطلاق».

«أتمنى لك التوفيق»، قلت.

«بمناسبة الكلام عن الاستراتيجية، أتساءل إن كان بإمكانك أن تساعدني في جمع قليل من المال؟ فأنا مفلسة. ولا أستطيع أن أتنقل من سيارة إلى أخرى في أنحاء البلاد وأنا أحمل صندوقاً وحقيبة ثقيلة، أليس كذلك؟».

(لا، قلت لنفسي، لكن يمكننا أن نرسلها لك لاحقاً).

قلت: «سأبذل ما بوسعي، فأنت تعرفين أني لا أجيد جمع المال، فهذا من اختصاص مونا. لكني سأحاول».

«جيد»، قالت. «لن تؤثر بضعة أيام أخرى».

وصلنا إلى نهاية الجسر. رأيت مقعداً فارغاً وقدتها إليه.

«لنسترح قليلاً»، قلت.

«هل نستطيع أن نشتري قهوة؟».

«معي سبعة سنتات فقط وسيجارتان».

«كيف تتدبر أمورك عندما تكون وحدك؟» سألت.

«هذا أمر مختلف. عندما أكون وحدي تحدث أشياء».

«الله يرعاك، أليس كذلك؟».

أشعلت لها سيجارة.

«أنا أتضور جوعاً»، قالت، وقد تدّلى جناحاها.

«إذا كان الأمر سيئاً إلى هذه الدرجة فلنعد».

«لا أستطيع، فالبيت بعيد جداً. انتظر قليلاً».

أخرجت خمسة سنتات وأعطيتها إياها. «خذي قطار الأنفاق أما أنا فسأمشي. لا أجد مشقة في ذلك».

«لا»، قالت، «سنعود معاً... فأنا أخشى أن أواجهها وحدي».

«خائفة؟».

«نعم يا فال، خائفة. إذ ستملأ المكان بكاء وسأضعف أمامها».

«لكن يجب ألا تضعفين، تذكري ذلك؟ دعيها تبكي... ثم قولي إنك غيّرت رأيك. كما قلت لك».

«نسيت»، قالت.

أرحنا أطرافنا المرهقة قليلاً. انقضّت حمامة وجثمت على كتفها.

«ألا تستطيع أن تشتري بعض الفستق؟»، قالت، «يمكننا أن نطعم الطيور ونحتفظ بالقليل منه لأنفسنا أيضاً».

«إنسِ الموضوع!»، أجبت. «تظاهري بأنك لست جائعة. ستمرّ. فنادراً ما مشيت فوق الجسر ومعدتي ممتلئة. أنتِ متوترة، هذا كلّ ما في الأمر».

«إنك تذكّرني برامبو أحياناً»، قالت، «كان جائعاً على الدوام...».

«لا يوجد شيء مميز في هذا»، أجبت. «هو وكم مليون آخر من البشر؟».

انحنيت لأعقد رباط حذائي وهناك، تحت المقعد، وجدت فستقتين كاملتين. أمسكت بهما.

«واحدة لك وواحدة لي»، قلت. «أترين كيف ترعى العناية الإلهية المرء!».

لقد منحتها الفستقة الشجاعة لتمدد ساقيها. نهضنا متصلبين وعدنا باتجاه الجسر.

«أنت لست سيئاً»، قالت ونحن نمضي إلى الأمام. «مرت أوقات كنت أمقتك فيها. لا بسبب مونا، ولا لأني كنت غيورة، بل لأنك لم تكن تعر أحداً أي اهتمام إلا نفسك الحلوة. كنت أعتبرك فظاً عديم الرحمة. لكني أرى أن لديك قلباً طيباً حقاً، أليس كذلك؟».

«ما الذي أدخل هذا في رأسك؟».

«أوه، لا أعرف. لا شيء بشكل خاص. ربما بدأت أرى الأشياء في ضوء جديد الآن. على أية حال، فلم تعد تنظر إليّ بالطريقة التي كنت تنظر فيها إليّ من قبل. إنك تراني الآن. من قبل كنت تحتقرني. كان بودك أن تدوس عليّ... أو تدوس فوقي».

«أنا أتساءل»، قالت، «كيف ستكون الأمور بينكما عندما أذهب. بطريقة ما فأنا من أبقاكما معاً. ولو كنت خبيثة، لو كنت حقاً أريدها لنفسي لسافرت وانتظرت حتى تنفصلا، ثم أعود وآخذها».

«ظننت أنك قطعت صلتك بها» قلت. لكن عليّ أن أعترف لنفسي أنه يوجد ثمة منطق في ملاحظتها.

«نعم»، قالت، «كان كلّ ذلك في الماضي. ما أريد أن أفعله الآن هو أن أصنع حياة لنفسي. يجب أن أفعل الأشياء التي أحبها حتى لو فشلت فيها فشلاً ذريعاً... لكنها ماذا ستفعل؟ هذا ما أتساءله. بطريقة ما لا أستطيع أن أرى أنها تفعل شيئاً ذا أهمية. أشعر بالأسف من أجلك. صدقني، أعني هذا بصدق. ستصبح الحياة جحيماً بالنسبة لك عندما أغادر. لعلك لا تدرك هذا الآن».

«رغم ذلك»، أجبت، «هذه هي الطريقة الأفضل».

«إنك متأكّد من رحيلي، إيه؟ مهما حدث؟».

«نعم»، قلت، «متأكّد. وإذا لم تذهبي من تلقاء نفسك فسأخرجك بالقوة».

ضحكت ضحكة خفيفة. «تودّ أن تقتلني لو أتيحت لك الفرصة، أليس كذلك؟»

«أنا لا أقول ذلك. لا، ما أعنيه هو أنه آن الأوان...».

«قال فيل البحر إن...».

«حسناً! ما سيحدث عندما تغادرين من شأني أنا. الأمر الهام هو أن تغادري. لا تراجع عن هذا».

ابتلعت هذا كما يبتلع المرء كتلة في حنجرته. لقد وصلنا إلى قمّة القنطرة، حيث توقفنا لننظر إلى الأفق الغارب.

«كم أكره هذا المكان!» قالت. «لقد كرهته منذ اللحظة التي وصلت فيها إليه. انظر إلى خلايا النحل تلك»، قالت وأشارت إلى ناطحات السحاب. «إنها تخلو من الإنسانية»، ومدت ذراعها وعملت حركة بذراعها كأنها تريد أن تكنسها. «إذا كان يوجد شاعر واحد في تلك الكتل المصنوعة من الحجارة والفولاذ فأنا مجنونة. فلا أحد

يستطيع أن يقيم في تلك الأقفاص إلا الوحوش». واقتربت من الحافة أكثر وبصقت من فوق الحاجز إلى النهر. «حتى الماء قذر. ملوّث».

استدرنا واستأنفنا السير.

«أتعرف»، قالت، «لقد تربيت على الشعر. ويتمان، ووردزورث، آمي لويل، باوند، إليوت. يمكنني أن أتلو قصائد كاملة قديمة. وخاصة قصائد ويتمان. أما الآن فإن كلّ ما يمكنني أن أفعله هو أن أصرّ على أسناني. يجب أن أعود غرباً ثانية، وبأسرع ما يمكن. جوكين ميلر... هل قرأت له شيئاً؟ شاعر سيراس. نعم، أريد أن أتعرّى ثانية وأفرك نفسي على جذوع الأشجار. لا يهمني ما يظن بي الناس... يمكنني أن أضاجع شجرة، لكن لا يمكنني أن أضاجع تلك الأشياء القذرة ذات السراويل التي تزحف من تلك البنايات المريعة. لا بأس بالرجال - في الفضاءات المفتوحة. أما هنا - يا إلهي! أفضّل أن أستمني على أن أدع أحدهم ينسل إلى الفراش معي. إنهم آفات، جميعهم. نتنون».

بدا أنها على وشك الاستشاطة غضباً. إلا أنها هدأت فجأة. وتغيرت قسماتها كلها. وفي الحقيقة بدت كملاك.

«سأشتري حصاناً»، بدأت تقول، «وسأختبئ في الجبال. ربما كان عليّ أن أتعلم أن أصلي ثانية. عندما كنت فتاة كنت أخرج وحدي، غالباً لأيام طويلة. وكنت أكلّم الله بين أشجار الصنوبر الباسقة. لم يكن لديّ أيّ صورة معيّنة عنه، بل كان مجرد حضور عظيم. عرفت الله في كلّ مكان، في كلّ شيء. كم بدا العالم لي جميلاً آنذاك! كنت أفيض حباً ومودّة. وكنت أدرك ذلك تماماً. وفي معظم الأحيان كنت أجثو على ركبتي لأقبّل زهرة وأقول لها «يا لك من زهرة رائعة. أنت مكتفية ذاتياً. كلّ ما تحتاجين إليه الشمس والمطر، وتحصلين على ما تحتاجين إليه دون أن تطلبي. لا تطلبين المستحيل، أليس كذلك، يا زهرة البنفسج الصغيرة؟ لا تتمنّين أبداً إلا أن تكوني أنت نفسك». هكذا كنت أكلّم الأزهار. نعم، كنت أعرف

كيف أتواصل مع الطبيعة. وكان كلّ شيء طبيعي، حقيقي، حقيقي جداً».

توقّفت لترمقني نظرة فاحصة. حتى أنها بدت ملائكية إلى درجة أكبر الآن. وحتى بقبعة مجنونة على رأسها كانت ستبدو ساروفية. ثم وفيما بدأت تفرغ ما يجيش في صدرها بحماس، تبدلت طلعتها ثانية. لكن الهالة كانت ما تزال حولها.

كانت تحاول أن تخبرني أن ما حرفها عن مسارها هو الفن. فقد أدخل أحدهم في روعها أنها فنانة. «أوه، هذا ليس صحيحاً»، صاحت. «كانت لديّ موهبة دائماً، وقد ظهرت في وقت مبكر. لكن لم يكن يوجد شيء استثنائي في ما كنت أفعله. فلدى كلّ شخص مخلص بذرة موهبة».

كانت تحاول أن توضح لي كيف حدث التغيير، كيف بدأت تتعرف على الفن وتتعرف على نفسها كفنانة. هل لأنها كانت تختلف كثيراً عمن حولها؟ ألأنها بدأت ترى بعيون أخرى؟ لم تكن تعرف. لكنها تعرف أن ذلك حدث ذات يوم. وبين عشية وضحاها، فقدت براءتها. وقالت إنه منذ ذلك الحين بدأ كلّ شيء يتخذ مظهراً آخر. فلم تعد الأزهار تتكلّم معها، أو هي تكلّمها. وعندما كانت تنظر إلى الطبيعة، كانت تراها كقصيدة، أو كمشهد طبيعي. إنها لم تعد جزءاً من الطبيعة. فقد بدأت تحلل، تعيد ترتيب أمورها، لتأكيد إرادتها.

«كم كنت حمقاء! ففي فترة قصيرة كبرت على نفسي كثيراً. ولم تعد الطبيعة تكفيني. بدأت أتوق لحياة المدينة. اعتبرت نفسي روحاً عالمية. وأصبح احتكاكي مع زملائي الفنانين، لأوسع مداركي من خلال المناقشات معهم من الأولويات. كنت في شوق لرؤية الأعمال الفنية العظيمة التي طالما سمعت عنها، أو التي قرأت عنها، لأنه لم يكن أحد ممن كنت أعرفهم يتحدث عن الفنّ قط، إلا شخص واحد، المرأة المتزوجة التي أخبرتك عنها ذات يوم. كانت امرأة في

الثلاثينات من عمرها وذات تجربة جيدة. لم تكن تملك ذرة من الموهبة، لكنها كانت تعشق الفنّ وتتمتع بذائقة رائعة له. هي من فتحت عينيّ، لا على عالم الفن فحسب، بل على عوالم أخرى كذلك. وبالطبع وقعت في غرامها. كيف لا يمكنني أن أحبها؟ كانت أماً، ومعلماً، وراعياً، وحبيبة مجتمعين. كانت في الحقيقة عالمي كله».

توقفت لتسألني إن كان حديثها يدخل الملل إلى نفسي. «الشيء الغريب»، ثم تابعت حديثها، «أنها هي التي دفعتني إلى العالم. لازوجها، كما جعلتك تظن. لا، فقد كنا منسجمين إلى درجة رائعة، نحن الثلاثة. ولم أكن لأنام معه لو لم تحثّني هي على ذلك. كانت امرأة استراتيجية، مثلك. وبالطبع، لم يحصل مني على شيء؛ فأكثر شيء كان يمكنه أن يفعله لي هو أن يضمني إليه بين ذراعيه، ويضغط بجسمه على جسدي. وعندما يحاول أن يرغمني على فعل شيء كنت أتملص منه. ومن الواضح أنه لم يكن يعبأ بذلك كثيراً، أو أنه يتظاهر بأنه لم يكن يكترث. أظن أن هذا يبدو غريباً عليك، هذا العمل، لكنه كان بريئاً جداً. أظن أنه كان مقدراً لي أن أكون عذراء. أو عذراء في الصميم».

«أوف! يا لها من قصة! على كلّ حال، الفكرة هي أنهما هما من أعطياني المال لآتي شرقاً. كان عليّ أن أذهب إلى مدرسة الفنون، أعمل بجدّ، وأصنع اسماً لنفسي».

توقّفت فجأة.

«والآن انظر إليّ! ماذا أنا؟ ماذا أصبحت؟ أنا امرأة عديمة الفائدة، مزيفة أكثر من زوجتك مونا حقاً».

«أنت لست مزيفة»، قلت. «مجرد نشاز، هذا كلّ ما في الأمر».

«لست بحاجة لأن تكون لطيفاً معي».

لوهلة ظننت أنها ستنفجر في البكاء. «هل ستكتب لي أحياناً؟»

«لم لا؟ إذا كان هذا سيدخل السرور إلى نفسك، بالطبع».

ومثل فتاة صغيرة، قالت: «لقد انتهى كلّ شيء. سأشتاق إليكما كليكما. سأشتاق إليكما كثيراً».

قلت: «حسناً، لقد انتهى كلّ شيء. تطلّعي إلى الأمام، لا إلى الوراء».

«من السهل أن تقول هذا. إنها ستكون لك. أنا س...».

«ستكونين أفضل حالاً وحدك، صدقيني. من الأفضل أن تكوني وحدك على أن تكوني مع شخص لا يفهمك».

«أنت على حق»، قالت وضحكت ضحكة خفيفة خجولة. «أتعرف، ذات مرة حاولت أن أجعل كلباً يعلوني. كان شيئاً سخيفاً للغاية. وأخيراً عضني في فخذي».

«كان يجب أن تجربي حماراً، فالحمير أسلس قياداً» كنا قد وصلنا إلى نهاية الجسر.

قالت «ستحاول أن تجمع لي بعض المال، أليس كذلك؟».

«طبعاً. ولا تنسي أن تتظاهري بأنك غيّرت رأيك وستبقين. وإلا فسيحدث مشهد مخيف».

وكما توقّعت فقد حدثت ثورة هائجة، لكن ما أن تراجعت ستاسيا عن موقفها حتى توقف هذا الهياج، كما تتوقف الامطار الربيعية فجأة. إلا أن رؤية مونا حزينة لم يكن شيئاً يدعوني للكآبة فقط، بل شيئاً مهيناً. فعندما وصلنا كانت في الحمّام، تبكي مثل خنزير. فقد وجدت الحقيبة محزمة، والصندوق مقفل، وغرفة ستاسيا في حالة شديدة من الفوضى. وعرفت أنها ستغادر هذه المرة.

وكان من الطبيعي أن تتهمني بأنني من شجعها على الرحيل. ولحسن الحظ أنكرت ستاسيا ذلك بقوة. إذن لماذا عزمت على الرحيل؟ فأجابت ستاسيا بشكل غير مقنع أنها ملّت من كلّ هذا. وعندها انهمر سيل من استفسارات مونا التي تتسم بالعتاب كالرصاص. كيف يمكنك أن تقولي شيئاً كهذا؟ إلى أين ستذهبين؟

ماذا فعلت لكي تنقلبين عليّ؟ كان بإمكانها أن تطلق مائة طلقة أخرى كهذه. على أية حال، فمع كلّ لوم كانت توجهه، كانت هستيريتها تتصاعد، وتحولت دموعها إلى نشيج، والنشيج إلى أنات وتأوهات.

ولم تكن مسألة أن أكون كلي لها أمراً ذا أهمية. فمن الجلي أنه لم يكن لي وجود بالنسبة لها، إلا كشوكة في خاصرتها.

لانت ستاسيا أخيراً، بعد أن غضبت مونا واهتاجت وتوسلت واستجدت. تساءلت لماذا تركت هذا المشهد يستمر لفترة طويلة جداً. هل كانت تجد متعة في ذلك؟ أم أنها كانت مشمئزة إلى الحد الذي جعلها تصبح مفتونة؟ سألت نفسي ماذا كان سيحدث لو لم أكن إلى جانبها.

أنا الذي لم يستطع أن يحتمل أكثر من هذا، أنا الذي توجه إلى ستاسيا وتوسل إليها أن تعيد النظر في قرارها.

«لا تذهبي»، قلت راجياً. «هي حقاً بحاجة إليك. إنها تحبك، ألا ترين ذلك؟».

وأجابت ستاسيا: «لكن لهذا السبب يجب أن أذهب».

«لا» قلت، «فإذا كان على أحد أن يذهب فهو أنا».

(في تلك اللحظة كنت أعني ذلك حقاً أيضاً).

«أرجوك»، قالت مونا، «لا تذهب أنت أيضاً! لماذا يجب على أحدكما أن يذهب؟ لماذا؟ لماذا؟ فانا أريدكما كليكما. أنا بحاجة إليكما. لأنني أحبكما».

«لقد سمعنا هذا من قبل»، قالت ستاسيا، كما لو أنها ما تزال مصرّة.

«لكني صادقة في ما أقول»، قالت مونا، «فأنا لا شيء بدونكما. والآن وبعد أن أصبحتما صديقين أخيراً، لماذا لا نعيش معاً في سلام ووئام؟ سأفعل أيّ شيء تطلبينه. لكن لا ترحلي أرجوك!».

التفت ثانية إلى ستاسيا وقلت: «إنها على حق، فقد تسير الأمور

على ما يرام هذه المرة. أنت لا تغارين مني... لماذا أغار منك؟ فكّري في الأمر، فإذا كنت أنا من يجعلك تقلقين، اطمئني. أنا أريد أن أراها سعيدة، لا أكثر من ذلك. إذا كان بقائك معنا سيجعلها سعيدة، فأقول عندئذ ابقي! ربما سأتعلم أنا أن أكون سعيداً أيضاً. على الأقل، أصبحت أكثر تسامحاً، ألا تظنين ذلك؟» وابتسمت لها ابتسامة غريبة. «هيا الآن، ماذا تقولين، لن تدمري حياة ثلاثة أشخاص، أليس كذلك؟».

تهالكت على الكرسي. جثت مونا عند قدميها، ووضعت رأسها في حضنها، ثم رفعت عينيها ببطء ونظرت إلى ستاسيا بتوسل. «ستبقين، أليس كذلك؟» راحت تتوسل.

دفعتها ستاسيا بلطف جانباً وقالت: «نعم، سأبقى، لكن بشرط واحد. يجب ألا تكون هناك مشاهد من الهياج العاطفي».

تركزت عيناهما عليّ الآن. أنا المذنب. أنا من كان يحرّض على جميع هذه الأشياء. هل سيتحسن سلوكي؟ كان هذا سؤالهما الصامت.

«أعرف ما تفكران به»، قلت. «كلّ ما يمكنني أن أقوله هو أني سأبذل قصارى جهدي».

«قلْ المزيد!» قالت ستاسيا. «أخبرنا كيف تشعر الآن حقاً».

أيقظتني كلماتها. انتابني شعور بأنها تمادت في تمثيلها. هل من الضروري أن تضعاني على المشواة الآن؟ فكرت أني سأكون وغداً حقاً، إذا تجرأت وأعربت عن رأيي بصراحة. حقير مطلق. وبالتأكيد، لم يخطر لي، عندما اقترحت عليها، أنها ستواصل هذه المهزلة لفترة طويلة بهذا الشكل. فأن تستسلم ستاسيا كما اتفقنا شيء، وأن تنتزع وعوداً جدّية مني، أن تفتش في سريرتي، شيء آخر. ربما لم نكن سوى ممثلين، حتى عندما كان يخيّل لنا أننا نتصرف بصدق وإخلاص. أو بالعكس. بدأت أتشوّش. صدمت فجأة،

أنه ربما كانت مونا الممثلة الأكثر إخلاصا منا جميعاً. فعلى الأقل هي تعرف ما تريده.

مرّ كلّ هذا في رأسي كالبرق.

وكان ردي صادقاً «لكي أكون صادقاً، فأنا لا أعرف كيف أشعر. لا أظن أنه بقيت لديّ أية مشاعر. على أي حال، لم أعد أريد أن أسمع المزيد عن الحبّ، أبداً...».

وهكذا انتهى الأمر، بشكل محبط. لكن مونا كانت راضية جداً، وكذلك ستاسيا كما بدا.

لم يصب أحدنا بضرر شديد. محاربون، هكذا كنا.

وبدأت أخبّ من مكان إلى مكان مثل كلب بوليسي لأجمع نقوداً كي ترحل ستاسيا. توجهت إلى ثلاث مستشفيات محاولاً أن أبيع دمي. فقد أصبح الآن ثمن ليتر دم الإنسان خمسة وعشرين دولاراً، حيث كان منذ عهد قريب خمسين دولاراً، لكن عدد المتبرعين الجياع ازداد الآن.

لا فائدة ترجى من تضييع مزيد من الوقت في هذا الاتجاه. من الأفضل استدانة المال. لكن مِنْ مَنْ؟ لا أستطيع أن أفكّر بأحد يمكنه أن يمنحني أكثر من دولار أو دولارين. وكنت بحاجة إلى ما لايقل عن مائة دولار. ومن الأفضل إذا تمكنت من جمع مائتي دولار.

كم أتمنى أن أعرف كيف أصل إلى ذلك المليونير المنحرف! فكّرت بلودفيغ، المنحرف، المجنون الآخر! لكن قلبه من ذهب، كما كانت مونا تقول دائماً. لكن ماذا سأقول له؟

كنت أسير أمام محطة غراند سنترال. هبطت إلى القبو الفرعي، حيث يتجمع السعاة، لأرى إن كان مايزال يوجد أحد يتذكّرني. (فقد توفى كوستيغان، العجوز الذي كنت أثق به). انسللت إلى الأسفل وأخذت أتمعن في الطاقم. لم أتعرف على أي شخص منهم.

عندما صعدت إلى الشارع تذكّرت أن الدكتور زابريسكي كان

يقف في مكان قريب من هذا الحيّ. وما هي إلا لحظات حتى كنت أقلّب دليل الهاتف. وكما كان متوقعاً، هناك في الشارع الخامس والأربعين غرب، ارتفعت معنوياتي. ها هنا رجل يمكنني أن أعتمد عليه حقاً، ما لم يكن مفلساً. وهذا أمر بعيد الاحتمال، وخاصة بعد أن افتتح عيادة الآن في مانهاتن. غذذت الخطى. ولم أهتمّ بالتفكير في نوع قصة الثور والديك التي سألفّقها له... ففي الماضي، عندما كنت أزوره ليملأ سني بالحشوة، كان يسألني إن كنت أحتاج إلى مبلغ صغير. كنت أقول أحياناً لا، خجلاً من أن أفرض نفسي على شخص طيب مثله. لكن كان ذلك في القرن الثامن عشر.

فيما كنت مسرعاً تذكّرت فجأة مكان عيادته القديم. كانت في تلك البناية المبنية من الآجر الأحمر ذات الطوابق الثلاثة حيث كنت أقيم ذات مرّة مع الأرملة كارلوتا. ففي صباح كلّ يوم كنت أسحب علب النفايات ودلاء القمامة من القبو وأضعها على الرصيف. كان هذا أحد الأسباب الذي جعله يحبني، الدكتور زابريسكي - لأني لم أكن أخجل من أن ألوث يديّ. وكان يقول إن هذا شيء روسي للغاية، مثل صفحة من صفحات غوركي... كم كان يحبّ الدردشة معي عن الكتّاب الروس! كم شعر بالنشوة عندما أريته القصيدة النثرية التي كتبتها عن جيم لوندوس، هرقل الصغير، كما كان يدعى. كان يعرفهم جميعهم - سترانجلر لويس، زبيسكو، إيرل كادوك، فارمر ماذا كان اسمه... جميعهم. وكتبت كشاعر - كان معجباً بأسلوبي - عن جيم لاندوس كاتبه العظيم الأثير لديه. وأذكر أنه في عصر ذلك اليوم دسّ ورقة من فئة عشرة دولارات في يدي فيما كنت مغادراً. وقد أصرّ على الاحتفاظ بالمخطوطة - ليريها إلى أحد كتّاب الزاوية الرياضية الذي كان يعرفه - وراح يرجوني أن أريه المزيد من أعمالي. «هل كتبت شيئاً عن سكريابن؟ أم عن أليخين، بطل الشطرنج؟» وكان يحثني قائلاً «لا تتأخر في المجيء مرة أخرى. تعال في أيّ وقت تشاء، حتى لو لم تكن أسنانك بحاجة لرعاية».

وكنت أعود من حين لآخر، لا لنتحدث عن الشطرنج والمصارعين والبيانو، بل بأمل أن يدس في يدي خمسة دولارات، أو حتى دولاراً واحداً لدى مغادرتي.

كنت أحاول أن أتذكر، وأنا أدخل العيادة الجديدة، كم سنة مضت على آخر مرة رأيته فيها. لم يكن في غرفة الانتظار سوى ثلاثة زبائن. لا مثل أيام زمان عندما كانت هناك غرفة وقوف فقط، ونساء بعيون حمراء، يضعن الشالات، ويجلسن ويضعن أيديهن على فكوكهن المتورمة، وكان بعضهن يحملن أطفالاً على أذرعهن، وكن جميعهن فقيرات وديعات معدمات، قادرات على الجلوس هناك لساعات طويلة. أما العيادة الجديدة فكانت مختلفة. بدا الأثاث جديداً ومريحاً بترف، وكانت هناك لوحات معلقة على الحائط ـ لوحات جيدة ـ والصمت يخيم على المكان، لا تسمع ضجيجاً، حتى صوت المثقاب، أو السماور.

ما كدت أجلس حتى فتح باب غرفة التعذيب ليخرج منه زبون. توجه إليّ في الحال، صافحني بحرارة، ورجاني أن أنتظر بضع دقائق. وتمنّى ألا يكون ثمة مكروه؟ قلت له خذ وقتك. بضعة تجاويف، لا شيء أكثر. عدت وجلست وأخذت مجلة. وفيما رحت أتصفح الصور خطر لي أن أفضل شيء يمكنني أن أقوله له هو أن مونا يجب أن تجري عملية. ورم في المهبل، أو شيء من هذا القبيل.

ومع الدكتور زابريسكي فإن بضع دقائق تعني عادة ساعة أو ساعتين. لكن ليس هذه المرة. كان كلّ شيء يسير بسلاسة وفعالية الآن.

جلست على الكرسي الكبير وفتحت فمي واسعاً. كان ثمة تجويف صغير فقط. قال إنه سيملأه في الحال. وفيما كان يواصل الحفر في سني أرهقني بالأسئلة: كيف تسير الأمور؟ هل ما أزال أكتب؟ هل لديّ أطفال؟ لماذا لم آت لزيارته من قبل؟ كيف كان فلان الفلاني؟ هل ما زلت أركب الدراجة؟ وبالطبع كنت أجيب عن جميع هذه الأسئلة بهمهمات وبتحريك العينين.

وأخيراً انتهى من عمله. قال: «لا تهرب!. تناول كأساً صغيراً معي أولاً». وفتح خزانة وأخرج زجاجة من ويسكي السكوتش الممتاز، ثم سحب مقعداً بجانبي. «الآن حدثني كلّ شيء عنك».

كان عليّ أن أبدأ بديباجة قبل أن أدخل في الموضوع. أي إلى أين بلغنا حالياً، من الناحية المالية وإلى ما هنالك. وأخيراً نطقت الكلمة ـ الورم. وعلى الفور أخبرني أن لديه صديقاً جيداً وهو جرّاح ممتاز، يمكنه أن يقوم بالعمل بدون مقابل. أربكني هذا. كلّ ما أمكنني أن أقوله هو أن الترتيبات اتخذت، وأنني دفعت سلفة قدرها مائة دولار من تكاليف العملية.

قال: «هذا سيء للغاية». فكّر لحظة، ثم سأل: «متى يجب أن تسدده، أعني باقي المبلغ؟».

«بعد غد».

فقال: «اسمع، سأعطيك شيكاً مؤجلاً. الآن رصيدي في البنك منخفض، منخفض جداً. كم تحتاج بالضبط؟».

قلت مائتين وخمسين دولاراً.

«هذا مؤسف»، قال، «كان بإمكاني أن أوفّر عليك كلّ هذه النفقات».

فجأة أحسست بالندم فقلت: «اسمع. انس الموضوع. لا أريد أن آخذ آخر بنس منك».

لم ينصت إليّ. وأخذ يشرح لي أن الزبائن لا يسددون فواتيرهم بسرعة، هذا كلّ ما في الأمر. أخرج سجل حسابات كبيراً، وبدأ يمرر أصبعه عليه. «في نهاية الشهر يجب أن يكون في حسابي أكثر من ثلاثة ألف دولار». ابتسم ابتسامة عريضة وأضاف، «لست فقيراً تماماً».

أصبح الشيك يقبع في جيبي بأمان، أخذت أتباطأ قليلاً لأحفظ ماء وجهي. وعندما رافقني أخيراً إلى المصعد ـ ووضعت قدمي فيه

قال: «من الأفضل أن تخابرني قبل أن تودع ذلك الشيك... فقط للتأكد من وجود حساب في رصيدي. افعل ذلك»

«سأفعل ذلك»، قلت، ولوّحت له مودعاً.

الشخص الطيب ذاته، قلت في نفسي، فيما بدأ المصعد يهبط. من السيء أني لم أفكر بأن آخذ منه قليلاً من النقود أيضاً. كلّ ما كنت أحتاج إليه الآن هو كوب من القهوة وفطيرة. تحسست جيبي. لا يوجد معي إلا بضعة بنسات. القصة القديمة نفسها.

عندما بدأت أقترب من المكتبة العامة في الجادة الخامسة والشارع الثاني والأربعين، وجدت نفسي أقارن بين فوائد العمل كماسح أحذية ومضاره. وتساءلت ما الذي جعل هذه الفكرة تخطر ببالي. لقد شارفت على الأربعين وما زلت أفكّر بتلميع أحذية أناس آخرين. إلى أي مدى يجول العقل!

وبالقرب من الحديقة التي تحرسها أسود ساكنة من الحجارة، تملّكني حافز قوي لزيارة المكتبة. إن الجو لطيف ومريح دائماً في غرفة المطالعة الكبيرة في الطابق العلوي. وتملكني فجأة شعور بالفضول لرؤية كيف كان الأدباء الآخرون الذين في عمري يتصرفون. (فقد كانت هناك أيضاً إمكانية أن تتعرف على واحد منهم وأنت تتناول تلك الفطيرة والقهوة). ثمة شيء واحد أكيد، وهو أنه لا توجد حاجة للغوص في الحياة الخاصة لأدباء مثل غوركي ودوستويفسكي وأندرييف أو أيّ من جنسهم. ولا حتى ديكنز. جول فيرن! هناك كاتب لم أكن أعرف شيئاً عن حياته على الإطلاق. قد تكون مثيرة للاهتمام. بدا لي أنه لا يوجد لدى بعض المؤلفين حياة خاصة. كلّ شيء مدوّن في كتبهم. وكنت بالكاد أعرف عن حياة آخرين مثل ستريندبيرغ ونيتشه وجاك لندن... كما أعرف عن حياتي.

ومما لا ريب فيه أني كنت أتمنى أن أصادف حياة واحد منهم التي تبدأ في لا مكان، وتقودنا عبر مستنقعات وأراضي ملحية، ثم تتلاشى رويداً رويداً، بدون خطة أو غرض أو هدف، ثم تظهر فجأة،

تتدفق مثل السخّانات، ولا تتوقف أبداً عن التدفق، حتى في الموت. ما أردت أن أفهمه ـ كما لو أنّ المرء يستطيع أن يصطرع مع الأشياء غير المحسوسة! ـ هي تلك النقطة الحاسمة في تطور العبقري عندما تنبع المياه فجأة من تلك الصخرة الجافة الصلبة. عندما تتجمع الأبخرة السماوية في نهاية الأمر في مستجمعات مائية ثم تتحول هناك إلى جداول وأنهار. أحسست أن ذلك يجري في العقل والروح، ذاك الحوض الذي ينتظر أن يتحوّل إلى كلمات وجمل وكتب، لتغرق ثانية في محيط الفكر.

ويقال إننا لا ننفتح إلا من خلال الخطأ والصواب. هل هذا ما سأجده ـ لا أكثر من ذلك؟ من تصفح صفحات السيرة الذاتية؟ هل المبدعون كائنات معذبة لم تجد الخلاص إلا من خلال التصارع عن طريق الفن؟ ففي جمال الإنسان العالمي ترتبط المعاناة والمعاناة مع الخلاص. لا يمكن التوصل إلى هذا الضرب من الأشياء في الطبيعة.

جلست في غرفة المطالعة وأمامي قاموس ضخم عن السيرة الذاتية. بعد القراءة هنا وهناك بدأت تراودني أحلام يقظة. وجدت أن متابعة أفكاري أكثر إثارة من الغوص في حياة الناجحين والفاشلين. هل يمكنني أن أتتبّع هذياني، فلعلي أعثر تحت الجذور على الجدول الذي سيقودني إلى العراء. تذكرت كلمات ستاسيا ـ الحاجة للقاء روح قريبة، لتنمو، لتعطي ثماراً. إن الاستمرار في الحديث (عن الكتابة) مع عشاق الأدب ليس بالشيء المثمر. فهناك العديد ممن التقيت بهم يمكنهم أن يتحدثوا بشكل مبدع عن هذا الموضوع أكثر من أيّ كاتب. (ولا يستطيعون كتابة سطر واحد) هل هناك أحد في الواقع يستطيع أن يتكلّم بمعرفة ودراية عن العمليات السرية؟

السؤال العظيم هو السؤال الأبدي، الذي يبدو ألا جواب له: ما الشيء البالغ الأهمية الذي سأنقله إلى العالم؟ ما الشيء الذي سأقوله ولم يقله أحد من قبل، وآلاف المرات، من قبل رجال أكثر موهبة إلى درجة لا نهائية؟ هل هي مجرد الأنا، هذه الحاجة القسرية لأن

أُسمع؟ بأي طريقة كنت فذاً؟ لأني إذا لم أكن فذاً فلن أكون سوى صفر يضاف إلى رقم فلكي غير محسوب.

وخلال تنقلي من شيء إلى آخر ـ حلم لذيذ ـ وجدت نفسي أتأمّل هذا الجانب الهام من مشكلة الكاتب: البدايات. الطريقة التي يُفتتح فيها الكتاب ـ فهنا يقبع عالم في حد ذاته. فكم كانت افتتاحيات الكتب العظيمة مختلفة، كم كانت فذة وفريدة! فقد كان بعض المؤلفين مثل طيور جارحة ضخمة، تحوم فوق إبداعها، وتلقي ظلالاً هائلة على كلماتها. وبعضهم الآخر، شأن الرسامين، يبدؤون بلمسات مرهفة ورقيقة غير متعمّدة، توجههم غريزة أكيدة يتضح غرضها لاحقاً في تطبيق الكتلة واللون. ويأخذك بعضهم من يدك كالحالم، سعيداً بالتسكع على حافات الحلم، وببطء يسمحون لأنفسهم بعذاب الكشف عما كان متعذراً وصفه. وثمة آخرون، كما لو أنهم يجثمون فوق أبراج الإشارة، يستمدون متعة كبيرة من الضغط على المفاتيح، الأضواء الوامضة. معهم كلّ شيء محدد بدقة، كما لو كانت أفكارهم عدة قطارات تدخل إلى ساحة المحطة. وهناك الذين يبدؤون، إما أنهم مصابون بلوثة في عقولهم أو أنهم يهذون، بصيحات أجشة على نحو عشوائي، السخريات واللعنات، ويختمون أفكارهم لا في الصفحة بل عبرها، مثل آلات تفلت من عقالها. متباينة ومتنوعة، وجميع هذه الأساليب من كسر الجليد هي أساليب من أعراض الشخصية، وليست من أعراض الفكر. فطريقة بدء الكتاب هي الطريقة التي يسير فيها المؤلف أو يتكلم، الطريقة التي ينظر فيها إلى الحياة، الطريقة التي يكون فيها شجاعاً أو يخفي مخاوفه. وكان بعضهم يبدأ برؤية واضحة حتى النهاية؛ ويبدأ آخرون بصورة عمياء، كلّ سطر صلاة صامتة تفضي إلى السطر التالي. يالها من محنة، كشف الحجاب هذا! يا لها من مخاطرة رهيبة، تعرية المومياء هذه! لا أحد، ليس حتى أعظمهم، يمكنه أن يكون واثقاً بما سيقدمه إلى العين الخبيثة. فما أن تبدأ العمل، حتى يمكن أن يحدث أيّ شيء. ويبدو الأمر كما لو كنت عندما تمسك القلم في يدك، فإنك

تستدعي «أرخون»(*). نعم، أرخون! تلك الكيانات الغامضة، تلك الإنزيمات الكونية، التي تعمل في كلّ بذرة، التي تصمم هيئة وبنية وجمال كلّ زهرة، كلّ نبتة، كلّ شجرة، كلّ كون. القوى الداخلية. خميرة أبدية استمد منها القانون والنظام.

وبينما تواصل هذه الكائنات الخفية عملها، فإن المؤلف ـ يا له من خطأ في التسمية! ـ يعيش ويتنفس، ويقوم بواجباته كربّ أسرة، كسجين، كمتشرّد، مهما كان الدور، ومع مرور الأيام أو السنوات، تفتح لفيفة البردي، المأساة (مأساته ومأساة شخصياته) تعبّر عن نفسها، يتغير مزاجه كما يتغير الطقس من يوم لآخر، طاقاته تعلو وتهبط، أفكاره تضطرم مثل دوامة، والنهاية تقترب، جنة لم يفز بها، يجب أن يرغم نفسه عليها، لأن ما بدأ يجب أن ينتهي، أن يُستكمل، حتى لو كان على الصليب.

ما الحاجة إلى قراءة صفحات السيرة الذاتية؟ ما الحاجة إلى دراسة الدودة أو النملة؟ فكّر، للحظة بتلك الضحايا بمحض إرادتها مثل بليك، وبوهيم، ونيتشه، وهولدر، ودانتي، وساد، نيرفال، وفيلون، ورامبو، وستريندبيرغ، وسرفانتس أو دانتي، أو حتى هاين أو أوسكار وايلد! وأنا، هل عليّ أن أضيف اسمي إلى هذه المجموعة من الشهداء الشهيرين؟ إلى أيّ أعماق أخرى من المهانة يجب أن أغوص قبل أن أكتسب الحقّ في الانضمام إلى صفوف أكباش الفداء هذه؟

في تلك الجولات الطويلة سيراً على الأقدام من محل الخياطة وإليه، كانت تتملكني فجأة نوبة من نوبات الكتابة. كلّ شيء في الرأس، هذا شيء أكيد. لكن يا لها من صفحات رائعة، يا له من أسلوب رائع في الصياغة! عينايّ نصف مغمضتين، أغوص في المقعد واستمع إلى الموسيقى المتدفقة من الأعماق. يا له من كتاب عظيم ذاك! إن لم يكن كتابي، فكتاب من إذن؟ كنت مسروراً للغاية.

(*) الأرخون: قاضي من كبار القضاة في أثينا قديماً. م.

مسحوراً، ومع ذلك كنت حزيناً، متواضعاً، مؤنباً. ما فائدة استدعاء هؤلاء العمال المخفيين؟ لمتعة الغرق في محيط الخلق؟ أبداً، من خلال الجهد الواعي، أبداً. بالقلم في اليد، هل سأكون قادراً على استدعاء مثل هذه الأفكار! سيكون كلّ شيء أوقّع عليه اسمي في النهاية هامشياً، هذيان شخص أحمق يجاهد لتسجيل طيران فراشة غير سويّ... ومع ذلك كان من المريح معرفة أنه بوسع المرء أن يكون مثل فراشة.

إن التفكير بأن كلّ هذه الثروة، الثروة من الفوضى البدائية هذه، يجب أن تُغرس، أن تكون صالحة للأكل والشرب، بتفاصيل الدورة اليومية الدقيقة، بالدراما المتكررة للبشر التافهين الذين تطنّ آلامهم وتطلّعاتهم، حتى للآذان البشرية، يشبه همهمة الطواحين الرتيبة في الفضاء الذي لا يعرف الرحمة. التافهون والعظماء: تفصلهم سنتمرات عن بعضهم بعضاً. لقد مات الاسكندر بسبب ذات الرئة في بطاح آسيا المقفرة؛ وهلك قيصر رغم كل أمجاده على يد حفنة من الخونة؛ وكان بليك يغني وهو يحتضر؛ ومُزّق دامين على العجلة وهو يصرخ مثل ألف نسر يتلوى... ماذا يهمّ كلّ هذا ولمن؟ لقد اقترن سقراط بزوجة ملحاحة ومزعجة، قدّيس مبتلى بألف مصيبة، نبي يُعاقب بصب القار عليه ثم يُكسى بالريش... لأي سبب؟ الطحين كله للطاحونة، المعلومات للمؤرخين ومدوّني الأخبار، السّم للطفل، الكافيار لمدير المدرسة. وبهذا ومن خلال هذا، ينسج طريقه مثل سكّير ملهم، يحكي الكاتب حكايته ويعيش ويتنفس، ويُكَّرم أو يخزى. يا له من دور! فليشملنا الله برعايته.

9

لا قهوة، لا فطيرة تفاحٍ. خيم الظلام، وخلت الجادة من المارة عندما انطلقت. كنت جائعاً. وبالسنتات القليلة التي كانت معي اشتريت إصبع حلوى وتوجهت سيراً إلى البيت. كانت نزهة رهيبة، خاصة على معدة فارغة. أما رأسي فكان يضطرم مثل خلية نحل. وكانت الديدان قد التهمت رفاقي الشهداء، تلك الطيور العنيدة المرحة، منذ مدة طويلة.

توجهت مباشرة إلى السرير. لماذا عليّ أن أنتظرهما، رغم وعدهما بأنهما ستحضران طعاماً؟ فأيّ شيء يخرج من شفتيهما لن يكون سوى هراء بعد السيرة الذاتية التي تمتّعت بقراءتها. انتظرت بضعة أيام قبل أن أنقل الخبر لستاسيا. صُعقت عندما أعطيتها الشيك. لم تصدق أنه من الممكن أن أفعل ذلك. لكني ألم أكن أحاول التعجيل في رحيلها قليلاً؟ والشيك، وكيف تتأكد من أنه بدون رصيد؟

يا لهذه الأسئلة! ولم أقل شيئاً عن طلب دكتور زابريسكي بأن أتصل به قبل أن أصرف الشيك. ما الفائدة من المخاطرة بسماع شيء سيء. أصرفه أولاً، ثم اقلق، كانت ذلك رأيي.

لم يخطر لي أن أسألها إن كانت قد غيّرت رأيها في الرحيل. لقد فعلت واجبي، وعليها أن تفعل ما عليها. لا تسأل أحداً شيئاً، فالأمر محفوف بالمخاطر. تقدم إلى الأمام بأي ثمن!

لكن ما هي إلا أيام قليلة حتى وصلت الأخبار السيئة. كانت مثل

بندقية بفوّهتين تطلق النار. فأولاً، وربما كنت أعرف، رُفض صرف الشيك. وثانياً، قرّرت ستاسيا ألا تغادر لفترة من الزمن. وتوّج ذلك بتحوّل حياتي إلى جحيم لأني كنت أحاول التخلص من ستاسيا. فقد نكثت بعهدي مرة أخرى. كيف يمكنهما أن تثقا بي؟ وما إلى هنالك. كانت يداي مقيدتين، أو ربما لساني. من المستحيل أن أخبرها ما اتفقنا عليه أنا وستاسيا سراً. فلن يجعلني ذلك سوى خائن.

عندما سألتهما من منهما صرفت الشيك، قالتا إن ذلك ليس من شأني. شككت في أن أحداً قد يتحمّل الخسارة (على الأغلب ذلك المليونير القذر). ماذا سأقول للدكتور زابريسكي؟ لا شيء. لم تعد لديّ الشجاعة لمواجهته ثانية. وبالفعل لم أره مرة أخرى. اسم آخر ألغيه من قائمتي.

وعندما هدأت الأمور، وقعت حادثة غريبة. مساء ذات يوم وقف أوسيكي وراح ينقر بهدوء على لوح زجاج النافذة. كان يبدو في شكله المخزي المثير للغثيان. قال إنه عيد ميلاده. وكان للمشروبات القليلة التي شربها تأثير كبير عليه. إذ فقد التركيز بعض الشيء، وكان مايزال يغمغم تحت شاربيه، يهرش جسمه، لكني كنت أتمنى لو يستطيع المرء أن يعبّر عن ذلك بطريقة جذّابة أكثر من المعتاد.

رفضت دعوته لإقامة احتفال صغير معه. اختلقت بعض الأعذار الواهية التي لم تتمكن من اختراق الضباب الذي يغلفه. كانت ترتسم على وجهه تلك النظرة الذليلة التي بدلاً من أن تجعله مسترخياً جعلته يحطم مقاومتي. لم لا أمضي معه؟ هل يهم أن قميصي لم يكن مكوياً ومهترئاً، وبنطالي مجعداً ومعطفي مليئاً بالبقع؟ وبقوله «هراء» كان يرى أن نذهب إلى حي الفيليج، نحتسي بضع كؤوس ونعود مبكراً. كرمى لأيام زمان فقط. ولم يكن من العدل أن أطلب من رجل أن يحتفل بعيد ميلاده وحده. خشخش قطع العملة المعدنية في جيبه كما لو أنه يقول لي إنه غني. وطمأنني أننا سنذهب إلى حانة رخيصة.

قال «لعلك تريد أن تتناول لقمة أولاً؟» وابتسم ابتسامة عريضة كاشفاً عن جميع أسنانه المتقلقلة.

وهكذا استسلمت. وعند بورو هول التهمت سندويشة واحتسيت قهوة، واحدة، اثنتان، ثلاثة. ثم توجهنا إلى محطة قطار الأنفاق. كان يتمتم ويغمغم لنفسه، وكنت بين الحين والآخر أسمع عبارة مفهومة. وكان يبدو أني أسمع، في ضجة قطار الأنفاق، «آه نعم، نعم، انغمس في الملذات بين الحين والآخر... الهُ وامرح وتبوّل... انظر إلى تلك الفتاة والأشجار... الأمر ليس سيئاً إلى هذه الدرجة... انضم إلى المجموعة... تعرف... انفض البقّ عن البساط».

ترجلنا في محطة شريدان. لم تكن هناك مشكلة في العثور على حانة رخيصة. كانت الساحة كلها تنفث دخان تبغ. ومن كلّ نافذة يصدر صوت الجاز، صيحات هستيرية لإناث يخوّضن في بولهن. جنيات، بعضهن في بدلات رسمية، يسِرْن يداً بيد، كما لو كن يسرن في شارع بروميناد دي أنجليس، ويخلفّن وراءهن أثراً قوياً من العطر يكفي لخنق قطة. وهنا وهناك، تماماً كما كان الحال في فيرجينيا حيث كنت تجد سكيراً يتمدّد على الرصيف، لا يتوقف عن الفواق، يتقيّأ، يشتم، يثرثر تلك الثرثرة التي اعتاد السكيرون على لفظها لعنكم الله ـ كلكم خراء. كان المنع شيئاً رائعاً. جعل الجميع عطشانين، شرسين وعصاة، وخاصة العنصر النسائي. وقد أخرج الجنّ القحبات. كم كانت ألسنتهن قذرة! أقذر من العاهرات الإنكليزيات.

كانت الحانة شديدة الازدحام ورحنا نشق طريقنا إلى البار، واقتربنا بما يكفي لنطلب مشروبنا. غوريلات تملأ المكان يحملون أقداحاً في كفوفهم ويجرعونها. كان بعضهم يحاول الرقص، وبعضهم يقرفصون كما لو إنهم يتغوطون، وبعضهم يحدقون في الفتيات، وبعضهم يجثون على أربع تحت الطاولات، يتشممون كالكلاب وينزون، وكان آخرون يزرّرون بهدوء أزرار سراويلهم أو

يحلّونها. وعند أحد طرفي الحانة وقف شرطي لم يكن يرتدي سترة وشيالات، عيناه نصف مغمضتين، وطرف قميصه يبرز من بنطاله. وكانت الحافظة التي تضم المسدس، ملقاة على البار، تغطيها قبعته (ربما ليظهر أنه كان في عمله الرسمي). لاحظ أوسيكي حالته العاجزة فأراد أن يشقّ طريقه إليه. سحبته جانباً فوقع على سطح طاولة ملطّخة بالفضلات. وضعت فتاة ذراعيها حوله وبدأت تراقصه، وبالطبع كان ثابتاً في أرضه. راح يحدق بعيداً، كما لو أنه يعدّ خرافاً.

قرّرنا مغادرة الحانة. كانت صاخبة إلى درجة لا تحتمل. هبطنا إلى شارع فرعي مزيّن بحاويات النفايات، صناديق فارغة وقمامة من السنة الفائتة. حانة أخرى. الشيء ذاته، بل أسوأ. هنا، فليساعدني الله، لم يكن يوجد سوى لاعقي الأيور. البحارة يهيمنون على المكان. كان بعضهم يرتدون تنانير. اندفعنا خارجاً وسط صيحات السخرية والاستهجان.

«غريب»، قال أوسيكي، «كم تغيّر الفيليج. لقد أصبح مثل إست كبيرة، أليس كذلك؟».

«ما رأيك في أن نذهب إلى شمال مانهاتن؟».

توقف لحظة وحك رأسه. كان من الواضح أنه يفكر.

«نعم، تذكرت الآن»، قال بشيء من الاضطراب، ناقلاً يده من رأسه إلى بين فخذيه. «هناك مكان هادئ لطيف ذهبت إليه ذات مرّة... فيه ساحة للرقص، أضواء خافتة... وليس غالياً كثيراً أيضاً».

عندها توقفت سيارة أجرة بجانبنا تماماً.

«أتبحث عن مكان؟».

«نعم»، قال أوسيكي، وهو مايزال يهرش، مايزال يفكر.

«اصعدا!».

صعدنا. انطلقت السيارة مثل صاروخ ـ لم نعطه عنواناً. لم أكن أحبّ أن نسرع هكذا ـ إلى اتجاه مجهول.

لكزت أوسيكي وسألته: «إلى أين نحن ذاهبان؟».

كان السائق من أجاب. «هون عليك، ستعرف. ويمكنك أن تثق بكلامي، إنها ليست حانة سيئة».

«ربما كان يعرف مكاناً»، قال أوسيكي. تصرّف وكأنه مسحور.

توقفنا عند بناية شاهقة في شوارع الثلاثينات غرباً. لم تكن بعيدة كثيراً، تذكرت الماخور الفرنسي الذي انتقلت إليّ فيه أول جرعة من الزهري. كانت منطقة مقفرة ـ مليئة بالمخدرات، مجمّدة، متعبة، والقطط تطوف على أطرافها نصف ميتة. تفحصت المبنى من الأعلى إلى الأسفل. لم أسمع صوت موسيقى ناعمة ينبعث من النوافذ ذات الستائر المسدلة.

«اقرع الجرس وقل للبواب أني أرسلتكما»، قال السائق، وأعطانا بطاقته لنقدمها.

طلب دولاراً آخر لتوصيلنا إلى هذا المكان. أراد أوسيكي أن يجادله. لماذا؟ تساءلت. ماذا يؤثر دولار إضافي؟ «هيا»، قلت، «إننا نضيّع وقتنا. يبدو أنه شيء حقيقي».

«ليس المكان الذي كنت أفكر به»، قال أوسيكي، وهو يحدق في سيارة الأجرة المغادرة وفي الدولار الإضافي.

«ما الفرق؟ تذكر أنه عيد ميلادك؟».

قرعنا الجرس، خرج البوّاب، قدّمنا له البطاقة (كأحمقين من سهول نبراسكا). قادنا إلى المصعد وصعدنا ما يقارب ثمانية أو عشرة طوابق. (لا مفرّ الآن!) انزلق الباب مفتوحاً بدون ضوضاء، كما لو كان مدهوناً بالسمن. لوهلة صُعقت. أين نحن ـ في سماء الله الزرقاء؟ النجوم في كل مكان ـ جدران، سقف، أبواب، نوافذ. أيتها

الحقول السماوية ساعديني. وهذه المخلوقات التي تنساب، تعوم في النسيج الحريري والشاش، مفترسة وشفّافة، جميعها تفتح أذرعها للترحيب بنا. ما الذي يمكن أن يكون أكثر سحراً؟ كنّ حوريات، بخلفية من نجوم منتصف الليل. هل كانت تلك موسيقى التي تناهت إلى أذني أو الارتعاش الإيقاعي لأجنحة الملاك؟ ومن بعيد بدا أنه يأتي رصيناً، هادئاً، سماوياً. هذا، قلت في نفسي، هذا ما يمكن أن يشتريه المال، وكم هو رائع أن يكون لديك مال، أيّ نوع من المال، مال أي شخص. المال، المال... أيتها السماء الزرقاء.

رافقتني حوريتان من أجمل الحوريات الإسلامية ـ كتلك الحوريات اللاتي يمكنك أن تختار واحدة منهن في الجنة ـ شققنا طريقنا إلى مكان البهجة والفرح، حيث يسبح كلّ شيء في ضوء أزرق معتم، مثل ضوء آسيا يتسلل عبر زبدية سمك متشظية. طاولة كانت بانتظارنا، يمتد عليها مفرش أبيض من الدمقس وتنتصب في وسطها مزهرية فيها أزهار وردية شاحبة اللون، حقيقية. وإلى لمعان القماش أضيف انعكاس النجوم المتلألئة في الأعلى. كانت هناك نجوم في عيون الحوريات أيضاً، وكانت نهودهن، المغطاة قليلاً، مثل سنفات) ذهبية تطفح بالعصير المتلألئ. حتى كلامهن كان مفعماً بالنجوم ـ غامضاً ولكن حميمياً، ومداعباً لكنه بعيد. عواطف متألقة بنكهة الخروب والصبّار في كتاب آداب السلوك. وفي غمرة ذلك تناهت إليّ كلمة شمبانيا. أحدهم يطلب شمبانيا. شمبانيا؟ من نحن إذن، لوردات؟ مررّت إصبعي قليلاً فوق ياقتي المهترئة.

«طبعاً!» كان أوسيكي يقول. «شمبانيا، لم لا؟».

«وربما قليلاً من الكافيار؟» همهمت الجالسة إلى يساره.

«طبعاً! وكافيار أيضاً!».

ظهرت بائعة السجائر الآن، كما لو أنها خرجت من باب سري.

ومع أني كنت أحمل بضع سجائر منفردة في جيبي، ومع أن

أوسيكي لم يكن يدخّن سوى سيجار، اشترينا ثلاث علب سجائر مذهبة في طرفها لأن الذهب يتماشى مع النجوم، والأضواء الخافتة، والقيثارات السماوية التي تعزف في مكان ما وراءنا أو حولنا، لايعرف إلا الله أين، كان الجو معتماً، ورصيناً، وأثيرياً للغاية.

ما كدت أتذوق طعم الشمبانيا حتى سمعتهما تسألان في وقت واحد، كما لو أن الصوت ينبعث من حنجرة وسيط روحاني «ألن ترقصا؟».

ومثل فقمات مدرّبة، استوينا واقفين على أقدامنا، أنا وأوسيكي. بالطبع سنرقص، لم لا؟ ولم يكن أيّ منّا يعرف أية قدم يقدمها على الأخرى أولاً! كانت الأرضية مصقولة إلى درجة كبيرة، إلى حد ظني أني أتحرك على زلاقة. راحتا ترقصان ببطء، ببطء شديد، جسداهما النديان الدافئان ـ غبار طلع وغبار نجمي ـ مضغوطين على جسدينا، أطرافهما تتموّج مثل نباتات من المطاط. يا له من عطر يجعلك منتشياً وثملاً يتضوع من أعضائهن الحريرية الناعمة! لم تكونا ترقصان، بل كانتا مغشياً عليهما بين ذراعينا.

عدنا إلى الطاولة وجرعنا المزيد من الشمبانيا اللذيذة التي تتصاعد منها فقاعات. سألتانا بضعة أسئلة مهذبة. هل نعيش في المدينة منذ مدة طويلة؟ ماذا نبيع؟ ثم ألا تحبان أن تتناولا شيئاً؟

على الفور ظهر نادل بثياب مضحكة ووقف إلى جانبنا. (لا قرقعة أصابع هنا، لا إشارة بالرأس أو بالأصابع: كلّ شيء يعمل بالرادار). قائمة ضخمة أصبحت تحدّق في وجوهنا. وضعوا قائمة بيد كلّ واحد منا، ثم ملنا إلى الوراء باستعداد. الفتاتان استطلعتا القائمة أيضاً. كان يبدو أنهما جائعتان. ولكي نشعر براحة أكبر طلبتا لنا الأطباق نفسها التي طلبتاها لنفسيهما.

كانت هاتان المخلوقتان المعسولتا الكلام خبيرتين في اختيار الطعام. ويجب أن أقول إن الطعام كان لذيذاً. محار، سرطان البحر، مزيد من الكافيار، أجبان، بسكويت إنكليزي، لفّات مكسوة بالبذور ـ سفرة رائعة لذيذة.

لاحظت نظرة غريبة بدأت ترتسم على وجه أوسيكي. وازداد غرابة عندما ظهر النادل مرة أخرى حاملاً دلواً جديداً من الشمبانيا (طُلب بواسطة الرادار)، لكنها كانت أكثر إنعاشاً وتألّقاً من الزجاجة الأولى.

هل يوجد شيء آخر نودّ طَلَبه؟ جاءنا هذا الصوت من الخلف. صوت مثقّف رقيق مدرّب من المهد.

لم ينبس أحد بكلمة. كانت أفواهنا محشوّة. تراجع الصوت إلى الظلال الفيثاغورية.

في غمرة هذه الوجبة اللذيذة، اعتذرت إحدى الفتيات ونهضت. لديها فقرة ستؤديها. ظهرت ثانية في وسط الأرضية تحت ضوء برتقالي. مطواة بشرية. كيف تمكنت من تدبر كلّ ذلك، الإلتواءات، سرطان البحر، الكافيار والشمبانيا وهي تدور في سلة كرشها، لم أستطع أن أفهم. أفعى تلتهم نفسها.

وبينما راحت تؤدي عرضها، انهالت الفتاة الجالسة إلى الطاولة علينا بالأسئلة. دائماً بذلك الصوت الناعم، الرقيق، المكوّن من حليب وعسل، لكني لاحظت أن الأسئلة أصبحت مباشرة ومختصرة أكثر. ما كانت تهدف إليه، على ما يبدو، هو المفتاح إلى ثروتنا. ماذا كنا نفعل بالضبط، لكسب عيشنا؟ كانت عيناها تطوفان فوق ثيابنا. ثمة تناقض خدعها، إذا استطاع المرء أن يصوغها بهذا الشكل. أم أننا كنا في غاية السعادة، غير عابئين بالعوامل الدنيوية التي دخلت إلى الحالة؟ كان أوسيكي، ابتسامته العريضة (غير الواضحة)، الأجوبة المرتجلة العادية هي التي تثير انزعاجها.

وجهت اهتمامي إلى البهلوانة التي تلوّي أجزاء جسدها وتلوّنها. وتركت أوسيكي يهتم بالجزء المتعلق بالأسئلة والأجوبة!

وصل الفصل الآن إلى تلك النقطة الحاسمة التي تشبه رعشة

الجماع. وبطريقة مهذبة بالطبع، كنت أمسك قدح الشمبانيا بيد وسندويش الكافيار باليد الأخرى. كان كلّ شيء يسير بسلاسة، حتى هزة الجماع على الأرضية. النجوم نفسها، الأضواء الزرقاء المعتمة ذاتها، الجنس المخنوق نفسه من الأوركسترا، النادل ذاته، مفرش المائدة نفسه. وفجأة انتهت. صوت تصفيق ضعيف، انحناءة أخرى، وها هي تعود إلى المجلس البهيج. مزيد من الشمبانيا، وبالطبع مزيد من الكافيار، مزيد من أفخاذ الدجاج. آه، لو كان بوسع المرء أن يعيش الحياة هكذا لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم! بدأت أنضح عرقاً الآن. شعرت بالرغبة في خلع ربطة عنقي («يجب ألا تفعل ذلك!» قال صوت هامس في داخلي).

كانت تقف قرب الطاولة الآن. «اعذراني؟» قالت «سأعود بعد لحظة».

وبشكل طبيعي عذرناها. فبعد فقرة كتلك لا شك أنها تحتاج إلى أن تبول، تذرّر وجهها بالمسحوق، تنتعش قليلاً. سيبقى الطعام. (فنحن لسنا ذئاباً) والشمبانيا. ونحن.

بدأت الموسيقى العزف ثانية، في مكان ما من منتصف الليلة الزرقاء، رصينة، أليفة، حزينة، هامسة. الموسيقى الطيفية التي تتهادى من الهضاب العليا للغدد التناسلية. كدت أستوي واقفاً وحرّكت شفتيّ. ولدهشتي لم تتزحزح، ملاكنا الوحيد. قالت إنها لم تكن في المزاج. حاول أوسيكي سحره معها. جاءت الإجابة نفسها، بل أشد إيجازاً. الطعام أيضاً فَقَد سحره بالنسبة لها. دخلت في صمت تامّ.

واصلت أنا وأوسيكي الطعام والشراب. توقّف الندل عن مضايقتنا. لم يعد يظهر مزيد من دلاء الشمبانيا من لا مكان. بدأت الطاولات حولنا تُهجر شيئاً فشيئاً. توقفت الموسيقى تماماً.

نهضت الفتاة الصامتة الآن فجأة، واندفعت حتى دون أن تستأذن.

«ستصل الفاتورة قريباً»، قال أوسيكي، وكأنه يحدّث نفسه.

«وماذا في ذلك؟» قلت. «هل لديك ما يكفي من النقود؟».

«هذا يتوقف على المبلغ» قال، وظهرت ابتسامة من بين أسنانه.

وكما كان متوقعاً، كما قال، ظهر الآن النادل في اللباس الرسمي، يحمل الفاتورة بيده. أخذها أوسيكي، نظر إليها نظرة طويلة متمعنة، جمعها بصوت عال عدة مرات، ثم قال للنادل: «أين أجد المدير؟»

«اتبعني»، قال النادل، لم تتغير قسمات وجهه. «سأعود بعد دقيقة»، قال أوسيكي، ملوّحاً بالفاتورة مثل رسالة مهمة وردته من الجبهة.

بعد دقيقة أو بعد ساعة، ما الفرق؟ كنت شريكاً في الجريمة. لا منفذ. انتهت الرقصة.

كنت أحاول أن أحدس كم كان المبلغ الذي غرّمونا به.

مهما كان، كنت أعرف أنه ليس لدى أوسيكي نقود كافية. جلست مثل سنجاب في فتحته، ينتظر الوقوع في الفخ. شعرت بالعطش: مددت ذراعي لآخذ الشمبانيا عندما جاء نادل آخر، وبدأ ينظف المائدة. أخذ القنينة أولاً. ثم أزال بقايا الطعام. لم يترك شيئاً. وأخيراً سحب مفرش المائدة كذلك.

تساءلت للحظة إن كان سيسحب أحدهم الكرسي من تحتي ـ أو يضع مكنسة في يدي ويأمرني بأن أكنس الأرضية.

عندما تكون في ورطة تبُول. فكرة جيدة، قلت لنفسي. بهذه الطريقة، ربما أمكنني أن ألمح أوسيكي.

وجدت الحمّام في نهاية القاعة، خلف المصعد تماماً. تلاشت النجوم. لم تعد هناك سماء زرقاء. بل أصبحت سماء عادية، الواقع

اليوم مثل نمو شعر اللحية. في طريق عودتي لمحت أربعة أو خمسة شبّان مكومين معاً في إحدى الزوايا. بدا على وجوههم الرعب. وكان يحلّق فوقهم شاب ضخم عنيف يرتدي بدلة رسمية. كان له شكل ملاكم متمرس.

لا إشارة تدل على وجود أوسيكي.

عدت إلى الطاولة وجلست. ازداد عطشي الآن. كأس من ماء الحنفية يكفيني، لكني لم أجرؤ على طلبه. بهت الغسق الأزرق وتحول إلى جمرة. أصبح بإمكاني الآن أن أميّز الأشياء أكثر. كان مثل نهاية حلم، حيث تبلى الحواف.

«ماذا يفعل!» رحت أتساءل. «هل يحاول أن يجد عذراً للخروج؟».

اعترتني رعشة عندما فكّرت بما يمكن أن يحدث لنا إذا أخذنا ذلك الوحش الذي يرتدي البدلة الرسمية.

بعد نصف ساعة كاملة ظهر أوسيكي ثانية. ولم يكن يبدو عليه شيء مما شككت بأنه سيحدث له. في الحقيقة كان نصف مبتسم، نصف ضاحك.

«لنذهب»، قال. «لقد سوّي الأمر».

قفزت واقفاً. «كم؟» سألته فيما انطلقنا إلى حجرة المعاطف.

«خمّن!».

«لا أستطيع».

«تقريبا مائة»، قال.

«لا!».

«انتظر»، قال. «انتظر حتى نخرج».

يبدو المكان الآن مثل مصنع للتوابيت. لم تكن تطوف في المكان سوى خيالات. ربما سيبدو أسوأ حالاً عندما تشرق الشمس بكاملها.

تذكرت الرجال المكوّمين في الزاوية. تساءلت كيف سيبدون ـ بعد هذه المعاملة.

كان الفجر قد بدأ يطلع عندما خرجنا. لم نر شيئاً سوى صناديق قمامة ممتلئة حتى الحواف. حتى القطط اختفت. توجهنا بسرعة نحو أقرب محطة مترو.

قلت: «قل لي الآن، كيف تدبرت الأمر بحق الجحيم؟» ضحك ثم قال: «لم يكلّفنا بنساً واحداً».

وبدأ يشرح لي ما حدث في مكتب المدير.

«بالنسبة لرجل مجنون»، قلت في نفسي، «فإنك داهية!».

هذا ما حدث... بعد أن أخرج ما معه من نقود ـ مجرد اثني عشرة أو ثلاثة عشرة دولاراً ـ عرض أن يكتب له شيكاً بباقي الرصيد. بالطبع ضحك المدير في وجهه. سأل أوسيكي إذا كان قد لاحظ شيئاً وهو في طريقه إلى المكتب. فهم أوسيكي قصده. «أتعني أولئك الرجال المكوّمين في الزاوية؟» نعم، فقد عرضوا أيضاً أن يدفعوا شيكات مزيفة. وأشار إلى الساعات والخواتم الملقاة على طاولته. فهم أوسيكي ذلك أيضاً. وببراءة الحمل اقترح أن نُحتجز نحن الاثنين حتى تفتح المصارف أبوابها. وبمكالمة هاتفية يمكنه أن يتحقّق إن كان الشيك صالحاً أم لا. أعقب ذلك سيل من الأسئلة. أين تعمل؟ في أيّ؟ منذ متى يعيش في نيويورك؟ هل هو متزوج؟ هل لديه حساب توفير أيضاً؟ وما إلى ذلك.

وأضاف أوسيكي بأن الشيء الذي حوّل المدّ لصالحه بطاقة النداء التي قدّمها إلى المدير. هي ودفتر الشيكات اللذين كانا يحملان اسم مهندس معماري بارز، أحد أصدقاء أوسيكي. ومنذ ذلك الحين بدأت تخف حدة الضغط. أعطوه دفتر شيكاته وكتب أوسيكي على الفور شيكاً ـ يتضمن بقشيشاً سخياً للنادل! «مضحك»، قال، «لكن تلك البادرة الصغيرة ـ البقشيش ـ أعجبتهم. كان من الممكن أن تضعني

محل ارتياب». ابتسم ابتسامة عريضة، ابتسامته المعتادة، يرافقها قليل من البصاق هذه المرة. «هذا هو كلّ ما في الأمر».

«لكن ماذا سيقول صديقك عندما يكتشف أنك وقعّت اسمه على الشيك؟».

«لا شيء»، جاءت إجابته هادئة. «إنه ميت. لقد مات منذ يومين فقط».

ومن الطبيعي، أن أسأله ما الذي أتى بدفتر شيكات صديقه إليه، لكني قلت لنفسي «خراء! فالمجنون والداهية يمكنه أن يقول أيّ شيء. إنس الموضوع!».

لذلك قلت له بدلاً من ذلك: «إنك تعرف ما أنت فاعل، أليس كذلك؟».

أجاب: «يجب عليّ أن أفعل ذلك في هذه المدينة، على أية حال».

في قطار الأنفاق مال نحوي وصاح في أذني الصمّاء ـ «كانت حفلة عيد ميلاد جميلة، أليس كذلك؟ هل أحببت الشمبانيا؟ كان أولئك الرجال بسطاء... أي شخص يمكن أن يخدعهم».

وفي محطة بورو هول، خرجنا إلى الهواء الطلق مرة أخرى، توقف وراح ينظر إلى السماء، وجهه مضيء ويشع بهجة وسروراً. «كوكادودلدول» نعق ثم راح يخشخش القطع المعدنية في جيبه وقال: «ما رأيك بتناول فطور في مطعم جو؟».

«حسناً»، قلت. «لا بأس بقليل من لحم الخنزير والبيض». وفيما كنا على وشك الدخول إلى المطعم قال: «إذاً تظن أني كنت في غاية الذكاء، أليس كذلك؟ هذا لا شيء. كان يجب أن تعرفني في مونتريال. أقصد عندما كنت أدير ماخوراً».

فزعت فجأة. المال... من يملك المال؟ لن أمرّ في هذه المسرحية مرة ثانية.

«ما الذي ينهشك؟» قال. «بالتأكيد لديّ نقود».

«أعني نقداً، ألم تخبرني أنك أنفقت النقود التي كانت في جيبك؟».

«آه»، قال، «لقد أعادوها لي عندما وقّعت الشيك».

حبست أنفاسي وقلت: «يا إلهي، هذا يفوق كلّ شيء. أنت لست ذكياً، إنك ساحر».

أما الآن فقد دار حديثنا كله عن باريس. باريس ستحلّ جميع مشاكلنا. وفي الوقت ذاته يجب أن ينشغل الجميع. إذ ستقوم ستاسيا بصنع أقنعة الموت والدمى، وستقوم مونا ببيع دمها، وقالت إنها تعتبر أن دمي لا قيمة له.

في هذه الأثناء، وعلى النحو الذي كنا فيه علقات مشغولة، بدأ مصّاصون جدّد يعرضون خدماتهم. كان أحدهم هندياً يدعى تشيروكي. هندي غير صالح ـ سكير وشرّير على الدوام. إلا أنه عندما يكون ثملاً، كان يبدّد نقوده... وثمة شخص آخر وعد بدفع الإيجار في كلّ شهر. وقد ترك القسط الأول في مغلف تحت الباب عندما كنا نغط في النوم منذ بضع ليالي. ثم هناك الجرّاح اليهودي أيضاً، الذي كان ينوي تقديم المساعدة، والذي يجيد مصارعة الجودو. كان غريباً، لكنه كان جيداً من أجل اللمسات الأخيرة. وهناك قاطع التذاكر الذي بثتا الحياة فيه من جديد. وكان كلّ ما يطلبه لقاء خدماته أن يتناول سندويشة من حين لآخر مبللة ببول أحدهما.

خلال هذا الانبثاق الجديد من الهيجان، جُددت الجدران: وأصبح المكان يبدو الآن أشبه بمتحف الشمع. لا شيء سوى هياكل عظمية، أقنعة أموات، مهرجون منحطّون، شواهد قبور، وآلهة مكسيكية ـ جميعها بألوان بشعة.

وكانت تنتابهما بين الحين والآخر، سواء بسبب الحماس نتيجة أعمالهما المحمومة، نوبات من القيء، أو الإسهال. شيء تلو آخر، كما في الرامايانا.

بعد أن اعتراني القرف من كلّ هذا النشاط الغبي، خطرت لي فكرة ذكية. قرّرت أن أتصل بأخي مونا وليحدث ما يحدث ـ ليس الجندي القادم من الغرب ـ بل الأخ الأصغر الذي كانت تصفه دائماً بأنه مخلص، وبسيط ومستقيم لم يكن يعرف الكذب، كما قالت ذات مرّة.

نعم، لم لا أحادثه حديثاً صادقاً ومباشراً؟ بضع حقائق بسيطة، بضع أسئلة لإجلاء الحقيقة.

وهكذا خابرته. ولدهشتي، كان في غاية اللهفة ليأتي ويراني. وقال إنه يريد أن يزورنا منذ مدة طويلة لكن مونا لم ترغب في ذلك. بدا كلّ شيء مشرقاً، صريحاً، متعاطفاً على الهاتف. وبطريقة شبه صبيانية، قال لي إنه كان يتمنّى أن يصبح محامياً.

تملكه الذعر بعد أن ألقى نظرة واحدة على المتحف الشاذّ الذي نقيم فيه. راح يتجوّل في البيت مذهولاً، يحدّق في هذا وذاك، يهزّ رأسه باستنكار. «إذن هكذا تعيشون» وكرّر ذلك عدة مرات. «لا شك أنها فكرتها. يا إلهي، لكنها حقاً شاذة».

قدمت له كأساً من النبيذ لكنه قال إنه لا يلمس المشروبات الروحية في حياته. قهوة؟ لا، كأس من الماء يكفي.

سألته إن كان دائماً هكذا. فأجابني ألا أحد في العائلة يعرف عنها الكثير. فهي دائماً وحدها، كتومة باستمرار، وتدّعي دائماً أن الأشياء على غير ما هي في الحقيقة. لا شيء سوى أكاذيب، أكاذيب، أكاذيب.

«لكن كيف كانت قبل أن تذهب إلى الجامعة؟».

«الجامعة؟ إنها لم تكمل الثانوية. لقد غادرت البيت عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها».

ألمحت بلباقة بقدر ما أمكنني إلى أن الأحوال في البيت ربما أصابتها بالكآبة وأضفت: «لعلها لم تنسجم مع زوجة أبيها».

«زوجة أبيها؟ هل قالت إن لها زوجة أبٍ؟ يا لها من حقيرة!»

«نعم» قلت، «إنها تصرّ دائماً على أنها لا يمكنها أن تنسجم مع زوجة أبيها. لكنها من الناحية الأخرى كانت تحبّ أباها كثيراً. هكذا تقول. كانا قريبين من بعضهما كثيراً».

«وماذا أيضاً؟» كانت شفتاه مزمومتين بالغضب.

«أوه، الكثير من الأشياء. أولاً، أن أختها تكرهها، لماذا لم تكن تعرف».

قال: «لا تقل المزيد.. توقّف! على العكس تماماً. لقد كانت أمّي لطيفة كما يمكن أن تكون الأمّ. إنها أمها الحقيقية، لا زوجة أبيها. أما أبي فكان يستشيط غضباً منها إلى حد أنه كان يضربها بدون رحمة. بسبب كذبها خاصة... أختها، تقول. نعم، إنها طبيعية، عادية، وأنيقة جداً أيضاً. لم يكن فيها ولا ذرة كراهية. بالعكس، كانت تبذل كلّ ما بوسعها لتجعل الأمور سهلة علينا جميعاً. لكن لم يكن باستطاعة أحد أن يفعل شيئاً مع كلبة كهذه. كانت تفعل كلّ شيء وفق طريقتها. وعندما لم تكن تستطيع ذلك، كانت تهدّد بالهرب».

قلت: «لا أفهم، أعرف أنها مجبولة على الكذب، لكن... حسناً، أن تقلب الأمور رأساً على عقب، فلماذا؟ ما الذي تحاول أن تثبته؟».

أجاب: «كانت تعتبر نفسها دائماً أعلى مقاماً منّا. جميعنا كنا مملين جداً، تقليديين جداً بالنسبة لذوقها. كانت تعتبر نفسها شخصية مهمة ـ ممثلة. لكنها لا تملك أي موهبة، لا شيء على الإطلاق. كانت متصنعة للغاية، إذا كنت تفهم قصدي. لكني يجب أن أعترف أنها تعرف دائماً كيف ترسم انطباعاً طيباً في نفوس الآخرين. تمتلك موهبة طبيعية للتأثير على الناس. كما قلت لك، فإننا نعرف القليل، أو لا نعرف شيئاً عن حياتها عندما طارت من العشّ. نحن نراها مرة كلّ سنة. تأتي دائماً وهي تحمل هدايا كأميرة. ودائماً تحمل مجموعة من الأكاذيب عن الأشياء العظيمة التي تقوم بها. لكنك لا تستطيع أن تعرف حقيقة ما تفعل».

قلت: «هناك شيء يجب أن أسألك عنه، قل لي هل أنتم يهود؟».

فأجاب: «طبعاً. لماذا؟ هل حاولت أن تجعلك تعتقد أنها ليست يهودية؟ كانت الوحيدة فينا التي تكره كونها يهودية. كان ذلك يثير أمي إلى درجة الجنون. أظن أنها لم تخبرك باسمنا الحقيقي؟ لقد غيّره أبي عندما جاء إلى أمريكا. إنه يعني الموت باللغة البولندية».

كان يريد أن يسألني سؤالاً الآن. بدا محتاراً كيف يصوغه. لكنه نطقه أخيراً، بشيء من الخجل.

«هل تسبّب لك متاعب؟ أعني، هل تواجه صعوبات زوجية معها؟».

فأجبت: «أوه، لدينا مشاكلنا... مثل جميع الأزواج. نعم، الكثير من المشاكل. لكن لا عليك من ذلك».

«ألا تذهب مع... مع رجال آخرين؟».

فقلت «لا، ليس بالضبط». يا إلهي لو عرف!

«إنها تحبني وأنا أحبّها. مهما كانت عيوبها، فهي المرأة الوحيدة بالنسبة لي».

«ما المشكلة إذن؟».

كنت مرتبكاً كيف أقولها له دون أن أسبب له صدمة عميقة أيضاً. كان من الصعب أن أشرح له.

قال: «لا داعي لأن تخبئ شيئاً عني، يمكنني أن أسمع ذلك».

«حسناً... كما ترى، نحن الثلاثة نعيش هنا. وهذه الأشياء التي تراها على الجدران ـ أعمال الفتاة الأخرى. إنها فتاة في عمر أختك تقريباً. فتاة غريبة الأطوار يبدو أن أختك تحبها إلى درجة العبادة (بدا قولي «أختك» غريباً) وأشعر أحياناً بأنها تفكّر بصديقتها هذه أكثر مما تفكّر بي. لم أعد أطيق هذا الأمر، إن كنت تفهم قصدي».

فقال: «نعم أفهم. لكن لماذا لا تطردها؟».

«هنا المشكلة، فأنا لا أستطيع. لقد حاولت لكن محاولاتي باءت بالفشل، فإذا ذهبت ستذهب أختك أيضاً».

قال: «لست مندهشاً. إنها هكذا تماماً. وأنا لا أظن أنها سحاقية. إنها تحبّ الارتباطات. أيّ شيء يخلق لديها إحساس».

«ما الذي يجعلك واثقاً من أنها ليست واقعة في غرام هذه الفتاة؟ أنت تقول إنك لم ترها كثيراً خلال السنوات القليلة الماضية...».

فقال: «ما أعرفه هو أنها امرأة تحب الرجال».

«أنت تبدو واثقاً إلى درجة كبيرة».

«أنا. لا تسألني عن السبب. إني متأكد فقط. لا تنس، سواء اعترفت بذلك أم لا، فإن الدم اليهودي يجري في عروقها. إن الفتيات اليهوديات مخلصات، حتى إن كن غريبات الأطوار ومشاكسات مثلها، إنه في الدم...».

قلت: «من الجيد أن أسمع هذا. أتمنى أن يكون هذا صحيحاً».

«هل تعرف بماذا أفكر؟ يجب أن تأتي لزيارتنا، وتتحدث إلى أمي. ستكون في غاية السعادة لرؤيتك. فليس لديها فكرة عن الشخص الذي تزوج ابنتها. إن ذلك سيسعدها كثيراً».

قلت: «ربما فعلت ذلك. فالحقيقة لا تؤذي. كما أني أريد أن أتعرف على أمها الحقيقية».

قال: «جيد، دعنا نحدّد موعداً».

حددنا موعداً، بعد أيام قليلة. تصافحنا.

وفيما كان يغلق البوابة وراءه قال: «ما تحتاج إليه هو أن تضربها. لكنك لست من النوع الذي يفعل ذلك، أليس كذلك؟»

بعد بضعة أيام كنت أقرع باب بيتهم. كان الوقت مساء وقد انقضى وقت العشاء. فتح أخوها الباب. (كان من الصعب أن يتذكّر

أنه صفق الباب في وجهي منذ بضع سنوات، عندما جئت لأتأكد من أن مونا تعيش هناك حقاً أم أنه كان عنواناً زائفاً). دخلت. بدوت مضطرباً بعض الشيء. كم مرة حاولت أن أتخيل بيتهم من الداخل، بيتها هذا، وأضعها في إطار وسط عائلتها، كطفلة، كفتاة شابة، كامرأة مكتملة!

تقدّمت أمّها لتحييني. ذات المرأة التي لمحتها قبل سنوات ـ تعلّق الغسيل ـ المرأة التي وصفتها لمونا، فقط لتضحك في وجهي.

(«كانت تلك عمتي!»).

كانت ترتسم على وجه الأمّ قسمات مليئة بالهموم والأحزان. كما لو أنها لم تضحك أو تبتسم منذ سنوات. في صوتها نبرة، لكنها كانت لطيفة. في جميع الأحوال لم تكن تشبه ابنتها بأي شكل من الأشكال، كما لم أكتشف أيّ تشابه في قسمات وجهيهما.

كانت مثلها ـ لماذا لم أستطع أن أعرف ـ تدخل إلى الموضوع مباشرة. هل كانت الأمّ الحقيقية أم زوجة الأبّ؟ (كانت تلك الشكوى العميقة). اتجهت إلى الخزانة، وأخرجت بضع وثائق. كانت إحداها شهادة زواجها. وأخرى شهادة ميلاد مونا. ثم صور العائلة كلها.

جلست إلى الطاولة ورحت أتمعن فيها باهتمام شديد، لا لأني فكرت أنها مزيفة. اعترتني الرعشة. للمرة الأولى تعرفت على الحقائق.

كتبت اسم القرية في كارباثيانس حيث ولدت أمها وأبوها. أمعنت النظر في صورة البيت الذي كانوا يعيشون فيه في فيينا. حدّقت لمدة طويلة وبمودّة في جميع صور مونا، بدءاً من صورها وهي رضيعة في القماط، ثم تلك الطفلة الأجنبية الغريبة ذات الجدائل السوداء الطويلة، وأخيراً إلى ريجان أو مودجيسكا ذات الخمسة عشر ربيعاً حيث بدت ثيابها غريبة لكنها نجحت في إبراز معالم شخصيتها. وكان هناك أبوها ـ الذي يحبها كثيراً! رجل وسيم مميّز. لعله كان طبيباً، مستشار الخزانة، ملحناً أو عالماً تائهاً. أما

بالنسبة لأختها تلك، نعم، كانت أجمل من مونا، وهو أمر لا يمكن نكرانه. لكنه جمال ضاع في الهدوء والسكينة. كانتا تنتميان إلى العائلة ذاتها، لكن كلّ واحدة منهما تنتمي إلى جنسها. أما الفتاة الأخرى فكانت ثمرة ضالة ذرتها الرياح.

حين رفعت عيني أخيراً، وجدت الأمّ تبكي.

«إذن قالت لك إني زوجة أبيها؟ ما الذي جعلها تقول شيئاً كهذا؟ وأنني كنت قاسية عليها... وكنت أرفض أن أفهمها. لا أفهم... لم أكن كذلك».

بكت بمرارة. جاء الأخ ووضع ذراعيه حولها.

«لا تأخذي الأمر هكذا يا أماه. كانت دائماً غريبة الأطوار».

«غريبة الأطوار، نعم، لكن هذا... هذا أشبه بالخيانة. هل تشعر بالعار مني؟ ماذا فعلت لها، قل لي، حتى تتصرف هكذا؟».

أردت أن أقول شيئاً يدخل الراحة إلى نفسها، لكني لم أستطع أن أجد الكلمات.

قالت أمها: «أشعر بالأسى من أجلك. فلا بد أنك تواجه صعوبات بسببها. ولولم ألدها أنا فربما ظننت أنها ابنة شخص آخر، لا ابنتي. صدقني، لم تكن هكذا عندما كانت صغيرة. لا، كانت طفلة جيدة، متحمسة، مطيعة تحترم الآخرين. لكن التغيير حدث فجأة، كما لو تلبسّها الشيطان. لم يعد يعجبها أي شيء نقوله أو نفعله. أصبحت مثل غريبة في وسطنا. حاولنا معها كلّ شيء، لكن دون جدوى».

لم تتمالك نفسها، وانفجرت في البكاء، واضعة رأسها بين يديها. كان جسمها كله يرتعش بتشنّجات لا إرادية.

بدأت أشعر بالرغبة في الخروج بأسرع ما يمكن. لقد سمعت مافيه الكفاية. لكنهم أصرّوا على تقديم الشاي لي. لذلك جلست هناك ورحت أستمع. استمعت إلى قصة حياة مونا، منذ أن كانت طفلة.

وللغرابة لم يكن هناك شيء غير عادي أو رائع فيها. (أثار انتباهي تفصيل صغير واحد فقط وهو أنها كانت دائماً شامخة) بطريقة ما، كان من المريح معرفة هذه الحقائق المنزلية. وأصبح بوسعي الآن أن أجمع وجهيّ العملة معاً... أما بالنسبة للتغيير المفاجئ الذي طرأ عليها، فلم أعتبره شيئاً محيراً. فقد حدث لي أيضاً. ماذا تعرف الأمهات عن أولادهن؟ هل يطلبن من الابن المشاكس أو الابنة المشاكسة مشاطرة أسرارهما أو ما يتوقان إليه؟ هل يسبرن أعماق قلب الطفل؟ هل يعترفن أنهن وحوش أيضاً؟ وإذا كانت الطفلة تخجل من حيضها، فكيف تعلم أمها بذلك؟

عندما رحت أنظر إلى هذه المرأة، هذه الأمّ، وأستمع إليها، لم أستطع أن أجد فيها شيئاً، لو كنت من ذريتها، يجذبني إليها. هيئتها الحزينة وحدها ستجعلني أدير ظهري لها. ولن أتحدث عن إحساسها بالفخر. فقد بدا من الواضح أن أبناءها كانوا جيدين نحوها، الأبناء اليهود عادة. والفتاة الوحيدة، حمداً ليهوه، تزوّجت زواجاً ناجحاً. لكن كانت هناك معرّة العائلة، الشوكة التي تنخز خاصرتها. لقد ملأتها هذه الفكرة بالذنب. فشلت. أثمرت فاكهة سيئة. وهذه المتوحشة تبرأت منها. أهناك مهانة أكبر للأم من أن تدعوها ابنتها زوجة أبّ؟

لا، كلما استمعت إليها، ازدادت بكاء ونشيجاً، وازداد شعوري بأنها لم تكنّ حباً حقيقياً لابنتها. لو أنها تحبها لأحبتها عندما كانت طفلة. فهي لم تبذل أي محاولة لكي تفهم ابنتها. كان هناك خطأ في اعتراضاتها. ما تريده هو أن تعود ابنتها وتجثو أمامها على ركبتيها وتتوسل لها أن تصفح عنها.

«أحضرها إلى هنا»، رجتني وأنا أودعهم. «دعها تقف هنا أثناء وجودك وتكرر هذه الأشياء الشريّرة، إذا تجرأت. كزوجتك، يجب أن ترد لك ذلك الجميل على الأقل».

راودني شكّ من الطريقة التي تتكلم فيها بأنها لم تكن مقتنعة من أننا متزوجان. شعرت بالرغبة في القول، «نعم، عندما نأتي سأحضر شهادة الزواج معنا أيضاً» لكني أحجمت.

ثم وهي تضغط على يدي، عدّلت كلامها ودمدمت: «قل لها إننا نسينا كلّ شيء».

قالتها كأمّ، قلت لنفسي، لكنها قالتها بطريقة فارغة من أي معنى.

رحت أتجول في الحيّ وأنا في طريقي إلى المحطة. لقد تغيّرت الأشياء منذ أن تحدثنا أنا ومونا هنا. كنت قد وجدت صعوبة في التعرف على مكان البيت حيث أوقفتها ذات مرّة على الجدار. تلك البقعة الفارغة، حيث مارسنا الجنس بكل جوارحنا، لم تعد بقعة فارغة. انتصبت بنايات جديدة، شقت شوارع جديدة في كل مكان. ومع ذلك تابعت جولتي. أما في هذه المرة فكنت مع مونا أخرى - الفنانة التراجيدية ذات الخمسة عشر ربيعاً - التي رأيت صورتها لأول مرة منذ دقائق قليلة. يا لها من فتاة رائعة، حتى في ذلك العمر الصعب! يا للصفاء في نظرتها الصريحة، الثاقبة، المهيبة.

تذكرت مونا التي انتظرتها خارج المرقص. حاولت أن أجمع الاثنتين معاً. لم أستطع. تجوّلت في الشوارع الكئيبة وأنا أمسك بذراع كل منهما من جانب. لم تعد توجد أيّ منهما، بل وربما لم يعد لي وجود أيضاً.

10

كان من الجلي حتى لأحمق مخدوع مثلي، أننا لن نذهب نحن الثلاثة إلى باريس معاً. لذلك عندما تلقيت رسالة من توني ماريلا يطلب فيها أن أحضر للبدء في العمل بعد بضعة أيام انتهزت الفرصة لأبلغهما بكلّ شيء. وفي حديث صادق من القلب إلى القلب لم نجره منذ فترة من الزمن، اقترحت عليهما أن تذهبا عندما يتوافر لهما المال وسألحق بهما لاحقاً. الآن وبعد أن أصبح العمل حقيقة واقعة أصبح بإمكاني أن أذهب وأعيش مع والديّ وأوفر قدراً من المال لسفري. أو إذا دعت الضرورة، يمكنني أن أرسل لهما قدراً قليلاً من المال. ولم أتصوّر أن أياً منا سيتوجه إلى أوروبا خلال الشهور القليلة القادمة. وربما لن يذهب أحد منا على الإطلاق.

ولم يكن الأمر يحتاج إلى قارئ عقول لرؤية الشعور بالارتياح الذي اعتراهما لأني لن أرافقهما. وبالطبع حاولت مونا أن تحثّني على عدم الذهاب للعيش مع والديّ. وإذا كان عليّ أن أذهب إلى أيّ مكان، ففي رأيها عليّ أن أنصب خيامي عند أولريك. ادعيت بأني سأفكّر في الأمر.

على أية حال، يبدو أن حديثنا الوديّ قد منحهما حياة جديدة. وأصبحتا تعودان كلّ ليلة وفي جعبتهما أخبار جيدة. فقد وعد جميع أصدقائهما، بالإضافة إلى البلهاء منهم، بجمع مبلغ من المال لسفرهما. واشترت ستاسيا كتاباً صغيراً لتعلم المحادثة باللغة

الفرنسية؛ وكنت أنا الأحمق الذي راحت تمارس عليه تعابيرها الغبية. «سيدتي، هل لديك غرفة للإيجار؟ كم أجرها؟ هل توجد مياه جارية؟ وماذا عن التدفئة المركزية؟ من؟ إنه أنيق. شكراً مدام». وهكذا. أو كانت تسألني إن كنت أعرف الفرق بين «الفاتورة» و«ورقة الحساب»، وإن (l-oeil) تعني «عين» وجمعها (les yeux). غريب، ماذا! وإذا جاءت الصفة (sacre) قبل الاسم يتغير معناها تماماً عما لو جاءت بعد الاسم. ماذا تعرف عن ذلك؟ شيء مثير حقاً، أليس كذلك؟ لكني لم أكن أعير أدنى اهتمام لدقائق الأمور هذه. سأتعلّم عندما يحين الوقت، وبطريقتي الخاصة.

وقد بهرتني خريطة لخطوط قطار الأنفاق على الغلاف الخارجي من دليل الشوارع الذي اشترته. وأرتني أين تقع مونمارتر ومونبارناس. وقالتا إنهما ربما ذهبتا إلى مونبارناس أولاً، لأن معظم الأمريكيين يتجمّعون هناك. وحددت كذلك مكان برج إيفل، وحديقة لوكسمبورغ، وسوق السلع المستعملة الرخيصة، والمسلخ ومتحف اللوفر.

سألتها: «أين هي الطاحونة الحمراء؟».

كان عليها أن تبحث عنها في الدليل.

«والمقصلة - أين يحتفظون بها؟» لم تستطع الإجابة عن هذا السؤال.

ولاحظت أنه أطلق على بعض الشوارع أسماء بعض الكتّاب. وكنت أفتح الخريطة عندما أكون وحدي وأتتبّع الشوارع التي تحمل اسم شخص مشهور: رابليه، دانتي، بلزاك، سرفانتس، فيكتور هوغو، فيلون، فيرلين، هين... ثم أسماء الفلاسفة، والمؤرخين، والعلماء، والرسامين، والموسيقيين وأخيراً المحاربين العظماء. لانهاية للأسماء التاريخية، يا لها من ثقافة، قلت لنفسي، كنت أتمشى في هذه المدينة وأتصوّر أني وصلت إلى شارع أو مكان أو طريق مسدود، يطلق عليه اسم فيرسينغيتوريكس! (في أمريكا لم يحدث وأن

أطلق على شارع اسم دانيال بون، مع أنه ربما تجد ذلك في مكان مثل ساوث داكوتا).

كان هناك شارع أشارت إليه ستاسيا علق في رأسي، وهو الشارع الذي تقع فيه كلية الفنون الجميلة. (قالت إنها تأمل أن تدرس فيها ذات يوم) واسم هذا الشارع بونابرت. (ثم أدركت عندئذ أن هذا هو أول شارع فرعي أقمت فيه عندما وصلت إلى باريس). وفي شارع فرعي بجانبه ـ شارع فيسكونتي ـ كان يوجد لبلزاك دار نشر ذات يوم، قبل أن يُهدم بعد عدة سنوات. وفي شارع فرعي آخر، يفضي إلى شارع بونابرت أيضاً، عاش أوسكار وايلد ذات يوم.

جاء يوم الذهاب إلى العمل. كانت رحلة طويلة جداً إلى مكتب إدارة الحدائق. كان طوني بانتظاري ورحب بي بحرارة.

«ليس من الضروري أن تقتل نفسك»، قال، وهو يقصد عملي كحفّار قبور. «جرّب فقط. لن يراقبك أحد»، وصفعني على ظهري بودّ وسألني: «إنك تقوى على استعمال مجرفة، أليس كذلك؟ أو على دفع عربة محملة بالتراب؟».

«بالتأكيد» قلت.

عرّفني على رئيس العمال، وطلب منه ألا يشغّلني كثيراً، وعاد متبختراً إلى المكتب. وقال إني سأعمل معه بعد أسبوع في مكتب المفوّض.

كان الرجال دمثين معي للغاية، ربما بسبب يديّ الناعمتين. وطلبوا مني أن أعمل أخفّ أنواع العمل، الذي كان بإمكان صبي أن يقوم به أيضاً.

استمتعت كثيراً باليوم الأول. العمل اليدوي، يا له من شيء رائع! والهواء النقي، رائحة التراب، وهديل الحمام. نظرة جديدة إلى الموت. كيف يشعر المرء وهو يحفر قبره بيده؟ من المؤسف، فكّرت، بأننا لسنا جميعاً مرغمين على عمل ذلك في وقت ما في حياتنا. فلعل المرء يشعر براحة أكبر عندما يحفر قبره بيديه الاثنتين.

يا للشهية التي اعترتني عندما عدت من العمل إلى البيت في ذلك المساء! لا لأني كنت أفتقر إلى ذلك من قبل. ومن الغريب أن يعود المرء إلى البيت من العمل، مثل أيّ شخص آخر، ويجد بانتظاره وجبة طعام جيدة ليلتهمها. وكانت هناك أزهار على المائدة بالإضافة إلى قنينة من النبيذ الفرنسي الممتاز. قليل هم حفّارو القبور الذين يعودون إلى بيوتهم ويجدون أمامهم مثل هذه المائدة. حفّار قبور فخري، هذا ما كنته. حفار شكسبيري. بصحتك!

من الطبيعي أنها كانت أول وآخر وجبة طعام من نوعها. ومع ذلك، فقد بدت بادرة طيبة. فبعد كلّ شيء، لم أكن أستحق بادرة احترام أو اهتمام للعمل المشرّف الذي كنت أقوم به.

وبدأ العمل يزداد صعوبة يوماً بعد يوم. وجاءت اللحظة العظيمة عندما وقفت أسفل الحفرة وأنا أهيل التراب بالمجرفة من فوق كتفي. قطعة جميلة. فتحة في الأرض؟ هناك فتحات وفتحات. أما هذه الفتحة خاصة، من آدم كادموس إلى آدم أوميغا.

أمضيت اليوم كله حتى وصلت إلى القعر. كنت الحفّار والمحفور. نعم، كان ذلك في قعر القبر، وأنا أمسك مجرفة في يدي، عندما أدركت أن ثمة شيئاً رمزياً يعتري جهودي. ومع أن جسد رجل آخر سيحتلّ هذه الفتحة، فقد انتابني إحساس بأنها كانت جنازتي أنا. (ستقام لي مراسم دفن جميلة). سيكون عنوان كتاب طريف، «ستقام لي جنازة جميلة». لكن لم يكن من الطريف الوقوف في الحفرة التي لا قعر لها، القعر الذي بدأ يتملكني فيه إحساس بالشؤم. ربما كنت أحفر قبري، بشكل رمزي. حسناً، يومٌ آخر، أو يومان، وستنتهي فترة تدريبي. يمكنني أن أتحمل هذا. فضلاً عن أني سأقبض قريباً أول راتب لي. يا له من حدث! لا لأنه سيكون مبلغاً كبيراً، لا، بل لأني كسبته «من عرق جبيني».

كان اليوم هو الخميس. ويليه يوم الجمعة. ثم يأتي يوم قبض الراتب.

في يوم الخميس، يوم نذير الشؤم هذا، بدا أنه قد بدأ يتخلل

الجوّ في البيت عنصر جديد. لم أتمكن من تحديد الشي الذي يقلقني بدقة. من المؤكد لا لأنهما كانتا سعيدتين على نحو غريب ومريب. كانت تعتريهما مثل هذه المشاعر في معظم الأحيان. تُفرطان في التوقعات والاستبشار، هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أصفهما بها. لكن بماذا؟ والطريقة التي كانتا تبتسمان لي فيها ـ ذلك النوع من الابتسامة التي يبتسمها المرء لطفل متشوق للمعرفة. ابتسامات تقول «انتظر فقط، وستكتشف قريباً». أما الشيء المزعج حقاً فهو ألا شيء كنت أقوله كان يثير غضبهما. بدتا راضيتين بنفسيهما إلى درجة كبيرة.

وفي مساء اليوم التالي، يوم الجمعة، عادتا إلى البيت وهما تعتمران قبعتين. «ماذا دهاهما؟» قلت لنفسي. «هل تظنان نفسيهما في باريس؟» راحتا تغتسلان ببطء شديد وتكاسل. راحتا تغنيان ثانية، غناء كالمجانين ـ واحدة في حوض الحمّام، والأخرى تحت الدوش. «دعيني أدعوك حبيبتي، إني عاشقة... أووووه ـ أووووه ـ» وتلا ذلك غناء نشيد «تيبيراري». كانتا مرحتين. ضحكتا وقهقهتا! مفعمتان بالسعادة، فليبارك الرب قلبيهما الصغيرين!

لم أتمالك نفسي عن عدم التلصص عليهما. كانت ستاسيا تقف في الحوض تفرك فرجها. لم تكن تصرخ أو حتى تقول أوه! أما مونا فقد خرجت من تحت الدوشّ، ولفّت خصرها بمنشفة.

«سأجفف لك جسدك»، قلت، وأنا أمسك بالمنشفة.

وفيما رحت أجففها وأربتّ عليها وأمسّدها، كانت تصدر صوت مواء كالقطة. وأخيراً غمرتها بماء الكولونيا. وقد استمتعت بذلك أيضاً.

قالت: «إنك رائع جداً. أنا أحبك يا فال. أحبّك»، وعانقتني بحرارة.

ثم أضافت: «غداً ستقبض راتبك، أليس كذلك؟ أرجو أن تشتري لي حمالة صدر وجوارب. أنا بحاجة ماسة إليها».

أجبت: «طبعاً. ألا تريدين شيئاً آخر؟».

«لا، هذا كلّ شيء، يا عزيزي فال».

«متأكّدة؟ يمكنني أن أشتري لك أيّ شيء تحتاجينه غداً».

رمتني بنظرة خجولة.

«حسنا إذن، شيء آخر فقط».

«ما هو؟».

«باقة من زهر البنفسج».

توّجنا هذا المشهد من النعمة الزوجية بمضاجعة فاخرة قاطعتها ستاسيا مرتين متظاهرة بأنها تبحث عن شيء ما، وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً حتى بعد أن هدأنا.

ثم حدث شيء غريب حقاً. فما أن أغمضت عينيّ حتى اقتربت ستاسيا من السرير، وانحنت برقة وقبلتني على جبهتي وقالت: «تصبح على خير، أحلام سعيدة!».

كنت منهكاً ولم أشأ أن أشغل رأسي بتفسيرات لهذه البادرة الغريبة. «وحيدة، هذا كلّ ما في الأمر!» هذا ما كان بوسعي أن أفكّر به حالياً.

في الصباح استيقظتا قبل أن أصحو تماماً. كانتا ما تزالان مبتهجتين، ما تزالان متلهّفتين لإسعادي. هل الراتب الذي سأجلبه إلى البيت هو الذي أفقدهما صوابهما؟ ولماذا الفريز للفطور؟ الفريز المغمس بالقشطة السميكة. أووف!

وحدث شيء غير عادي آخر. ففيما كنت على وشك أن أغادر، أصرّت مونا على مرافقتي إلى الشارع.

«ما خطبك؟»، قلت. «لماذا كلّ هذا؟».

«أريد أن أودّعك، هذا كلّ ما في الأمر»، ورمتني بواحدة من تلك الابتسامات التي تمنحها الأمّ المتساهلة.

بقيت واقفة عند السور، وهي ترتدي كيمونوها الخفيف،

وبينما بدأت أخب، استدرت في منتصف الطريق وسط الشارع لأرى إن كانت ما تزال هناك. كانت ما تزال واقفة في مكانها. لوّحت لي مودعة. فلوّحت لها.

وفي القطار جلست وأخذت غفوة. يا لها من طريقة جميلة لبدء اليوم! (لا حفر مزيد من القبور) فريز للفطور. مونا تلوّح مودعة. كلّ شيء رائع، كما يجب أن يكون، بشكل ممتاز جداً. أخيراً نجحت...

في أيام السبت كنا نعمل نصف نهار فقط. قبضت راتبي، تناولت طعام غدائي مع طوني، حيث شرح لي خلاله مهامي الجديدة، ثم تمشينا حول الحديقة، وأخيراً انطلقت عائداً إلى البيت. في الطريق اشتريت زوجاً من الجوارب، وحمالة صدر، وباقة من أزهار البنفسج وفطيرة جبن ألمانية. (كنت أجد متعة كبيرة في تناول فطيرة الجبن).

هبط الظلام عندما وصلت أمام البيت. لم تكن هناك أنوار مضاءة في الداخل. قلت لنفسي يا له من أمر مضحك. هل كانتا تلعبان لعبة الاستغماية معي؟ دخلت وأشعلت شمعتين، وألقيت نظرة سريعة داخل البيت. ثمة شيء مريب. للحظة ظننت أن لصوصاً قاموا بزيارتنا. وعندما ألقيت نظرة إلى غرفة ستاسيا ازدادت مخاوفي. فقد اختفى صندوقها وحقيبتها. في الواقع لم يكن هناك شيء في الغرفة. هل هربت من العشّ؟ هل كان ذلك سبب قبلة ما قبل النوم؟ فتّشت الغرف الأخرى. كانت بعض أدراج طاولة المكتب مفتوحة، وثياب قديمة مبعثرة. وأظهر الوضع أن عملية الإجلاء اتسمت بالفوضى، وكانت شبه مفاجئة. باغتني ذلك الشعور بالكرب والاكتئاب الذي اعتراني عندما كنت أقف في قاع القبر.

خيّل لي أني رأيت قصاصة ورق على الطاولة بالقرب من النافذة ـ لعلها رسالة. وكما هو متوقع، كانت توجد تحت ثقّالة الورق ملاحظة خُربش عليها بقلم رصاص. كانت قد كتبت بيد مونا، وهي تقول: «الغالي فال، لقد أبحرنا هذا الصباح على ظهر سفينة

روتشامبو. لم نقوَ على إخبارك. اكتب لنا عن طريق أمريكان إكسبريس، باريس. مع الحبّ».

قرأتها ثانية. يفعل المرء ذلك عندما تكون رسالة مصيرية. ثم غصت في الكرسي بجانب الطاولة. في بادئ الأمر بدأت الدموع تتساقط ببطء، قطرة قطرة. ثم بدأت تتدفق. وسرعان ما رحت أنشج وأبكي بكاء فظيعاً مزّق كياني. كيف يمكنها أن تفعل ذلك لي؟ كنت أعرف أنهما ذاهبتين بدوني ـ لكن ليس بهذا الشكل. هاربتان مثل طفلين شقيين. وذلك المشهد التمثيلي في الدقيقة الأخيرة «أحضر لي باقة من أزهار البنفسج!» لماذا؟ لتضليلي؟ هل كان ذلك ضرورياً؟ هل أصبحت طفلاً؟ الطفل وحده من يُعامل بهذه الطريقة.

ورغم بكائي استعّر غضبي. رفعت قبضتي ورحت ألعنهما، وقلت إنهما كلبتان خائنتان؛ رحت أدعو الله بأن تغرق السفينة، أقسمت على ألا أرسل لهما بنساً واحداً، أبداً، حتى لو تضورتا جوعاً. ثم، ولأخفف من حدة ألمي، قفزت واقفاً ورميت ثقّالة الورق على الصورة فوق الطاولة. أمسكت كتاباً وألقيته على صورة أخرى فحطمتها. ورحت أتنقل من غرفة إلى أخرى، محطماً كلّ شيء أراه في طريقي. وفجأة لاحظت كومة من الثياب المرمية في إحدى الزوايا. كانت ثياب مونا. أمسكت سراويلها الداخلية، وحمالات صدرها، وبلوزاتها ورحت أتشممها. كانت ما تزال تفوح منها رائحة العطر الذي تضعه. جمعتها كلها ودسستها تحت وسادتي. ثم بدأت أصرخ. صرخت وصرخت وصرخت. وعندما انتهيت من الصراخ بدأت أغني «دعني أدعوك حبيبي... إني أعشقك ـ أعشقك...» كانت فطيرة الجبن تحدّق في وجهي. «عليكما اللعنة!» صحت، ورفعتها وألقيتها إلى الحائط.

في تلك اللحظة، فُتح الباب بهدوء، ووقفت هناك إحدى الأخوات الهولنديات من الطابق العلوي، ويداها مضمومتان إلى صدرها.

«يا رجلي المسكين، يا رجلي العزيز المسكين»، قالت وهي تقترب مني كما لو أنها كانت ستضمني إليها. «أرجوك، أرجوك لا

تأخذ الأمر بهذه الشدة! أعرف كيف تشعر... نعم، إنه شيء فظيع. لكنهما ستعودان».

هذه الكلمات القليلة الرقيقة جعلت دموعي تتدفق ثانية. ألقت بذراعيها حولي، وقبّلتني على وجنتيّ. لم أبدِ أي اعتراض. ثم قادتني إلى السرير وجلست، وشدتني لأجلس بجانبها.

رغم حزني لم أتمالك نفسي من عدم ملاحظة مظهرها غير الأنيق والوسخ. ففوق منامتها المهترئة - التي كان يبدو أنها ترتديها طوال النهار - ارتدت ثوب كيمونو ملوّثاً بالبقع. وكان جوربها يتدلى فوق كاحليها، ودبابيس شعرها تتدلى من كتلة شعرها المشعّث. كانت امرأة رثة الهيئة ومملة، لا جدال في ذلك. مملة أم لا، فقد كانت حزينة بصدق، قلقة عليّ بصدق.

وبذراع حول كتفي أخبرتني بلطف، لكن بلباقة بأنها تعرف منذ فترة ما يجري. «لكن كان عليّ أن أمسك لساني»، قالت. وكانت تتوقف بين الحين والآخر لتتيح لي مجالاً لحزني. وطمأنتني أخيراً بأن مونا تحبني. وقالت: «نعم، إنها تحبك كثيراً».

كنت على وشك أن أحتجّ على هذه الكلمات عندما فُتح الباب بهدوء مرة ثانية، ووقفت الأخت الأخرى هناك. كانت ثياب هذه الأخرى أفضل حالاً وبدت أكثر جاذبية. دخلت وبعد بضع كلمات رقيقة جلست على الجانب الآخر مني. كانتا تمسكان بيدي الآن. يالها من صورة.

هذه الشفقة والرعاية! هل كانتا تتصوران أني كنت مستعداً لأن أطلق النار على رأسي؟ وراحتا تطمئنانني بأن الأمور ستتحسن. الصبر، الصبر! ففي النهاية سيصبح كلّ شيء على ما يرام. وقالتا إن هذا أمر حتمي. لماذا؟ لأني شخص طيب جداً. وإن الله يختبرني، هذا كلّ ما في الأمر.

قالت إحداهن: «كنا نريد أن ننزل ونواسيك، لكننا لم نكن نريد أن نتطفّل عليك. إننا نعرف مشاعرك. استطعنا أن نعرف عندما رحت

تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. شيء محزن للغاية، لكن ليس باليد حيلة؟».

كان هذا الأمر يفوق طاقتي، كلّ هذا التعاطف. نهضت وأشعلت سيجارة. استأذنت ذات الثياب الرثة الآن وصعدت إلى الطابق العلوي.

«ستعود بعد لحظة» قالت الأخرى. وبدأت تحكي لي عن حياتهما في هولندا. ثمة شيء قالته، أو الطريقة التي قالته بها، جعلني أضحك. صفّقت بيديها مبتهجة. «انظر، إن الأمر ليس بهذه الدرجة من السوء، أليس كذلك؟ تستطيع أن تضحك».

بهذا رحت أضحك أكثر وأكثر. كان من المستحيل معرفة إن كنت أضحك أم أبكي. لم أستطع أن أتوقف.

«الآن، الآن»، قالت، وهي تضغطني إليها وتهدل. «ضع رأسك على كتفي. هكذا. يا إلهي إن لديك قلباً رقيقاً!».

مع أن ذلك بدا سخيفاً، فقد شعرت بالارتياح بالاسترخاء على كتفها. حتى أني شعرت بشيء من الإثارة الجنسية، وهي تضمني في عناقها الأمومي.

ظهرت أختها ثانية حاملة صينية عليها دورق، وثلاث كؤوس، وقليل من البسكويت.

«هذا سيجعلك تشعر أفضل»، قالت وهي تصبّ لي جرعة من الشراب.

صلصلت الكؤوس، كما لو أن هناك مناسبة سعيدة نحتفل بها، ورحنا نجرع. كانت أشبه بماء نار صافية.

«اشرب كأساً آخر»، قالت الأخت الأخرى وأعادت ملء الكؤوس. «ألا يشعرك هذا بالارتياح؟ إنه يحرق، لكنه يبث الروح فيك».

احتسينا كأسين أو ثلاث كؤوس بتعاقب سريع. وفي كلّ مرة كانتا تقولان «ألا تشعر بأنك أصبحت أفضل حالاً الآن؟».

أفضل أو أسوأ، لم أكن أعرف. كلّ ما كنت أعرفه أن أحشائي كانت تحترق. ثم بدأت الغرفة تدور بي.

«استلقي»، راحتا تحثاني، وأمسكتاني من ذراعي وساعدتاني على الاستلقاء على السرير. تمددت بكامل طولي، عاجزاً كطفل. خلعتا معطفي، ثم قميصي، ثم بنطالي وحذائي. لم أبدِ أي اعتراض.

«نم قليلاً»، قالتا، «سنأتي لزيارتك لاحقاً. سنحضر لك العشاء عندما تستيقظ».

أغمضت عينيّ. كانت الغرفة تدور بي الآن بسرعة أكبر. «سنعتني بك»، قالت إحداهن.

«سنرعاك»، قالت الأخرى.

وخرجتا على أطراف أصابعهما.

استيقظت في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي. ظننت أن أجراس الكنيسة تقرع. (تماماً ما كانت تقوله أمّي عندما تحاول أن تتذكر ساعة ولادتي) نهضت وقرأت الرسالة ثانية. الآن هما في عرض البحر. كنت جائعاً. وجدت قطعة فطيرة الجبن على الأرض والتهمتها. كنت عطشاناً أكثر مما كنت جائعاً. شربت عدّة كؤوس من الماء، الواحدة بعد الأخرى. كان رأسي يؤلمني قليلاً. ثم عدت إلى السرير. لكن النوم جافاني. نهضت قبيل الفجر، ارتديت ثيابي وخرجت. المشي أفضل من أن أظل مستلقياً هناك. سأمشي وأمشي، قلت لنفسي، حتى أتهاوى.

لم تُجدِ هذه الطريقة نفعاً. سواء كنت منتعشاً أم مرهقاً فالتفكير لم يتوقف على الإطلاق. المرء يدور ويدور، دائماً فوق الأرض نفسها، ويعود دائماً إلى النقطة الميتة: التي لم تعد مقبولة الآن.

كيف أمضيت باقي اليوم لا أعرف. كلّ ما أتذكّره هو أن وجع القلب راح يزداد باضطراد. لا شيء يمكن أن يخفّف من حدته. لم يكن شيئاً في داخلي، كنت أنا. كنت أنا الوجع. وجع سيّار ناطق. لو كان بإمكاني أن أجرّ نفسي إلى المسلخ وأجعلهم يقطعّوني مثل ثور - سيكون ذلك عملاً من أعمال الرحمة. ضربة سريعة واحدة فقط - بين العينين. فتلك، وتلك فقط، هي التي يمكنها أن تقضي على الوجع.

عدت صباح يوم الاثنين إلى العمل كالمعتاد. انتظرت ساعة كاملة حتى وصل طوني. ما أن ألقى نظرة واحدة عليّ حتى قال: «ما خطبك؟».

أخبرته بإيجاز. فرد بلطف شديد: «دعنا نذهب ونتناول كأساً. لا يوجد شيء ملحّ جداً الآن. سيادته لن يأتي اليوم، لذلك لا يوجد شيء يمكننا أن نقلق عليه».

تناولنا كأسين ثم تغدينا. كان غداء جيداً تلاه تدخين سيجار جيد. لم يوجه أحدنا كلمة لوم واحدة لمونا.

فيما كنا نسير عائدين إلى المكتب سمح لنفسه بإبداء ملاحظة غير جارحة وقال. «إن هذا يحيرني يا هنري. فلديّ الكثير من المشاكل لكن ليس من هذا النوع أبداً».

في المكتب لخّص لي واجباتي مرة أخرى. وقال: «سأعرّفك على الشباب غداً» (أعني عندما تستجمع نفسك) وأضاف أني سأجد أن التعامل معهم سهل للغاية.

وهكذا مضى ذلك اليوم واليوم التالي.

تعرّفت على أفراد المكتب الآخرين، جميعهم يتزلفون ويداهنون رئيسهم، وكلّهم ينتظرون الراتب التقاعدي ذاك في أسفل قوس قزح. وكانوا جميعهم تقريباً من بروكلن، كلّهم أشخاص عاديون، كلّهم يتحدثون بلكنة سكان بروكلين الكئيبة المشوّشة. لكنهم كانوا جميعهم متلهّفين لتقديم المساعدة.

كان هناك شاب، محاسب، استهوته نفسي على الفور. كان اسمه

بادي ماهوني. كان كاثوليكياً إيرلندياً، ضيق الأفق، مشاكساً وكثير الجدال، فيه كلّ الصفات التي أكرهها، لكننا انسجمنا معاً لأن مسقط رأسي هو شارع وورد 14 ـ أما هو فقد ولد وترعرع في غرينبوينت ـ. وما كاد طوني والمفوّض يذهبان، حتى كنت تراه وقد أصبح على طاولة مكتبي مستعداً لتبادل الحديث بقيّة النهار.

في صباح يوم الأربعاء وجدت برقية على طاولتي. «يجب أن نحصل على خمسين دولاراً قبل أن ننزل إلى البر. الرجاء إرسال الجواب بالبرق فوراً».

أريت الرسالة لطوني عندما جاء. قال: «ماذا ستفعل؟».

قلت: «هذا ما أريد أن أعرفه».

«لا أظن أنك سترسل لهما نقوداً... بعد ما فعلتاه بك؟».

نظرت إليه بائساً وأجبت: «أظن أني سأفعل».

«لا تكن أحمق»، قال: «لتتحملا ما جنته يداهما».

كنت أتمنى أن يقول لي أن بإمكاني الحصول على سلفة من راتبي. لكني عدت إلى عملي مكتئباً. وخلال عملي لم أتوقف عن التساؤل كيف وأين يمكنني أن أحصل على هذا المبلغ. كان طوني أملي الوحيد. لكني لم أملك الشجاعة لأن أطلبه منه. لم أستطع أن أطلبه ـ لقد عمل من أجلي أكثر مما كنت أستحق.

بعد الغداء الذي يتناوله مع أصدقائه السياسيين عادة في إحدى الحانات في حي الفيليج في مكان قريب، كان يضع سيجاراً كبيراً في فمه، وتفوح منه رائحة شراب ثقيلة. كانت ترتسم على وجهه ابتسامة كبيرة، تلك الابتسامة التي كان يبتسمها في المدرسة عندما يخطط لعمل شيطاني.

«كيف الحال؟» قال. «بدأت تتعلم، أليس كذلك؟ إنه ليس بالمكان السيء، أليس كذلك؟».

رمى قبعته على كتفه، وغاص عميقاً في كرسيه الدوّار ووضع قدميه على الطاولة. سحب نفساً طويلاً من سيجاره واستدار قليلاً

باتجاهي وقال: «أظن أني أفهم النساء كثيراً يا هنري. فأنا عازب لا أمل في زواجه. أما أنت فشيء مختلف. أنت لا تبالي بالتعقيدات، كما أظن. على أية حال، عندما حدثتني عن البرقية هذا الصباح ظننت أنك أحمق. أما الآن فقد غيّرت رأيي. أنت بحاجة إلى مساعدة، وأنا الوحيد الذي يستطيع أن يساعدك، كما أظن. انظر، دعني أقرضك ما تحتاج إليه. لأني لا أستطيع أن أعطيك سلفة على راتبك... لأنك جديد هنا. كما أن هذا سيثير الكثير من الأسئلة غير الضرورية». مدّ يده إلى جيبه وأخرج رزمة من النقود. «يمكنك أن تسدد لي خمسة دولارات في الأسبوع، إذا أحببت. لكن لا تدعهما تمصان دمك أكثر من هذا! كن حازماً!».

بعد بضع كلمات أخرى أصبح مستعداً للمغادرة. «أظن يجب أن أذهب الآن. لقد انتهى عملي لليوم. إذا تعرضت لمشكلة اتصل بي».

«أين؟» قلت.

«إسأل بادي، وسيقول لك».

ومع مرور الأيام خفّت حدة الألم. فقد شغلني طوني بالعمل عن قصد، لا شكّ. كما حرص على أن أتعرف أيضاً على رئيس قسم الحدائق. ويجب أن أكتب ذات يوم كتيباً عن النباتات والشجيرات والأشجار في الحديقة العامة، وقال إنه سيساعدني في التعرف على كل هذه الأمور.

بدأت أتوقع في كلّ يوم تلقّي برقية أخرى. لكني لم أتلق أي رسالة لأيام عديدة. كنت ما أزال في هذه الحالة، وكنت أكره أن أعود كلّ يوم إلى المكان الذي أصبح يسبب لي الضيق والكآبة، وقرّرت أن أطلب من والديّ أن أقيم عندهما. وافقا على الفور، مع أنهما لم يفهما تصرف مونا. وأوضحت لهما بالطبع، أننا خططنا للأمر بهذه الطريقة، بأن أتبعهما لاحقاً وما إلى ذلك. كانا يعرفان أكثر، لكنهما لم يرغبا الإمعان في إذلالي.

وهكذا انتقلت إلى بيتهما. شارع الأحزان المبكرة. الطاولة ذاتها التي كنت أكتب عليها عندما كنت صغيراً. (والتي لم أستخدمها أبداً) فقد كان كلّ ما لديّ من حاجات أضعه في حقيبتي. ولم أجلب كتاباً واحداً معي.

أرسلت برقية أخرى إلى مونا كلفتني بضعة دولارات أخرى أعلمتها فيها بأني غيّرت العنوان، وطلبت منها ألا تكتب أو ترسل لي برقية إلى المكتب.

وكما توقع طوني، لم يمض وقت طويل حتى وصلت برقية أخرى. هذه المرة كانتا «بحاجة إلى نقود من أجل الطعام والإقامة». وقالتا إنهما لم تجدا عملاً بعد. وفي أعقاب ذلك وصلت رسالة قصيرة، قالتا إنهما سعيدتان، وإن باريس رائعة، ويجب أن أجد وسيلة لكي ألتحق بهما قريباً. ولم تذكرا شيئاً عن الطريقة التي تتدبران فيها أمورهما.

«هل تمضيان وقتاً طيباً هناك؟» سأل طوني ذات يوم. «أرجو أنهما لم تعودا تطلبان مزيداً من النقود؟».

لم أخبره عن البرقية الثانية. وكان عمّي، المضارب في التذاكر، هو الذي دفع لي هذا المبلغ.

قال طوني: «أشعر أحيانا وكأنني أريد أن أرى باريس. يمكننا أن نمضي وقتاً جيداً هناك معاً، ما رأيك؟».

كانت تختلط في أعمال المكتب كلّ أنواع الأعمال الصغيرة المختلفة. فمثلاً هناك الخطابات، التي على المفوّض أن يكتبها استعداداً لهذه المناسبة أو تلك، والتي لم يكن لديه الوقت الكافي ليكتبها هو بنفسه. وكان من مهمة طوني كتابة هذه الخطابات له. وعندما كان طوني يبذل ما بوسعه كنت أضيف عليها بضع لمسات.

كانت كتابة هذه الكلمات عملاً مملاً. وكنت أفضل أن أتحدث مع رئيس قسم الحدائق أكثر من كتابتها بكثير. وبدأت أدوّن ملاحظات لتأليف كتيب عن «غرس الأشجار»، كما أطلقت عليه.

بعد فترة من الزمن، خفّت وتيرة العمل. وفي بعض الأحيان لم يعد طوني يأتي إلى المكتب على الإطلاق. فما أن يذهب المفوّض حتى يتوقف العمل كلّه، ويصبح المكان لنا، إذ كنا هناك قرابة سبعة أشخاص نُمضي الوقت في لعب الورق، نتحدث أحاديث تافهة، نغني، نحكي قصصاً بذيئة، وفي بعض الأحيان نلعب لعبة الاستغماية. وكانت هذه الفترات بالنسبة لي أسوأ من اختناقي بالعمل. وبدا من المستحيل إجراء محادثة ذكية مع أيّ منهم سوى بادي ماهوني، الوحيد الذي كنت أجد متعة في التحدث إليه. ولم نكن نتحدّث عن شيء يوسع أفاق العقل. بل معظم الحديث يدور عن الحياة في شارع وورد 14 حيث يذهب ليلعب البلياردو مع الصِبْية، ويشرب ويلعب القمار.

شارع موجير، وتن يك، وكونسيليا، وديفوي، وهومبولدت... كنا نسميها جميعها، نعيشها، نلعب ثانية الألعاب التي كنا نلعبها عندما كنا أطفالاً تحت الشمس اللاهبة، في الأقبية الباردة، تحت وهج أضواء الغاز الناعم، فوق أحواض السفن بجانب النهر المتدفّق السريع...

إن موهبتي في الكتابة هي التي ألهمت صداقة وولاء بادي أكثر من أيّ شيء آخر. فما أن أجلس إلى الآلة الكاتبة، وأبدأ بطباعة رسالة واحدة فقط، حتى يأتي ويقف عند الباب ويراقبني كما لو كنت أشكل ظاهرة هامة.

«ماذا تفعل؟ هل تكتب؟» يسألني، وهو يقصد قصة أخرى.

كان يقف هناك أحياناً، ينتظر قليلاً، ثم يقول: «هل أنت مشغول جداً؟».

إذا قلت «لا، لماذا؟» فيجيب: «إني أفكر... أتذكر الصالون على ناصية جادة وايث مع غراند؟».

«بالطبع أتذكر. ماذا عنه؟».

«حسناً، كان هناك رجل يجلس هناك... كاتب، مثلك. يكتب مسلسلات. لكن كان عليه أن يملأ خزانه أولاً».

ولم تكن ملاحظة كهذه سوى فاتحة للحديث. فهو يريد أن يتكلم.

«ذلك الرجل المسن الذي كان يعيش في البناية التي تسكن فيها... ما اسمه مرة أخرى؟ مارتن. نعم، ذلك الرجل. كان يحمل دائماً نمسين اثنين في جيوب معطفه، أتتذكر؟ لقد جمع مالاً كثيراً، ذلك التافه، بنمسيه اللعينين. كان يعمل في جميع الفنادق الكبيرة في نيويورك ذات يوم، يقضي على الجرذان فيها. يا لها من مهنة، إيه؟ أنا أخاف من تلك الأشياء... يمكنها أن تلتهم بيضتيك... أتفهم ما أقصد؟ كان غريب الأطوار. ويا له من فنان سكير! ما أزال أستطيع أن أراه يتمايل في الشارع... وهذان النمسان اللعينان يمدان رأسيهما من جيوبه. أتقول إنه لم يعد يلمس هذه الأشياء الآن؟ لا أصدق ذلك. كان يبدّد نقوده كالأحمق في ذلك الصالون الذي أحدثك عنه».

ومن يمكنه أن ينتقل ليتحدث عن الأب فلاناغان أو كالاهان، نسيت اسمه الآن. الكاهن الذي كان يثمل حتى أذنيه ليلة كلّ يوم سبت. كان على المرء أن ينتبه عندما يشرب حتى الثمالة. فهو يحبّ أن يلوط بفتيان الجوقة. وكان من الممكن أن يضاجع أيّ امرأة يضع عينيه عليها، كان وسيماً ويعيش على طريقته.

«كنت أكاد أتغوّط في ثيابي عندما أذهب للاعتراف»، قال بادي. «نعم، كان ذلك اللقيط يعرف جميع الذنوب في التقويم»، وكان يرسم علامة الصليب وهو يقول هذا. «كان عليك أن تخبره كلّ شيء... حتى عدد المرات التي تمارس فيها العادة السرية في الأسبوع. والأسوأ من كلّ هذا، أسلوبه في أن يضرط في وجهك. أما إذا كنت في ورطة فكان الشخص الوحيد الذي ينقذك منها. لم يكن يقول لا أبداً. نعم، كان هناك الكثير من الأشخاص الطيبين في ذلك

الحيّ. بعضهم يمضي فترة في السجن الآن، هؤلاء الأغبياء المساكين...».

انقضى شهر ولم أتلق من مونا سوى رسالتين قصيرتين. كانتا تقيمان في شارع الأميرة في فندق صغير رائع، نظيف جداً، ورخيص جداً. فندق الأميرة هذا. لو أتيحت لي فرصة رؤيته لأحببته كثيراً! وفي هذه الأثناء تعرفتا على عدد من الأمريكيين، معظمهم من الفنانين والمعدمين. وهما تأملان في أن تخرجا قريباً من باريس لزيارة الأقاليم. فستاسيا في شوق للقيام بزيارة الميدي. جنوب فرنسا ذاك، حيث توجد مزارع الكرمة وبساتين الزيتون ومصارعة الثيران وما إلى هنالك. أوه نعم، وهناك ذلك الكاتب النمساوي المجنون، المعجب بستاسيا جداً الذي يظن أنها عبقرية.

«كيف حالهما؟» كان والديّ يسألان بين الحين والآخر.

فأقول: «على ما يرام».

ذات يوم قلت لهما إن ستاسيا انتسبت إلى معهد الفنون الجميلة بمنحة دراسية. كان ذلك لإسكاتهما لفترة من الوقت.

في هذه الأثناء عزّزت علاقتي مع رئيس قسم الحدائق. كم كانت صحبته ممتعة! كان عالمه خالياً من النزاع والصراع البشري؛ فلم يكن يتعامل إلا مع الطقس والتربة والحشرات والجينات. وكان كلّ شيء يضع يده عليه يزدهر. يتحرك في عالم الجمال والانسجام حيث يسود السلام والنظام. كنت أحسده. يا له من شيء رائع أن يكرس المرء وقته وطاقته للنباتات والأشجار! حيث لا توجد غيرة، ولا منافسة، ولا تدافع بالمناكب، ولا غشّ، ولا كذب. إذ كانت زهرة الثالوث تحظى بذات الاهتمام الذي تحظى به زهرة الكالورديون؛ ولم تكن زهرة الليلك أفضل من الوردة. وكانت بعض النباتات ضعيفة منذ نشأتها، وبعضها الآخر يعيش ويزدهر في ظلّ أية ظروف. وملاحظاته عن طبيعة الأرض تسحرني، تنوع الأسمدة، فنّ التطعيم. وفي الحقيقة لم تكن ثمة نهاية لهذا الأمر. مثل دور

الحشرة، أو معجزة التلقيح بغبار الطلع، وعمل الدودة الدؤوب، واستخدام المياه وسوء استخدامها، وارتفاع مختلف النباتات، وطبيعة الأعشاب الضارة والحشرات الأخرى، والصراع من أجل البقاء، وغزوات الجراد والجنادب، والخدمة المقدسة التي يقدمها النحل...

يا له من تناقض، عالم هذا الرجل مع العالم الذي يتحرك فيه طوني! الأزهار إزاء السياسيين، الجمال إزاء المكر والخداع. كان طوني المسكين يحاول جاهداً أن يظل طاهر الذيل. يقول ما لا يؤمن به، أو يبيع نفسه، إزاء الفكرة القائلة بأن الموظف الحكومي هو محسن لبلاده. وبطبعه فهو مخلص، عادل، متسامح وصادق، وكان يكره الأساليب التي يستخدمها أصدقاؤه. وعندما يصبح عضواً في مجلس الشيوخ، أو حاكماً فيما يحلم أن يكون، فإنه سيغيّر الأشياء. كان يؤمن بذلك بصدق شديد إلى درجة أني لم أعد أستطيع أن أسخر منه. لكنه كان أمراً قاسياً. مع أنه هو نفسه لم يفعل شيئاً جعله يشعر بتأنيب الضمير، لكن كان عليه التغاضي عن الأعمال والممارسات التي جعلته متمرداً. وعليه أن ينفق مالاً كالماء أيضاً. ومع ذلك، ورغم أنه كان مثقلاً بالدين، استطاع أن يقدم لأبويه هدية وهي البيت الذي يقيمون فيه. كما أنه كان يدفع نفقات الجامعة لأخيه الأصغر. وكما قال لي ذات يوم «هنري، حتى لو أردت أن أتزوج فلن أستطيع. فلا يمكنني أن أتحمّل العيش مع زوجة».

وذات يوم، وبينما كان يحدثني عن المحن والنوائب التي تعرض لها، قال: «كانت أفضل أيامي عندما كنت رئيساً لذلك النادي الرياضي. أتذكر؟ لم تكن توجد ألعاب سياسة آنذاك. هل تذكر عندما جريت في الماراثون ونقلوني إلى المستشفى؟ كنت في المقدمة آنذاك». ونظر إلى سرته وفرك بطنه. «هذا بسبب سهر الليالي مع الأولاد. هل تتساءل أحياناً لماذا أتأخر كلّ يوم؟ فأنا لا آوي إلى الفراش حتى الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً. أصارع الصداع بسبب الشراب دائماً. يا إلهي، لو عرف أبواي ما أفعله كي أصنع

لنفسي اسماً فسيتبرآن مني. هذه نتيجة أن تكون ابن مهاجر. ولأني إيطالي قذر، عليّ أن أثبت نفسي. أنت محظوظ لأنك لا تعاني من الطموح. كلّ ما تريده من الحياة هو أن تصبح كاتباً، إيه؟ لا يتعين عليك الخوض في الكثير من الغائط حتى تصبح كاتباً، أليس كذلك؟».

«هنري، يبدو لي أحياناً أن كلّ شيء عديم الجدوى. لذلك سأصبح رئيساً ذات يوم... وماذا في ذلك؟ تخيّل أن أتمكن من تغيير الأشياء ذات يوم؟ أنا نفسي لا أعتقد أن هذا سيحدث، كي أكون صادقاً معك. ليس لديك فكرة كم هي معقّدة هذه الوظيفة. إذ إنك مدين للجميع شئت أم أبيت. حتى لينكولن. لا، فأنا مجرّد ولد من صقلية الذي، إذا رحمتني الآلهة، قد أصل إلى الكونغرس ذات يوم. ما تزال لديّ أحلامي. هذا كلّ ما يمكنك أن تحصل عليه من هذه الوظيفة ـ الأحلام.

«نعم، ذلك النادي الرياضي... كان الناس يكنون لي احتراماً كبيراً آنذاك. كنت الضوء المشرق للحيّ. ابن صانع الأحذية الذي ارتقى وصعد من القاع. عندما وقفت لألقي خطاباً افتتنوا بي قبل أن أفتح فمي».

توقّف ليعيد إشعال سيجاره. أخذ نفساً، عبس بوجهه دليلاً على الاشمئزاز، ورماه.

«لقد اختلفت الأمور كلها الآن. أصبحت الآن جزءاً من الماكينة. رجل إمّعة في معظم الأشياء. أتحينّ فرصتي وأغوص في الحفرة أكثر وأكثر كلّ يوم. يا رجل، لو كانت لديك مشاكلي لشاب شعرك الآن. أنت لا تعرف ما يعني المحافظة على النزاهة القليلة التي تملكها وسط كلّ هذه الإغراءات التي تحيط بك. عثرة صغيرة واحدة ويوقعون بك. كلّ شخص يترصد الآخر ويحاول حفر حفرة للآخر. هذا ما يجمعهم على ما أظن. هؤلاء اللقطاء التافهون! أنا سعيد بأني لم أصبح قاضياً ـ لأني إذا كان عليّ أن أصدر حكماً على هؤلاء الأيور فلن أكون رحيماً. ما يحيّرني هو كيف يمكن أن تزدهر البلاد

بالدسائس والفساد. لابدّ أن هناك قوى إلهية تحرس جمهوريتنا هذه...».

توقّف قليلاً وقال: «انسَ! أنا أنفّس عن مشاعري المكبوتة. لكن لعلك تستطيع أن ترى الآن أني لست في رغد من العيش».

نهض ومدّ يده إلى قبعته. «بالمناسبة، كيف الحال معك؟ هل أنت بحاجة إلى مزيد من النقود؟ لا تخشى أن تطلب مني إذا احتجت إليها. حتى لو كانت لزوجتك تلك. بالمناسبة، كيف حالها؟ أما زالت في باريس المرحة؟».

ابتسمت له ابتسامة عريضة.

«أنت محظوظ يا هنري يا ولدي. محظوظ لأنها هناك، وليست هنا. تمنحك متنفساً. لا تخف فهي ستعود. ربما في وقت أقرب مما تظن... أوه بالمناسبة، أردت أن أقول لك من قبل... المفوّض يقول إنك رجل جيد. وأنا كذلك. إلى اللقاء الآن».

دأبت على السير في المساء بعد العشاء ـ إما باتجاه المقبرة الصينية، أو بالاتجاه الآخر، الطريق الذي يجعلني أمرّ من أمام منزل أونا غيفورد. وعلى الناصية كان الرجل العجوز مارتن يقف كلّ ليلة كالحارس، صيفاً شتاء. وكان يصعب المرور من أمامه دون أن أتبادل معه كلمة أو كلمتين، عادة عن آثام الشراب، والتبغ وما إلى ذلك.

كنت أتجوّل أحياناً حول الحارة، يائساً ومحبطاً غير عابئ بأن أتمشى قليلاً. وقبل أن أخلد إلى النوم كنت أقرأ أحياناً مقطعاً من الكتاب المقدس، الكتاب الوحيد في البيت. وهو كتاب فيه قصص رائعة للنوم أيضا. ولا يمكن لأحد أن يكتبه سوى اليهود. إذ يتيه المسيحي فيه، بكلّ ذلك البغض في الأنساب، والسفاح، والفوضى، ودراسة الدلالات السحرية للأعداد، وقتل الأخ، وقتل الأب، والأوبئة، ووفرة الطعام، والزوجات، والحرب، والاغتيالات، والأحلام، والنبوءات... ولا يمكن لأحد أن يستوعبها سوى طالب لاهوت. لا

يوجد فيه منطق. والكتاب المقدس هو العهد القديم بالإضافة إلى الأسفار غير المعترف بصحتها. أما العهد الجديد فهو كتاب ألغاز «للمسيحيين فقط».

على أية حال، ما أقصد قوله أني أعجبت بسفر أيوب. «أين كنت عندما وضعت أسس الأرض؟ قل إن كنت تفهم». لقد أحببت هذه الجملة، فهي تلائم إحساسي بالمرارة، حزني وكربي. أحببت الفقرة الملحقة بشكل خاص «قل، إن كنت تفهم». ليس لأحد أن يفهم هذا النوع. فلم يكن يهوه سعيداً بأن يرهق أيوب بالأحزان والمآسي الأخرى، بل كان عليه أن يقدم له ألغازاً أيضاً. ومرة بعد أخرى، بعد صراع وعراك مع الملوك والقضاة، أرقام ومقاطع مخدّرة أخرى تتناول أصول الكون وخاصة المجموعة الشمسية، والختان والويلات التي ستحيق بمن حلت عليهم اللعنة، أتجه إلى أيوب وأشعر بالراحة لأنني لم أكن واحداً من المختارين. وفي النهاية، إن كنت تذكر، يصبح أيوب متأهّباً. وكان قلقي شيئاً تافهاً، وربما لم يكن يزيد على حجم نونية.

بعد أيام قليلة، وعند العصر كما أظن، وصل الخبر بأن ليندبيرغ طار فوق المحيط الأطلسي بسلامة. انصبت القوة كلها عندما خرج الجميع إلى المرج ليصيحوا ويهتفوا ويطلقوا صافراتهم ويهنئوا بعضهم بعضاً. وقد عمت البهجة الهستيرية الكرة الأرضية كلها. كانت مأثرة هوميرية، فقد تمكن إنسان عادي من تحقيق هذا الإنجاز بعد ملايين السنين.

لم أكن شديد الحماس. فقد خفّ حماسي قليلاً بعد أن وصلتني رسالة في صباح ذلك اليوم بالذات، ذكرت لي فيها أنها في طريقها إلى فيينا مع بعض الأصدقاء. وقد علمت أن الغالية ستاسيا، هي في مكان ما من شمال أفريقيا. ذهبت مع ذلك النمساوي المجنون الذي كان يظن أنها رائعة للغاية. والطريقة التي قالتها فيها قد تجعل المرء يظن أنها هربت إلى فيينا نكاية بشخص ما. وبالطبع لم يكن

ثمة تفسير حول تحقّق هذه المعجزة. وكان بإمكاني أن أفهم غزو ليندبيرغ للجو أكثر من أن أفهم رحلتها إلى فيينا.

قرأت الرسالة مرّتين محاولاً أن أكتشف من هم رفاقها. كان حلّ اللغز بسيطاً: احذف علامة الجمع «s» واقرأها صديق. ولم يراودني أدنى شك بأن شاباً أمريكياً متسكعاً وغنياً هو من يرافقها. وما أثار حنقي أكثر أنها لم تذكر لي عنوانها في فيينا كي أكتب لها. كان عليّ أن أنتظر. أنتظر وأكظم غيظي.

إن انتصار ليندبيرغ الرائع على العناصر لم يساعد إلا في التنفيس عن إحباطي وإراحتي. فقد كنت هنا محشوراً في مكتب، أقوم بأعمال تافهة وغبية، محروماً حتى من مصروف الجيب، لا أتلقى إلا إجابات ضئيلة على رسائلي الطويلة التي تمزق نياط القلب، بينما هي تتسكّع وتنتقل من مدينة إلى أخرى كطير من طيور الجنة. ما فائدة أن أحاول الذهاب إلى أوروبا؟ كيف يمكنني أن أعثر على عمل هناك وأنا أواجه كلّ هذه المصاعب في بلدي؟ ولماذا أدّعي بأنها ستبتهج كثيراً لرؤيتي عندما أصل إلى هناك؟

كلما ازداد تفكيري بالوضع ازددت كآبة. وفي حوالى الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم، عندما اعتراني مزاج من اليأس المطلق، جلست إلى الآلة الكاتبة لأضع معالم الكتاب الذي قلت لنفسي يجب عليّ أن أكتبه ذات يوم. لقد جاء يوم الحساب بالنسبة لي. كان أشبه بكتابة مرثيتي.

رحت أكتب بسرعة، بأسلوب كتابة البرقيات، منذ الأمسية التي التقيتها فيها لأول مرة. ولسبب يتعذر تفسيره، وجدت نفسي أؤرخ زمنياً، وبدون جهد سلسلة الأحداث الطويلة التي ملأت الفترة بين ذلك المساء الحاسم والوقت الحاضر. قلّبت صفحة إثر صفحة، ومع ذلك كان هناك دائماً المزيد الذي يمكنني أن أضيفه.

قرصني الجوع، توقفت عن العمل وانطلقت إلى حي الفيليج لأتناول شيئاً من الطعام. وعندما عدت إلى المكتب جلست أمام الآلة

الكاتبة ثانية. وفيما بدأت أكتب رحت أضحك وأبكي. ومع أنني كنت أدوّن مجرد ملاحظات، بدا وكأني كنت أكتب الكتاب في الحقيقة في الحال، وعدت أعيش المأساة كلها خطوة خطوة، يوماً بيوم.

انتهيت بعد منتصف الليل بفترة طويلة. كنت منهكاً تماماً. استلقيت على الأرض ونمت. صحوت مبكراً، وذهبت إلى الفيليج ثانية لتناول قليل من الطعام، ثم عدت مشياً على القدمين لأواصل عملي لهذا اليوم.

في وقت لاحق من ذلك اليوم قرأت ما كنت كتبته أثناء الليل. وأضفت عليها بضع أشياء. كيف تذكّرت بهذه الدقّة الألف تفصيل وتفصيل التي دوّنتها؟ وإذا قيض لهذه الملاحظات البرقية أن تتوسع وتصبح كتاباً فإن إعطاء الموضوع حقه يتطلّب عدّة مجلدات. أذهلتني فكرة ضخامة هذه المهمّة. متى سأمتلك الشجاعة للقيام بهكذا عمل بمثل هذه الأبعاد؟

وفيما كنت أفكر بهذا لمعت في رأسي فكرة رهيبة. وهي أن حبّنا انتهى. هذا هو المعنى الوحيد للتخطيط لمثل هذا العمل. لكني رفضت أن أقبل بهذه الخاتمة. قلت لنفسي إن غرضي الحقيقي هو مجرّد حكاية - «فقط» - قصة مصائبي ونوائبي. لكن هل من الممكن كتابة آلام المرء وهو مايزال يعاني؟ لا بد أن أبيلارد قد فعل ذلك. وراودتني الآن فكرة عاطفية. سأكتب كتاباً من أجلها - لها - وعندما تقرأه ستفهم، ستفتح عينيها، سيساعدني في دفن الماضي، سنبدأ حياة جديدة، حياة معاً... تآزر حقيقي.

يا لي من ساذج! وكأن بوسع قلب امرأة مغلق أن يفتح ثانية.

كتمت هذه الأصوات الداخلية، هذه التلقينات الداخلية التي لايمكن إلا للشيطان أن يلهم بها. كنت جائعاً لحبّها أكثر من أي وقت مضى، يائساً أكثر من أي وقت مضى. وتذكرت إحدى الليالي منذ سنوات حين جلست إلى طاولة المطبخ (كانت زوجتي في سريرها في الطابق العلوي)، وأفرغت ما يجيش في صدري عنها في مناشدة

انتحارية مستميتة. وكان للرسالة مفعولها. لقد وصلت إليها. فلماذا إذاً لا يكون للكتاب تأثير أكبر؟ وخاصة كتاب يعرّى فيه القلب؟ أتذكر تلك الرسالة التي كتبتها إحدى شخصيات هامسن إلى حبيبته فيكتوريا، الرسالة التي بدأها بعبارة «إن الله ينظر من الأعلى». وفكّرت بالرسائل التي تبادلها أبيلارد وهيلويس وكيف أن الزمن لايمكن أن ينساها. أوه، قوّة الكلمة المكتوبة!

في ذلك المساء، وبينما كان أبواي جالسين يقرآن الصحف، كتبت لها رسالة يمكنها أن تحرّك قلب عُقاب. (كتبتها وأنا جالس إلى تلك المنضدة الصغيرة التي جُلبت لي عندما كنت صبياً) أخبرتها بمخطط الكتاب وكيف أني حددت معالمه بجلسة واحدة متواصلة. وقلت لها إن الكتاب مكرس لها، وإنه هي. أخبرتها بأنني سأنتظرها حتى لو استغرق هذا الانتظار ألف سنة.

كانت رسالة هائلة، وعندما انتهيت أدركت أني لا أستطيع أن أرسلها لها لأنها نسيت أن تعطيني عنوانها. تملكني غضب شديد. كان كما لو أنّ لساني قد قُطع. كيف يمكنها أن تلعب معي مثل هذه الخدعة الوضيعة؟ حيثما كانت ألا يمكنها أن تشعر بأني كنت أكافح من أجل الوصول إليها؟ ورغم اللعنات التي أنزلتها بها كان قلبي يقول لها «أحبّك، أحبّك، أحبّك...».

وحين زحفت إلى السرير رحت أكرّر هذه العبارة الغبيّة، أخذت أئن مثل جندي جريح.

11

في اليوم التالي، وفيما كنت أفتش في سلة المهملات بحثاً عن رسالة مفقودة، وجدت رسالة مجعدة كان من الواضح أن المفوّض رماها باشمئزاز. كان الخطّ رفيعاً ومرتعشاً، وكأنه مكتوب بخطّ رجل عجوز، لكنه كان واضحاً رغم الخطوط المتقنة التي يستمتع في رسمها. ألقيت نظرة عليها، ثم دسستها في جيبي لقراءتها في وقت فراغي.

كانت هذه الرسالة، السخيفة والمثيرة للشفقة بطريقتها، هي التي أنقذتني من موتي كمداً. فإذا كان المفوّض قد رماها هناك فلا بدّ أنها كانت بأمر من ملاكي الحارس.

«صاحب الفخامة:...» استهلت، وبالكلمات التالية زال الهم عني. فلم أجد نفسي أسخر من الماضي فقط، بل وجدت أني أسخر من نفسي، وهو أمر أكثر أهميّة.

«صاحب الفخامة: أرجو أن ترفل في صحة جيدة أثناء هذا الطقس الشديد التقلب الذي نراه حالياً. أنا في صحة جيدة جداً الآن ويسرني أن أقول لك هذا».

ثم، وبدون مزيد من الجلبة، استهل مؤلف هذه الوثيقة الخطبة الفضولية الذاتية التالية:

«أرجو أن تصنع لي معروفاً لطيفاً وخاصاً كما وأرجو أن تتفضل وتطلب من العاملين في إدارة الحدائق أن يخرجوا للعمل الآن

ويباشروا العمل على حدود المنطقة المسؤولين عنها وهي كوينز وأقاليم كينغز، ويعملون شرقاً ثم غرباً، وعلى النمط نفسه شمالاً وجنوباً - ويزيلون الأشجار الميتة والأشجار التي على وشك أن تموت، والأشجار التي فيها فتحات في الجزء الأساسي وفي الجذع، والأشجار المنحنية والمائلة وتلك التي على وشك السقوط وتلحق أضراراً بالحياة البشرية، وبالأطراف وبالممتلكات، وممارسة ذلك على جميع الأشجار الجيدة، سواء كانت كبيرة أم صغيرة، والممتازة على نحو متماثل ومنظّم وصحيح وشامل وجيد، التلقيم والتشذيب والتقشير من القاعدة حتى الأجزاء العليا كلها.

«أرجو أن تصنع لي معروفاً لطيفاً وخاصاً جداً وأن تطلب من العاملين في إدارة الحدائق تخفيف الأوراق في قمم الأشجار الشديدة النمو، وذات الارتفاع الكبير لتصبح بارتفاع يقرب من خمسة وعشرين قدماً، وتقصير جميع الأغصان والفروع الطويلة وترقيق كلّ أجزاء الأشجار بقوة من القاعدة إلى الأجزاء العليا كي تمنح مزيداً من النور، مزيداً من النور الطبيعي، ومزيداً من الهواء، ومزيداً من الجمال، ومزيداً من الأمان للمشاة، والطرق العامة وحتى للمناطق المحيطة على امتداد الشوارع، والجادات، والأماكن، والطرق، والطرق الفرعية، والطرق السريعة، والجادات الواسعة، والمصاطب، والطرق العامة (والشوارع التي تدعى ساحات، والأزقة وما إلى هنالك) وفي داخل الحدائق العامة وخارجها.

«أوّد أن أطلب منكم بلطف وبسرعة كبيرة أن تقوموا بتقليم الأغصان والفروع وتقشيرها وتشذيبها بمسافة تبدأ من اثني عشر إلى خمسة عشر قدماً من الجدران الأمامية والجانبية والخلفية لجميع البيوت والبنايات الأخرى من كلّ وصف ونوع، وعدم تركها تلامس بعضها لأن عدداً كبيراً منها يشوّه المشهد الطبيعي العام، لكي تمنح مزيداً من الضوء، ومزيداً من النور الطبيعي، ومزيداً من الهواء، ومزيداً من الجمال، ومزيداً من الأمان.

«أرجو أن تتفضلوا بالطلب من العاملين في إدارة الحدائق

تقليم، وتشذيب وتقشير الأغصان بمسافة تتراوح بين اثني عشر إلى ستة عشر قدماً فوق الأرصفة والأرض وما إلى هنالك. وعدم تركها تتدلى كثيراً إلى مستوى واطئ كما هو حال عدد كبير منها الآن، كي تمنح ارتفاعاً للسير تحتها...».

واسترسلت في التحدث بهذا الأسلوب، مفصّلة وواضحة دائماً، ولم يتغير الأسلوب على الإطلاق. وهاهنا فقرة أخرى.

«أرجو أن تطلب القيام بتقليم الأغصان والفروع وتشذيبها وقصها إلى حدّ كبير تحت أسطح البيوت والبنايات الأخرى، وعدم تركها ناتئة، أو مدلاة، أو تركها تلامس البيوت والبنايات الأخرى، والقيام بفصل الأغصان والفروع المتشابكة بين شجرة وأخرى، وعدم ترك الأغصان والفروع تتدلى، أو تتشابك بالأشجار المجاورة الأخرى كي تمنح مزيداً من الضوء، ومزيداً من النور الطبيعي، ومزيداً من الهواء، ومزيداً من الجمال، ومزيداً من الأمان للمشاة والطرق والمناطق العامة المحيطة في أنحاء مقاطعة كوينز، بنيويورك...».

وما أن أنهيت قراءة الرسالة حتى شعرت براحة شديدة. فقد ارتاح بالي إزاء العالم، وأصبحت متساهلاً إلى درجة كبيرة إزاء ذاتي الثمينة. بدا كما لو أنّ شيئاً من ذلك النور «ذلك النور الأكثر طبيعية» قد غزا كياني. ولم يعد يغلفني ضباب اليأس. بل أصبح هناك مزيد من الهواء، ومزيد من النور، ومزيد من الجمال لكل ما يحيط بي: ما يحيط بي من الداخل.

وفي ظهيرة يوم السبت، اتجهت مباشرة إلى جزيرة مانهاتن. وفي ساحة تايمز سكوير خرجت من محطة الأنفاق، تناولت طعاماً بسرعة في مطعم أوتومات، ثم عدت باتجاه أقرب مرقص شامل. ولم يخطر ببالي أني كنت أكرّر نمطاً أوصلني إلى حالتي المنحطة الحالية هذه. وعندما شققت طريقي عبر أبواب مرقص قصر إتشيغومي الكبيرة في الطابق الأرضي من بناية غريبة المظهر في

هذا الجانب من مقهى موزمبيق، اعتراني مزاج يشبه المزاج الذي جعلني أتمايل فوق الدرجات المخلخلة في مرقص آخر في برودواي ووجدت محبوبتي هناك. ومنذ ذلك اليوم أصبح عقلي خالياً من الحانات الرخيصة التي تجعلك تدفع الرسم عند الباب، وملائكة الرحمة اللاتي يسلبن زبائنهن النهمين للجنس نقودهم. وكلّ مافكّرت فيه الآن هو أن أمضي بضع ساعات هرباً من السأم، بضع ساعات من النسيان وعدم التفكير، وأن أحصل على ذلك بأرخص ما يمكنني. ولم أعد أخشى الوقوع في الحبّ ثانية، أو حتى أن أضاجع واحدة من تلك الفتيات، رغم حاجتي الماسة إلى ذلك. فقد اعترتني رغبة في أن أصبح مثل أي إنسان عادي آخر، قنديل بحر، إذا أحببت، في محيط جارف. لم أطلب شيئاً أكثر من أن أدفع وأخوض في بركة مليئة باللحم المعطّر تحت قوس قزح مائي تغمره أضواء هادئة ومسكرة.

عندما دلفت إلى المكان أحسست بأني أشبَه بفلاح يأتي إلى المدينة. وعلى الفور انبهرت، بهرني بحر الوجوه، الدفء النتن المنبعث من مئات الأجساد الشديدة الإثارة، المليئة ببريق الأوركسترا، بحركة الأضواء الدائرية الملونة. وبدا أن الجميع في هياج شديد يصل إلى أعلى درجات الحمّى، وبدا الجميع عازمين، ويقظين. عازمون بحدّة، ويقظون بشدة. وكان الهواء مشبعاً بهذه الرغبة الكهربائية، التركيز الشديد ذاك. فقد اصطدمت رائحة ألف عطر مختلف ببعضها، ومع حرارة القاعة، ومع العرق والتعرق، وحمّى الرواد وشبقهم، لأنهم كانوا بالتأكيد، كما كان يبدو لي، رذاذاً من نوع أو آخر. فربما كانوا رواد دهليز الحبّ المهبلي! رواد البشاعة، يتقدّم أحدهم نحو الآخر بشفاه متباعدة، بشفاه حارة جافّة، بشفاه جائعة، بشفاه مرتعشة، بشفاه مستجدية، تنشج، تتوسل، تعلك، وتنقع شفاهاً أخرى. وهم يقظون كذلك، جميعهم. صاحون للغاية في الحقيقة. صاحون مثل مجرمين حققوا نجاحاً. يقترب أحدهم من الآخر في شكل قالب كيك ضخم دوّار، والأضواء

الملوّنة تتراقص على وجوههم، تماثيلهم النصفية، أوراكهم، تقطعهم إلى أشرطة ملونة ثم تشبكهم فيها، ومع ذلك فهم يتمكنون من التملص منها بمهارة، فيما يلتفون حولها، خداً لخدّ، شفة لشفة.

كنت قد نسيت كيف يبدو هذا الهوس بالرقص. وبعد أن أضحيت وحيداً إلى درجة كبيرة، قريباً جداً من أحزاني، استولى علي التفكير. هنا توجد حيوية بوجهها الذي لا اسم له وبدون أحلام مشذبة. هنا توجد أرض من أصابع الأقدام المتلألئة، من الأرداف الحريرية، بعد أن ترفع الكلفة وتشعر بالراحة، الآنسة فيكتوريا نيانزا، لأنه لم تعد توجد مصر ولا بابل ولا الجحيم. هنا القردة في مرحلة الشبق تسبح في بطن النيل تريد نهاية كلّ الأشياء، هنا كاهنات إله الخمر باخوس القديمات، بعثن من جديد على عويل الساكسفون والبوق الصامت، هنا تخرج أمهات ناطحات السحاب مبايضهن الملتهبة ليهوينها، بينما تسمّم الموسيقى التي لا تتوقف عن العزف المسامات، وتخدّر العقل، وتفتح بوابات السدود. بالعرق، برائحة العطور ومزيلات الروائح المثيرة للاشمئزاز، التي تعبق في المكان، تمتصها مراوح التهوية سراً، أما روائح الشبق الكهربائية فتملأ المكان مثل هالة معلقة في الفضاء.

أتمشى جيئة وذهاباً بجانب ألواح شوكولا هيرشي بالبندق، المكدّسة الواحدة فوق الأخرى مثل قوالب ثمينة، أفرك العلبة. ألف ابتسامة تمطر عليّ من كلّ حدب وصوب. أرفع وجهي كما لو كنت أرغب في أن ألتقط قطر الندى المتلألئ الذي ينثره نسيم لطيف. ابتسامات، ابتسامات. كما لو لم تكن الحياة والموت، سباقاً إلى الرحم والعودة. رعشات وحفيف، كرات السمك والكافور، زيت أوميغا... انتشرت الأجنحة على اتساعها، الأطراف عارية وجاهزة للمس، راحات وكفوف رطبة، جباه تلمع بحبات العرق، شفاه جافة، ألسنة مدلاة، أسنان تلمع كما في الإعلانات، العيون براقة، تجول، تعرّي المرء... عيون ثاقبة نفاذة، بعضهم يبحث عن ذهب، وبعضهم

يبحث عن مضاجعة، وبعضهم يريد أن يقتل، لكنهم جميعهم متلألئين، متلألئين بوقاحة، تلمع ببراءة مثل حوصلة أسد حمراء، ويدّعون، نعم، يدّعون بأنه عصر يوم السبت، أرضية كأيّ أرضية أخرى، الفرج فرج، لا جدال، لا مساومة، اشتريني، خذني، ضمني إليك، كلّ شيء مسموح في إتشيغومي، لا تدوس فوق قدمي، أليس هو دافئ، نعم، إني أحبّه، أحبّه، عضّني مرة أخرى، بقوة أكبر... أكثر...

رحت أتنقّل جيئة وذهاباً، أتفحصهن - الطول، الوزن، القوام - أتلمس خواصرهن، أقيس صدورهن، أعجازهن، أدرس تصفيفات شعورهن، أتمعن في أنوفهن، طريقة مشيتهن، الأفواه نصف المفتوحة، الأفواه الأخرى المغلقة... أجساد تتمايل، تنزلق، تتدافع، تتلامس، وفي كل مكان بحر من الوجوه بحر من اللحم تقطعه ضربات من سيف الضوء، مجموعة كاملة تلتصق ببعضها في حساء راقص واحد واسع. وفوق هذا اللحم المختلط الحار الذي لا يتوقف عن الدوران، وتلويث الآلات النحاسية، وعويل الترومبون، والساكسفونات التي تسبب الجلطة، والأبواق التي تثقب طبلة الأذن، كلها مثل نار سائلة تتجه مباشرة نحو الغدد. وعلى الجانبين، تنتصب مثل حراس عطشى، دوارق مقلوبة ضخمة من عصير البرتقال، وشراب الليمون، ومشروب السارسباريلا، والكوكا كولا، والبيرة، وحليب الأتان ولبّ شقائق النعمان الذابلة. وفوق كلّ هذا، همهمة مراوح التهوية التي تكاد لا تُسمع تمتص روائح اللحم والعطور الفاسدة الحامضة، وتنقلها إلى رؤوس الحشود المارة في الشارع.

أعثر على واحدة! هذا كلّ ما كنت أفكّر به. لكن من؟ رحت أدور وأدور، لكني لم أجد شيئاً يناسبني. بعضهن كن رائعات، جذابات - لكن غبيات. كنت أريد شيئاً أكثر من هذا. كان سوقاً، سوقاً للحم - لماذا لا تنتقي ما يعجبك؟ كانت لمعظمهن تلك النظرة الفارغة التي

تنم عن أرواح فارغة كما كنّ. ولم لا، فهن لا يتعاملن إلا بالبضائع، بالمال، بالماركات، بالأزرار، بالأطباق، وبسندات الشحن، بلا توقف؟ هل يجب أن تكون لديهن شخصية أيضاً؟ كان لبعضهن، كالطيور الضارية، تلك النظرة الذاوية التي تعصف بها ريح شديدة ـ لا نظرات القحبات، العاهرات، البائعات. كان بعضهن يقف مثل زهور ذابلة أو مثل قصبات ملفوفة بمناشف رطبة. بعضهن نقي كعشب الطير، ينظرن كما لو كن يتمنين أن يغتصبن، لكن دون أن يصبن بأذى شديد. كان الطعم الحيّ الجيد يقف على باحة الرقص، يتلوّين، يتلوّين، أردافهن البليغة تسطع مثل حرير مواريه.

وكانت المضيفات يتجمعن في إحدى الزوايا بجانب كشك التذاكر. كن مشرقات وناضرات، كما لو كن قد خرجن من حوض الحمّام لتوّهن. جمعيهن مصففات الشعر على نحو جميل، ويرتدين فساتين جميلة.

بانتظار أن يُشترين، وإذا أسعفهن الحظّ، يُدْعون إلى العشاء واحتساء النبيذ. بانتظار الرجل الملائم، ذلك المليونير المتعب الذي قد يطلب الزواج في لحظة نسيان.

أقف عند الدرابزين أتفحصهن ببرود. أصبحت منطقة يوشيوارا للدعارة الآن... فعندما تنظر باتجاههن سيخلعن ثيابهن، ويقمن ببعض الحركات البذيئة، ويناديك بصوت أجش. لكن لإتشيغومي برنامج مختلف. فهو يطلب منك أن تتفضل وتقطف الزهرة التي تختارها بصدق، وتأخذها إلى وسط ساحة الرقص، تتبادلان الهمسات والقبل، تقضم وتلتهم، تتلوّى وتتمايل، تشتري المزيد من البطاقات، تقدم للفتاة كأساً من الشراب، تتكلّم بلباقة، تأتي مرة أخرى في الأسبوع القادم، تختار زهرة جميلة أخرى، وشكراً لك، وطابت ليلتك.

تتوقف الموسيقى بضع لحظات ويذوب الراقصون مثل ندف الثلج. فتاة ترتدي ثوباً أصفر شاحباً تنزلق عائدة إلى كشك

الجواري. تبدو كوبية. قصيرة بعض الشيء، متينة البنية، وذات فم نهم.

أنتظر لحظة لأعطيها فرصة حتى يجف عرقها، ثم أقترب. تبدو في الثامنة عشرة من عمرها وطازجة من الغابة. الأبنوس والعاج. تحيتها دافئة وطبيعية ـ لا ابتسامة جاهزة. يتبين لي أنها جديدة في اللعبة، وهي كوبية. (يا له من شيء رائع) باختصار، فهي لا تمانع كثيراً في أن يُلمس جسدها كله، أن تُمضغ حتى تصبح قطعاً، وما إلى ذلك؛ إنها ما تزال تخلط بين المتعة والعمل.

نُدفع إلى وسط ساحة الرقص، نقف ثابتين في مكاننا، نمكث دون حراك كاليرقات، الرقيب يغط في النوم، الأضواء خافتة كثيراً، الموسيقى تتسلّق مثل عاهرة مدفوعة الأجر من الكروموسوم إلى الكروموسوم. تأتي هزة الجماع وتبتعد قليلاً خشية أن يتلوث فستانها.

بعد أن عدت إلى الحاجز رحت أرتعد مثل ورقة. فكلّ ما أضحى بإمكاني أن أشمه الآن هو الفرج، الفرج، الفرج. لم تعد ثمة فائدة من الرقص في عصر هذا اليوم. يجب أن تعود مرة أخرى يوم السبت القادم. لم لا؟

وهذا ما أفعله تماماً. ففي يوم السبت من الأسبوع الثالث أصادف فتاة جديدة في كشك الجواري. إنها تمتلك جسداً رائعاً، وقد نُحت وجهها، وجُعلت تقاطيعه مثل تمثال قديم، يثيرني. وتمتلك قدراً أكبر بقليل من الذكاء من الأخريات، وهو أمر لا ضرر منه، ولم تكن تسعى وراء المال. وهذا شيء استثنائي حقاً.

وعندما لا يكون لديها عمل، كنت أصحبها إلى السينما أو إلى مرقص رخيص في الحيّ الآخر. ولم يكن يهمها أين نذهب. فقط اجلب معك قليلاً من الشراب، هذا كلّ ما في الأمر.

وهي لا تريد أن تسكر بقوة، لا... فهي تظن أن هذا يجعل الأمور أكثر سلاسة. إنها فتاة ريفية من شمال نيويورك.

لا يوجد توتّر في حضورها. تضحك بسهولة، تتمتّع بكلّ شيء. وعندما كنت أصطحبها إلى البيت ـ فهي تعيش في نزل ويتعين علينا أن نقف في المدخل ونفعل أقصى ما بوسعنا أن نفعله. شيء يجهد الأعصاب، حيث لا يتوقف النزلاء عن الذهاب والقدوم طوال الليل.

كنت أسأل نفسي أحياناً وأنا أودعها، لماذا لم ألتق بمثل هذا النوع من الفتيات، من النوع المرن المتساهل، بدلاً من نوع الفتيات المشاكسات الصعبات المراس؟ ولم يكن لهذه الفتاة أدنى ذرة من الطموح؛ لا شيء يزعجها، لا شيء يقلقها. حتى أنها لم تكن تخشى من أن «تُمسك مسك اليد»، كما يقول المثل. (لعلها كانت ماهرة في الرفو بالإبرة).

لا يحتاج الأمر إلى كثير من التفكير لتدرك أن السبب في أني منيع هو الضجر الذي يتملكني بسرعة. على أية حال، فإن ارتباطي بها بقوة لم يكن يشكل خطراً كبيراً. فأنا نفسي واحد من الرواد، شخص لا يستبعد أن يسرق قليلاً من النقود من محفظة صاحبة البيت.

قلت إنها تمتلك جسداً رائعاً، هذه الفتاة المغناجة. ممتلئة ورشيقة، لدنة، ناعمة كالفقمة. وعندما كنت أمرر يدي على ردفيها كان ذلك يجعلني أنسى كلّ مشاكلي، ونيتشه وستيرنير وباكونين أيضاً. أما وجهها، فإنْ لم يكن جميلاً جداً، لكنه كان جذاباً ورائعاً. وربما كان أنفها طويلاً قليلاً، غليظاً بعض الشيء، لكنه يلائم شخصيتها، أعني أنه يناسب فرجها الضاحك ذاك. لكن ما أن بدأت أقارن بين جسدها وجسد مونا، حتى عرفت للتو أن ذلك لا يجدي نفعاً. فمهما كان نوع الدم واللحم الذي تمتلكه، فهو مايزال لحماً ودماً. لم يكن فيها شيء أكثر مما تستطيع أن تراه وتمسّه وتسمعه وتشمّه. أما مع مونا فكانت قصّة مختلفة تماماً. فقد كانت أيّ بقعة من جسدها تثيرني وتلهبني. وكانت شخصيتها مثلاً تتركز إلى حد كبير في حلمتها اليسرى، كما في إصبع قدمها اليمنى الصغير. كانت

كل بقعة من بشرتها تتكلّم، كلّ مسام من مساماتها. وللغرابة أنها لم تكن تمتلك جسداً مثالياً كذلك. لكنه كان شجياً ومستفزاً. كان جسدها يردّد مزاجها. فلم تكن بحاجة لأن تعبّر عن ذاتها أو تقول رأيها؛ وكلّ ما عليها أن تفعله، هو أن تبقيه كما هو.

وكان جسد مونا أيضاً يتغيّر باستمرار. أتذكّر تلك الأيام التي كنا نقيم فيها مع الطبيب وعائلته في البرونكس، عندما كنا نأخذ دوشاً معاً دائماً، يفرك أحدنا جسد الآخر بالصابون، يضم أحدنا الآخر، نمارس الجنس بكل جوارحنا وعنفواننا - تحت الدوش - بينما الصراصير تجري أعلى وأسفل الحيطان مثل جيوش متقهقرة. لم يكن جسدها آنذاك، مع أني أحببته، متناسقاً. فقد كانت طيات اللحم تتدلّى من خصرها، وثدياها رخوين، وردفاها منبسطين، كردفي صبي. ومع ذلك فقد كان ذات الجسد الذي كان متلفعاً بثوب منقّط من القماش السويسري، كانت تتمتع بسحر وإغراء فتاة رشيقة. عنق ممتلئ، كنت أطلق عليه دائماً العنق الأسطواني، وكان يلائم الصوت الحيوي المليء الأجش الذي يصدر منه. ومع مضي الأشهر والسنوات، طرأت على هذا الجسد جميع أنواع التغييرات. ففي بعض الأحيان كان يصبح رشيقاً مشدوداً مثل الطبل. يكاد يصبح مشدوداً جداً، رشيقاً جداً. ثم يتغيّر مرة أخرى، وكان كلّ تغيير يسجّل تحويلاتها الداخلية، تقلّباتها، أمزجتها، أشواقها، وإحباطاتها. لكنه كان يبقى دائماً مستفزاً - يستجيب بحيوية شديدة، مدغدغاً، ينبض بالحبّ، بالرقة، مشبوباً بالعاطفة. وفي كلّ يوم كان يبدو أنه يتحدث لغة جديدة.

ما هي إذن القوة التي يمكن لجسد آخر أن يمارسها؟ في الغالب مجرد قوة ضعيفة، عابرة. لقد وجدت الجسد، ولم يعد شيء آخر ضرورياً. لم يعد شيء آخر يرضيني تماماً. لا، ذلك النوع من الضحك ليس لي. لقد اخترق أحدهم ذلك النوع من الجسد مثل سكين يمرّ فوق ورق مقوّى. ما كنت أتوق إليه هو الشيء المحيّر، العسير

الإدراك. (الأفعوان الخرافي المراوغ، هكذا صغتها لنفسي) المحّير والنهم في الوقت نفسه. جسد مثل جسد مونا، الذي، كلما امتلكته أكثر، ازداد هوسي به. جسد يمكن أن يجلب معه كلّ ويلات مصر وعجائبها وأعاجيبها.

جربت مرقصاً آخر. كلّ شيء كان رائعاً ـ الموسيقى، الأضواء، الفتيات، حتى مراوح التهوية. لكني لم أعد أشعر بالوحدة، بالعزلة وبالخراب. وبيأس رحت أرقص مع الواحدة تلو الأخرى. كنّ جميعهن طيعات، متجاوبات، مرنات، لطيفات، وجميلات وذوات بشرة حريرية، لكن اليأس تملكني سحقني. وفي آواخر العصر بدأ شعور بالغثيان يعتريني. فقد جعلتني الموسيقى خاصة أشعر بالقرف. كم ألف مرة سمعت هذه الألحان الباهتة الشاحبة، الغبيّة بكلمات الحبّ التي تبعث على الاشمئزاز! نسل القوادين والمجرمين الوشاة الذين لم يسبق لهم أن عرفوا لوعة الحبّ. «جنيني» ظللت أكرّر لنفسي. موسيقى الأجنة جُعلت للأجنة. الدب الكسلان يدعو رفيقه على عمق خمسة أقدام من مياه المجاري؛ ابن عرس يبكي حبيبه الذي فقده ويغرق في بوله. رومانسية، جماع البنفسج مع العشبة النتنة وكلمة أحبّك! كتبت على ورق تواليت حريري مرّ عليه ألف مشط رفيع للغاية. ألحان وقوافي اخترعها لوطيون مصابون بالجرب؛ قصائد غنائية كتبها ألبومن وأصحابه!

بعد أن هربت من هذا المكان رحت أفكّر بالأسطوانات الأفريقية التي كنت أمتلكها ذات يوم، أتذكر دفقات الدم، الثابتة والمتواصلة، التي تحرّك موسيقاهم. إيقاع الجنس هو الثابت المتكرر فقط، كم كان منعشاً، كم كان نقياً، كم كان بريئاً!

كنت في حالة أردت فيها أن أخرج قضيبي، في وسط برودواي وأستمني. تصوّر مهووساً جنسياً يخرج قضيبه بعد ظهر يوم سبت على مرأى الناس أمام مطعم أوتومات!

رحت أمشي باتجاه حديقة سنترال بارك وقد تملكني الغضب

والسخط، ثم ارتميت على العشب. لقد ذهب المال، ماذا هناك لأفعله؟ هوس الرقص... كنت ما أزال أفكر به. كنت ما أزال أصعد الدرجات الحادّة المفضية إلى كشك التذاكر حيث كان يجلس اليوناني الكثيف الشعر وهو يمسك المال. («نعم، ستأتي بعد قليل؛ لماذا لا ترقص مع إحدى الفتيات الأخريات؟») وفي معظم الأحيان، لم تكن تأتي على الإطلاق. وفي إحدى الزوايا، على المنصة، كان الموسيقيون الملوّنون يعملون بغضب، يتفصدون عرقاً، يلهثون، يتنفّسون؛ يعزفون ساعات طويلة بفتور. لم يكن شيئاً ممتعاً لهم، ولا للفتيات كذلك، مع أنهن كن يبلّلن سراويلهن من حين لآخر. وكان يجب على المرء أن يكون أبلهاً لرعاية مكان كهذا.

يحل محل ذلك شعور بالخمول اللذيذ، كنت على وشك إغماض عينيّ عندما ظهرت من لا مكان صبية فاتنة وجلست على ربوة تعلوني. لعلها لم تكن تعرف، من المكان الذي اتخذته، أن أجزاءها الخاصة كانت مكشوفة تماماً. ربما لم تكن تبالي. ربما لم يكن ثمة شيء وقح أو سوقي بطريقتها في الابتسام لي، أو غمزها لي برمشها؛ كانت مخلوقاً لطيفاً هبط من السماء لتستريح من طيرانها.

لم تكن تدرك وجودي، لذلك كانت ما تزال مستغرقة في أحلام اليقظة، كانت رائعة ومثيرة للدهشة، أغمضت عيني وغفوت. والشيء التالي الذي عرفته هو أني لم أعد على هذه الأرض. وكما يستغرق المرء وقتاً ليعتاد على الآخرة، هكذا كنت في حلمي. وأغرب شيء كان عليّ أن أتعود عليه هو أن أقوم بأي شيء يتعين عليّ فعله بأقلّ جهد ممكن. فإذا تمنّيت أن أجري، ببطء أو بسرعة، أن أفعل ذلك دون أن ألهث. وإذا أردت القفز فوق بحيرة أو تجاوز هضبة، أن أقفز فوقها ببساطة. وإذا أردت أن أطير، طرت. لم يكن هناك شيء أكثر من ذلك.

بعد قليل أدركت أني لم أكن وحيداً. كان ثمة شخص يقف إلى جانبي، كظلّ، يتحرّك بذات السهولة والطمأنينة مثلي. ملاكي

الحارس، على الأغلب. ومع أني لم أصادف شيئاً يشبه مخلوقات دنيوية، وجدت نفسي أتحدّث بسهولة مرة أخرى مع أي مخلوق يعبر طريقي. فإذا كان حيواناً تكلّمت معه بلغته؛ وإذا كان شجرة تكلّمت معها كشجرة؛ وإذا كان صخرة تكلّمت كصخرة. وعزوت موهبة اللغات والألسن هذه لوجود الكائن الذي يرافقني.

لكن إلى أيّ عالم كنت متجهاً؟ ولأي هدف؟

وشيئاً فشيئاً أدركت أني كنت أنزف، كنت في الحقيقة كتلة من الجروح، من الرأس وحتى القدمين. وعندها استولى علي الخوف، وأغمي عليّ. وعندما فتحت عينيّ أخيراً، رأيت لدهشتي الكائن الذي كان يرافقني يضمد جروحي برقة، ويدهن جسمي بالزيت. هل كنت على وشك أن أموت؟ هل كان ملاك الرحمة هو الذي كان محنياً فوقي باهتمام؟ أم أني اجتزت البرزخ الكبير؟

وبتوسل رحت أحدّق في عينيّ مخلّصي. نظرة الشفقة الرائعة التي أنارت قسماتها هي التي طمأنتني. لم أعد أعبأ بمعرفة إن كنت ما أزال أعيش في هذا العالم أم لا. شعور بالسلام غزا كياني، ومرة أخرى أغمضت عينيّ. ببطء وبثبات امتلأت أطرافي بحماسة جديدة؛ لكني شعرت بأن إحساساً غريباً بالفراغ في منطقة القلب قد أُستعيد بالكامل.

بعد أن فتحت عينيّ ووجدت أني وحيد، مع أني لم أكن مهجوراً أو منبوذاً، رفعت يداً بشكل غريزي ووضعتها على قلبي. ولفزعي كان هناك ثقب عميق في المكان الذي كان يجب أن يكون القلب. ثقب لم يكن يتدفق منه دم. «إذن أنا ميت»، غمغمت. ومع ذلك لم أصدق.

في هذه اللحظة الغريبة كنت ميتاً، ولكني لست ميتاً. فتحت أبواب الذاكرة إلى ممرات ودهاليز الزمن التي لم يكن يُسمح لإنسان أن يراها حتى يسلم الروح: فقد رأيت كلّ مرحلة ولحظة من ضعفي المثير للشفقة، التعاسة المطلقة التي كنت أعيشها، الوغد، لا شيء أقل، الذي كافح عبثاً وعلى نحو مخز لحماية قلبه الصغير البائس.

رأيت أنه لم يحطم أبداً، كما تخيّلت، لكنه، مشلول بالخوف، كاد ينكمش حتى العدم. رأيت أن الجروح الغائرة التي جعلتني حزيناً استُقبلت بجهد خال من الإحساس كي لا يتحطم هذا القلب المنكمش. فلم يُمسّ القلب نفسه أبداً، بل تضاءل وانكمش بسبب الهجر وعدم الاستخدام.

لقد اختفي الآن، هذا القلب. لا شكّ أن ملاك الرحمة أخذه مني. لقد عولجت وأعدت كي أواصل العيش في الموت كما لم أعش في الحياة. لم أعد ضعيفاً، فما الحاجة لوجود قلب؟

استلقيت منكباً على وجهي، وقد استعدت قوّتي وحماسي. أصابتني فداحة مصيري بالصدمة كصخرة. غمرني إحساس بفراغ الوجود المطلق. لقد وصلت إلى درجة الحصانة التي كنت أملكها إلى الأبد، لكن الحياة - إذا كانت هذه الحياة قد فقدت كل معناها. تحرّكت شفتاي كما لو أنهما تصليان، لكن الشعور بالرغبة في التعبير عن ألمي خيبني. بدون قلب، فقدت قوّة التواصل حتى مع خالقي.

ومرة أخرى ظهر الملاك أمامي. وبيديه المكورتين مثل كأس، كان يحمل القلب المنكمش المسكين الذي كان لي. ومنحني نظرة تنم عن عطف وشفقة كبيرتين، نفخ على هذه الجمرة التي بدت ميتة، حتى انتفخت وامتلأت بالدم، حتى بدأ يخفق بين أصابعه كقلب إنسان ينبض بالحياة.

أعاده إلى مكانه، تحرّكت شفتاه كما لو أنه كان يعلن البرَكة، لكن لم يصدر عنه صوت. لقد غُفرت ذنوبي؛ أصبحت حراً في أن أرتكب الإثم ثانية، حرّاً في أن أحترق بلهيب الروح. لكني عرفت في تلك اللحظة، ولن أنسى أبداً، أن القلب هو الذي يحكم، القلب هو الذي يوثق الصلات ويحميها. وأن هذا القلب لا يموت أبداً، لأنه كان محفوظاً في أيد أكثر عظمة.

يا للمتعة التي تملكتني الآن! يا لها من ثقة كاملة ومطلقة!

استويت واقفاً. أصبحت كائناً جديداً تماماً. فتحت ذراعيّ لأعانق العالم. لم يتغيّر شيء، كان العالم الذي طالما عرفته. لكني رأيته الآن بعيون الآخر. لم أعد أرغب في الهروب منه، أتحاشى أمراضه، أو أعدلها بأدنى وسيلة. كنت ممتلئاً به ومتوحداً معه. لقد جئت عبر وادي ظلّ الموت؛ لم أعد أخجل من أن أكون إنساناً، إنساناً بالكامل.

لقد وجدت مكاني. أصبحت أنتمي إليه. كان مكاني في العالم، وسط الموت والفساد. والشمس والقمر والنجوم رفاقي. وتطهر قلبي من جميع الشرور والآثام، ولم أعد أخاف شيئاً، وأصبح يسعى الآن ليقدّم نفسه إلى أول قادم. بالفعل، تكوّن لديّ الانطباع بأنني كنت كلّي قلباً، قلباً لا يمكن تحطيمه، ولا حتى جرحه، بما أنه لا ينفصل عن القلب الذي منحته الحياة إلى الأبد.

وهكذا، وفيما رحت أسير إلى الأمام باتجاه مجاهل العالم، وقع خراب كامل وساد الرعب، فرحت أصرخ بكلّ التأجّج الذي تمتلكه روحي «تشجعوا، أيها الأخوة والأخوات! تشجعوا!».

12

عندما وصلت إلى المكتب صباح يوم الاثنين وجدت برقية على طاولتي تقول إن باخرتها ستصل يوم الخميس، ويجب أن أقابلها على رصيف الميناء.

لم أقل شيئاً لطوني، لأنه سيعتبر الأمر كارثة. ورحت أكرر على نفسي نص الرسالة. فلم يكد الأمر يُصدق.

استغرق الأمر ساعات حتى استجمعت نفسي. وفيما كنت على وشك مغادرة المكتب في ذلك المساء، ألقيت نظرة أخرى على الرسالة لأتأكد من أن ما قرأته صحيحاً. لا، إذ كانت ستصل يوم الخميس، فلا خطأ في ذلك. نعم، يوم الخميس القادم، لا الخميس الذي يليه، ولا الذي يليه. يوم الخميس هذا. إنه أمر لا يصدق.

كان أول شيء ينبغي أن أعمله هو أن أجد مكاناً نقيم فيه. غرفة صغيرة مريحة في مكان ما، ذات إيجار غير مرتفع أيضاً. وهذا يعني أن عليّ الاستدانة ثانية. مِنْ مَن؟ بالتأكيد ليس من طوني.

لم يفرح والديّ كثيراً عندما سمعا الخبر. وكان تعليق أمي الوحيد «أرجو ألا تترك عملك بعد أن تعود».

جاء يوم الخميس وكنت أقف على رصيف الميناء، قبل الموعد المحدد بساعة. كانت قد استقلت إحدى أسرع السفن الألمانية. وصلت السفينة، متأخرة قليلاً، ونزل المسافرون، وغابت الأمتعة عن البصر، لكني لم أر أثراً لمونا أو ستاسيا. هرعت إلى المكتب مذعوراً

حيث توجد قائمة بأسماء المسافرين. لم يكن اسمها مدرجاً في القائمة، ولا اسم ستاسيا كذلك.

عدت إلى الغرفة الصغيرة التي استأجرتها، وقلبي ثقيل كالرصاص. بالتأكيد كان بإمكانها أن تبعث لي برسالة. كان ذلك شيئاً قاسياً، قاسياً منها.

وفي صباح اليوم التالي، وبعد وصولي إلى المكتب بفترة وجيزة، تلقيت مكالمة هاتفية من مكتب البرقيات. إذ كانت لديهم برقية لي. «اقرأها!» صرخت. (هؤلاء الحمقى، ماذا ينتظرون؟) «سأصل يوم السبت على متن سفينة بيرينجاريا. مع حبي».

إنها البرقية الحقيقية هذه المرة. رحت أراقبها وهي تهبط الدرج المتحرك. إنها هي، هي. وكانت أكثر فتنة من أي وقت مضى. وبالإضافة إلى حقيبة الصفيح الصغيرة، كانت تحمل حقيبة سفر وحقيبة صغيرة محشور بها أشياء. لكن أين هي ستاسيا؟

ستاسيا ما تزال في باريس. لا تعرف متى ستعود. رائع! قلت لنفسي. لا حاجة لمزيد من الأسئلة.

وفي سيارة الأجرة، بدت مسرورة عندما أخبرتها عن الغرفة التي استأجرتها. «سنجد مكاناً أفضل في ما بعد»، قالت («يا إلهي، لا!» قلت لنفسي. «لماذا مكان أفضل؟»).

هناك ألف سؤال وسؤال يدور في رأسي كنت في شوق لأطرحه عليها. حتى أني لم أسألها لماذا غيّرت البواخر. ماذا يهم ما حدث يوم أمس، أو قبل شهر، أو قبل خمس سنوات؟ لقد عادت وهذا يكفي.

ما كانت هناك حاجة لطرح أسئلة ـ كانت في شوق لأن تخبرني بأشياء كثيرة، ورجوتها أن تتحدث ببطء، لا أن تحكي كلّ شيء في الحال. قلت لها: «احتفظي ببعض الأشياء إلى وقت لاحق».

وفيما كانت تفتّش في الحقيبة المعدنية ـ لقد جلبت معها جميع

أنواع الهدايا، بما فيها لوحات، وقطع منحوتة، وألبومات فنية ـ لم أتمالك نفسي من ألا أضاجعها. ضاجعتها على أرض الغرفة وسط الصحف والكتب واللوحات والثياب والأحذية وما إلى هنالك. لكن حتى هذا التوقف لم يوقفها عن تدفقها في الكلام. كان هناك الكثير في جعبتها، الكثير من الأسماء التي تريد أن تسردها. وقد بدا ذلك لأذنيّ مزيجاً من الجنون.

قاطعتها فجأة وقلت: «أخبريني شيئاً واحداً. هل أنت متأكدة من أني سأحب الحياة هناك؟».

ارتسمت على وجهها تعابير منتشية جداً وقالت: «أتحبها؟ فال، إنها الحياة التي طالما حلمت بها. مكانك الطبيعي هناك، حتى أكثر مني. ففيها كلّ ما تبحث عنه ولا تجده هنا. كلّ شيء».

ثم انطلقت تحكي عن الشوارع، كيف تبدو، الشوارع المتعرّجة الملتفة، الممرات، الأزقة المسدودة، الأماكن الصغيرة الفاتنة، الجادات العريضة العظيمة، كتلك التي تشعّ من الإتوال؛ ثم الأسواق، ومحلات الجزارين، وأكشاك الكتب، والجسور، والشرطة على الدراجات العادية، والمقاهي، والملاهي، والحدائق العامة، والنافورات، وحتى المباول. وهكذا وبدون توقّف مثل جولة طباخ. وكلّ ما كان بوسعي أن أفعله هو أن عينيّ كانتا تدوران يمنة ويسرة، وأهز رأسي وأصفّق بيديّ. وقلت لنفسي: «لو كانت جيدة بمقدار نصف ما تقوله لكان شيئاً رائعاً».

وأرادتني أن أعرف أن ثمة شيئاً سيئاً واحداً هناك: النساء الفرنسيات لسن جميلات. نعم إنهن جذّابات، لكنهن لسن جميلات، مثل نسائنا الأمريكيات. أما الرجال فهم مثيرون للاهتمام وحيويون، مع أنه يصعب التخلص منهم. وقالت إنها تظن أني سأحبّ الرجال، مع أنها تتمنى ألا أكتسب عاداتهم في ما يتعلق بالنساء. وقالت إنها تظن أن لديهم مفهوماً عن المرأة «من القرون الوسطى». فللرجل الحقّ في ضرب المرأة علناً. وقالت: «من الفظيع

رؤية ذلك». وأضافت «أن لا أحد يجرؤ على التدخّل. حتى الشرطة يشيحون بنظرهم».

لم أصدق كلّ ما قالته، بطريقتها المألوفة. وجهة نظر امرأة. أما بالنسبة للجمال الأمريكي، فيمكن لأمريكا أن تحتفظ بجميلاتها. فهن لا يجذبنني.

«يجب أن نعود»، قالت وقد نسيت «أننا» لم نذهب إلى هناك معاً. «إنها الحياة الوحيدة التي تناسبك يا فال. وأعدك بأنك ستكتب هناك، حتى لو تضورنا جوعاً. لا يبدو أن أحداً يملك مالاً هناك. ومع ذلك فهم يتدبرون أمورهم ـ كيف، لا أعرف. على أية حال، إن كون المرء مفلساً هناك ليس كما هو الحال هنا. فالإفلاس هنا شيء قبيح. أما هناك فهو... حسناً، شيء رومانسي، أظن أنك ستقول. لكننا لن نكون مفلسين عندما نعود. يجب أن نعمل كثيراً الآن، نوفّر قدراً من المال، حتى يمكن أن تعيش مدة سنتين أو ثلاث سنوات على الأقل عندما نذهب».

كان من الجيد سماعها وهي تتحدث بهذا الحماس عن «العمل». وفي اليوم التالي، الأحد، أمضينا اليوم ونحن نسير ونتكلم. لا شيء سوى مخططات للمستقبل. ولكي نقتصد المال قرّرت أن تبحث عن مكان يمكننا أن نطهو فيه. شيء يشبه البيت أكثر من قاعة غرفة النوم التي استأجرتها. «مكان يمكنك أن تعمل فيه»، كما قالت.

كان هذا النمط مألوفاً تماماً. قلت لنفسي دعها تفعل ما تشاء، فهي ستتدبر أمورها على أية حال.

قالت: «لا بد أن عملك هذا مملّ جداً».

«ليس سيئاً كثيراً». كنت أعرف ما هي الجملة التالية. «أرجو ألّا تبقى فيه إلى الأبد؟».

«لا يا عزيزتي. سأعود إلى الكتابة قريباً».

قالت: «يبدو أن الناس يتدبرون أمورهم هناك على نحو أفضل

من هنا، وبمال أقل بكثير. فإذا كان المرء رساماً فهو يرسم؛ وإذا كان كاتباً فهو يكتب. لا تؤجل الأشياء حتى تصبح كلّ الأشياء وردية». توقّفت، ولا شكّ أنها ظنت أني سأبدي شكوكي. «أعرف يافال»، تابعت وغيّرت نبرة صوتها، «أعرف أنك تكره أن تراني أفعل الأشياء التي أفعلها لكي نسدّ رمقنا. أنا نفسي لا أحب ذلك. لكنك لا تستطيع أن تعمل وتكتب، هذا أمر واضح. وإذا كان على أحد أن يضحّي، فليكن أنا. بصراحة، إن ما أفعله ليس تضحية، فكل ماأحيا من أجله هو أن أراك تفعل ما تريد أن تفعله. يجب أن تثق بي، تثق بأني أفعل ما بوسعي لمصلحتك... لكن عندما نذهب إلى أوروبا ستختلف الأمور كثيراً. إذ إنك ستتفتّح هناك كالزهرة، أعرف ذلك. يالها من حياة تافهة حقيرة التي نعيشها هنا. هل تعرف يافال، أنه لم يكد يبقى لديك صديق تهتمّ برؤيته؟ ألا يعني هذا شيئاً بالنسبة لك؟ أما هناك فما أن تجلس في أحد المقاهي حتى تتّخذ أصدقاء على الفور. إنهم يناقشون الأشياء التي تحبّ أن تناقشها. أولريك، الصديق الوحيد الذي تتحدث معه بهذه الطريقة. أما مع الآخرين فأنت لست سوى مهرج. أليس هذا صحيحاً؟».

كان عليّ أن أعترف بأنه شيء حقيقي تماماً. وجعلني الحديث بهذه الطريقة، من القلب إلى القلب، أشعر بأنها ربما تعرف على نحو أفضل مني ما الجيد وما الطالح بالنسبة لي. ولم أكن أكثر لهفة من الآن في أن أجد حلاً سعيداً لمشاكلنا. وخاصة مشكلة القيام بعملي الاعتيادي. مشكلة الاتفاق في الرأي.

عادت وهي لا تملك سوى بضعة سنتات في محفظتها. وقالت إن عدم توافر النقود هو الذي جعلها تغيّر الباخرة في الدقيقة الأخيرة. وبالطبع كانت هناك أشياء أكثر من هذا، وراحت تقدم بإسهاب تفسيرات أخرى، لكنها كانت جميعها سريعة ومشوشة إلى حد أني لم أستطع مجاراتها. وما فاجأني هو أنها وجدت مكاناً جديداً ننتقل إليه في وقت قصير جداً ـ في أحد أجمل الشوارع في

بروكلن كلها. لقد وجدت المكان الملائم تماماً، ودفعت إيجار شهر مقدماً، واستأجرت لي آلة كاتبة، وملأت الخزانة بالطعام، واللّه أعلم ماذا أيضاً. ودفعني الفضول لأن أعرف كيف حصلت على النقود.

قالت: «لا تسألني. سيكون هناك المزيد منها عندما نحتاجها».

فكّرت بجهودي التي لم تكلل بالنجاح لاستجداء بضع دولارات تافهة. والمبلغ الذي ما زلت أدين به لطوني.

قالت: «هل تعرف أن الجميع سعيدون بعودتي ولا يستطيعون أن يرفضوا لي طلباً».

«الجميع»، ترجمتها بأنها تعني: «أحدهم».

وكنت أعرف أن الشيء التالي سيكون ـ «اترك هذه الوظيفة البشعة!».

كان طوني يعرف ذلك أيضاً. فقد قال لي ذات يوم: «أعرف أنك لن تبقى معنا أكثر من ذلك»، وأضاف «بطريقة ما أنا أحسدك. وعندما تترك العمل حاول ألا يفقد أحدنا طريق الآخر. سأشتاق إليك، أيها النغل».

حاولت أن أقول له كم أقدّر كلّ ما فعله لي، لكنه رفض أن يسمع ذلك. قال «ستفعل الشيء ذاته، لو كنت في مكاني. لكن بجدّ هل ستستقرّ وتكتب الآن؟ أرجو ذلك. يمكننا أن نحصل على حفّاري قبور في أيّ وقت، لكن لا يمكننا أن نحصل على كاتب».

لم يكد يمضي أسبوع حتى ودعت طوني. وكانت تلك آخر مرة أراه فيها. وقد سددت له في نهاية الأمر المبلغ الذي كنت أدين به له، لكن بالقطّارة. أما الآخرون الذين كنت مديناً لهم فلم أسدد لهم نقودهم إلا بعد خمسة عشر أو عشرين سنة. وكان بعضهم قد مات قبل أن أصل إليهم. هكذا هذه الحياة «جامعة الحياة»، كما دعاها غوركي.

كان البيت الجديد رائعاً. النصف الخلفي من الطابق الثاني في

بيت قديم من الآجر البني. وفيه كلّ وسائل الراحة، بما في ذلك بسط ناعمة، وبطانيات صوفية سميكة، وثلاجة، وحمّام، ودوش، ومخزن ضخم، وموقد كهربائي، وما إلى هنالك. أما بالنسبة لصاحبة البيت، فمن المؤكد أنها أعجبت بنا. يهودية ذات أفكار تحررية ومولعة بالفن كثيراً. فقد اعتبرت أن وجود كاتب وممثلة ـ إذ أخبرتها مونا بأنها تعمل ممثلة ـ في بيتها نصر مضاعف بالنسبة لها. وكان زوجها قد مات بشكل مفاجئ ـ وهي تعمل معلّمة ـ ولديها ميول للتأليف. وقد مكّنها مبلغ التأمين الذي حصلت عليه من وفاة زوجها من أن تترك التعليم. وقالت إنها تأمل في أن تبدأ الكتابة قريباً. وتمنت أن أقدم لها بعض النصائح الثمينة عندما يتوافر لديّ الوقت.

من كلّ زاوية، كان الوضع رائعاً. لكن إلى متى سيدوم؟ هذا السؤال كان يجول في رأسي دائماً. وكنت أشعر بالسعادة أكثر من أي شيء عندما كنت أرى مونا تعود بعد ظهر كلّ يوم حاملة حقيبة التسوّق وهي ممتلئة. وكان من الرائع أن أراها وهي تغيّر ثيابها، وترتدي مئزراً، وتطهو العشاء. صورة الزوجة السعيدة. وبينما وجبة الطعام تُطهى، كانت أسطوانة فونوغراف جديدة تصدح دائماً بشيء مثير، شيء لم يكن بوسعي أن أشتريه بنفسي. وبعد العشاء كنا نتناول شراباً كحولياً ممتازاً مع القهوة. وكنا ننهي كلّ ذلك بين الحين والآخر بمشاهدة فيلم. وإذا لم يكن كذلك فنزهة في الحيّ الأرستقراطي الذي يحيط بنا. صيف هندي بكلّ معنى الكلمة.

وهكذا، وفي إحدى نوبات الثقة، أعلمتني ذات يوم بوجود رجل مسن غني نالت إعجابه، وكانت تؤمن به ـ ككاتب ـ ورحت أستمع إليها بأناة ودون أن أُظهر أدنى إحساس بالانزعاج أو الغضب. لكن سرعان ما انكشف سبب فورة الثقة هذه.

إذا كان بإمكانها أن تثبت لهذا المعجب الرائع كيف يمكنها أن تغيّر الجوهر! وذلك بأنها تستطيع أن تؤلف كتاباً، رواية، وأنه سيقوم بنشرها. والأكثر من ذلك، فقد عرض عليها راتباً أسبوعياً

ممتازاً وهي تواصل كتابة هذه الرواية. وتوقّع بالطبع أن تعرض عليه بضع صفحات في الأسبوع. هذا شيء مناسب، أليس كذلك؟

«وهذا ليس كلّ شيء يا فال. لكني سأخبرك بالباقي في ما بعد، عندما تبدأ بالكتاب. من الصعب ألا أخبرك، صدقني، لكن يجب أن تثق بي. ما قولك؟».

فوجئت أني لم أعرف ما سأقوله.

«هل يمكنك أن تفعل ذلك؟ هل ستفعل ذلك؟».

«يمكنني أن أحاول. لكن ـ».

«لكن ماذا يا فال؟».

«ألن يتمكن من معرفة أنها كتابة رجل وليس كتابة امرأة؟»

«لا، يا فال، لن يعرف!» جاء الرد على الفور.

«كيف تعرفين؟ كيف يمكنك أن تكوني واثقة إلى هذه الدرجة؟».

«لأني وضعته موضع الاختبار. لقد قرأ بعضاً من أعمالك ـ وقلت له إني أنا من كتبها ـ بالطبع ـ ولم يشك بأي شيء».

«هكذا... همم. لا يغيب عنك شيء».

«إذا كنت تريد أن تعرف، فقد أبدى اهتماماً كبيراً. قال إنه لايوجد شكّ في أني أمتلك موهبة. وقال إنه سيعرض الصفحات على ناشر صديق له. هل يرضيك هذا؟».

«لكن رواية... هل تظنين بصدق أنه يمكنني أن أكتب رواية؟».

«لم لا؟ إنك تستطيع أن تفعل أيّ شيء تصمم عليه. ليس من الضروري أن تكون رواية تقليدية. كلّ ما يريد أن يعرفه هو إن كنت سألتزم بذلك أم لا. فهو يقول إني متقلبة المزاج، وذات نزوات».

قلت: «بالمناسبة، هل يعرف أين... أقصد... تقيمين؟».

«طبعاً لا! هل تظن أني مجنونة؟ قلت له إني أعيش مع أمي وهي مقعدة».

«ماذا يعمل؟».

«أظن أنه يعمل في تجارة الفراء»، وبينما كانت تجيبني كنت أفكّر كم بدا مهماً أن أعرف كيف تعرّفت عليه، بل وحتى كيف تمكنت من أن تحقق تقدماً في وقت قصير كهذا. لكنني لن أسمع سوى أجوبة ساذجة على مثل هذه الاستفسارات.

«إنه يعمل في سوق الأوراق المالية أيضاً»، أضافت. «ربما يعمل أشياء عديدة في الوقت نفسه».

«إذاً فهو يظن أنك عازبة تعيشين مع أمّ مقعدة؟».

«قلت له إني تزوّجت وطلّقت. أعطيته اسما مستعاراً».

«يبدو أنك رتبت الأمر جيداً. حسناً، على الأقل لا يتعين عليك أن تجري في الليالي من مكان إلى آخر، أليس كذلك؟».

فأجابت: «إنه مثلك، يكره حي الفيليج وكلّ ذلك الهراء البوهيمي. بجدّ يا فال، إنه شخص مثقف. يحب الموسيقى. لقد عزف الكمان ذات يوم، كما أظن».

«نعم؟ ما اسم هذا الشاذ؟».

«بوب».

«بوب؟».

«نعم، بوب فقط».

«كم عمره... حوالى؟».

«أوه، خمسين على ما أظن».

«ليس مسناً كثيراً، أليس كذلك؟».

«لا، لكنه رجل رزين. إنه يبدو أكبر سناً».

«حسناً»، قلت لأنهي الموضوع، «إنه شيء مثير للاهتمام. من يعرف، ربما أفضى هذا إلى شيء. لنخرج ونتمشى، ماذا تقولين؟».

قالت: «بالتأكيد، أيّ شيء تحبّ».

أيّ شيء تحبّ. كان هذا تعبير لم أسمعه من شفتيها منذ شهور عديدة. هل أحدثت الرحلة إلى أوروبا فيها تغييراً سحرياً؟ أم أن هناك شيئاً تحضّره وليست مستعدة لتحدّثني عنه؟ لم أكن في لهفة لأن أبذر الشكوك. لكن هناك الماضي بكلّ ندبه الجليّة. اقتراح بوب هذا الآن ـ بدا أنه أصيل وصريح. ومن الواضح أنه دخل من أجلي أنا، لا من أجلها. ماذا لو أنها استمرأت فكرة أن تُعتبر كاتبة لاممثلة؟ كانت تفعل ذلك كي أنطلق. كانت تلك طريقتها في حلّ مشكلتي.

لقد أسرني جانب واحد في هذه الحالة. فقد وصلتني آخر أخباره، عندما سمعتها تنقل بعض الأحاديث التي دارت بينها وبين بوب. أحاديث تتناول «عملها». وعلى ما يبدو فلم يكن بوب أحمق بكل معنى الكلمة. فقد كان يسأل أسئلة. أسئلة صعبة أحياناً. وهي، لأنها لم تكن كاتبة، لا يتوقع أن تعرف الإجابة، عندما أواجهها بسؤال مباشر ـ «لماذا قلت هذا؟» ـ وربما كان الجواب: «لا أعرف» وظناً منها أنها يجب أن تعرف، كانت تعطي أكثر التفسيرات إثارة للدهشة، تفسيرات قد يكون الكاتب فخوراً بأنه يتمتع بالذكاء لأن يفكر بذلك بسرعة. وكان بوب يستطيب هذه الردود. فهو لم يكن كاتباً أيضاً.

«أخبريني أكثر»، كنت أقول.

وكانت تسترسل في الحديث، مع أن معظمه مجرد خيال. وكنت أجلس مسترخياً وأنفجر ضاحكاً. وذات مرة سررت كثيراً وقلت: «كيف تعرفين أنك لست كاتبة أيضاً؟».

«أوه لا، يا فال، ليس أنا. فأنا لن أكون كاتبة. أنا ممثلة، لاأكثر».

«تعنين أنك مزيفة؟».

«أعني أني لا أملك موهبة حقيقية لأيّ شيء».

«لم تفكّرين دائماً بهذه الطريقة»، قلت، وقد آلمني أن أجعلها تعترف بهذا.

«وأنا كذلك!»، قالت. «لقد أصبحت ممثلة... أو بالأحرى صعدت إلى خشبة المسرح... فقط لأثبت لأبويّ بأني أكثر مما كانوا يظنون بي. فأنا لا أحبّ المسرح حقاً. كنت أرتعب في كلّ مرّة أقبل فيها دوراً. أشعر بأني محتالة. فعندما أقول إني ممثلة فأنا أعني أنني أتظاهر بذلك دائماً. لست ممثلة حقيقية، أنت تعرف ذلك. ألا ترى ذلك في داخلي دائماً؟ أنت ترى كلّ شيء زائف أو أتظاهر به. أتساءل أحياناً كيف يمكنك أن تتحمّل العيش معي. بصدق فأنا...».

كلام غريب يصدر عنها. فحتى الآن، هي تمثّل بأنها صادقة ومخلصة جداً. إنها تتظاهر الآن بأنها ذلك. وكالعديد من النساء اللاتي يتمتعن بموهبة مسرحية، عندما تصبح ذاتها الحقيقية موضع تساؤل، فهي إما أن تقلّل من شأن نفسها، أو أن تضخّمها. ولا يمكنها أن تكون طبيعية إلا عندما تريد أن تترك انطباعاً في شخص ما. كانت تلك طريقتها في تجريد خصمها من السلاح.

وكان الاستماع إلى هذه الأحاديث مع بوب يثير اهتمامي، وخاصة عندما يتحدثان عن الكتابة. كتابتها. من يعرف؟ فلعل هذا الرجل العجوز، كما كانت تطلق عليه بتردّد، يرى داخلها. ربما يتظاهر بأنه يجس نبضها (بعمل الكتابة هذا) ليسهل أمر قبولها المال الذي يغدقه عليها. وربما يظن أنه عندما يجعلها تعتقد أنها تكسب ماله فهو يوفر على نفسه الشعور بالحرَج. ومما فهمته فهو ليس من ذلك النوع الذي يقترح عليها بصراحة أن تصبح خليلته. وهي لم تقل ذلك مباشرة لكنها كانت تلمح إلى أنه كان منفراً للغاية من الناحية الجسدية. (كيف يمكن للمرأة أن تعبّر عن ذلك؟) لكن لمتابعة هذه الفكرة... وبإطراء أناها ـ وماذا يمكن أن يكون إطراء امرأة من نوعها أكثر من معاملتها بجدية كفنانة؟ ـ لعلها ستمثّل دور الخليلة دون أن تُسأل. من باب الامتنان المطلق، عندما تكون المرأة

ممتنة للاهتمام الذي تتلقاه، فهي تكاد تكون مستعدة لأن تقدم جسدها دائماً.

ومن المفروض بالطبع، أنها تقدم قيمة مقابل قيمة، منذ البداية.

لم تؤثر التخمينات من هذا النوع على العلاقة السلسلة التي نشأت بيننا. فعندما تسير الأشياء في مسارها الصحيح، من المدهش إلى أي مدى يمكن أن ينتقل العقل دون أن يلحق أضراراً بالروح.

كنت أجد متعة في النزهات سيراً على القدمين بعد العشاء. وكانت هذه النزهات شيئاً جديداً في حياتنا. إذ كنا نتحدث بحرية، وبتلقائية أكبر. كما ساعد توافر بعض النقود في جيوبنا في جعلنا نفكّر ونتحدث عن أشياء أخرى غير محنتنا العادية الحزينة. فقد كانت ميادين الشوارع عريضة، وواسعة، ورائعة. والقصور القديمة التي بدأت تبلى تنام في غبار الزمن. كانت ما تزال فيها أبهة وعظمة. وتوجد في مقدمة بعض هذه القصور، الأعمدة التي كان يُربط إليها الزنوج في الأيام الماضية. الممرات مظللة بالأشجار، الأشجار القديمة ترفل بأوراقها الخضراء؛ والمروج الجميلة والمشذبة دائماً، تتألق بخضرة زاهية. وقبل كل شيء، كان الهدوء يغلف الشوارع، بحيث يمكن للمرء أن يسمع خطوات من مسافة بعيدة.

كان الجوّ يبعث على الكتابة. فمن نوافذ بيتنا الخلفية، رحت أنظر إلى حديقة جميلة تنتصب فيها شجرتان ضخمتان تنشران ظلاً واسعاً. ومن النافذة المفتوحة كانت تنبعث في معظم الأحيان أصوات موسيقى جميلة. ويتناهى إلى سمعي بين الحين والآخر، صوت غناء ـ عادة سيروتا أو روسنبلات ـ لأن صاحبة البيت اكتشفت أني أحبّ موسيقى الكنيس. وكانت تطرق الباب أحياناً لتقدم لي قطعة من فطيرة أو فطيرة بالفاكهة خبزتها هي. وترمق الطاولة التي أعمل عليها، التي تتناثر الكتب والصحف فوقها على الدوام، ثم

تخرج مسرعة، ممتنة كما يبدو، لهذا الامتياز بالسماح لها أن تلقي نظرة سريعة على عرين كاتب.

وفي إحدى الأمسيات، وفيما كنا نتمشى، توقّفنا عند مخزن قرطاسية على ناصية الشارع، يبيع المثلجات والصودا، لأشتري سجائر. وهو مخزن قديم تديره عائلة يهودية. أحببت المكان فور دخولي المخزن. فقد كان يشيع فيه ذلك الجو الناعس الباهت الذي يميز المحلات الصغيرة التي كنت أتردد إليها، عندما كنت صبياً أبحث عن الشوكولا بالقشطة أو عن كيس من الفستق الإسباني. وكان صاحب المحل يجلس إلى طاولة في زاوية المخزن ذات ضوء خافت، يلعب الشطرنج مع أحد أصدقائه. وذكّرتني الطريقة التي كانا منحنيين فيها فوق لوحة الشطرنج باللوحة الشهيرة «لاعبو الورق» بريشة سيزان. وواصل الرجل الثقيل ذو الشعر الأشيب، الذي يعتمر قبعة ضخمة تميل فوق عينيه، التمعن في رقعة الشطرنج بينما قام صاحب المحل ليخدمنا.

اشترينا السجائر، ثم قرّرنا أن نتناول قليلاً من الآيس كريم.

«لا تجعلني أعيقك عن لعبتك» قلت، عندما قام لخدمتنا. «أعرف ماذا يعنى أن تقاطع شخصاً يلعب الشطرنج».

«إذاً فأنت لاعب؟».

«نعم، لكنني لاعب سيء. لقد أهدرت الكثير من الليالي عليها»، ثم، ومع أني لم أكن أنوي أن أعيقه، ألقيت بضع ملاحظات عن الجادة الثانية، عن نادي الشطرنج الذي ترددت إليه ذات يوم، بجانب مقهى رويال، وهكذا...

نهض الرجل ذو القبعة الكبيرة الآن واقترب منا. ومن الطريقة التي حيّانا فيها جعلني أدرك أنه ظن أننا يهوديان. وقد منحني هذا شعوراً بالدفء.

قال: «إذاً فأنت تلعب الشطرنج أيضاً؟ هذا جميل. لماذا لا تنضم إلينا؟».

أجبت: «ليس الليلة. إننا نتمشى لنشمّ هواء نقياً».

«هل تقيمان في الحيّ؟».

«في أول الشارع»، أجبت، وأعطيته العنوان.

قال: «إنه منزل السيدة سكولسكي، أعرفها جيداً. عندي محل لبيع الأثاث على مسافة حارة من هناك... في جادة ميرتل. لماذا لا تأتي لزيارتي ذات يوم؟».

وبهذا مدّ يده وقال: «اسمي إسين. سِيد إسين». ثم صافح مونا.

قلنا له أسماءنا. وصافحنا ثانية. وبدا في غاية السرور، وقال: «إذاً فأنت لست يهودياً؟».

قلت: «لا، لكن الآخرين يحسبونني يهودياً في أغلب الأحيان».

«لكن زوجتك يهودية، أليس كذلك؟» ونظر إلى مونا باهتمام شديد.

«لا»، قلت، «إنها غجرية في جزء منها، ورومانية في جزء آخر. إنها من بوكوفينا».

صاح: «رائع! آبي، أين تلك السيجارات؟ أعط العلبة للسيد ميلر»، واستدار نحو مونا. «وماذا عن بعض المعجنات للسيدة؟».

«ولعبة الشطرنج...» قلت.

«أعوذ بالله!» قال. «كنا نقتل الوقت فقط. إنه من دواعي سروري أن أتحدث إلى شخص مثلك ومثل زوجتك الفاتنة. هي ممثلة، أليس كذلك؟».

هززت رأسي.

قال: «يمكنني أن أعرف من نظرة واحدة».

وهكذا بدأ الحديث. ولا بد أننا استمررنا في الحديث لمدة ساعة أو يزيد. ومن الواضح أنه أُعجب بولعي بالأشياء اليهودية. ووعدته بأن أقوم بزيارته في مخزنه قريباً، حيث يمكننا أن نلعب

الشطرنج، إذا أراد. وقال إن المخزن أصبح أشبه بمشرحة، ولم يكن يعرف لماذا يتمسّك بالمخزن - إذ لم يتبق سوى حفنة من الزبائن. وفيما رحنا نتصافح مرة أخرى، قال إنه يرجو أن نشرّفه بلقاء عائلته. فنحن جيران تقريباً، كما قال.

«لدينا صديق جديد»، قلت، فيما رحنا نسير في الشارع.

«لقد أحبك، يمكنني أن أرى ذلك»، قالت مونا.

«كان مثل كلب يريد أن يُمسَّد ويربّت عليه، أليس كذلك؟».

«رجل وحيد، لا شك».

«ألم يقل إنه يعزف على الكمان؟».

«نعم»، قالت مونا. «ألا تذكر، فقد قال إن الرباعي الوتري يلتقي في بيته مرة كل أسبوع... أو كان يلتقي».

«هذا صحيح. يا إلهي كم يحبّ اليهود الكمان!».

«أشكّ بظنه أنه توجد نقطة دم يهودي في عروقك يا فال».

«ربما كانت لديّ. بالتأكيد لن أخجل منها لو كانت توجد فيّ».

وتبع ذلك صمت مشوب بالتوتر.

«لم أقصد بالطريقة التي فهمتها»، قلت أخيراً.

أجابت: «أعرف، لا بأس».

«جميعهم يعرفون كيف يلعبون الشطرنج أيضاً» كنت أكاد أكلم نفسي. «وهم يحبّون أن يقدموا هدايا، هل لاحظت ذلك؟».

«ألا يمكننا أن نتحدّث عن شيء آخر؟».

«طبعاً! بالطبع يمكننا ذلك! أنا آسف. إنهم يثيرونني، هذا كلّ ما في الأمر. حينما ألتقي بيهودي حقيقي أشعر أني في بيتي. لا أعرف لماذا!».

قالت: «لأنهم وديّون وكرماء - مثلك».

«لأنهم مسنون، هذا ما أظنه».

«لقد خلقت لعالم آخر، لا لأمريكا يا فال. إنك تتآلف مع أيّ شعب إلا شعبك. أنت منبوذ».

«وماذا عنكِ؟ أنت لا تنتمين إلى هذا البلد أيضاً».

قالت: «أعرف. حسناً، اكتب الرواية وسنذهب. لا أبالي أين تأخذني، لكنك يجب أن ترى باريس أولاً».

«صحيح! لكنّي أودّ أن أرى أماكن أخرى أيضاً... روما، بودابست، مدريد، فيينا، القسطنطينية. أريد أن أزور مدينتك بوكوفينا أيضاً ذات يوم. وروسيا ـ موسكو، وبطرسبرغ، ونيزني ونوفغورود... آه، أن أمشي في نيفسكاي بروزبيكت... في إثر خطوات دوستويفسكي! يا له من حلم!».

«يمكنك أن تفعل ذلك يا فال. ليس هناك من سبب يمنعنا من الذهاب إلى أيّ مكان نريده... في أي مكان في العالم».

«أتظنين ذلك حقاً؟».

«أعرف ذلك». ثم قالت باندفاع: «أتساءل أين ستاسيا الآن».

«ألا تعرفين؟».

«بالطبع لا أعرف. لم أتلق منها ولا كلمة واحدة منذ أن عدت. أشعر بأني قد لا أسمع منها مرة أخرى».

قلت: «لا تقلقي، ستسمعين منها. ستظهر ذات يوم ـ هكذا!».

«لقد تغيرت كثيراً هناك».

«ماذا تقصدين؟».

«لا أعرف تماماً. أصبحت مختلفة، هذا كلّ ما في الأمر. طبيعية أكثر، ربما. بدا أن بعض أنواع الرجال يجتذبونها. مثل ذلك النمساوي الذي أخبرتك عنه. قالت إنه كان لطيفاً جداً، ومن الأشخاص الذين يراعون شعور الآخرين، ويتفهمون كثيراً».

«هل تظنين أنه يوجد شيء بينهما؟»

«من يعرف؟ كانا معاً طوال الوقت، كما لو أن أحدهما يحبّ الآخر بجنون».

«تقولين كما لو أنّ، ماذا تقصدين بذلك؟».

تردّدت، ثمّ قالت بحماس، كما لو أنها ما تزال تتألم: «لا توجد امرأة يمكن أن تعجب بمخلوق كهذا! لقد تودّد إليها، وأكل من يدها، وقد عشقت ذلك. ربما جعلها ذلك تشعر بأنها أنثى».

قلت: «لا يبدو هذا خليقاً بستاسيا. ألا تظنين أنها تغيّرت حقاً؟».

«لا أعرف كيف أفكرّ بالأمر يا فال. أشعر بالحزن، هذا كلّ ما في الأمر. أشعر أني فقدت صديقة عظيمة».

قلت: «هراء! لا يفقد المرء صديقاً بهذه السهولة».

«قالت عني غيورة جداً وأنانية، أيضاً...».

«ربما كنت أوافق على ما تقول».

«لا يوجد أحد يفهمها أكثر مني. كلّ ما أردته هو أن أراها سعيدة. سعيدة وحرّة».

«هذا ما يقوله كلّ عاشق».

«كان أكثر من حبّ يا فال. أكثر بكثير».

«كيف يمكن أن يكون هناك شيء أكثر من الحبّ؟ الحبّ هو كلّ شيء، أليس كذلك؟».

«ربما كان هناك شيء آخر بالنسبة للنساء. فالرجال ليسوا بهذه الدرجة من الذكاء ليدركوا ذلك».

وخشية أن تنحدر المناقشة إلى شجار، غيّرت الموضوع بقدر ما يمكنني من مهارة. وأخيراً ادعيّت بأنني جائع. ولدهشتي قالت: «وأنا كذلك».

عدنا إلى بيتنا. وبعد أن تناولنا وجبة خفيفة جيدة مؤلفة من لحم كبد، ولحم ديك رومي بارد، وسلطة، وغسلناها بنبيذ موسيل

اللذيذ ـ أحسست برغبة في أن أجلس إلى الآلة الكاتبة وأكتب. ربما كان ذلك بسبب الحديث، ذكر السفر، الحديث عن مدن غريبة... عن الحياة الجديدة. أو لأني تمكنت من أن يتحول حديثنا إلى شجار. (كان موضوع ستاسيا حسّاساً). أو ربما كان اليهودي، سِيد إسين، وإثارة الذكريات العرقية. أو ربما لم يكن سوى جمال بيتنا، والشعور بالدفء، والراحة.

على أية حال، بينما كانت تنظف المائدة، قلت: «لو كان بإمكان المرء أن يكتب كما يتكلم... يكتب مثل غوركي، أو غوغول، أو نوت هامسن!».

رمقتني بنظرة كالنظرة التي توجهها الأم أحياناً إلى الطفل الذي تحمله بين ذراعيها.

قالت: «لماذا تكتب مثلهم. اكتب بأسلوبك وبطريقتك، كن أنت. هذا أفضل بكثير».

«أتمنّى أن أفكّر هكذا. يا إلهي! هل تعرفين ما هي مشكلتي؟ أنا حرباء. فكلّ مؤلف أقع في حبّه أريد أن أقلده. أتمنى لو كان بإمكاني أن أقلّد نفسي!».

قالت: «متى ستريني بعض الصفحات؟ إني أتوق إلى رؤية مافعلت حتى الآن».

قلت: «قريباً».

«هل هي عنا؟».

«أظن ذلك. عن أي شيء آخر يمكنني أن أكتب؟».

«يمكنك أن تكتب عن أيّ شيء يا فال».

«هذا ما تظنين. يبدو أنك لا تدركين حدودي. أنت لا تعرفين الصراع الذي يعتمل في داخلي. أشعر أحياناً بأني أُلعق تماماً. وأحياناً أتساءل ماهو الشيء الذي أعطاني الفكرة أن بإمكاني الكتابة. مع أني قبل دقائق قليلة، كنت أكتب كالمجنون، في رأسي،

مرة أخرى. لكن ما أن أجلس أمام الآلة الكاتبة حتى يتلاشى كلّ شيء.

قلت: «هل تعرفين أن غوغول ذهب في أواخر حياته إلى فلسطين؟ إنه شخص غريب، غوغول هذا. تصوري رجلاً روسياً مجنوناً مثله يموت في روما! أنا أتساءل أين سأموت».

«ما خطبك يا فال؟ عم تتحدّث؟ ستعيش ثمانين سنة أخرى. اكتب! لا تتحدّث عن الموت».

شعرت بأني مدين لها بالحديث قليلاً عن الرواية. قلت: «احزري ماذا أدعو نفسي في الكتاب!» لم تحزر. «لقد أخذت اسم عمّك الذي يعيش في فيينا. قلتِ لي إنه كان في سلاح الخيالة، كما أظن. بطريقة ما لا أستطيع أن أتصوره رئيس فوج الإعدام. ويهودي. لكني أحببته... أحببت كلّ شيء حدثتني عنه. ولهذا أخذت اسمه...».

صمت.

«ما أريد أن أفعله بهذه الرواية اللعينة ـ فقد لا يشعر بوب بذات الطريقة ـ هو أن أشحنها مثل قوقازي سكران. روسيا، روسيا، إلى أين تتجهين؟ إلى الأمام، إلى الأمام كالزوبعة! الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أكون فيها نفسي هي أن أحطّم الأشياء. فأنا لن أكتب كتاباً أبداً ليعجب الناشرين. لقد ألّفت كتباً كثيرة. كتب في السير نوماً. تفهمين قصدي. ملايين وملايين الكلمات ـ تدور كلها في رأسي. إنها تطرق فيه مثل قطع ذهبية. متعب من صناعة القطع الذهبية. لقد سئمت هذه الفروسية... في الظلام. فكلّ كلمة أدونها الآن يجب أن تكون سهماً يتّجه مباشرة إلى الدريئة. سهم مسمّم. أريد أن أقتل الكتب، الكتّاب، الناشرين، القرّاء. إن الكتابة لعامة الناس لا تعني شيئاً بالنسبة لي. ما أريده هو أن أكتب للمجانين أو للملائكة».

توقّفت وارتسمت على وجهي ابتسامة فضولية للفكرة التي دخلت رأسي.

«أتساءل ماذا ستفكر صاحبة بيتنا إذا سمعت بأني أتحدث بهذه الطريقة. هي في غاية الطيبة معنا، ألا تظنين ذلك؟ إنها لا تعرفنا. لن تصدق أني مذبحة متنقّلة. كما لا توجد لديها أي فكرة عن السبب الذي يجعلني مهووساً جداً بسيروتا، وبموسيقى الكنيس اللعينة تلك»، توقفت قليلاً وقلت «بحقّ السماء ما دخل سيروتا بكل هذا؟».

«نعم يا فال، إنك متحمّس. اكتب هذا في الكتاب. لا تضيّع نفسك في الكلام!».

13

كنت أجلس أحياناً إلى الآلة الكاتبة ساعات طويلة دون أن أكتب سطراً واحداً. وما أن تخطر لي فكرة، غالباً ما تكون غير ذات علاقة، حتى تترى أفكاري على نحو أسرع مما يمكنني أن أكتبه. وأبدأ أعدو بسرعة، مثل محارب منكوب مربوط إلى عربته.

وقد ثبّتت على الجدار إلى يميني جميع أنواع المذكّرات: قائمة طويلة بالكلمات، الكلمات التي بهرتني والتي كنت أنوي استخدامها عند الضرورة؛ وصور مستنسخة عن لوحات، بريشة أوشيلو، وديلا فرانشيسكا، وبريوجهيل، وغيوتو، وميملنغ؛ وعناوين كتب كنت أنوي أن أستل منها بعض المقاطع بحذاقة؛ عبارات سرقتها من الكاتبين الأثيرين لديّ، لا لأقتبس منهما بل لأتذكر كيف يمكنني أن ألوي الأشياء من حين لآخر، مثل: «الدودة التي تقضم مثانتها». وفي الكتاب المقدس كانت هناك قصاصات من الورق تشير إلى وجود معين لا ينضب من الماس. وفي كلّ مرّة كنت أنظر فيها إلى إحدى العبارات كنت أشعر بالنشوة. أما في القاموس فقد وضعت علامات تشير إلى أماكن وجود قوائم من نوع أو آخر: الزهور، الطيور، الأشجار، الزواحف، المجوهرات، السموم، وما إلى ذلك. باختصار، كنت قد حصّنت نفسي بترسانة كاملة.

لكن ما هي النتيجة؟ إذ كان البحث عن كلمة مثل praxis أو pleroma يجعل عقلي يهيم مثل دبور ثمل. وكان الأمر ينتهي بي

الأمر أحياناً إلى صراع مستميت كي أتذكّر اسم ذلك المؤلف الموسيقي الروسي، أو الصوفي، أو أحد المؤمنين بالنظرية الصوفية، الذي لم ينه أعظم أعماله. والذي كتب عنه ـ المسيح المنتظر في مخيلته، الذي يحلم بأن يقود البشرية إلى «المهرجان الأخير»، الذي تخيّل نفسه الله، وكلّ شيء، بما في ذلك هو نفسه، خلقه، وحلم بقوة نغماته ليسقط الكون، لكنه مات بسبب إصابته ببثرة. كان اسمه سكريابين. نعم، وكان بوسع سكريابين أن يزعزع كياني لأيام عديدة. وعندما يخطر اسمه ببالي، كنت أعود إلى الجادة الثانية، في الجزء الخلفي من أحد المقاهي، المحاط بالروس (البيض عادة) واليهود الروس، الذين يستمعون إلى عبقري مجهول يسرد عليهم السوناتات والمقدمات الموسيقية التي ألفها سكريابين الرائع. ومن سكريابين إلى بروكوفيف، إلى الليلة التي سمعته فيها لأول مرة، ربما في قاعة كارنيجي، على الشرفة المرتفعة، حيث كنت في غاية الحماس والإثارة إلى حد أني عندما وقفت لأصفّق له، أو لأصيح ـ كنت أصيح كالمجانين في تلك الأيام ـ كدت أقع من الشرفة. كان نحيفاً جداً، يرتدي معطفاً، وكأنه خرج من مجلة دري غروشن أوبير، مثل المسيو لو بومب فانيير. ومن بروكوفيف إلى لوك رالستون، الذي غادر الآن، زاهداً أيضاً، وذا وجه مثل قناع موت السيد آرويت. وكان لوك رالستون صديقاً جيداً، فبعد أن يقوم بزيارة محلات الخياطين في أول الجادة الخامسة وآخرها وهو يحمل عينات من الأقمشة الصوفية المستوردة، يتجه إلى البيت وينشد أغنية ألمانية مع أمه الغالية، التي أفسدته بدلالها، والتي كانت تمعن في دلاله وتقول له للمرة العشرة آلاف إنه ابن رائع عزيز على قلبها. ولسوء الحظ كان صوته الرفيع المهذب واهياً، لا يستطيع مجاراة الأنغام الثقيلة مع محبوبه هوغو وولف الذي كان يطعّم برنامجه معه دائماً. وقيل إنه مات وهو في الثالثة والثلاثين من عمره بسبب إصابته بذات الرئة، لكن لعله مات من الأسى... وفي وسط ذلك تأتي

ذكريات الشخصيات الأخرى التي طواها النسيان ـ مغنيات أغاني الحبّ، عازفات الناي، عازفات الكمان، عازفات البيانو اللاتي يرتدين تنانير بشعة كالتي يرتدينها في كرنفال شومان. (وهذا ما يذكّرني كثيراً بمود: الراهبة التي أصبحت عازفة ماهرة). وكانت هناك أخريات أيضاً، منهن ذوات الشعر القصير، ومنهن ذوات الشعر الطويل، وكن جميعهن يسعين نحو الكمال، مثل سيجار هافانا. وكان لبعضهن صدور كصدور االثيران، يستطعن تحطيم الثريات بصرخاتهن الفاغنيرية. وبعضهن مثل جيسيكا الرائعة، يفرقن شعورهن من الوسط الذي كان يلتصق برؤوسهن: مادونا اللطيفة (يهودية في الغالب) التي لم تكن تعبث بمحتويات الثلاجة بعد حلول الليل. ثم عازفات الكمان في تنانير، عسراوات أحياناً، وغالباً ذوات شعر أحمر أو برتقالي داكن، وصدور تقف في طريق القوس... كنت أحياناً أكتفي بالنظر إلى كلمة، أو صورة، أو كتاب، أو عنوان فقط. مثل قلب الظلام أو تحت النجمة الخريفية. كيف بدأت مرة أخرى تلك الحكاية الرائعة؟ كنت أنظر إليها. أقرأ بضع صفحات، ثم أرمي الكتاب. لا يمكن تقليده. وكيف بدأت؟ قرأته مرة أخرى، افتتاحية بول مورفي الخيالية. ضعيفة، ضعيفة إلى درجة كبيرة. شيء يسقط من فوق الطاولة. أنزل لأبحث عنه. وعندما أجثو على يديّ وركبتي، يستحوذ على انتباهي شقّ في أرضية الغرفة، يأسرني. يذكّرني بشيء ما؟ أبقى هكذا، كما لو أني كنت أنتظر أن يقوم أحد بخدمتي كنعجة. تضطرم الأفكار في رأسي وتخرج من الفتحة في قمة جمجمتي. أتناول ورقة وأدوّن عليها بضع كلمات. تستحوذ عليّ مزيد من الأفكار. (كان الشيء الذي سقط من فوق الطاولة علبة ثقاب). كيف يمكنني أن أضع هذه الأفكار في الرواية. دائماً المعضلة ذاتها. ثم أفكّر برواية «الإثنا عشر رجلاً». كم أتمنى لو كان بإمكاني أن أكتب مقطعاً صغيراً واحداً بدفء، ورقة، وقوة ذلك الفصل من كتاب بول دريسلر. لكني لست دريسلر. وليس لي أخٌ اسمه

بول. إن ضفاف واباش بعيدة. أبعد، أبعد بكثير من موسكو أو كرونشتادت، أو شبة جزيرة القرم الدافئة الرومانسية للغاية. لماذا؟

روسيا، إلى أين تأخذينا؟ إلى الأمام!

أفكّر بغوركي، مساعد الخباز، وجهه أبيض بسبب الطحين، والفلاح البدين الضخم (في قميص نومه) يتدحرج في الطين مع خنزيراته المحبوبات. جامعة الحياة. غوركي: الأمّ، الأبّ، الرفيق. غوركي، المتشرّد المحبوب، الذي سواء كان يسير، أو يبكي، أو يبول، أو يصلي، أو يشتم، فهو يكتب. غوركي: الذي كتب بالدم. كاتب صادق مثل الساعة الشمسية...

وأقول أنظر فقط إلى أحد العناوين.

وهكذا، مثل قطعة موسيقية على البيانو تُعزَف باليد اليسرى، ينتهي اليوم بسرعة. وأكون محظوظاً إن تمكنت من كتابة صفحة أو صفحتين عن كلّ هذا العذاب والإلهام. الكتابة! إنها أشبه باقتلاع شجرة اللبلاب السام من جذورها. أو البحث عن نبات اللفاح.

وعندما كانت تسأل أحياناً: «كيف تسير الأمور يا عزيزي فال؟» كنت أريد دفن رأسي بين يدي وأبكي.

«لا ترغم نفسك يا فال!».

لكني أرغمت نفسي حتى لم تتبق فيّ ولا نقطة غائط. وعندما تقول «العشاء جاهز!» كان يبدأ التدفق في أغلب الأحيان. بحقّ السماء! ربما بعد العشاء. ربما بعد أن تخلد إلى النوم. غداً.

وعلى المائدة أروح أتحدّث عن العمل كما لو كنت ألكساندر دوماس آخر أو بلزاك. دائماً عن العمل الذي أنوي أن أقوم به، لاعما فعلته. لديّ عبقرية إزاء الأشياء غير المحسوسة، البدائية، الأشياء التي لم تولد بعد.

«ويومك؟»، كنت أقول أحياناً. «كيف كان يومك؟» (كي أرتاح من الشياطين التي تتملكني أكثر من الرغبة في الاستماع إلى التوافه التي حفظتها عن ظهر قلب).

ومنصتاً بأذن واحدة كان يمكنني أن أرى بوب ينتظر مثل كلب صيد مخلص العظمة التي سيحصل عليها. هل سيكون فيها قدر كاف من الدهن؟ هل ستتهشم في فمه؟ وأذكّر نفسي بأنه لم يكن ينتظر صفحات الكتاب حقاً، بل ينتظر لقمة سائغة ـ هي. سيكون صبوراً، راضياً ـ لفترة من الزمن على الأقل ـ بالمناقشات الأدبية، طالما حافظت على جمالها، وطالما واصلت ارتداء الثياب المبهجة التي كان يحثّها على أن تختارها لنفسها، وطالما قبلت بكل صبر وأناة النعم الصغيرة التي يغدقها عليها. وطالما عاملته كإنسان. طالما لم تشعر بالخجل من أن يراها أحد معه. (هل يعرف حقاً، كما كانت تجزم، بأنه يشبه الضفدع؟) وبعينين نصف مغمضتين، كان بوسعي أن أراه ينتظر، ينتظر عند ناصية الشارع، أو في بهو فندق نصف عصري، أو في مقهى قميء (في تجسيد آخر)، مقهى مثل «زوم هيديغيغي». كنت أراه دائماً يرتدي ثياباً جيدة، بجوارب تصل إلى الكاحلين ويحمل عصا أو لا يحمل. ضرب من المليونيرات غير المعروفين، أو تاجر فراء، أو سمسار في البورصة، ليس من ذلك النوع اللصوصي، لكنه كما تدل بطنه، كان من ذلك النوع الذي يفضّل الأشياء الجيدة في الحياة على الدولار القدير. رجل عزف ذات مرّة الكمان. رجل ذوّاق، بشكل لا يدعو للجدل.

ربما كان متوسطاً، لكنه ليس عادياً. واضح بعدم وضوحه. لعله كان ممتلئاً ببذور البطيخ الأحمر والنوى الأخرى. وهو مسؤول عن زوجة مقعدة، امرأة لا يحلم بأن يؤذيها. («انظري يا عزيزتي، انظري ما جلبت لك! قليل من سمك الرنكة، وقليل من سمك السلمون المدخّن، ومرطبان من مخلل قرن الوعل من أرض الرنّة»).

وعندما كان هذا المليونير البغيض يقرأ الصفحات الافتتاحية، يصيح: «أها! إني أشتمّ جرذاً!» أو عندما يضع دماغه السلكي على الوسادة لينام، فهل يهمهم لنفسه: «قطعة رائعة من الأفكار السخيفة، قصة رومانسية من عصور الظلام».

وماذا سيكون رأي السيدة الطيبة سكولسكي، صاحبة بيتنا، إذا

ما ألقت نظرة على هذه الصفحات؟ هل سيتبلّل سروالها الداخلي من شدة حماسها؟ أم ستستمع إلى موسيقى فيها اضطرابات زلزالية؟ (يمكنني أن أراها تجري إلى الكنيس بحثاً عن قرون أكباش) فذات يوم يجب أن أخرج ما في جعبتي، عن موضوع الكتابة.

«نادني ريب!» كانت تلك الكلمات التي قالها سِيد إسين وهو يودعني.

يا له من عذاب رائع، دجل الكتابة هذا! أحلام اليقظة الجنونية الممتزجة بنوبات اختناق التي يدعوها السويديون «mardrommen». صور بشعة مربوطة بتيجان ماسيّة. هندسة معمارية من طراز الباروك. لوغاريتمات غامضة. سفر التثنية. عبارات بالغة الأهمية. («لا تدع أحداً»، قال طائر الأوك، «انظر إلى هذا الرجل بعطف!») سماء نحاسية زرقاء تميل إلى اللون الأخضر، مزينة برقة؛ قبضة المظلة، رسومات جدارية بذيئة. بلعام والحمار يلعق أجزاءه الخلفية. أبناء عرس تهذر بطلاقة. خنزيرة تحيض...

كانت تفعل كلّ ذلك لأنه توجد أمامي، كما قالت لي ذات مرّة «فرصة العمر».

كنت أبحر أحياناً إليها بجناحين سوداوين ضخمين. ثم يخرج كلّ شيء شذر مذر. صفحات وصفحات. رزم ورق كاملة. لا شيء فيها يمت بشيء إلى الرواية. ولا حتى إلى كتاب الغمّ الدائم. وبعد أن كنت أقرأها مرة أخرى كان يتشكل لديّ انطباع بأني أتفحص صورة قديمة: غرفة في مسكن من مساكن القرون الوسطى، المرأة العجوز تجلس على النونية، الطبيب يقف بجانبها يمسك ملقطاً حاراً أحمر، فأر يزحف باتجاه قطعة من الجبن في الزاوية قرب صورة المسيح المصلوب. مشهد طابق أرضي، مثلاً. فصل من تاريخ البؤس الأبدي. الفساد، الأرق، الشراهة التي تتخذ شكل النعم الثلاث. كلّ شيء موصوف في الزئبق، وبرمنغنات البوتاسيوم والبنزين.

في يوم آخر، قد تجول يداي على المفاتيح بهناء كفّ بورجيا القاتل. اختيار التقنية المتقطعة.

بعد ذلك، عندما يهدأ الإعصار، يتدفق مثل أغنية بهدوء، وانتظام، بلمعان المغنيزيوم الثابت. وكما لو أني كنت أنشد البهاغافاد غيتا. راهب في عباءة زعفرانية يسبّح بأعمال الواحد الكلي العلم. لم يعد كاتباً. أرسل قديساً. قديساً من سانهيدرين. بارك الله المؤلف! (هل يوجد بيننا داوود هنا؟)

يا لها من متعة أن تكتب مثل عضو في منتصف بحيرة!

إلدغيني يا قملة الفراش! إلدغيني فيما أتمتع بكامل قواي.

لم أستطع أن أناديه ريب في الحال، بل رحت أناديه دائماً السيد سِيد إسين. وكان دائماً يدعوني السيد ميلر. لكن إذا سمعنا أحدهم نتكلّم لظنّ أن أحدنا يعرف الأخر منذ أمد بعيد.

كنت أحاول أن أشرح ذلك لمونا ذات مساء وأنا مستلق على الأريكة. كان مساءاً دافئاً، وكلّ شيء يسير بهدوء. وبكأس من الشراب البارد إلى جانبي، ومونا تطوف في الغرفة وهي ترتدي قميصاً داخلياً قصيراً، تملكني مزاج لأن أستفيض في الحديث. (علاوة على أني كنت قد كتبت بضع صفحات رائعة في ذلك اليوم).

كانت المناجاة قد بدأت، ليس عن سِيد إسين ودكانه الذي يشبه المشرحة والذي زرته البارحة، بل عن مزاج مدمّر محدد بدأ يعتريني في كلّ مرّة كان القطار ينعطف فيها بسرعة. ولا بد أن ما دفعني للحديث عنه هو لأن ذلك المزاج السوداوي كان على نقيض تام مع المزاج الحالي، الذي يتسم عادة بالصفاء. وحينما كان القطار ينعطف، كان بإمكاني أن أنظر إلى نافذة الشقّة حيث قمت بزيارة الأرملة لأول مرة... عندما كنت «أناغيها وأتودد إليها». وفي كلّ

أسبوع كان شاب لطيف، يهودي مثل سِيد إسين، يأتي ليحصّل دولاراً أو دولاراً وخمسة وثلاثين سنتاً ثمن الأثاث الذي اشترته بالتقسيط. وإذا لم تكن تملك نقوداً كان يقول، «حسناً، ادفعي في الأسبوع المقبل». كانت فاقة تلك الحياة، ونظافتها، وعقمها تصيبني بالكآبة أكثر من الحياة في المجاري. (وأذكر جيداً أني قمت في هذا المكان بمحاولتي الأولى في الكتابة بقرمة قلم رصاص. ولم أكتب أكثر من إثني عشر سطراً ـ كانت تكفي لإقناعي بأنني كنت مجرداً من الموهبة). وفي ذهابي وإيابي إلى العمل، كنت أستقل كلّ يوم القطار المرتفع ذاته الذي يمر أمام تلك البيوت الخشبية ذاتها، وينتابني ذلك المزاج السوداوي المدمّر نفسه. كنت أريد الانتحار، لكني كنت مفتقراً إلى الشجاعة. كما لم يكن بإمكاني أن أتركها. حاولت، لكني لم أفلح. كلما كافحت لأحررّ نفسي، أحسست بارتباط أقوى. حتى بعد سنوات، عندما حرّرت نفسي منها، كانت تستحوذ عليّ كلما انعطف القطار ذلك المنحنى.

«كيف تفسرين ذلك؟» سألتها. «كأني تركت جزءاً مني في جدران ذلك البيت. فلم يحرر أحد أجزائي نفسها».

ها هي تجلس على الأرض مستندة إلى ساق الطاولة. بدت سعيدة ومرتاحة. كانت في مزاج يجعلها تحب أن تصغي. وتطرح عليّ بين الحين والآخر سؤالاً عن الأرملة ـ الأسئلة التي تتحاشى النساء طرحها عادة. وما كان عليّ إلا أن أنحني قليلاً وأضع يدي على فرجها.

كانت إحدى تلك الأمسيات الرائعة التي يتضافر فيها كلّ شيء ليشيع جواً من الانسجام والفهم، عندما يتكلم المرء بسهولة وبتلقائية، حتى إلى زوجته، عن الأشياء الحميمة. لا عجلة في التوصل إلى أي شيء، ليس حتى لممارسة مضاجعة لذيذة، مع أن التفكير فيها موجود دائماً، يخيّم على الحديث.

أتذكر الآن تلك الجولة التي قمت بها في جادة ليكسنغتون

وكأنها إحدى التجسيدات المستقبلية. لم تبد بعيدة فقط، بل مستحيلة. ولم يعاودني ذلك النوع من الشعور بالغمّ واليأس على الإطلاق، وكنت واثقاً من ذلك.

«كنت أظن في بعض الأحيان أن ذلك حدث لأني كنت بريئاً جداً. كان من المستحيل أن أصدق بأني سأعاني بتلك الطريقة. وأظن أني سأكون أفضل حالاً وستقل معاناتي إذا ما تزوجتها، كما كنت أرغب. من يعرف؟ كان من الممكن أن نكون سعداء لبضع سنوات».

«كنت تقول دائماً يا فال، إن الشفقة هي التي تستحوذ عليك، لكني أظن أنه الحبّ. أظن أنك كنت تحبها حقاً. إذ لم تختلفا على الإطلاق».

«لم أكن أستطيع. ليس معها. كانت تلك نقطة ضعفي. فما أزال أتذكّر الشعور الذي كان ينتابني عندما كنت أتوقّف، كما كنت أفعل كلّ يوم، لأحدق في صورتها من واجهة أحد المحلات. كان ثمة نظرة حزن في عينيها تزعجني كثيراً. ويوماً بعد يوم، كنت أعود لأنظر إلى عينيها، لأدرس ذلك التعبير الحزين، وأتساءل عن سببه. وبعد أن تعرّف أحدنا إلى الآخر لبعض الوقت، كنت أرى تلك النظرة تعود إلى عينيها... عادة بعد أن أكون قد جرحت مشاعرها بطريقة طائشة حمقاء. وكان في النظرة شيء أكثر من الاتهام بكثير، مدمرة أكثر بكثير من أية كلمات...».

لم ينبس أحدنا بكلمة لفترة. أخذ النسيم المعطّر الدافئ يحفّ الستائر. وفي الطابق السفلي كان الفونوغراف يصدح. «وسآتي إليك...». وفيما كنت أصغي، مددت يدي ورحت أمرر أصابعي بلطف فوق فرجها.

«لم أكن أنوي أن أدخل في كلّ هذه التفاصيل»، واصلت كلامي. «كنت أريد أن أتكلم عن سِيد إسين. لقد زرته يوم أمس في دكانه. إنه أكثر الأماكن بؤساً التي يمكن أن ترينها في حياتك. فهو يجلس هناك طوال اليوم يقرأ، أو إذا جاءه صديق، يلاعبه الشطرنج. أراد

أن يحملّني بالهدايا: قمصان، جوارب، ربطات عنق، أيّ شيء كنت أرغب به. كان من الصعب أن أرفضها. كما قلت، فهو شخص وحيد.. أوه، لكني كدت أنسى ما بدأت أخبرك به. ماذا تظنين أني وجدته يقرأ؟».

«دوستويفسكي!»

«لا، إحزري ثانية».

«نوت هامسن».

«لا. السيدة موراساكي ـ حكاية غينجي. لا أستطيع أن أصدق. يبدو أنه يقرأ كلّ شيء. يقرأ الروس بالروسية، والألمان بالألمانية. إنه يستطيع أن يقرأ بالبولونية أيضاً، وبلغة اليديش طبعاً».

«بوب يقرأ بروست».

«صحيح؟ حسناً، على أية حال، هل تعرفين ما يريد أن يفعله؟ إنه يريد أن يعلّمني قيادة السيارة. عنده سيارة بويك ثمانية سيليندر، وهو يريد أن يعيرنا إياها عندما أتعلم القيادة. وقال إنه يستطيع أن يعلمني القيادة في ثلاثة دروس».

«لكن لماذا تريد أن تقود سيارة؟».

«أنا لا أريد. لكنه يرى أنه لشيء جميل أن أصحبك في جولة بالسيارة من حين لآخر».

«لا تفعل ذلك يا فال. إنك لا تقود سيارة».

«هذا ما قلته له. سيكون الأمر مختلفاً إذا عرض عليّ دراجة. من الممتع أن أحصل على دراجة مرة أخرى».

لم تقل شيئاً.

«لا تبدين متحمسة لهذا الأمر»، قلت.

«أنا أعرفك يا فال. إذا حصلت على دراجة فلن تعود تعمل».

«ربما كنت محقة. على أية حال، إنها فكرة لطيفة. بالإضافة إلى أني كبرت في السن على ركوب دراجة».

«كبرت في السن؟» انفجرت ضاحكة. «أنت مسن؟ يمكنني أن أرى أنك لن تموت إلا عندما تبلغ الثمانين. أنت برنارد شو آخر. لن تكون مسناً على أيّ شيء».

«سأفعل ذلك إذا كتبت عدداً أكبر من الروايات. فالكتابة تبدد هموم المرء، هل تدركين ذلك؟ أخبري بوب ذلك في وقت ما. هل يظن أنك تعملين عليها ثماني ساعات يومياً، أتساءل؟».

«إنه لا يفكّر في هذه الأمور يا فال».

«ربما لا، لكنه يجب أن يتساءل. ففي الحقيقة من النادر أن تكون امرأة جميلة كاتبة أيضاً».

ضحكت. «إن بوب ليس أحمق. فهو يعرف أني لست كاتبة بالفطرة. كلّ ما يريدني أن أثبته هو أن أتمكن من إنهاء ما بدأته. يريدني أن أضع لنفسي نظاماً».

«غريب»، قلت.

«ليس غريباً جداً. يعرف أني أحرق نفسي، ويعرف بأني أعمل أشياء عديدة في وقت واحد».

«لكنه قلما يعرفك. لا بد أنه يتمتع بحدس قوي».

«هو يحبني، ألا يفسر ذلك الآن؟ لا يجرؤ على قول ذلك بالطبع. ويظن أنه ليس جذاباً للنساء».

«هل هو حقاً قبيح إلى هذه الدرجة؟».

ابتسمت. «ألا تصدقني؟ حسناً، لا أحد يمكن أن يدعوه وسيماً. يبدو تماماً كما هو: رجل أعمال. وهو يخجل من ذلك. شخص غير سعيد. وحزنه لا يضيف إلى جاذبيته شيئاً».

«تكادين تجعلينني أشعر بالأسى عليه، هذا التافه المسكين».

«أرجوك لا تتحدث عنه بهذه الطريقة يا فال. إنه لا يستحق ذلك».

يسود صمت لوهلة.

«هل تتذكّرين عندما كنا نقيم مع عائلة ذلك الطبيب في البرونكس، كيف كنت تحثّينني على أخذ غفوة بعد العشاء كي أتمكن من اللقاء بك خارج المرقص في الثانية صباحاً؟ كنت تظنين أنه بإمكاني أن أفعل ذلك الشيء وكنت أستيقظ نشيطاً مثل أقحوانة، مستعداً للذهاب إلى العمل في الساعة الثامنة صباحاً. أتتذكّرين؟ وقد فعلتها ـ عدة مرات ـ مع أنها كادت تقتلني. كنت تظنين أنه يجب أن يكون الرجل قادراً على عمل ذلك إذا كان يحبّ المرأة حقاً، أليس كذلك؟».

«كنت صغيرة آنذاك. بالإضافة إلى أني لم أكن أريدك أن تبقى في ذلك العمل. ربما كنت آمل أن تتخلى عنه بجعلك منهكاً».

«لقد نجحتِ في ذلك، ولا يمكنني أن أشكرك على ذلك بما يكفي. لو ترك الأمر لي، لربما كنت ما أزال هناك، أوظف وأطرد...».

لحظة صمت.

«وما أن بدأت الأمور تسير على ما يرام، حتى توقف كل شيء. لقد سببت لي وقتاً عصيباً، ألا توافقين؟ أو لعلي أنا من سبب لك ذلك».

«دعنا لا نخوض في هذا الحديث يا فال، أرجوك».

«حسناً. لا أعرف لماذا ذكرت ذلك. إنسِ الأمر».

«أتعرف يا فال، لا تجري الأمور بسلاسة معك. إذا لم أكن أنا من جعلك بائساً فسيكون شخصاً آخر. أنت تبحث عن المشاكل. الآن لا تزعل مني. لعلك تحتاج إلى معاناة. فالمعاناة لن تقتلك، متأكدة من ذلك. مهما حدث ستنجو بجلدك دائماً. إنك مثل فلينة. كلما دُفعت إلى القاع ارتفعت ثانية. أحياناً تفزعني الأعماق التي يمكن أن تغوصها. أنا لست هكذا. إن قدرتي على الطفو جسدية، أما قدرتك...

فأقول إنها روحية، لكن ليس الأمر كذلك تماماً. إنها حيوانية. أنت تمتلك كياناً روحياً قوياً، لكن فيك أيضاً من الحيوان أكثر مما يوجد لدى معظم الرجال. تريد أن تعيش... مهما كلف الأمر... سواء كرجل، أو كوحش، أو كحشرة، أو كجرثومة...».

«ربما كان ثمة شيء من الصدق في كلامك»، قلت. «بالمناسبة، لم أخبرك، عن التجربة الغريبة التي حدثت لي في إحدى الليالي أثناء غيابك؟ مع جنيّة. كان الأمر سخيفاً حقاً، لكن آنذاك لم يبد لي الأمر سخيفاً».

فتحت عينيها على وسعهما ونظرت إليّ بذهول.

«نعم، كان ذلك بعد ذهابك بفترة وجيزة. اعترتني رغبة جامحة في أن ألحق بك إلى درجة أني لم أكترث بالوسيلة التي تمكنني من عمل ذلك. لقد حاولت أن أحصل على عمل على أحد المراكب، لكن الأمور لم تجر على ما يرام. وفي إحدى الليالي، في المطعم الإيطالي شمال المدينة... إنك تعرفينه... التقيت بشاب هناك قبل أن... إنه مهندس ديكور، كما أظن. كان شاباً محترماً جداً. وفيما كنا نتحدث... كان حديثنا عن «الشمس تشرق أيضاً»... خطرت لي فكرة بأن أطلب منه نقوداً لأسافر. وأحسست أني ربما تمكنت من الحصول منه على نقود لو تمكنت من استثارة مشاعره. ورحت أتحدّث عنك وعن رغبتي المستميتة في اللحاق بك، واغرورقت الدموع في عينيّ. رأيته يذوب. وأخيراً أخرجت محفظتي وأريته صورتك، الصورة التي طالما أحبها. تحركت مشاعره، فصاح «يا لها من جميلة، إنها حقاً في غاية الجمال. إنها مشبوبة العاطفة، يالها من شهوانية! أترى ما أقصد» قلت «نعم»، قال، «أستطيع أن أفهم لماذا يجري جميع الرجال وراء امرأة كهذه». وضع الصورة على الطاولة، كما ليدرسها، وطلب مشروباً. ولسبب ما تحوّل فجأة للحديث عن كتاب همنغواي. قال إنه يعرف باريس، فقد زارها عدّة مرات. وما إلى هنالك».

توقّفت قليلاً لأرى كيف تتقبل الأمر. نظرت إليّ وابتسامة فضولية على شفتيها وقالت «واصل كلامك، أنا أستمع».

«حسناً، قلت له أخيراً إني مستعد لأن أفعل أيّ شيء لأجمع النقود التي أحتاجها لسفري. قال «أيّ شيء؟» «نعم» قلت، «أيّ شيء ما عدا القتل». لكنه بدلاً من أن يتمسك بهذا الموضوع، حوّل النقاش إلى مواضيع أخرى ـ مصارعة الثيران، والآثار، وكلّ ما لا له علاقة بموضوعنا. بدأت أشعر باليأس. كان قد بدأ يفلت من بين يديّ».

«استمعت بقدر ما أمكنني، ثم دعا النادل وطلب الفاتورة. «ألا تريد كأساً آخر من الشراب؟» قال. قلت له أنا متعب، وأريد أن أذهب إلى البيت. وفجأة غيّر الموضوع. «بالنسبة لتلك الرحلة إلى باريس»، قال، «لم لا تزرني في بيتي لبضع دقائق ونناقش الأمر؟ ربما استطعت مساعدتك». بالطبع كنت أعرف ما يدور في رأسه، وانقبض قلبي. تراجعت خوفاً. لكني فكرت بعد ذلك «بحق الجحيم. إنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً ما لم أطلبه منه. سأقنعه بالعدول عن الأمر»... المال، أعني».

«كنت مخطئاً، بالطبع. ففي اللحظة التي أخرج فيها مجموعته من الصور البذيئة عرفت أن اللعبة قد انتهت. كانت شيئاً، يجب أن أقول... يابانياً. على أية حال، بينما كان يريها لي أراح يداً على ركبتي. وراح يتوقّف بين الحين والآخر وينظر إلى إحدى الصور باهتمام شديد ويقول «ما رأيك بهذه؟» ثم ينظر إليّ برقة، ويحاول أن يمرر يده فوق ساقي. أخيراً صددته، وقلت «إني ذاهب». هنا تغيّر أسلوبه. بدا مكروباً. قال «لماذا تتجشم عناء الذهاب إلى بروكلن؟ يمكنك أن تمضي الليلة هنا. لا يتعين عليك أن تنام معي، إن كان ذلك يضايقك. يوجد سرير صغير في الغرفة الأخرى». وتوجه إلى الخزانة وأخرج لي بيجاما».

«لم أعرف كيف أفكّر، إن كان يلعبها بصراحة أم... تردّدت. قلت لنفسي «في أسوأ الأحوال، ستكون ليلة مؤرقة». قال «إنك لن

تسافر إلى باريس غداً، أليس كذلك؟ فلو كنت مكانك لما فقدت الأمل بهذه السرعة». ملاحظة ذات حدّين، لكني تجاهلتها. قلت: «أين السرير؟ سنتحدّث عن ذلك في وقت آخر». أويت إلى الفراش، وأبقيت عيناً مفتوحة خشية أن يحاول فعلته الباطلة. لكنه لم يفعل. من الواضح أنه شعر بالاشمئزاز مني - أو ربما خيّل له أنه يحتاج إلى قليل من الصبر. على أية حال لم يغمض لي جفن. رحت أتقلب حتى الفجر، ثم نهضت، وبهدوء شديد ارتديت ثيابي. وفيما كنت ارتدي بنطالي رأيت نسخة من رواية عوليس. أخذتها وجلست بجانب النافذة الأمامية، وقرأت مناجاة مولي بلوم. وشعرت بالرغبة في أن أذهب وأخذ النسخة معي. إلا أنه خطرت لي فكرة أفضل. مشيت على أطراف أصابعي إلى المدخل، حيث توجد خزانة الملابس، فتحتها بهدوء ورحت أبحث في جيوبه، المحفظة وكلّ شيء. وكان كلّ ما تمكنت من العثور عليه حوالى سبعة دولارات وبعض الفراطة. أخذتها وانصرفت مهرولاً...».

«ولم تره ثانية قط؟».

«لا، لم أعد إلى المطعم».

«لنفترض يا فال أنه قدم لك النقود، إذا...».

«من الصعب الإجابة عن هذا. لقد فكّرت في الموضوع كثيراً منذ ذلك الحين. أعرف أني لن أستطيع أن أقوم بذلك، حتى ليس لك. من الأسهل أن يكون المرء امرأة في مثل هذه الظروف».

بدأت تضحك. ضحكت طويلاً.

«ما المضحك في هذا؟» قلت.

«أنت!» صاحت «مثل رجل!».

«كيف ذلك؟ هل كنت تريديني أن أستسلم؟».

«لا أقول هذا يا فال. كلّ ما أقوله هو أنك تصرفت تماماً كما يتصرف الرجال».

فجأة تذكرت ستاسيا وعروضها المتوحشة، وقلت «لم تخبريني قط ماذا جرى لستاسيا. هل تأخرت عن السفينة بسببها؟».

«ما الذي أدخل هذه الفكرة في رأسك؟ لقد أخبرتك ما حدث لتأخري عن السفينة، ألا تتذكّر؟».

«هذا صحيح، لقد أخبرتني. لكني لم أكن أصغي جيداً. على أية حال، من الغريب أنك لم تتلقِ ولا كلمة منها طوال هذا الوقت. أين تظنين هي؟».

«ربما في أفريقيا».

«أفريقيا؟».

«نعم، كان آخر ما سمعت منها أنها في الجزائر».

«همم».

«نعم يا فال، لنعد إليك، فقد وعدت رولاند، الرجل الذي اصطحبني إلى فيينا، بأني سأبحر معه. لقد وافقت بشرط أن يرسل إلى ستاسيا النقود لكي تغادر أفريقيا. لكنه لم يفعل ذلك. لقد اكتشفت ذلك في اللحظة الأخيرة. ولم يكن لديّ المال لأرسل لك برقية أعلمك فيها بتأخيري. على أية حال لم أبحر مع رولاند. فقد أعدته إلى باريس. وجعلته يقسم بأن يعثر على ستاسيا ويعيدها إلى البيت آمنة. هذه هي القصة كلها».

«وطبعاً لم يفعل ذلك؟».

«لا، إنه مخلوق ضعيف ومدلل، لا يهمه إلا نفسه. فقد ترك ستاسيا وصديقها النمساوي في الصحراء، عندما بدأت الرحلة تزداد صعوبة. لقد تركهما بلا نقود. تمنيت أن أقتله عندما اكتشفت ذلك...».

«إذاً هذا هو كلّ ما تعرفينه؟».

«نعم. وكلّ ما أعرفه أنها ربما تكون قد ماتت الآن».

نهضت لأبحث عن سيجارة. وجدت العلبة فوق الكتاب المفتوح الذي كنت أقرأه في وقت سابق من اليوم. «استمعي إلى هذا»، قلت ورحت أقرأ المقطع الذي وضعت عليه إشارة: «إن غرض الأدب هو أن يساعد الإنسان في أن يعرف نفسه، أن يحصّن إيمانه بنفسه ويدعم كفاحه لبلوغ الحقيقة...».

«استلق» رجتني. «أريد أن أسمعك وأنت تتكلّم، لا وأنت تقرأ».

«طوبى للأخوة كارامازوف!».

«توقف يا فال! دعنا نتحدث، أرجوك».

«حسناً، إذاً. ماذا عن فيينا؟ هل زرت عمّك عندما كنت هناك؟ لم تخبريني شيئاً عن فيينا، هل تعرفين ذلك؟ أعرف أنه موضوع حسّاس... رولاند وكلّ ذلك. لكن...».

قالت إنهما لم يمضيا وقتاً طويلاً في فيينا. كما أنها لا تحلم بزيارة أقربائها دون أن تقدم لهم مالاً. ولم يكن رولاند من ذلك النوع الذي يمكن أن يعطي مالاً إلى الأقرباء الفقراء. إلا أنها جعلته ينفق مالاً بلا قيود ما أن كانا يصادفان فناناً محتاجاً.

قلت: «جيد! وهل صادفت أياً من المشاهير في عالم الفن؟ بيكاسو، مثلاً، أو ماتيس؟».

أجابت: «كان أول شخص تعرّفت عليه هو زادكين، النحّات».

«لا، حقاً؟» قلت.

«ثم إدغار فاريس».

«من هو؟».

«مؤلف موسيقي. إنه شخص رائع يا فال. ستعبده».

«أي شخص آخر؟».

«مارسيل د تشامب. أنت تعرف من هو بالطبع؟».

«يجب أن أقول نعم. كيف كان يبدو ـ كشخص؟».

«أكثر الرجال الذين التقيت بهم تحضّراً»، جاء ردها على الفور.

«هذا شيء يقوله الكثيرون».

«أعرف ذلك يا فال، لكنها الحقيقة». وواصلت حديثها عن آخرين التقت بهم، فنانين لم أسمع بهم من قبل... هانز ريشيل، تيهاني، ميتشونز، وكلّهم رسامون. وفيما كانت تتحدث، كنت أسجّل ملاحظة عقلية عن ذلك الفندق الذي أقامت فيه في فيينا: في فندق موللر، أم غرابن. إذا سافرت إلى فيينا سأبحث في سجلّ الفندق ذات يوم وأتأكد إن كان اسمها مدوناً في السجّل.

«أظن أنك لم تزوري ضريح نابليون؟».

«لا، لكننا وصلنا إلى مالميسون. وكدت أرى عملية تنفيذ إعدام».

«لم تفوّتي الكثير على ما أظن، أليس كذلك؟».

للأسف، قلت لنفسي، فيما تابعت كلامها، بأن أحاديث كهذه لم تكن تجري إلا نادراً. وما أمتعني على نحو خاص الطبيعة المتلوّنة المتقطعة التي اتسمت بها هذه الأحاديث. وكنت في غالب الأحيان، بين فترات التوقف، أعطي أجوبة عقلية تتنافى تماماً مع الكلمات التي كنت أقولها. توابل إضافية، ساهم بها بالطبع، جوّ الغرفة، الكتب المبعثرة في الغرفة، طنين ذبابة، وضعية جسدها، ملمس الأريكة المريح. لم يكن ثمة شيء يجب التوصل إليه، أو إرسائه، أو افتراضه. فإذا انهار جدار يكون قد انهار. كنا نناقش الأفكار كما تنساق الأغصان إلى ساقية ثرثارة. روسيا، هل الطريق ما زال يدخّن تحت عجلاتك؟ هل الجسور ترعد وأنت تجتازيها؟ ردود؟ ما الحاجة إلى ردود؟ آه، أيتها الخيول! أية خيول! ما معنى أن يخرج الزَبَد من الفم؟

فيما كنا نستعد لنأوي إلى الفراش، تذكّرت فجأة بأني رأيت

ماكجريجور هذا الصباح. ذكرت ذلك بينما كانت تصعد من فوقي لتندس بين الشراشف.

«أرجو ألا تكون قد أعطيته عنواننا» قالت.

«لم نتحدث إلى بعضنا. لم يرني».

«هذا جيد»، قالت، وأمسكت قضيبي.

«ما الشيء الجيد؟».

«أنه لم يرك».

«ظننت أنك تقصدين شيئاً آخر».

14

عندما كنت أخرج لأتنشق هواء نقياً، كنت أقوم غالباً بزيارة سِيد إسين لأتجاذب معه أطراف الحديث. وفي مرة واحدة فقط رأيت زبوناً يدخل المحل. وفي الشتاء أو في الصيف، كان المحل معتماً في الداخل وبارداً ـ درجة الحرارة الملائمة لحفظ الجثث ـ وكانت واجهتا المحل مليئتين بالقمصان التي حال لونها بفعل الشمس، وتناثر عليهما براز الذباب.

وكان يجلس عادة في مؤخّرة المخزن، يقرأ تحت مصباح كهربائي خافت يتدلى من السقف بحبل طويل علّقت فيه صفائح متشابكة من ورق اصطياد الذباب. وجعل لنفسه مقعداً مريحاً بعد أن وضع مقعد سيارة فوق صندوقيّ تغليف. وبجانب الصندوقين توجد مبصقة يستعملها بعد أن يمضغ التبغ. وكان يضع عادة غليوناً قذراً بين أسنانه، ويدخن أحياناً سيجاراً من ماركة البومة. أما القبعة الثقيلة الكبيرة فلم يكن يخلعها إلا عندما يأوي إلى الفراش. وكانت ياقة معطفه بيضاء ومكسوة دائماً بقشرة الرأس، وعندما يتمخّط، وكان غالباً ما يفعل ـ مثل فيل يجأر ـ فهو يستعمل منديلاً أزرق بعرض ياردة.

كانت تتكدس على الطاولة في مكان قريب أكوام من الكتب والمجلات والصحف. وكان يتنقل من واحدة إلى أخرى حسب مزاجه. وبالإضافة إلى مواد القراءة هذه، هناك دائماً علبة من

الفستق الهشّ يغوص فيه عندما تبلغ به الإثارة مبلغها. ومن محيط خصره، بدا من الواضح أنه كان شخصاً أكولاً نهماً. وأخبرني مرات عديدة أن زوجته طاهية ممتازة. وفهمت أن هذا أكثر الجوانب جاذبية فيها، ويتبع ذلك بقوله دائماً إنها امرأة واسعة الإطلاع.

وفي أي وقت من اليوم كنت أزوره، كان يقول «جرعة واحدة فقط من الكحول»، ويخرج قارورة من شراب الشنابس أو قنينة فودكا. وكنت أجرع قليلاً لإرضائه. وإذا ـ لويت وجهي يقول ـ «ألا تحبّه كثيراً؟ لماذا لا تحاول قليلاً من الشاودار؟».

وذات صباح، وعلى إبريق الشاودار، كرّر رغبته في تعليمي القيادة. قال «إنك لا تحتاج إلا إلى ثلاثة دروس»، وأضاف «لا معنى لإبقاء السيارة دون أن تتحرك. فما أن تتعلّم القيادة حتى تصبح مهووساً بها. انظر، لم لا تخرج بجولة معي بعد ظهر يوم السبت؟ سأجد أحداً يرعى شؤون المخزن».

كان متلهّفاً وشديد الإلحاح، بحيث أني لم أستطع أن أرفض عرضه.

وفي يوم السبت التقيت به في المرآب. كانت السيارة الكبيرة ذات الأبواب الأربعة مركونة بجانب الرصيف. وبإلقاء نظرة واحدة عليها عرفت أنها تفوق رغبتي. لكن كان عليّ أن أواصل الأمر. جلست وراء المقود، وعالجت علبة السرعة، وتعرّفت على دواسة البنزين والكوابح. درس قصير. مزيد من التعليم سيعقب ذلك ما أن نخرج من المدينة.

ووراء مقود السيارة أصبح ريب شخصاً آخر. فحيثما اتجهنا كان يقود بسرعة كبيرة. وبدأت ساقاي تؤلماني ولمّا نبلغ منتصف الطريق، من كثرة الضغط على المكابح.

«كما ترى» قال وهو يرفع كلتا يديه عن المقود ليحرك يديه، «لا شيء صعب فيها. إنها تسير وحدها». ورفع قدمه عن دواسة

البنزين وأراني كيف يستعمل صمام الخانق اليدوي. تماماً مثل قيادة القاطرة.

وعلى أطراف المدينة كنا نتوقف هنا وهناك لتحصيل الإيجار. فهو يمتلك عدداً من البيوت هنا وفي مكان آخر. كلّها في الأحياء الخربة المتهدمة، التي كان يقيم فيها جميعها عائلات من السود. وقال إنه يتعين عليه جمع الإيجار كلّ أسبوع. وقال إن الناس الملونين لا يعرفون كيف يتعاملون مع النقود.

وفي قطعة أرض شاغرة قرب إحدى هذه الأكواخ أخذ يشرح لي. هذه المرة كيف أنعطف، وكيف أتوقّف فجأة، كيف أركن السيارة. وكيف أرجع إلى الوراء. وقال إن الرجوع إلى الوراء أمر في غاية الأهمية.

لم تمض فترة قصيرة حتى بدأت أتصبب عرقاً من الإجهاد. قال «حسناً، لنبدأ الآن. سنخرج قريباً إلى الطريق العام، وسأتركها تنطلق. إنها تنطلق مثل الريح ـ سترى... أوه، بالمناسبة، إذا خفت ولم تعد تعرف ماذا تفعل، أغلق المحرك واضغط على الكوابح».

عندما خرجنا إلى الطريق بدأ وجهه يشع. شدّ قبعته إلى الأسفل فوق عينيه. قال «انتبه!» أوووففف! وانطلقنا. وبدا لي أننا لم نكد نلمس الأرض. ألقيت نظرة إلى عدّاد السرعة: خمسة وثمانون. راح يضغط على مزيد من البنزين. «يمكنها أن تسير بسرعة مائة دون أن تحس بها. لا تقلق، أنا أسيطر عليها».

لم أنبس بكلمة، بل ثبّت نفسي، وأغمضت عيني نصف إغماضة.

عندما انتهى الطريق السريع اقترحت أن يتوقّف بضع دقائق ويدعني أمددّ ساقيّ.

«متعة، أليس كذلك؟» صاح.

«أراهنك على ذلك».

قال: «ذات يوم أحد، بعد أن نحصّل الإيجارات، سآخذك إلى

مطعم أعرفه يقدمون فيه بطاً صغيراً لذيذاً. أو يمكننا أن نذهب إلى الإيست سايد، إلى مطعم بولندي. أو ماذا عن بعض الوجبات اليهودية؟ أيّ شيء تريد. إن صحبتك ممتعة».

في لونغ آيلاند سيتي انعطفنا لشراء بعض المواد: الرنجة، سمك أبيض مدخّن، كعك، سمك سلمون مدخّن، مخللات، خبز ذرة، زبدة حلوة، عسل، جوز، بصل أحمر ضخم، ثوم، وحبوب الكاشا، وما إلى ذلك.

قال: «إذا لم يكن لدينا شيء آخر نفعله فسنأكل جيداً. طعام جيد، موسيقى جيدة، حديث جيد ـ ما الذي يحتاجه المرء غير ذلك؟».

«زوجة جيدة، ربما»، قلت بلا مبالاة.

«لديّ زوجة جيدة، لكن مزاج أحدنا لا يتفق مع مزاج الآخر. إنها تعتبرني مبتذلاً جداً، رجلاً أخرق».

«أنت لا تبدو لي هكذا» قلت.

«لقد تراجعت... بدأت أكبر في السن كما أظن. في الماضي كنت أقامر كثيراً. شيء سيء، لو كان عندك زوجة مثل زوجتي. بالمناسبة، هل تقامر على الخيول؟ أنا ما أزال أراهن أحياناً. لاأستطيع أن أعدك بأن أجعلك مليونيراً لكن يمكنني أن أضاعف لك مالك. قل لي في أيّ وقت. سيكون مالك في أمان معي، تذكّر ذلك».

كنا نسير باتجاه غرينبوينت. وقد أثار مشهد خزانات الغاز إحساساً عاطفياً فيّ. وكانت تظهر بين الحين والآخر كنيسة روسية. بدأت تصبح أسماء الشوارع مألوفة أكثر وأكثر.

«هل تمانع في أن نتوقف أمام شارع ديفوي 181؟» سألته.

«طبعاً، لم لا؟ أتعرف أحداً هناك؟».

«كنت. حبيبتي الأولى. أريد أن ألقي نظرة على بيتها، هذا كلّ ما في الأمر».

وتلقائياً زاد من سرعته. برزت أمامنا أشارة وقوف. لم

يتوقف. «الإشارات لا تعني لي شيئاً»، قال، «لكن لا تحذو حذوي».

وفي شارع 181 نزلت من السيارة، خلعت قبعتي (كما لو كنت سأزور قبراً) واقتربت من السور أمام الأرض المعشبة. رفعت عيني ونظرت إلى نوافذ بهو الطابق الأرضي؛ كان خصاص النافذة مسدلاً، كالعادة. بدأ قلبي يدقّ تماماً كما يحدث لي قبل سنوات عندما كنت أنظر إلى نافذتها، كنت أتمنى وأتضرع إلى الله بأن أرى ظلّها وهي تتحرك. وكنت أقف هناك لبرهة قصيرة، ثم أذهب ثانية. وأحياناً أدور حول الحارة ثلاث أو أربع مرات ـ لعل وعسى. («أيها المسكين التافه»، قلت لنفسي، «إنك ما تزال تدور حول الحارة»).

عندما عدت إلى السيارة، سمعت صوت طرطقة باب القبو. ومدت امرأة مسنة رأسها إلى الخارج. اتجهت نحوها، وأنا أكاد أرتعش، سألتها إن كانت عائلة غيفورد ما تزال تقيم في الحيّ.

رمقتني باهتمام شديد ـ كما لو أنها رأت شبحاً ـ ثم أجابت: «بحق السماوات لا! لقد انتقلوا منذ سنوات».

جعلني ذلك أتجمّد.

«لماذا»، قالت، «هل تعرفهم؟».

«نعم، كنت أعرف أحدهم، لكني لا أظن أنها تتذكّرني. كان اسمها أونا. هل تعرفين ما حلّ بها؟».

«لقد ذهبوا إلى فلوريدا» (قالت هم، ولم تقل هي). «شكراً. شكراً جزيلاً!» رفعت قبعتي، كما لو كنت أرفعها لإحدى أخوات الرحمة.

وما أن وضعت يدي على باب السيارة حتى نادتني: «أيها السيد! أيها السيد، إن كنت تريد معرفة المزيد عن أونا فهناك سيدة في آخر الشارع يمكنها أن تخبرك...».

«لا يهم»، قلت. «ليس مهماً».

بدأت الدموع تترقرق في عينيّ، يا لها من فكرة غبية.

«ما خطبك؟»، قال ريب.

«لا شيء، لا شيء. الذكريات، هذا كلّ ما في الأمر».

فتح الدرج وسحب قارورة.

أخذت جرعة من العلاج الشامل؛ كان ماء نار صافياً. لهثت.

«إن مفعوله أكيد»، قال، «أتشعر بالتحسّن الآن؟».

«أراهن على ذلك». وفي اللحظة التالية وجدت نفسي أقول: «يا إلهي! أظن انه مايزال بإمكان المرء أن يحسّ بهذه الأشياء. وماذا كان سيحدث لو ظهرت مع طفلها؟ إن ذلك يجرح مشاعري. لاتسألني لماذا. إنها تخصني، هذا كلّ ما يمكنني أن أخبرك به».

«لا بدّ أنها كانت قصة حبّ». إن عبارة «قصة حبّ» أزعجتني.

«لا»، قلت، «كانت إجهاضاً تاماً. عملية اغتيال. كان من الممكن أيضاً أن أكون عاشق الملكة جينيفر. لقد خذلت نفسي، هل تفهم؟ كان ذلك سيئاً. أظن أني لن أتجاوز هذا الأمر. اللعنة، لماذا أتحدّث عن ذلك؟».

لاذ ريب الطيب بالصمت. كان ينظر إلى الأمام وزاد من سرعته.

بعد فترة وجيزة قال ببساطة شديدة: «يجب أن تكتب عن ذلك في وقت ما». فأجبته «أبداً! لا يمكنني أن أجد الكلمات للتعبير عن ذلك».

نزلت من السيارة عند ناصية الشارع حيث يوجد مخزن القرطاسية.

«لنعيد ذلك مرة أخرى قريباً، إيه؟»، قال ريب، ومدّ يده الكبيرة المكسوة بالشعر. «في المرة القادمة سأعرّفك على أصدقائي الملوّنين».

مشيت في الشارع، متجاوزاً الأعمدة الحديدية، والمروج

الواسعة، والشرفات الكبيرة. ما أزال أفكّر بأونا غيفورد. كم أتمنى أن أراها مرة أخرى... نظرة واحدة، لا أكثر. ثم أغلق الكتاب إلى الأبد.

تابعت السير، متجاوزاً البيت، متجاوزاً عدداً أكبر من الزنوج ذوي الأفواه الوردية والبلوزات المخططة، متجاوزاً مزيداً من القصور المهيبة، والشرفات المغطاة بأشجار اللبلاب. فلوريدا، لاأقل. لماذا لا كورنول، أو أفالون، أو قلعة كاربونيك؟ بدأت أغني لنفسي... «لا يوجد في كلّ هذا العالم فارس نبيل جداً، غير أناني جداً...» ثم تملكتني فكرة مرعبة... ماركو! متدلياً من سقف دماغي، ماركو الذي شنق نفسه. قال لمونا ألف مرة إنه يحبها؛ ألف مرة تظاهر بالحماقة؛ ألف مرة حذّرها بأنه سيقتل نفسه إذا لم يجد عطفاً في عينيها. أما هي فقد سخرت منه، هزئت منه، احتقرته، أذلّته. ومهما قالت أو فعلت، كان مايزال يحطّ من قدر نفسه، واستمر يغدق عليها الهدايا؛ وكانت رؤيتها، وصوت ضحكتها الهازئة، تجعله يتذلّل ويتودّد أكثر. ومع ذلك لم يكن ثمة شيء يمكن أن يقتل حبّه، تقديسه لها. وعندما كانت ترفضه كان يعود إلى غرفته العليا ليكتب نكاتاً. (كان يكسب رزقه من بيع النكات إلى المجلات) وكلّ بنس يكسبه يقدمه لها، وكانت تأخذه حتى دون أن تشكره. («اذهب الآن، يا كلب!») وصباح أحد الأيام، وُجد متدلياً من فوق عارضة خشبية في غرفته العليا البائسة. لم يترك رسالة. فقط جسد يتأرجح في العتمة والغبار. آخر نكتة له.

وعندما أخبرتني قلت: «ماركو؟ ماذا يشكل ماركو بالنسبة لي؟».

بكت بمرارة، ذرفت دموعاً حارة. وكلّ ما أمكنني أن أقوله لها مواسياً: «كان سيفعل ذلك بأي حال، إن آجلاً أم عاجلاً. إنه من ذلك النوع».

وأجابت، «أنت قاس، عديم القلب».

صحيح، فقد كنت عديم القلب. لكن هناك آخرون كانت تعاملهم بالقدر نفسه من السوء. وبأسلوبي الفظ القاسي ذكّرتها بهم، بقولي «دور من التالي؟» فهرعت من الغرفة تسدّ أذنيها بيديها. فظيع. فظيع جداً.

فيما رحت أتنشق رائحة زهرة الجهنمية، الورود الحمراء الثقيلة، قلت لنفسي - «ربما كان ذلك الشيطان المسكين ماركو قد أحبّها بينما أحببت أنا أونا غيفورد ذات يوم. ربما كان يظن أن ازدراءها واحتقارها له قد يتحول بمعجزة ذات يوم إلى حبّ، أن تراه كما هو، قلب دامٍ عظيم مفعم بالرقة والمغفرة. ربما كان في كلّ ليلة، عندما يعود إليّ غرفته، يجثو على ركبتيه ويصلّي. (لكن ما من مجيب). ألم أنشج أنا أيضاً في كلّ ليلة وأنا أصعد إلى السرير؟ ألم أصلّي أيضاً؟ وكيف! كانت مشينة، تلك الصلاة، ذلك الاستجداء، ذلك الأنين! لو كان صوتاً واحداً قد قال: «إنه أمر ميئوس منه، إنك لست الرجل المناسب لها»، ربما استسلمت، ربما أفسحت مكاناً لشخص آخر. أو على الأقل كنت لعنت الله الذي قدّر لي هذا المصير.

ماركو المسكين! لم يكن يتوسل لأنه كان يُحبّ، بل ليُسمح له بأن يُحبّ. وعيبه أنه يكتب نكاتاً! والآن فقط بدأت أدرك ما عانيته، ماتحمّلته يا عزيزي ماركو. الآن تستطيع أن تستمتع بها من الأعلى. يمكنك أن تحرسها ليلاً نهاراً. فإذا لم ترك هي في الحياة كما كنت، فقد تراها على الأقل الآن على حقيقتها. كان لديك قلب يفوق ذلك الجسم المرهف بكثير. لم تكن جينيفر نفسها جديرة بالحبّ العظيم الذي تلهمه. لكنها كانت تتمتع بمَلَكَة أن تخطو بخفة ورشاقة، حتى عندما تسحق قملة...

كانت المائدة قد أعدِّت، والعشاء بانتظاري عندما دخلت. مونا في مزاج رائع على غير العادة.

«كيف كانت جولتك؟ هل استمتعت بها؟» صاحت وضمتني إليها.

لاحظت الزهور في المزهرية وزجاجة نبيذ بجانب صحني. نبيذ نابليون المفضّل، الذي احتساه حتى في سانت هيلين.

«ماذا يعني هذا؟» سألتها.

كانت تطفح بهجة. «يعني أن بوب يظن أن الصفحات الخمسين الأولى رائعة. بدا متحمساً للغاية».

«صحيح؟ حدثيني عن ذلك. ماذا قال بالضبط؟».

كانت مذهولة هي نفسها إلى درجة أنها لم تعد تذكر الكثير الآن. جلسنا نتناول الطعام. «كلي قليلاً»، قلت، «ستتذكرين».

«أوه نعم»، صاحت، «إني أتذكّر هذا... قال إن هذا ذكّره قليلاً بميلفيل... ودرايزر أيضاً».

ابتلعت ريقي.

«نعم، وتذكّره كذلك بلافكاديو هيرن».

«ماذا؟ هل قرأه بوب أيضاً؟».

«قلت لك يا فال إنه قارئ عظيم».

«ألا تظنين أنه يخدعنا؟».

«لا، على الإطلاق. إنه في غاية الجدية. إنه مفتون بها حقاً».

صببت النبيذ. «هل اشترى بوب هذا؟».

«لا، أنا اشتريته».

«كيف عرفت أنه نبيذ نابليون المفضّل؟».

«الرجل الذي باعه لي قال لي ذلك».

رشفت رشفة جيدة.

«حسناً؟».

«لم أذق شيئاً أفضل من هذا. وكان نابليون يشرب منه كلّ يوم؟ الشيطان المحظوظ!»

قالت: «فال، يجب أن تعلمّني قليلاً إذا ما اضطررت للإجابة عن بعض الأسئلة التي سيطرحها عليّ بوب».

«ظننت أنك تعرفين جميع الأجوبة».

«كان يتحدث اليوم عن القواعد والبلاغة. وأنا لا أعرف شيئاً عن القواعد والبلاغة».

«ولا أنا، لكي أكون صادقاً. لقد ذهبتِ إلى المدرسة، أليس كذلك؟ وبما أنك خريجة ويليسلي فيجب أن تعرفي شيئاً...».

«أنت تعرف أنني لم أذهب إلى الجامعة».

«قلتِ إنكِ ذهبتِ».

«ربما قلت لك ذلك عندما قابلتك أول مرة. لم أكن أرغب في أن تظن بأني جاهلة».

قلت: «اللعنة، لم أكن أبالي إن كنت لم تنهي الثانوية. فأنا لا أحترم التعليم. إن القواعد والبلاغة مجرد سخافات. وكلما قلّت معرفتك بهذه الأشياء، كان أفضل، وخاصة إذا كنت كاتبة».

«لكن لنفترض أنه أشار إلى الأخطاء. ماذا سأقول؟».

«أقول» ـ ربما كنتَ مصيباً. سأفكّر في الأمر. بل من الأفضل أن تقولي ـ كيف ستعبّر عن ذلك؟ واجعليه في موقف دفاع، أترين؟».

«أتمنّى أن تكون مكاني في بعض الأحيان».

«وأنا أتمنى ذلك. عندها أعرف إن كان هذا التافه مخلصاً أم لا».

«اليوم»، قالت، متجاهلة الملاحظة، «راح يتحدّث عن أوروبا. وكأنه يقرأ أفكاري. كان يتحدّث عن الكتّاب الأمريكيين الذين عاشوا ودرسوا في الخارج. قال إنه من المهم أن يعيش المرء في تلك الأجواء، فهي تغذي الروح».

«وماذا قال أيضاً؟».

تردّدت لحظة قبل أن تقول.

«قال إني إذا أكملت الكتاب فسيعطيني مالاً يكفي للإقامة في أوروبا مدة سنة أو سنتين».

قلت: «رائع، لكن ماذا عن أمك المَقعدة؟ أي أنا».

كانت قد فكّرت بذلك أيضاً. «لعلي سأجهز عليها» وأضافت أنه مهما كان المبلغ الذي سيدفعه فمن المؤكد إنه سيكفينا. إن بوب كريم.

«كما ترى» قالت، «لم يخب ظني ببوب يا فال، فأنا لا أريد أن أدفعك دفعاً، لكن...».

«تتمنين أن أعجّل وأنهي الكتاب، إيه؟».

«نعم. كم من الوقت سيستغرق في رأيك؟».

قلت إني لا أملك أدنى فكرة.

«ثلاثة أشهر؟».

«لا أعرف».

«هل كلّ شيء واضح، ماذا ستفعل؟».

«لا، ليس الأمر كذلك».

«ألا يقلقك هذا؟».

«طبعاً. لكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ إني أفعل ما بوسعي».

«ألا تظن أنك تتصرف بشيء من الغباء؟».

«إذا كنت أفعل ذلك فسأعود إلى رشدي ثانية. أتمنّى ذلك، على أية حال».

«إنك تريد أن تذهب إلى أوروبا، أليس كذلك؟».

رمقتها بنظرة طويلة قبل أن أجيب.

«هل أريد أن أذهب إلى أوروبا؟ أيتها المرأة، إني أريد أن أذهب إلى كل مكان... آسيا، أفريقيا، أستراليا، البيرو، المكسيك،

سيام، الجزيرة العربية، جاوة، بورنيو... والتيبت أيضاً، والصين. وما أن أذهب سأبقى هناك إلى الأبد. أريد أن أنسى أني ولدت هنا. أريد أن لا أتوقف عن التنقل، التجوال، أجوب العالم. أريد أن أذهب إلى نهاية كلّ طريق...».

«ومتى ستكتب؟».

«وأنا أجوب العالم».

«فال، أنت رجل حالم».

«بالتأكيد. لكني حالم نشط. هناك فرق».

ثم أضفت: «كلنا حالمون، إذ يستيقظ بعضنا في الوقت المناسب ليدّون بضع كلمات. بالتأكيد أريد أن أكتب. لكني لا أظن أنها الغاية وهي كل شيء. كيف أشرح لك؟ إن الكتابة كالغائط الذي تصنعينه في نومك. الغائط اللذيذ بالتأكيد، لكن الحياة تأتي أولاً، ثم الغائط. إن الحياة تغيير، حركة، سعي... المضي قدماً للقاء المجهول، غير المتوقّع. لا يوجد سوى عدد قليل جداً من الناس الذين يمكنهم أن يقولوا عن أنفسهم «إني عشت!» ولهذا السبب لدينا الكتب ـ حتى يعيش الناس بشكل غير مباشر، بالتفويض. لكن عندما يعيش المؤلف كذلك بالتفويض ـ!»

قاطعتني بقولها: «عندما أستمع إليك أحياناً يا فال، أشعر أنك تريد أن تعيش ألف حياة في حياة واحدة. إنك مستاء إلى الأبد ـ من الحياة كما هي، من نفسك، من كلّ شيء. إنك منغولي. إنك تنتمي إلى شعوب سهول آسيا الوسطى».

«أتعرفين»، قلت وقد بدأت أشعر بالإثارة الآن، «إن أحد الأسباب التي تجعلني أشعر بأني مفكّك جداً، هو أنه يوجد فيّ القليل من كلّ شيء. يمكنني أن أضع نفسي في أيّ فترة، وأنسجم فيها. عندما أقرأ عن عصر النهضة فإني أحسّ بأني رجل من عصر النهضة؛ وعندما أقرأ عن إحدى سلالات العائلات المالكة الصينية،

أشعر تماماً وكأني صيني من ذلك العهد. مهما كان العرق، العصر، الناس، مصري، أزتيكي، هندوسي، أو كلداني، فأنا أعيش فيها كلياً، وهي دائماً ثرية، عالم مزركش لا تنضب عجائبه. هذا ما أشتهيه ـ عالم مخلوق إنسانياً، عالم يتجاوب مع أفكار الإنسان، أحلام الإنسان، رغبات الإنسان. إن ما يزعجني في حياتنا هو الحياة الأمريكية هذه، هو أننا نقتل كلّ شيء نلمسه، بالحديث عن المغول والهونيين، فقد كانوا فرساناً بالمقارنة معنا. إن أمريكا أرض مقفرة فارغة قبيحة. إني أساعد مواطنيّ من خلال عيون أسلافي. أرى بوضوح من خلالها ـ وهي مجوّفة بعد أن نهشها الدود...».

تناولت قنينة جيفري تشامبيرتين وأترعت كأسينا. كان هناك قدر يكفي لجرعة جيدة واحدة.

«أما نابليون!» قلت. «فهو رجل عاش الحياة بأكملها».

«فال، إنك تثير فزعي في بعض الأحيان، الطريقة التي تتحدث فيها عن أمريكا. هل تكرهها حقاً إلى هذه الدرجة؟».

«لعله الحبّ»، قلت. «حبّ معكوس. لا أعرف».

«أرجو ألا تعبّر عن ذلك في الرواية».

«لا تقلقي. ستكون الرواية غير واقعية مثل الأرض التي تصدر عنها. لا يمكنني أن أقول ـ «إن جميع الشخصيات في هذا الكتاب خيالية، كما يكتبون في بداية الروايات». فلن يتعرف أحد على أحد، المؤلف على الأقل. والشيء الجيد أنها ستكون باسمك. يا لها من نكتة إذا أصبحت أكثر الروايات مبيعاً! إذا جاء المراسلون يقرعون الباب لإجراء مقابلات معك!».

أفزعتها هذه الفكرة. لم تر أنها فكرة مضحكة على الإطلاق.

قلت: «أوه، لقد قلت بأني حالم قبل لحظة. دعيني أقرأ لك مقطعاً

ـ إنه مقطع قصير ـ من رواية تلّ الأحلام. يجب أن تقرئيها ذات يوم؛ إنه حلم عن كتاب».

توجهت إلى رفّ الكتب، وفتحت الكتاب على المقطع الذي أقصده.

«إنه يتحدّث عن قصيدة ليسداس لميلتون، عن السبب الذي ربما جعلها أجمل قصيدة في الأدب الصافي في الوجود. وعندها يقول ماتشين: «إن الأدب هو الفنّ الحسّي الذي يخلق انطباعات رائعة بواسطة الكلمات». لكن هنا المقطع... يلي ذلك مباشرة: «ومع ذلك فهناك شيء آخر؛ فبالإضافة إلى الفكر المنطقي، الذي كان غالباً يشكل عائقاً، حادثاً مزعجاً، ومع ذلك متلازماً، وبالإضافة إلى الإحساس الذي يضفي دائماً المتعة والبهجة، وبالإضافة إلى هذا، هناك الصور الغامضة التي يتعذر وصفها التي تستدعيها جميع الآداب الجميلة إلى العقل. كالكيميائي الذي يُدهش أثناء تجاربه أحياناً عندما يكتشف عناصر مجهولة غير متوقّعة في البوتقة أو في المتلقي، بما أن البعض يعتبرون أن عالم الأشياء المادية عبارة عن غلالة رقيقة من الكون غير المادي، لذلك فمن يقرأ نثراً أو شعراً رائعاً يدرك الإيحاءات التي لا يمكن أن توضع في كلمات، التي لاتنبثق من الإحساس المنطقي، التي تتوازى بالأحرى مع البهجة الحسّية، ولكن لا ترتبط بها. إنّ العالم المباح هو بالأحرى عالم الأحلام، العالم الذي يعيش فيه الأطفال أحياناً، يظهر في الحال، ويتلاشى في الحال، عالم يتجاوز كلّ تعبير، أو تحليل، لا للمفكر ولا للأحاسيس...»».

«جميل»، قالت، وقد أعدت الكتاب إلى مكانه. «لكن لا تحاول أن تكتب بهذه الطريقة. دع آرثر ماتشين يكتب بهذه الطريقة، إذا أراد. اكتب بأسلوبك أنت».

جلست إلى الطاولة ثانية. وكانت زجاجة من مشروب شارتروز تنتصب بجانب قهوتي. وبينما صببت قدراً ضئيلاً من المشروب

الأخضر الناري في كأسي، قلت: «ينقصنا شيء واحد الآن: واحدة من الحريم».

قالت: «بوب هو الذي أعطانا زجاجة الشارتروز. كان سعيداً جداً بتلك الصفحات».

«لنأمل أنه سيحب الصفحات الخمسين التالية بالقدر نفسه».

«أنت لا تكتب الكتاب من أجله يا فال. تكتبه من أجلنا».

قلت: «هذا صحيح. أنسى هذا أحياناً».

عندها خطر لي أني لم أخبرها شيئاً بعد عن مخطط الكتاب الحقيقي. بدأت أقول: «هناك شيء يجب أن أقوله لك، أو ربما يجب عليّ أن أبقيه لنفسي فترة أطول».

رجتني ألا أستثيرها.

«حسناً، سأخبرك. إنه حول الكتاب الذي أنوي كتابته ذات يوم. لقد دوّنت كلّ الملاحظات من أجله. كنت قد كتبت لك رسالة مطولة عنه، عندما كنت في فيينا، أو اللّه أعلم أين كنتِ. لم أتمكن من إرسال الرسالة لك لأنك لم تذكري لي عنوانك. نعم، سيكون هذا حقاً كتاب... كتاب ضخم. عني وعنك».

«ألم تحتفظ بالرسالة؟».

«لا. لقد مزّقتها. إنه خطؤك! لكن لديّ الملاحظات. لن أريها لك الآن».

«لماذا؟».

«لأني لا أريد أيّ تعليقات. بالإضافة إلى ذلك إذا تحدثنا عنها فقد لا أكتب الكتاب أبداً. كما أن هناك أشياء لا أريدك أن تعرفيها حتى أكتبها».

«يمكنك أن تثق بي»، قالت. وراحت تتوسل إليّ. «لا يمكن»، قلت، «يجب أن تنتظري».

«لكن لنفترض أن الملاحظات ضاعت؟».

«يمكنني أن أكتبها مرة أخرى من البداية. هذا لا يقلقني على أقل تقدير».

بدأت تبدي انزعاجها الآن. مع ذلك، فإذا كان الكتاب عنها وعني... وهكذا. لكني ظللت مصراً على موقفي.

كنت أعرف جيداً أنها ستقلب المكان رأساً على عقب لتعثر على الملاحظات، أفهمتها أني تركتها في بيت أبويّ. وقلت لها: «لقد وضعتها في مكان لا يمكنهما أن يعثرا عليها مطلقاً». ومن نظرتها فهمت أنها لم تصدق ما قلته. ومهما كان تحرّكها فقد تظاهرت بالاستسلام، وأنها لم تعد تفكر بالأمر.

ولترطيب الأجواء قلت لها إذا ما قيض للكتاب أن يُكتب، وإذا ما قيض له أن يرى النور ذات يوم فإنها ستجد نفسها قد خلّدت. وبما أن ذلك بدا نوعاً من التحذلق أضفت «قد لا تتعرفين على نفسك دائماً، لكني أعدك بذلك، عندما انتهي من رسم صورتك فلن تكوني منسية أبداً».

بدا أنها تأثرت من حديثي. «تبدو متأكداً تماماً من نفسك»، قالت.

«لديّ سبب في ذلك. لقد عشت هذا الكتاب. يمكنني أن أبدأ من أي مكان وألتمس طريقي. إنه مثل مرج فيه ألف مرشّ: وكلّ ما عليّ أن أفعله هو أن أفتح الصنبور». نقرت على رأسي. «يوجد كلّ شيء هنا، في حبر سري... أعني دائم...».

«هل ستذكر الحقيقة عنا؟».

«بالتأكيد. عن الجميع، لا عنا نحن فقط».

«وتظن أنك ستجد ناشراً لمثل هذا الكتاب؟».

«لم أفكّر بذلك بعد»، أجبتها. «أولاً يجب أن أكتبه».

«أرجو أن تنهي الرواية أولاً؟».

«بالتأكيد. وربما المسرحية أيضاً».

«المسرحية؟ أوه فال، كم سيكون ذلك رائعاً».

وهذا أنهى الحديث.

مرة أخرى برزت الفكرة المثيرة للقلق: إلى متى سيدوم هذا السلام والهدوء؟ كانت الأمور تسير على نحو رائع. رحت أفكّر بهوكوساي، تقلباته، تغيير عنوانه للمرة التسعمائة والسبعة وأربعين، مثابرته، إنتاجه المدهش. يا لها من حياة! وأنا، أنا كنت أقف عند العتبة. فقط لو عشت حتى أبلغ التسعين أو المائة فهل سيكون لديّ أعمال منشورة.

وثمة فكرة أخرى مقلقة أيضاً جالت في رأسي. هل سأكتب شيئاً مقبولاً؟

الجواب الذي جاء فجأة إلى شفتي: «اللعنة!».

وخطرت ببالي كذلك فكرة أخرى. لماذا تستحوذ عليّ فكرة الحقيقة كثيراً؟

وجاء الجواب عن ذلك واضحاً نقياً. لأنه لا توجد إلا الحقيقة، ولاشيء سوى الحقيقة.

لكن صوتاً باهتاً عارض قائلاً: «لكن الأدب شيء آخر».

إذاً فليذهب الأدب إلى الجحيم! كتاب الحياة، هذا ما سأكتبه.

وباسم من ستوقّعه؟

باسم الخالق.

يبدو أن هذا يحلّ المشكلة.

إن الفكرة بأن أبدأ ذات يوم بكتابة مثل هذا الكتاب ـ كتاب الحياة ـ جعلتني أتقلب طوال الليل في الفراش. كان ينتصب أمام عيني المغمضتين، مثل سراب أسطورة. الآن وبعد أن آليت على نفسي أن أجعله حقيقة واقعة، بدأ يلوح أن إنجازه أصبح أكثر

صعوبة مما كنت أظن. كان يبدو في واقع الأمر شيئاً طاغياً. إلا أني كنت واثقاً من شيء واحد وهو أنه سيتدفّق ما أن أبدأ بكتابته. ولن يكون مجرد استخراجه قطرة قطرة. فكّرت بالكتاب الأول الذي كتبته، عن الرسل الإثني عشر. كان إخفاقاً! لقد أحرزت تقدماً ضئيلاً منذ ذلك الحين، حتى لو لم يعرف أحد بذلك إلا أنا. لكن ياله من هدر للمواد! كان يجب أن يشمل موضوعي الرئيسي جميع الثمانين ألفاً أو مائة ألف ممن وظفتهم وطردتهم خلال تلك السنوات المفعمة بالحركة في شركة كوسموديمونيك. لا عجب أني كنت أفقد صوتي باستمرار. مجرّد الكلام مع ذلك العدد الكبير من الناس كان جهداً كبيراً. لكنه لم يكن الكلام وحده، كانت وجوههم، التعابير التي يكسوها الحزن، الغضب، الخداع، المكر، الحقد، الخيانة، الامتنان، الحسد، وما إلى هنالك ـ كما لو أني، بدلاً من التعامل مع الكائنات البشرية، كنت أتعامل مع مخلوقات طوطمية: الثعلب، الوشق، ابن آوى، الغراب، اليرنب القطبي، العقعق، الحمامة، ثور المسك، الأفعى، التمساح، الضبع، النمس، البومة... كانت صورهم ما تزال ماثلة في ذاكرتي؛ الجيدون والسيئون، المحتالون والكذابون، العاجزون، المجانين، الصعاليك، المقامرون، المستنزفون، المنحرفون، القديسون، الشهداء، جميعهم، العاديون والاستثنائيون. حتى ذلك الملازم في حرس الخيّالة المشوه الوجه ـ بالأحمر أو بالأسود ـ الذي كان عندما يضحك يبكي، وعندما يبكي كان يبتهج. وعندما يخاطبني ـ عادة لتقديم شكوى ـ يقف باستعداد، كما لو أنه هو الحصان لا الحارس. وذلك اليوناني ذو الوجه الطويل الشبيه برأس حصان، العالم لا مراء في ذلك، الذي كان يريد أن يقرأ من بروميثيوس مقيداً ـ أم أنه لم يكن مقيداً؟ لماذا كان، لشدة ما أحببته، يثير فيّ دائماً مشاعر الازدراء والسخرية؟ وكم كان مثيراً للاهتمام ذلك المصري الذي كانت إحدى عينيه بيضاء، والذي كان الجنس ملتصقاً في دماغه! دائماً في مياه حارة، وخاصة إذا لم يتمكن من أن يستمني مرّة أو مرّتين في اليوم. وتلك السحاقية، التي تطلق على

نفسها الإلياذة - لماذا الإلياذة؟ - الرائعة الجمال، البالغة الرزانة، الخجولة جداً... والعازفة الرائعة أيضاً. أعرف ذلك لأنها أحضرت آلتها الموسيقية إلى المكتب في مساء أحد الأيام، وراحت تعزف من أجلي. وبعد أن عزفت لي معزوفات لباخ، وموزارت، وباغانيني، بلغت بها الشجاعة لأن تقول لي إنها سئمت من كونها سحاقية، وأنها تريد أن تصبح عاهرة، ورجتني أن أعثر لها على مكتب أفضل تعمل فيه، مكتب يمكنها أن تقيم فيه عملاً صغيراً.

كانوا جميعهم هناك يسيرون في استعراض أمامي من الماضي - بتشنجاتهم اللا إرادية، وجوههم المتجهمة، توسلاتهم، وخدعهم الصغيرة الماكرة. وكانوا في كلّ يوم يرتمون على طاولتي كما لو إنهم يخرجون من كيس طحين ضخم - مشاكلهم، همومهم، أوجاعهم وآلامهم. ربما عندما اخترت هذا العمل المقرف، نصح أحدهم سكرابليبوستر الكبير وقال له: «اجعل هذا الرجل مشغولاً دائماً! ضع قدميه في وحل الواقع، اجعل شعره ينتصب واقفاً، أطعمه كلس الطير، حطّم كلّ شيء وهمي يمتلكه! وسواء كان قد حُذِّر أم لا، فقد عمل سكرابليبوستر العجوز ذلك تماماً. هذا وأكثر قليلاً. جعلني أتعرف على الحزن والأسى.

لكن من بين الآلاف التي جاءت وذهبت، التي استجدت وتوسلت، بكت أمامي مفجوعة عارية، تجري آخر مكالمة لها، إذا جاز التعبير، قبل أن تنخرط في المسلخ. كان يبرز بين الحين والآخر رجل جوهرة، عادة من مكان بعيد، ربما كان تركياً أو فارسياً. ومثل هذا كان يظهر في يوم هذا الشخص الذي اسمه عليّ كذا وكذا، مسلم، تعلم فن الخط الرائع في مكان ما في الصحراء، وبعد أن تعرّف عليّ، عرف أني أصغي جيداً، وأنه يكتب لي رسالة، رسالة طولها اثنتان وثلاثون صفحة، بدون أي خطأ، كلّ فاصلة أو فارزة منقوطة في محلها، وفيها يشرح (كما لو كان الأمر مهماً لي أن أعرف) أن معجزات المسيح - التي راح يعددها بالتفصيل - لم تكن

معجزات على الإطلاق، وأنها كانت تُمارس من قبل، حتى إحياء الموتى، على يد رجال مجهولين، رجال كانوا يفهمون قوانين الطبيعة، القوانين التي يصرّ على أن علماءنا لا يعرفون عنها شيئاً، لكنها قوانين أبديّة ويمكن أن تفضي إلى ما يسمّى بالمعجزات عندما يأتي الرجل المناسب... وهو رغم هذا كان يمتلك السرّ، لكني لاأستطيع أن أبوح به لأنه اختار أن يكون ساعياً وأن «يضع شارة العبوديّة» لسبب لا يعرفه أحد إلا الله، تبارك اسمه، لكن عندما يحين الوقت سأقول الكلمة وما إلى ذلك، وقريباً...

كيف تمكنت من ترك كلّ هذه الوحوش الهائلة الرائعة، والجدالات والمشاجرات التي كانوا يثيرونها باستمرار، وكنت أُدعى كلّ بضعة أيام لأشرح لرئيسي هذا، وأوضح ذاك، كما لو كنت أنا من حرّض على سلوكهم الجنوني الذي لا يمكن تفسيره. نعم، كم كان من الصعب محاولة إقناع الرجل الكبير (بدماغ قزم) بأن زهرة أمريكا قد بذرت من بطون هؤلاء المجانين، هؤلاء الوحوش، هؤلاء البلهاء الذين يمتلكون مواهب غريبة كالقدرة على قراءة أسفار التوراة بالعكس، تضرب عشر أعمدة من الأرقام في وقت واحد، أو تجلس فوق قطعة من الجليد وتظهر علامات الحمّى. ولم يكن بوسع شيء من هذه التفسيرات بالطبع أن يخفّف من حدة الواقع المفزع بأن شيطاناً أسمر كان يسلّم رسالة موت قد اغتصب امرأة هرمة في الليلة الماضية.

كان شيئاً قاسياً. لم أستطع قط أن أفسّر له الأشياء. أكثر مما بإمكاني أن أقدّم حالة توباخينيكوف، الطالب التلمودي، الذي كان نسخة طبق الأصل عن المسيح الحيّ الذي كان يمشي في شوارع نيويورك يحمل بيده رسائل عيد الفصح السعيد. كيف كان بإمكاني أن أقول له، لهذا الرئيس البومة: «هذا الشيطان يحتاج إلى مساعدة. فأمه تموت بالسرطان، وأبوه يبيع ربطات أحذية طوال النهار، والحمائم مشلولة. (الحمائم التي كانت تستخدم الكنيس بيتاً لها) وإنه بحاجة إلى علاوة. بحاجة إلى طعام يسد رمقه».

ولأدخل الدهشة إلى نفسه، كنت أروي له أحياناً حكايات صغيرة عن السعاة الذين يعملون لديّ مستخدماً دائماً الزمن الماضي كما لو أنني أتحدث عن شخص لم يعد في الخدمة. نعم، أقول إنه كان مرافق يوحنا غادسكي، عندما كانا في نزهة في الغابة السوداء. نعم (عن آخر)، عمل ذات مرّة مع باستور في المعهد المشهور في باريس. نعم (وقصة أخرى) عاد إلى الهند لينتهي كتابع «تاريخ العالم» بأربع لغات. نعم (طلقة الانطلاق)، كان أحد أعظم الفرسان الذين عاشوا على هذه الأرض؛ وجمع ثروة طائلة بعد أن تركنا، ثم سقط من فوق عمود وتحطمت جمجمته.

وماذا كان الردّ دائماً؟ «مثير جداً، في الواقع، واصل العمل الجيد. تذكّر، لا توظّف سوى الأولاد النظيفين الجيدين اللطيفين ممن ينتمون إلى عائلات جيدة. لا يهود، لا مقعدون، لا متهمون سابقون. إننا نريد أن نكون فخورين بقوتنا من السعاة».

«نعم يا سيدي!».

«وبالمناسبة، تخلص من جميع هؤلاء الزنوج الموجودين في العمل. إننا لا نريد أن يفقد زبائننا عقولهم».

«نعم يا سيدي!».

وأعود إلى مقعدي، وأجري تغييرات بسيطة، أخلطهم ببعض قليلاً، لكني لا أطرد أحداً، حتى لو كان أسود مثل آس البستوني.

كيف تمكنت من إبقائهم خارج سجلات السعاة، جميع حالات الخرف المبكر الرائع هذه، تلك النجوم المتنقلة، هؤلاء المنطقيون، هؤلاء المصابون بالصرع الذين تركت المعارك ندوبها عليهم، اللصوص، القوادون، العاهرات، الكهنة وطلاب التلمود، التلمود والكتب المقدسة في الشرق؟ الروايات! كما لو أن بوسع المرء أن يكتب عن مثل هذه الأمور، مثل هذه النماذج، في رواية. حيث يمكن للمرء، في مثل هذا العمل، أن يحدد موضع القلب، الكبد، العصب

البصري، البنكرياس أو المرارة؟ لم يكونوا خياليين، كانوا أحيّاء، كلّ واحد منهم، وبالإضافة إلى أنهم كانوا مبتلين بالمرض، كانوا يأكلون ويشربون كلّ يوم، ويتبولون، ويتغوطون، ويضاجعون، ويسرقون، ويقتلون، ويشهدون شهادات زور، ويخونون زملاءهم، ويشغلّون أطفالهم، ويشغلّون أخواتهم في الدعارة، ويجعلون أمهاتهم يتسوّلن، وآباءهم يبيعون أربطة الأحذية أو أزرار الياقات، ويجلبون إلى البيت أعقاب السجائر، وصحفاً قديمة ويسرقون بضعة قروش من كوب الرجل الأعمى. ما مكان هؤلاء في مجريات رواية؟

نعم، كان من الممتع أن تخرج من دار البلدية في ليلة مثلجة، بعد أن تسمع أداء السمفونية الصغيرة. كان الجو متحضراً للغاية في الداخل، هذا التصفيق الرصين، تلك التعليقات التي تنم عن معرفة. والآن لمسة الثلج الخفيفة، سيارات الأجرة تقف وتنطلق، الأضواء تتلألأ، تنقسم مثل رقاقات الثلج، والسيد بارير وفرقته الصغيرة يتسللون من الباب الخلفي للعزف في بيت أحد الأثرياء في جادة بارك أفنيو. ألف درب يقود بعيداً عن قاعة الحفل الموسيقي، وفي كلّ منها شخص مأساوي يتابع قدره بصمت. الطرق تتقاطع في كل مكان: الضعفاء والأقوياء، الوديعون والاستبداديون، الموسرون والمعدومون.

نعم، حضرت في ليال عديدة حفلات في إحدى هذه المشارح الموسيقية المجوّفة، وكنت في كلّ مرة أخرج، لم أكن أفكّر بالموسيقى التي كنت قد سمعتها بل أتذكر أحد لقطائي، أحد أفراد طاقم شركة كوسموديمونيك النازفين الذين وظفتهم أو طردتهم في ذلك اليوم، والذين لم تكن ذاكرة هايدن، ولا باخ، ولا سكارلاتي، ولا بيتهوفن، ولا بيلزيبوب، ولا شوبيرت، ولا باغانيني أو أيّ من الموسيقيين تستطيع أن تبددها. كان بوسعي أن أراه، الشيطان المسكين، يغادر المكتب ببدلة السعاة ملفوفة في حزمة ورق أسمر،

متجهاً إلى محطة القطار فوق الأرض عند جسر بروكلن، حيث يستقل القطار إلى فريش بوند رود أو بيتكين، أو ربما إلى شارع كوسيوسكو، حيث ينزل ويختلط بالحشد، يمسك قطعة مخلل حامضة، يتحاشى ركلة في المؤخرة، يقشّر البطاطا، ينظّف القمل من الفراش، ويرتل صلاة من أجل والد جّده الذي مات على يد بولندي سكران، لأن مشهد لحية تعوم في الريح تعتبر لعنة بالنسبة له. ويمكنني أن أرى نفسي أيضاً أسير على امتداد شارع بيتكين، أو شارع كوسيوسكو، أبحث عن كوخ معين، أم أنه كان بيت كلب، وأقول لنفسي كم أنا محظوظ لأني لم أولد يهودياً وأجيد التحدث بالإنكليزية. (أما تزال هذه بروكلن؟ أين أنا؟).

كان بإمكاني أحياناً أن أشمّ رائحة المحار في الخليج، أو ربما كانت تلك مياه المجاري. وحيثما ذهبت بحثاً عن المفقودين والملعونين، هناك دائماً الفراش المعلقة على سلالم النجاة، ومن تلك الفراش تتساقط كالملائكة المجروحة مجموعة متنوعة من القمل، وبقّ الفراش، والخنافس البنية، والصراصير، وقشور السلامي المتقشّرة من يوم أمس. وبين الحين والآخر كنت أتناول قطعة مخلل حامضة ريّانة، أو قطعة سمك الرنجة المدخّن ملفوفة في ورقة صحيفة. وتلك الكعكات السميكة الكبيرة كم كانت لذيذة! وأيدي النساء جميعهن حمراء، وأصابعهن زرقاء من البرد، من الحكّ والغسيل والشطف. (لكن سيكون للابن العبقري، أصابع طويلة مستدقة بأطراف فظة. وقريباً سيعزف في قاعة كارنيجي). لم أجد عبقرياً في عالم الغوييم، أو حتى شبه عبقري. حتى كنت نادراً ما أعثر على مكتبة. تقويمات، نعم، والكثير منها، يزود بها الجزّارون أو البقالون. ليس هولبين، كارافاجيو، هيروزهيج، جيوتو، ولا حتى رامبراندت. ربما ويسلر، لكن أمّه فقط، ذلك المخلوق الهادئ ذو اليدين السوداوين المثنيتين في حضنها، مستسلمة. محترمة جداً. لا، لا تفوح منا نحن المسيحيين الكئيبين رائحة الفن. لكن هناك

الكثير من المحلات التي تبيع لحم الخنزير المكتنز والحوصلات من جميع الأنواع. وبالطبع المشمعات الأرضية، والمكانس، وأصص الأزهار. كلّ شيء من مملكة الحيوان والنبات، بالإضافة إلى الخرداوات، فطيرة الجبن الألمانية، ومخلل الملفوف. كنيسة في كلّ حارة، مسألة محزنة، مثل اللوثرية والمشيخية التي يمكن أن تنبثق من أعماق إيمانها المعقّم. والمسيح كان نجاراً! لقد بنى كنيسة، لكن ليس من الأعواد والأحجار.

15

سارت الأمور على خير ما يرام. وكادت تشبه أيام عشّ الحبّ الياباني الأولى. فإذا خرجت لأتمشى كان كلّ شيء يلهمني حتى الأشجار الميتة؛ وإذا زرت مخزن ريب، كنت أعود محمّلاً بالأفكار بالإضافة إلى القمصان وربطات العنق والقفازات والمناديل. وعندما أصادف صاحبة البيت لا يعود ينتابني القلق بشأن الإيجار المتأخر. وكنا الآن قد سددنا كلّ ما علينا من ديون، وإذا أردنا أن نستدين لحصلنا على مبالغ كبيرة. حتى العطل اليهودية كانت تمر بسعادة، باحتفال في هذا البيت أو ذاك. كنا في منتصف الخريف، لكن ذلك لم يعد يؤثر عليّ كما في السابق. وربما كان الشيء الوحيد الذي أفتقده هو الدراجة.

أخذت عدداً آخر من دروس السواقة، وأصبح بإمكاني أن أتقدّم بطلب للحصول على رخصة قيادة في أيّ وقت. وعندما أحصل عليها سيكون بإمكاني اصطحاب مونا في جولة بالسيارة، كما كان يحثني ريب. وفي هذه الأثناء تعرفت على المستأجرين الزنوج. أناس طيبون، كما قال ريب. وفي كلّ مرّة كنا نحصّل فيها الإيجارات، كنا نعود إلى البيت ثملين غير مبالين بشيء. وعرض عليّ أحد المستأجرين الذي يعمل مفتشاً للجمارك، أن يعيرني كتباً. وكانت لديه مكتبة مدهشة من الكتب الإيروتيكية التي سرقها من المسافرين أثناء عمله. ولم أكن قد رأيت من قبل هذا الكم من الكتب البذيئة، هذا

الكم من الصور الفاحشة. وهذا جعلني أتساءل ماذا تحويه مكتبة الفاتيكان الشهيرة من كتب تتعلق بالفاكهة المحرّمة.

كنا بين الحين والآخر نرتاد المسرح لنشاهد مسرحية أجنبية - جورج قيصر، إرنست تولر. فيديكيند، ويرفيل، سودرمان، تشيخوف، أندرييف. وقد وصل الممثلون الإيرلنديون، وأحضروا معهم جونو وبيكوك والمحراث والنجوم. يا له من كاتب مسرحي، شون أوكيسي! الذي لا مثيل له منذ إبسن.

وفي الأيام المشمسة كنت أجلس في حديقة فورت غرين وأقرأ كتاباً - أيام التسكع في باتاغونيا، الأحدب، بونش وجول، أو الإحساس المأساوي بالحياة (أنامونو). وإذا كانت هناك أسطوانة أريد أن أسمعها، ولم نكن نملكها، كان بوسعنا أن نستعيرها من مجموعة ريب، أو من صاحبة البيت. وعندما كنا لا نرغب في عمل شيء، كنا نلعب الشطرنج، أنا ومونا. لم تكن لاعبة ماهرة، لكن تبين أني لم أكن أنا كذلك. وتبين لي أن دراسة الألعاب المبينة في كتب الشطرنج - وعلى رأسها بول مورفي أكثر إثارة. بل حتى للقراءة عن تطور اللعبة، أو الاهتمام فيها الذي أظهرها الآيسلنديون أو سكان جبال مالايا.

حتى فكرة رؤية أبويّ في - عيد الشكر - لم تكن تشعرني بالإحباط. وأصبح بوسعي الآن أن أخبرهما - ستكون نصف كذبة فقط - بأني كُلّفت بتأليف كتاب. وأصبحت أقبض لقاء عملي. كم كان ذلك يدغدغ مشاعرهما! لم تكن تملؤني الآن سوى أفكار رحيمة. فقد بدأت تطفو على السطح جميع الأشياء الجيدة التي حدثت لي. وكنت أشعر بالرغبة في الجلوس لكتابة هذا وذاك، أشكره أو أشكرها لما فعلاه لي. لم لا؟ وكانت هناك أماكن أيضاً، يتعين عليّ أن أقدم الشكر - لأنهما منحاني لحظات سعيدة. وبلغت بي السخافة إلى حد أني قمت برحلة خاصة ذات يوم إلى ميدان ماديسون وسكوير غاردن، وقدّمت شكراً صامتاً إلى الجدار. لحظات مجيدة مرّت بي في الماضي، وشاهدت بوفالو بيل وهنوده من شعب الباوني

يصيحون، وهم يشاهدون جيم لوندوس، الهرقل الصغير، وهي يلقي ببولندي عملاق على رأسه، من أجل سباق الدراجات العادية لمدة ستة أيام، ومآثر القدرة على التحمّل التي يصعب تصديقها والتي شهدتها.

أخيراً حلّ اليوم الذي كنت سأصطحب فيه مونا في جولة. فقد رأى ريب أني أصبحت الآن مؤهلاً لقيادة السيارة وحدي. إلا أن ثمة شيئاً واحداً، لاجتياز اختبار، واختبار آخر كي تسلم زوجتك حياتها بين يديك. وقد جعلني الرجوع إلى الوراء من المرآب عصبي المزاج مثل قطّة. كانت السيارة اللعينة ضخمة جداً، ثقيلة جداً؛ فيها قوّة كبيرة جداً. كنت قلقاً. ورحت أتوقف عند كلّ بضعة أميال ـ دائماً حيث هناك مجال للبدء من جديد! ـ لأهدئ أعصابي. وكنت أختار الطرق الفرعية حيثما أمكنني ذلك، لكنها تُفضي دائماً إلى الطريق السريع الرئيسي. وعندما قطعنا عشرين ميلاً أصبحت مبللاً بالعرق. كنت آمل أن أذهب إلى بلويبوينت، حيث كنت أمضي تلك العطل الرائعة عندما كنت صبياً، لكننا لم نستطع الوصول إلى هناك. لكني قمت بزيارتها لاحقاً وانتابني شعور بالأسى؛ فقد تغيّرت إلى درجة أنك لم تعد تستطيع التعرف عليها.

استلقيت على جانب الطريق، ورحت أراقب البلهاء الآخرين الذين يقودون سياراتهم، وأقسمت ألا أقود السيارة مرة أخرى. وقد شعرت مونا بالبهجة لهزيمتي. «لم تُخلق لهذا»، قالت. وافقت وقلت: «حتى أني لا أعرف ماذا أفعل إذا ما انفجرت العجلة».

«ماذا ستفعل»، سألتني.

«أخرج وأمضي»، أجبت.

«هذا ديدنك»، قالت.

«لا تخبري ريب بهذا»، رجوتها. «إنه يظن أنه يسدي لنا معروفاً كبيراً. وأنا لا أريد أن أخذله».

«هل يجب أن نذهب إلى هناك لتناول العشاء هذا المساء؟»

«طبعاً».

«لنغادر في وقت مبكر إذن».

«العبرة بالأعمال لا بالأقوال»، أجبت.

في طريق العودة حدثت معنا مشكلة في السيارة. ولحسن الحظ هرع سائق شاحنة لإنقاذنا. ثم اصطدمت بمؤخرة سيارة قديمة مهشمة، لكن السائق لم يكترث. ثم المرآب ـ كيف يمكنني أن أدخلها في هذا الممر الضيق؟ فما أن أصبحت في منتصف الطريق في المرآب، حتى غيرّت رأيي، وعندما بدأت أرجع إلى الوراء كدت اصطدام بشاحنة مرقت بسرعة. تركتها واقفة في منتصف الرصيف، نصفها في المجاري. «اللعنة!» تمتمت.

كان علينا أن نمشي حارة أو حارتين. ومع كلّ خطوة مبتعدين عن الوحش كنت أشعر بمزيد من الارتياح. سعيداً وأنا أخب بقطعة واحدة، حمدت الله بأنه جعلني غبياً في أمور الميكانيك، وربما غبياً في نواحي أخرى أيضاً. كان هناك الأشخاص الذين يقومون بأعمال شاقة، وهناك سحرة العصر الميكانيكي. أنا أنتمي إلى عصر الزلاجات والدراجات العادية. كم أنا محظوظ لأن لديّ ذراعين ورجلين جيدتين، وقدمين فطنتين، وشهية حادّة! يمكنني أن أتوجه إلى كاليفورنيا مشياً على الأقدام ذهاباً وإياباً. أما بالنسبة للسفر بسرعة خمسة وسبعين ميلاً في الساعة فكان بوسعي أن أمشي أسرع من ذلك ـ في الحلم. يمكنني أن أذهب إلى المريخ وأعود برمشة عين، دون أن تنفجر العجلة...

كانت وجبة طعامنا الأولى مع عائلة إسين. لم نكن قد التقينا بالسيدة إسين من قبل ولا بابن ريب وابنته. كانوا بانتظارنا، المائدة ممدودة، والشموع مضاءة، والنار موقدة، ورائحة لذيذة تفوح من المطبخ.

«تناولا قليلاً من الشراب!»، قال لي ريب وهو يقدم لي قدحاً من النبيذ الثقيل. «كيف كانت جولتكما؟ هل كنت تشعر بالتوتر؟».

«كثيراً»، قلت، «لقد ذهبنا إلى بلويبوينت».

«في المرة القادمة ستذهبان إلى مونتوك بوينت».

أشغلتنا السيدة الآن في الحديث. كانت امرأة طيبة، كما قال ريب. ربما كانت تافهة، لكنها دمثة للغاية. منطقة ميتة في مكان ما. ربما في الخلف.

لاحظت أنه نادراً ما كان زوجها يوّجه إليها الكلام. وبين الحين والآخر تقرّعه لوقاحته، أو لبذاءة كلامه. ويمكن للمرء أن يرى بنظرة خاطفة أنه لم يعد هناك شيء بينهما.

كانت مونا قد وقعت موقعاً حسناً في نفس الطفلين، اللذين كانا في سن المراهقة. (من الواضح أنهما لم يصادفا شخصاً مثلها من قبل). وكانت الفتاة مفرطة في البدانة، ممسوحة الجمال، وقد وهبها الله ساقيّ بيانو استثنائيتين، كانت تبذل كلّ ما بوسعها لإخفائهما عندما تجلس. وكانت شديدة الخجل. أما الابن، فهو واحد من أولئك الأطفال الذين نضجوا مبكراً، والذين يتكلّمون كثيراً، ويعرفون كثيراً، ويضحكون كثيراً، ودائماً يقولون الشيء الخاطئ. كان مفعماً بطاقة زائدة عن حدها، سريع الاستثارة، دائماً يوقع أشياء أو يدوس فوق أصابع قدم أحدهم. كان عقله يقفز مثل الكنغر.

عندما سألته إن كان مايزال يرتاد الكنيس لوى وجهه، وقرص منخريه بإصبعين، وقام بحركة كما لو إنه يسحب سلسلة منهما. وأوضحت أمّه على الفور أنهم انضموا إلى جمعية الثقافة الأخلاقية. وما أسعدها كثيراً عندما قلت لها أني كنت أتردد على اجتماعات هذه الجمعية أيضاً في الماضي.

«لنحتسِ المزيد من الشراب»، قال ريب، الذي أضجره الحديث عن جمعية الثقافة الأخلاقية، والفكر الجديد، والبهائية وما شابهها.

احتسينا المزيد من نبيذه الذي يشبه لون الصحراء. كان جيداً،

لكنه ثقيل جداً. قال: «بعد العشاء، سنعزف لكما» أي هو والصبي. (قلت لنفسي لا بد أن ذلك سيكون فظيعاً)، سألته إن كان يعزف أفضل من ابنه بكثير. فردّ بقوله: «لم أصل إلى مستوى ميشا إلمان بعد، هذا شيء مؤكد»، ثم استدار نحو زوجته وقال: «ألن يكون العشاء جاهزاً في وقت قريب؟».

نهضت بطريقة مهيبة، أبعدت شعرها عن حاجبها، واتجهت مباشرة إلى المطبخ. أشبه بالمسرنة.

«لنجلس إلى المائدة»، قال ريب. «لا بد أنكم جائعون».

كانت السيدة إسين طاهية جيدة، لكنها مسرفة للغاية. فقد كان هناك طعام على المائدة يكفي ضعف عددنا. وكان النبيذ رديئاً. وقلت لنفسي إن اليهود نادراً ما يتمتعون بذائقة جيدة للنبيذ. ومع القهوة والحلوى جاء شراب الكوميل والبنزين. ارتفعت معنويات مونا. فهي تحبّ المشروبات الكحولية. ولاحظت أن السيدة إسين لم تكن تشرب شيئاً سوى الماء. أما ريب فيشرب بحرية كبيرة. ويمكنني أن أقول إنه ثمل بعض الشيء. فقد ثقل لسانه، واسترخت قسماته، وأضحت أكثر مرونة. كان من الجيد رؤيته هكذا. كان هو نفسه، على الأقل. وبالطبع تظاهرت السيدة إسين بأنها لم تكن تدرك وضعه. لكن الابن بدا مبتهجاً، وكان يستمتع برؤية أبيه وهو يتصرف بهذه الطريقة الحمقاء.

كان جواً غريباً إلى درجة مخيفة بعض الشيء. فبين الحين والآخر، كانت السيدة إسين تحاول أن ترتقي بالحديث إلى مستوى أعلى. حتى أنها ذكرت هنري جيمس ـ برأيها موضوع قابل للجدل، لا شكّ ـ لكنها لم تفلح. فقد كانت لريب اليد العليا. إذ راح يشتم بحرية الآن، وقال إن الحَبْرَ أحمق.

هنا تدخّلت السيدة إسين واقترحت أن ننتقل إلى الغرفة الأخرى، إلى صالة الاستقبال. وقالت: «يمكنكم أن تتحدثوا براحة أكبر هناك».

هنا خبط إسين بقبضته على الطاولة بقوة وصاح: «لماذا ننتقل إلى هناك؟ ألسنا على ما يرام هنا؟ إنك تريدين أن نغيّر موضوع الحديث، هذا كلّ ما في الأمر». ومدّ يده إلى شراب الكوميل. «هيا لنشرب المزيد، جميعنا. إنه شراب جيد، أليس كذلك؟».

نهضت السيدة إسين وابنتها لتنظفا المائدة. راحتا تعملان بصمت وبفعالية، كما تفعل أمّي وأختي، وتركتا الزجاجات والكؤوس على الطاولة فقط.

لكزني ريب ليفضي إليّ بسر همساً ـ «ما أن تراني أستمتع حتى تبدأ بمهاجمتي. هكذا هن النساء».

«هيا يا أبي»، قال الصبي، «دعنا نخرج آلات العزف».

«أخرجها، وما الذي يمنعك؟»، صاح ريب. «لكن لا تعزف نشازاً، فذلك يجعلني أفقد أعصابي».

انتقلنا إلى صالة الاستقبال، حيث توزعنا على الأرائك والكراسي. لم أعبأ بما كانا يعزفانه. وكنت أشعر بالثمل قليلاً من كلّ هذا النبيذ والمشروبات الرخيصة.

وبينما أخذ الموسيقيان يدوزنان آلتيهما، قدمت فطيرة الفواكه ثم الجوز.

كان عزفاً ثنائياً من هايدن الذي اختاراه كبداية. ومن الافتتاحية خرجا عن اللحن الأصلي. لكنهما تمسّكا بسلاحيهما، وكنت أرجو أن يعودا إلى اللحن في النهاية. كانت الطريقة التي ينشران ويفرمان فيها مرعبة. وفي المنتصف تقريباً توقّف الرجل العجوز. «اللعنة»، صرخ وألقى آلته على الكرسي، «يبدو الأمر سيئاً. لم نتدرب عليها جيداً كما أظن. أما أنت»، والتفت إلى ابنه، «فمن الأفضل أن تتدرب أكثر قبل أن تعزف أمام أحد».

تطلع حوله كما لو أنه يبحث عن الزجاجة، لكنه بعد أن تلقى نظرة متجهمة من زوجته انسل إلى الكرسي. غمغم معتذراً بأنه بدأ

يصدأ. لم ينبس أحد بشيء. تثاءب بصوت عال. «لم لا نلعب الشطرنج؟» قال متعباً.

هنا تكلمت السيدة إسين. وقالت: «أرجوك، ليس الليلة!»

جرّ نفسه ووقف على قدميه. وقال: «الجو فاسد هنا».

«سأتمشّى قليلاً. لا تهربا! سأعود قريباً».

عندما ذهب حاولت السيدة إسين تفسير تصرّفه غير المهذّب. «لم يعد له اهتمام بشيء؛ أصبح يمضي معظم وقته وحيداً». قالت «وكأنه ميت».

قال الابن: «يجب أن يأخذ إجازة».

«نعم»، قالت الفتاة، «نحاول أن نقنعه بزيارة فلسطين».

«لماذا لا ترسلونه إلى باريس؟»، قالت مونا. «فهذه الرحلة ستبث فيه الحيوية».

بدأ الصبي يضحك بشكل هستيري.

«ما الأمر؟»، سألته.

لكن ضحكه ازداد حدة. ثم قال: «إذا ذهب إلى باريس فلن نراه مرة أخرى».

«اسكت، اسكت!»، قالت الأم.

«إنك تعرفين أبي، سيفقد عقله تماماً، مع كلّ تلك الفتيات والمقاهي...».

«يا لها من طريقة للتحدث!»، قالت السيدة إسين.

«إنك لا تعرفينه»، ردّ الصبي. «أنا أعرفه. إنه يريد أن يعيش. وأنا كذلك».

«لماذا لا ترسليهما هما الاثنان إلى الخارج؟»، قالت مونا. «فالأبّ يرعى ابنه والابن يعتني بأبيه».

في هذه اللحظة قرع جرس الباب. كان أحد الجيران الذي سمع أننا نقوم بزيارة عائلة إسين، وجاء ليتعرف علينا.

«هذا السيد إلفينباين»، قالت السيدة إسين. ولم يبدُ أنها سعيدة برؤيته.

بمرفقين مثنيين، ويدين متشابكتين تقدّم السيد إلفينباين ليحيينا. كان وجهه مشعاً، وحبات العرق تقطر من حاجبه.

«يا له من شرف كبير!»، صاح، وانحنى قليلاً، ثم أمسك يدينا وراح يضغط عليها بشدّة. «سمعت عنك كثيراً، أرجو أن تعذراني على هذه الزيارة المفاجئة. هل تتكلمان لغة اليديش ـ أو الروسية؟» قوّس كتفيه وراح يحرّك رأسه من جهة إلى أخرى، وعيناه تتبعانه كإبرة البوصلة. ونظر إليّ بابتسامة عريضة وقال: «قالت لي السيدة سكولسكي إنك مولع بكانتور سيروتا...»».

شعرت مثل طير أُطلق من قفصه. اتجهت إلى السيد إلفينباين وضممته إليّ.

«من مينسك أو بينسك؟» قلت.

«من أرض الموآبيين»، أجاب.

ألقى نحوي نظرة مضيئة ومسّد لحيته. وضع الصبي كأساً من شراب الكيميل في يده. كانت تتدلى خصلة ضالّة من الشعر من رأس السيد إلفينباين الذي كان ينحو نحو الصلع؛ انتصب واقفاً مثل مفتاح لولبي. جرع الكأس دفعة واحدة، وقَبِل قطعة من فطيرة الفواكه، ثم عاد وشبك يديه على صدره.

قال: «إنه لمن دواعي سرورنا حقاً أن نتعرف على شخص غير يهودي، يؤلّف كتباً ويتحدث إلى الطيور. يقرأ الروس ويحتفل بيوم الغفران. ويتزوج فتاة من بوكوفينا... غجرية، لا أقل. وممثلة! أين هو ذلك المتسكّع، سِيد؟ هل سكر مرة أخرى؟»، ونظر حوله مثل بومة هرمة حكيمة أوشكت أن تنعق. «إذا درس المرء حياته كلها واكتشف أنه أحمق، فهل هو على حقّ؟ الجواب نعم ولا. نقول في قريتنا يجب

على الرجل أن يزرع سخافته هو، لا سخافة شخص آخر. وتقول كتبنا... لكننا يجب ألا نماحك في الأمور التافهة مباشرة. من مينسك جاءت المعاطف من فرو ثعلب الماء، ومن بينسك لا يأتي شيء سوى البؤس. واليهودي من كورندور يهودي لا يمسه الشيطان أبداً. موشيه إشت كان مثل هذا اليهودي. إنه ابن عمي. كان دائماً في مشاكل مع الحَبْر. وعندما يأتي الشتاء كان يحبس نفسه في مخزن للغلال. كان صانع لجام...».

توقّف فجأة وابتسم لي ابتسامة شيطانية.

«في سفر أيوب»، قلت.

«اجعله سفر الرؤيا»، قال، «إنه مسكوني أكثر».

بدأت مونا تقهقه. انسحبت السيدة إسين برصانة. لم يبق أحد سوى الصبي. كان يصنع إشارات وراء ظهر السيد إلفينباين، كما لو أن هاتفاً يرن متصلاً بصدغه.

«عندما تبدأ في تأليف كتاب جديد»، أخذ يقول السيد إلفينباين، «بأيّ لغة تصلّي أولاً؟»

«بلغة آبائنا»، أجبت على الفور. «إبراهيم، إسحاق، حزقيال، نعمية...».

«وداوود وسليمان، وروث وإستر»، أضاف.

أعاد الصبي ملئ كأس السيد إلفينباين الآن وجرعها دفعة واحدة.

«سيكبر ويصبح شاباً شقياً جميلاً»، قال السيد إلفينباين، متمطقاً بشفتيه. «حتى الآن فهو لا يعرف شيئاً. يجب أن يكون مالاميد - إذا كان عنده قدر من الذكاء. هل تتذكّر رواية حوكم وعوقب؟».

«تقصد الجريمة والعقاب»، قال إسين الشاب.

«باللغة الروسية هي الجريمة وعقابها. الآن اجلس في الخلف

ولا تلوِ وجهك من وراء ظهري. أعرف أني مجنون، أما هذا الرجل المحترم فلا. دعه يكتشف بنفسه. أليس كذلك، أيها السيد جنتلمان؟» وانحنى بأدب مصطنع.

«عندما ينقلب يهودي على دينه»، واصل كلامه، وهو لا شك يفكر بالسيدة إسين، «فهو مثل الدهن الذي يتحول إلى ماء. ومن الأفضل أن يصبح مسيحياً على أن يصبح واحداً من هؤلاء الذين يتألفون من الحليب والماء ـ» قطع نفسه، وانتبه إلى آداب اللباقة. «إن المسيحي هو يهودي يحمل الصليب بيده. لا يستطيع أن ينسى أننا نحن الذين قتلناه، المسيح، الذي كان يهودياً مثل أيّ يهودي آخر، لكنه أكثر تعصباً. لكي تقرأ تولستوي لا يتعين عليك أن تكون مسيحياً؛ فاليهودي يفهمه بالقدر نفسه. الشيء الجيد في تولستوي هو أنه امتلك الشجاعة أخيراً وهرب من زوجته... وبدد ماله. المجانين مباركون؛ لا يهتمون بالمال. المسيحيون ليسوا إلا مجانين تخيّليين. إنهم يحملون التأمين على الحياة جنباً إلى جنب كتب الصلاة والمسابح. أما اليهودي فلا يسير حاملاً المزامير. إنه يحفظه عن ظهر قلب. حتى عندما يبيع أربطة الأحذية فهو يدمدم الآيات لنفسه. وعندما يرتل «الأغيار» أنشودة، فإنهم يبدون وكأنهم يشنون حرباً. إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون! كيف تسير الأمور ـ؟ كأنه يزحف إلى الحرب. إنهم دائماً يشنون حروباً ـ سيف بيد والصليب باليد الأخرى».

نهضت مونا لتقترب أكثر الآن. مدّ السيد إلفينباين يديه، كما لو أنه يمدها إلى شريكته في الرقص. راح يرمقها من قمة رأسها وحتى قدميها، مثل دلاّل في المزادات. ثم قال: «أي دور قمت بتأديته أخيراً، يا وردة شارون؟».

أجابت: «الببغاء الأخضر،». (تك ـ تاك ـ تو).

«وقبل ذلك؟».

«أغنية العنزة، ليليوم... القديسة جوان».

«توقّفي!» رفع يده. «إن ديبوك يلائم مزاجك. أكثر أنثوية. الآن ماذا كانت مسرحيّة سودرمان تلك؟ لا يهم. آه نعم... ماغدا. إنك ماغدا، ولست مونا فانا. أسألك، كيف سأنظر في مسرحية إله الثأر؟ فهل أنا شيلدكروت أو بن آمي؟ أعطني سايبيريا لأؤدي دورها، لا الخادمة في البيت!» لمسها تحت ذقنها. «إنك تذكّريني قليلاً بإليسا لاندي. نعم، وربما بلمسة من نازموفا. ولو كنت أكثر وزناً، لأمكنك أن تصبحي مودجيسكا أخرى. هيدا غابلا، هذا يناسبك. أنا أحبّ البطّة البرية. وبعدها زير نساء العالم الغربي. لكن ليس باليديش، لا سمح اللّه!».

من الواضح أن المسرح كان موضوعه الأثير. فقد كان ممثلاً قبل سنوات، أولاً في روميلدومفيزا أو في أحد المسارح الصغيرة التي تشبهها، ثم في ثاليا أون بويري. وهناك قابل بن آمي. وفي مكان آخر بلانش يركا. وعرف أيضاً فستا تيلي، شيء غريب.

«نادراً ما تكون النساء الجميلات ممثلات جيدات» بدأ يقول. «يجب أن يكون هناك عيب دائماً ـ أنف طويل، أو العينان زائغتان قليلاً. أفضل شيء أن يكون لها صوت غير عادي. فالناس يتذكرون الصوت دائماً. بولين لورد مثلاً»، والتفت إلى مونا. «لديك صوت جيد أيضاً. فيه سكّر بني وفصوص من جوز الطيب. أسوأ صوت هو الصوت الأمريكي الذي يخلو من الروح. كان ليعقوب بن آمي صوت رائع... مثل الحساء الجيدة... لم يكن سيئاً. لكنه كان يمطه كسلحفاة. يجب على المرأة أن تدّرب صوتها أكثر من كلّ شيء. ويجب عليها كذلك أن تفكر أكثر بمعنى المسرحية... لا بمؤخرتها. ولدى الممثلات اليهوديات عادة لحم زائد، وعندما يمشين على المسرح يترجرجن كالهلام. لكن توجد لديهن نبرة حزن في أصواتهن... سورج. ليس عليهن أن يتخيّلن أن شيطاناً يشد صدراً بكماشة حارة. نعم، إن الخطيئة والحزن هما أفضل مكونين. وقليل من وهمنا. كما في ويبستر أو مارلو. صانع أحذية يتكلّم مع الشيطان في كلّ مرّة يذهب فيها إلى المرحاض. إن المسرحيات

الإيرلندية مليئة بالمجانين والسكارى ـ والهراء الذي يقولونه هراء مقدّس. الإيرلنديون شعراء دائماً، وخاصة عندما لا يعرفون شيئاً. وقد عُذّبوا أيضاً. فلا أحد يحبّ أن يأكل البطاطا ثلاث مرات في اليوم، أو يستعمل معزقة لينكش أسنانه. الممثلون العظماء هم الإيرلنديون. شمبانزيون بالفطرة. والبريطانيون راقون أيضاً، متعقلون للغاية. من جنس الذكور، لكنهم مخصيون...».

سُمع صوت جلبة عند الباب. لقد عاد سِيد إسين ومعه قطتان جرباواتان كان قد أنقذهما. وكانت زوجته تحاول أن تبعدهما.

«إلفينباين»، صاح ملوحاً بقبعته. «تحياتي! كيف جئت إلى هنا؟».

«كيف آتي إلى هنا؟ على قدميّ»، تقدم خطوة.

«دعني أشمّ نفَسَك!».

«ابتعد عني، ابتعد عني! متى رأيتني سكراناً؟».

«عندما تكون في غاية السعادة ـ أو عندما تكون حزيناً».

«إن إلفينباين زميل عظيم»، قال ريب، وألقى بذراعه حول كتفه بمودة. «لير اليديش(*)، هذا هو... ما خطبكم، الكؤوس فارغة».

«مثل عقلك»، قال إلفينباين. «شراب الروح. مثل موسى. من الصخرة يتدفق الماء، ومن الزجاجة لا يتدفق شيء سوى الغباء. العار عليك يا ابن زويفيل، أن تكون عطشاً جداً».

أصبح الحديث متناثراً. تخلصت السيدة إسين من القطتين، ونظفت الأوساخ التي خلفتاها في المدخل، وكانت تبعد شعرها عن حاجبها مرة أخرى. كانت سيدة، بكل معنى الكلمة.

(*) يقصد الملك لير. م.

16

«لماذا يتوجب علينا أن نخرج دائماً عن طريقنا لنصِف بؤس حياتنا ونقائصها، وأن ننبش شخصيات من زوايا بلدنا المتوحشة والبعيدة؟».

بهذه العبارة يبدأ غوغول الجزء الحادي عشر من روايته غير المكتملة.

كنت الآن قد قطعت شوطاً كبيراً في الرواية ـ روايتي ـ لكن ماتزال لا توجد لديّ فكرة إلى أين ستفضي بي، ولم يكن يهمني ذلك، بما أن بوب كان مسروراً بكلّ ما قدم له حتى الآن، وكانت النقود تُقدم لنا باستمرار، وبدأنا نأكل ونشرب جيداً، وأصبحت الطيور أكثر ندرة الآن لكنها ما تزال تغرد. جاء عيد الشكر وذهب، وأصبحت أجيد لعب الشطرنج قليلاً. كما أن أحداً لم يكتشف مكاننا، أقصد، لا أحد من أصحابنا الذين لا نحبهم. وهكذا كان بإمكاني أن أستكشف الشوارع حسب رغبتي، وهو ما كنت أفعله بثأر لأن الهواء كان حاداً ولاسعاً، والريح تصفر، ولم يتوقف دماغي عن الدوران مما كان يدفعني إلى الأمام، يجبرني على البحث عن شوارع، عن ذكريات، عن بنايات، عن روائح (خضراوات متعفنة)، تاركاً العبارات تنزلق، أصحاب المحلات أموات منذ أمد بعيد، الصالونات تتحول إلى مخازن رخيصة، مقابر ما تزال تفوح منها رائحة المعزّين.

كانت زوايا الأرض البرية والبعيدة تحيط بي، على بعد رمية

حجر فقط من الحدود التي ترسم حدودنا الأرستقراطية. وما كان عليّ إلا أن أجتاز الخطّ، الحد الفاصل، وأعبر إلى عالم الطفولة المألوف، أرض الفقراء والمجانين بسعادة، باحة النفايات، حيث كلّ شيء خَرِبٌ، عديم الفائدة، ومليء بالجراثيم، الذي أنقذته الجرذان الرافضة لهجر السفينة.

وفيما كنت أتجوّل محدقاً في واجهات المحلات، أنظر في الأزقة، ولا شيء سوى عزلة كئيبة، كنت أفكّر بالزنوج الذين كنا نقوم بزيارتهم بانتظام، هؤلاء كانوا يبدون غير ملوّثين، لم يدّمر مرض الأغيار ضحكاتهم، مواهبهم في الخطابة، طرقهم السهلة في الحياة. كانت تصيبهم جميع أمراضنا في القتال، وظلمنا أيضاً، ومع ذلك بقوا حصينين.

أصبح صاحب مجموعة الكتب الإيروتيكية مغرماً بي؛ يجب أن أحترس كي لا يأخذني إلى إحدى الزوايا ويقرص مؤخرتي. ولم أحلم قط بأنه سيأخذ كتبي ذات يوم ويضيفها إلى مجموعته المدهشة. ويجب أن أضيف أنه كان عازف بيانو رائعاً. فقد كانت لديه تلك التقنية في استخدام الدواسة التي كنت أستمتع بها كثيراً وهو يعزف الكونت باسي وفاتس والر. وبإمكانهم جميعهم أن يعزفوا على آلة ما، تلك الأرواح المحبوبة. وإذا لم تكن هناك آلة، كانوا يصنعون موسيقى بأصابعهم وأكفّهم على سطح الطاولة أو براميل أو أيّ شيء متاح.

لم أقدّم بعد «شخصيات مكشوفة» في الرواية. كنت ما أزال خجولاً. فأنا أعشق الكلمات أكثر من عشقي للمنحرفين المضطربين عقلياً. كان بإمكاني أن أمضي ساعات طويلة مع والتر باتر، بل حتى مع هنري جيمس، بأمل أن أحصل على عبارة مصاغة بشكل جميل. أو قد أجلس وأحدّق في صورة يابانية، مثل «النوع المتقلّب» لاوتامارو، باذلاً جهداً لأقيم جسراً بين صورة حالمة مبهمة فقدت من الذاكرة، وصورة ملونة حية. كنت أتسلّق سلماً بشكل مسعور

لأقطف تينة ناضجة من حديقة غريبة تتدلى فيها الثمار في الماضي. وكان بإمكان بضع صفحات من مجلة مصوّرة مثل «الجغرافيا» أن تأسرني لساعات. وكم كان يثيرني عمل يشير على نحو غامض إلى منطقة بعيدة في آسيا الصغرى، منطقة تكاد تكون معروفة، حيث خلّف ملك من الحثيين مثلاً تماثيل هائلة ليحي ذاتاً مريضة منتفخة؟ أم عليّ أن أنبش في كتاب تاريخ قديم ـ مثل أحد كتب مومسين ـ لنصل بتناظر رائع بين وديان وول ستريت ذات ناطحات السحاب، والمناطق المكتظة في روما تحت حكم الأباطرة. أم أهتم بالمجاري، مجاري باريس العظيمة، أو عاصمة أخرى، عندما يخطر لي أن هوغو أو أي كاتب فرنسي آخر قد استعمل مثل هذا الموضوع، وانغمس في دراسة حياة هذا الروائي لمجرّد اكتشاف السبب الذي دفعه لأن يهتم بالمجاري على هذا النحو.

في هذه الأثناء، وبينما أقول: «أصقاع بلادنا البرية والبعيدة»، كان عليّ أن أقف وأشتري باقة من الفجل لأكشف عن شخصية غريبة الأطوار. لو سحرتني صالة عزاء إيطالية لدخلتها وسألت عن ثمن تابوت. كلّ شيء يتجاوز الحدود الفاصلة كان يثير اهتمامي. واكتشفت أن بعض الأوغاد في شركة كوسموديمونيك الأعزاء، يعيشون في أرض الخراب هذه. وكان باتريك غارستين، عالم الآثار المصرية واحداً منهم. (كان يبدو أنه حفّار ذهب أكثر من كونه عالم آثار). وكان دوناتو يعيش هنا أيضاً. دوناتو، الصبي الصقلي، الذي أخذ فأساً وضرب به أبيه حيث قطع له لحسن الحظ ذراعاً واحدة فقط. ما هي الطموحات التي كان يتطلع إليها، قاتل الأب الواعد هذا! حين كان في السابعة عشرة من عمره، راح يحلم بأن يحصل على عمل في الفاتيكان. لكي يتعرف، كما قال، على القديس فرنسيس بشكل أفضل!

وخلال تنقلي من سرير قلوي إلى آخر، كنت أحرص على تحديث معلوماتي في الجغرافيا، وفي علم الأجناس، وفي الفولكلور وفي فن إطلاق النار. كان المبنى يعجّ بأشياء غريبة وشاذّة. كانت

هناك مساكن زرعت على ما يبدو من شواطئ بحر قزوين، وأكواخ من قصص أندرسن الخيالية، محلات من متاهة فاس الباردة، عربات بدون أعمدة، عدد كبير من أقفاص الطيور الفارغة دائماً، نونيات، غالباً ما تكون مصقولة ومزخرفة بزهور الثالوث، أو عبّاد الشمس، ومشدّات، وعكازات ومقابض وأضلاع المظلات... مجموعة لانهائية من الخردوات مكتوب عليها جميعها «صنع في هاجيا ترِيادا». ويالها من أقزام! فقد ادّعى أحدهم وكان من مولدافيا أنه لا يتكلم إلا اللغة البلغارية يعيش في كِنِّ كلب في مؤخّرة كوخه. وكان يأكل مع الكلب من الصحن نفسه. وعندما يبتسم، كان يظهر سنّين فقط، سنّين ضخمين، مثل نابيّ كلب. وكان بإمكانه أن يعوي أيضاً، أو يشمّ ويزمجر مثل كلب.

لم أجرؤ على أن أذكر أي شيء عن الرواية. لا، الرواية التي جعلتها كالمخدع. لا دريك. فلم تكن جميع الشخصيات محترمة أو معصومة. آه لا! فقد أقحمت بعضها لأضفي عليها لوناً لأنها كانت شخصيات بسيطة وساذجة. (بريبوسيلوس). البطل، الذي كان أيضاً الراوي، والذي كنت أشبهه شبهاً طفيفاً، وكانت وظيفته أن يبقي القلاّبة في مدينة الألعاب تدور. وكان أحياناً يقوم بدورة مجانية فيها.

ما العنصر الغريب الذي فتن بوب إلى ما لا نهاية. لقد تساءل ـ بصراحة ـ كيف يمكن أن تخطر لشابّة، المؤلفة، بمعنى آخر، هذه الأفكار، هذه الصور. ولم يخطر لموننا أن تقول: «من تجسيد آخر». بصراحة، لم أكد أعرف ما سأقوله أنا نفسي. فقد سرقت بعض أكثر الصور سخافة من التقويم، وولدت أخرى من الاحتلام. وبدا أن ما يثير متعة بوب حقاً، هو إدخال كلب أو قطة بين الحين والآخر. (ولم يكن بوسعه أن يعرف بالطبع، أني كنت أخاف من الكلاب كثيراً أو أنني أحتقر القطط). لكن كان بإمكاني أن أجعل الكلب يتكلم. وكان حديثاً كلبياً، لا جدال في ذلك. وكان السبب الحقيقي الذي يجعلني أحشر هذه المخلوقات من الفئة الأدنى، أن أظهر احتقاري لبعض

الشخصيات الواردة في الكتاب التي خرجت عن السيطرة. إذ يمكن أن يسخر كلب، ملهم للغاية، من صاحبه. كما أني إذا رغبت في السخرية من فكرة حالية كانت لعنة بالنسبة لي، فكلّ ما عليّ أن أفعله هو أن أقلّد مغفّلاً، وأرفع رجلي الخلفية وأبول عليها.

ورغم كلّ الحماقات، جميع الممارسات، فقد تمكنت من خلق نوع أثري صقيل. وكان غرضي نقل هذا المظهر، هذه الطبقة التي تشكلت مع الزمن، إلى درجة أن كلّ صفحة كانت تلمع مثل أحلام اليقظة الجميلة. فهذه مهمة الكتابة، كما أتصورها.

لكن أكثر ما يميّز هذه الجولات، والرحلات، والغزوات، والرحلات الاستطلاعية أنها كانت العالم، بانورامية في الذاكرة. بوادر إنسانية. كلها مستعارة من عالميّ الحشرات والحيوانات. حتى تلك الشخصيات «المهذبة»، أو المهذبة بشكل زائف، مثل مجهزي الجنازات، الخدم، رهبان الإنجيل. الطريقة التي يلقى فيها أحد شخصاً نكرة، عندما يؤخذ على حين غرة، تلتصق رأسه في رأسي بعد فترة طويلة من عدم تذكر كلماته وأعماله. وتبين لي أن هناك روائيين يتخصصون في استغلال هذه الخواص، ممن لم يفكّروا باللجوء إلى خدعة صغيرة مثل صهيل حصان، عندما يرغبون في تذكير القارئ بشخصية كانت قد ذكرت قبل ستين صفحة. الذين يُطلَق عليهم النقّاد الحرفيون. نعم، وبطريقتي المتعثرة، المتلعثمة، كنت أتوصّل إلى اكتشافات هائلة. كان إحداها أن المرء لا يستطيع أن يخفي هويته تحت ستار الشخص الثالث، ولا أن يحدد هويته فقط من خلال استخدام ضمير المتكلم. واكتشاف آخر هو ألا أفكر أمام صفحة فارغة. «ليس أنا الملك، بل شخص آخر». ليس أنا، لكن الأبّ في داخلي، بمعنى آخر.

يا له من نظام، أن تجعل الكلمات تقطر دون الحاجة إلى تهويتها بريشة، أو إلى تحريكها بملعقة فضّية. أن تتعلّم الانتظار، انتظر بأناة وصبر، مثل طير جارح، رغم أنّ الذباب يلسع بجنون،

والطيور تزقزق بجنون. قبل أن يكون إبراهيم... نعم، قبل الأولمبيين، قبل شكسبير العظيم، قبل دانتي الإلهي أو هوميروس الخالد، كان هناك الصوت، والصوت كان مع كلّ إنسان. لم يكن الإنسان يفتقر إلى الكلمات. وكانت الصعوبة تنشأ فقط عندما يرغم الإنسان الكلمات على التعبير عنه. امكث، وانتظر حتى مجيء الله! امح كلّ فكرة، راقب الحركة الثابتة للسماوات! كلّ شيء يتدفق ويتحرك، الضوء والظلّ. ما الشيء الأكثر ثباتاً من مرآة، زجاجية الزجاج المجمّدة ـ يا للهيجان، يا للغضب، الذي يستطيع أن يمنحه السطح الثابت!

كيف يمكن للمرء معرفة أنه سيطير ذات يوم، وأنه مثل الطائر الطنّان سيرتعش في الجوّ ويبهر بألوانه القزحية؟ إنه لا يستطيع. فالمرء يأمل ويتضرع ويضرب رأسه في الحائط. لكنه يعرف. يمكنه أن يتحينّ فرصته. يعرف أنه سيأتي وقت للحساب على جميع الأخطاء، جميع الانحرافات، جميع حالات الفشل والإحباط. فلكي تولد نسراً يجب أن تتعود على الأماكن المرتفعة؛ ولكي تولد كاتباً يجب أن تتعلّم أن تحبّ التجريد، والمعاناة، والمذلة. والأهم من كل شيء على المرء تعلّم العيش منفصلاً. ومثل الدبّ الكسلان، يتمسك الكاتب بأطرافه بينما الحياة تحته تتدفق بصخب دون توقف. وعندما يصبح مستعداً للسقوط يسقط في الجدول ويكافح من أجل حياته. لكنه ليس شيئاً كهذا؟ أو هل توجد أرض مبتسمة حيث يمكن أن يؤخذ الكاتب الواعد جانباً وهو في عمر مبكّر، يُعلّم فن الكتابة، يوجّهه الأساتذة الكبار المحبين، وبدلاً من أن يسقط بقوة في وسط المجرى ينزلق مثل سمك الأنقليس عبر الأوحال والطين والرواسب؟

كان لديّ وقت لا نهائي لمثل هذه التقلبات أثناء روتيني اليومي؛ مثل أشجار الحور كانت تنبثق بجانبي وأنا أفكّر، وأنا أسير في الشوارع لأجد شيئاً يلهمني، أو عندما أضع رأسي على الوسادة لأغط في النوم. يا لها من حياة رائعة، الحياة الأدبية! كنت أقول لنفسي أحياناً. أعني أن هذا العالم في الوسط مكتظ بالأغصان

المتشابكة، الفروع، الأوراق، اللاصقات، المصاصين وكل الأشياء الأخرى. ولم يخفق النشاط الخفيف المرتبط «بعملي» في تفريغ شحناتي فقط، بل حفّزها. كنت مفعماً بالنشاط دائماً. وإذا اشتكيت بين الحين والآخر من الإعياء، فلم يكن ذلك لأني لم أكن قادراً على الكتابة، أو كنت أملّ من الكتابة.

هل كنت أخشى بدون وعي مني، أني إذا نجحت في ترك نفسي على سجيتها، أن أتحدث بصوتي أنا؟ هل كنت أخشى أني ما أن أجد ذلك الكنز المدفون الذي أخفيته بعيداً عن الأنظار، حتى لا أعود أعرف الهدوء والسلام، ولا أعرف الانقطاع عن العمل الشاق أبداً؟

إن مجرد فكرة الخلق ـ كم يستحيل الوصول إليها بالمطلق! أو نقيضها، الفوضى. من المستحيل الافتراض شيئاً مثل غير المخلوق. وكلما حدقنا أكثر اكتشفنا المزيد من النظام بطريقة فوضوية، المزيد من القانون في الفوضى، المزيد من الضوء في الظلام. الإنكار ـ غياب الأشياء ـ مستحيل؛ إنها شبح فكرة. كلّ شيء يهمهم، يدفع، يكبر، يتضاءل، يتغير ـ منذ الخلود. وتجري كلها وفقاً لحوافز وقوى غامضة، وعندما نعرفها ندعوها القوانين. الفوضى! إننا لا نعرف شيئاً عن الفوضى. اصمت! لا يعرف ذلك إلا الموتى. العدم! اضرب بأقسى ما يمكنك، شيء ما يبقى دائماً.

متى وأين يتوقّف الخلق؟ وماذا يمكن لمجرّد كاتب أن يخلق ماخُلق للتو؟ لا شيء. فالكاتب يعيد ترتيب المادة السنجابية في معكرونته. يصنع بداية ونهاية ـ عكس الخلق تماماً! ـ وبينهما، حيث يدور، أو أنه يدار، تولد محاكاة للواقع: كتاب. فقد غيّرت بعض الكتب وجه العالم. أعادت تنظيمه، لا شيء أكثر. فما تزال مشاكل الحياة باقية. رغم شدّ الوجه، يبقى عمر المرء ثابتاً. ليس للكتب تأثير. وليس للمؤلفين تأثير. فقد منح التأثير في العقل الأول. أين كنت عندما خلقت العالم؟ أجب على ذلك، وتكون قد قد وجدت حلاً للغز الخلق!

إننا نكتب، نعرف أننا نُستنزف قبل أن نبدأ. نطلب في كلّ يوم

عذاباً جديداً. وكلما حككنا وخدشنا أكثر، نشعر أننا أصبحنا أفضل حالاً. وعندما يبدأ قراؤنا يحكّون ويخدشون أيضاً نشعر بالسمو. لاتدع أحداً يموت من الخواء! يجب أن تمتلئ الأجواء بسهام الفكر التي يطلقها الأدباء. الأدب، انتبه. يا لها من صيغة جميلة! حروف يُصفّ أحدها بجانب الآخر مثل أسلاك خفية مشحونة بتيارات مغناطيسية يستحيل معرفة قدرها. كلّ هذا العناء الذي يصبّ على العقل كي يعمل كالسحر، كي يعمل بدون عمل. هل هو شخص قادم نحوك أم عقل؟ عقل مقسّم إلى كتب، إلى صفحات، إلى جمل بفواصل وفواصل منقوطة وخطوط اعتراضية وملاحظات. وينال المؤلف جائزة، أو يحظى بمقعد في الأكاديمية لجهوده، ويظل الآخر مجرد عظمة ينهشها الدود. وتطلق أسماء بعضهم على الشوارع والجادات، وتطلق أسماء بعضهم على المشانق والبيوت الخيرية. وعندما يقرأ كلّ هذا «الخلق» أخيراً ويستوعب، سيبقى الإنسان، ويفسد ويلوث أحدهم الآخر. ولن يتمكن أي مؤلف، حتى أعظمهم، من تجنب هذه المشاق، إنها أمر واقع.

وينسحب ذلك على الحياة العظيمة. أقصد الحياة الأدبية. فمن يريد أن يغيّر العالم! (ليتعفّن، ليمت، ليبهت!) تيترازيني تتدرب على تغريدها، كاروسو يحطّم الثريات، كورتوت يرقص الفالس مثل فأر أعمى، فلاديمير العظيم يرهب البيانو ـ هل كانوا يفكرون بالخلق أم بالخلاص؟ ربما ليس حتى عن الإمساك... الطريق يصدر دخاناً تحت حوافر خيولك، الجسور تقرقع، السماوات تتهاوى. ما معنى كلّ ذلك؟ الهواء، مقطّع إلى قطع صغيرة، يندفع بقوة. كلّ شيء يطير، أجراس، أزرار ياقات، شوارب، رمانات، قنابل يدوية. نقف جانباً لنفسح لك الطريق أيتها الجياد النارية. ولك يا عزيزتي جاشا هيفيز، يا عزيزي جوزيف زيجيتي، عزيزي ييهودي مينوهين. ننتحي جانباً بتواضع ـ هل تسمعون؟ لا ردّ. لا شيء سوى صوت أجراس ياقتهم.

في الليالي عندما يتدفق كلّ شيء! عندما تنسلّ كلّ شخصية من

مخابئها لتؤدي دورها فوق سطح دماغي، تتجادل، تصرخ، تغني، تصهل أيضاً ـ يا لها من خيول! ـ أعرف أن هذه هي الحياة الوحيدة، حياة الكاتب هذه، وقد يبقى العالم ثابتاً، تسوء أحواله، يمرض ويموت، لأني لم أعد أنتمي إلى العالم، عالم يمرض ويموت، يطعن نفسه مرات عديدة، يتذبذب مثل سرطان بحري بُترت أطرافه... لديّ عالمي الخاص، خندق عالم، يتناثر فيها مع فيسباسينيس، وميروس وهيديجيرس، يشيفا بوتشير وحيدة، منشدون ينشدون كالكلارينت، ومغنيات يسبحن في دهنهن، أبواق تندفع كالريح... ليس لنابليون مكان هنا، ولا لغريث، ولا حتى لتلك الأرواح اللطيفة التي لها قوة على الطيور، مثل سانت فرانسيز، ميلوز الليثواني، وويتجينشتاين. حتى أني أستلقي على ظهري، يثبتني الأقزام والعفاريت بقوة، قوّتي شديدة البأس.

لا شيء مبدع كالخلق نفسه. هابيل أنجب بوغول، وبوغول أنجب المغول، والمغولي أنجب زوبل. حرف يضاف إلى آخر يشكلان كلمة؛ وكلمة تضاف إلى كلمة أخرى تشكلان عبارة؛ وعبارة على عبارة، وجملة على جملة، وفقرة على الفقرة؛ وفصل بعد فصل، وكتاب بعد كتاب، وملحمة بعد ملحمة: برج بابل يمتدّ تقريباً، لكن ليس تماماً، إلى شَفَتَي العظيم أنا. «التواضع هو الكلمة»، أو كما يقول سيدي الغالي: «يجب أن نتذكّر ارتباطنا الوثيق بالأشياء مثل الحشرات، والزواحف المجنحة، والسحالي، والثعابين، وحيوان الخلد، والظرابين، والسناجب الطائرة الصغيرة». لكن دعنا لا ننسى أيضاً، عندما يجرنا الخلق من شعرنا، بأن كلّ ذرّة، كلّ جزيئة، كلّ عنصر وحيد من الكون يتحد معنا، يشجعنا أن نتقدم إلى الأمام ويشذّبنا، كلّ ذلك ليذكّرنا بأنه يجب ألا نعتبر الوسخ وسخاً، أو الله إلهاً بل كلها مجتمعة، تجعلنا نتسابق كالشهب، وبذلك يجعلون من الكذبة حركة، مادة، طاقة وكلّ التصورات الخاطئة الأخرى تتعلق باسم الخلق مثل أكوام نازفة.

(«قبعتي القش تختلط مع قبعات قشّ مزارعي الرزّ»).

لا يسمح إلا لشخص لم يجد طريقه الآن أن يسأل كلّ الأسئلة الخاطئة، أن يطأ جميع دروب الطرق الخاطئة، أن يأمل ويصلي من أجل دمار أنماط وأشكال موجودة. حائراً ومشوّشاً، أتوجه إلى هذا الطريق أو ذاك، متخبطاً ومربكاً، مكافحاً ولاعناً، محتقراً ومستهزئاً، فلا عجب أن تكون في غمرة فكرة، جوهرة مثالية لفكرة، كنت أجد نفسي أحياناً أحدّق إلى الأمام مباشرة، العقل فارغ ممسوح، مثل شمبانزي، وهو يعتلي شمبانزي آخر. في هذه الحكمة أنجب هابيل بوغول وأنجب بوغول مغول. كنت آخر الخطّ، كلب زوبل وعظمة بين فكيّ لا يمكنني أن أمضغ أو أطحن، وبصقت عليها وتغوّطت فوقها. وسرعان ما سأبول عليها وأدفنها. وكان اسم العظمة بابل.

يا لعظمة الحياة الأدبية. لن يكون لديّ أفضل منها. تلك الأدوات! هذا الأسلوب! كيف يمكن لأي شخص، ما لم يعانقني مثل ظلّ، أن يعرف العدد الكبير من الأماكن الخراب التي تردّدت عليها أثناء بحثي عن الحديد الخام؟ أو أنواع الطيور التي كانت تغرد لي وأنا أحفر حفري؟ أو الأقزام الخرافية الثرثارة، والجان الذين قاموا بخدمتي وأنا أعمل، ودغدغوا خصيتي بإخلاص، ورددوا سطوري، أو كشفوا لي الألغاز التي اختفت بين الأحجار والأغصان والبراغيث والقمل وغبار الطلع؟ من يمكن أن يعرف الأسرار التي ربما كشفتها لي أصنامي التي لا تكف عن إرسال رسائل لي، أو الرموز السرية التي أفضيت لي، حيث تعلمت القراءة بين السطور، لتصحيح بيانات زائفة تتعلق بالسيرة وتضيء التعليقات المعرفية؟ ولم تكن هناك أرض صلبة تحت قدمي أكثر من الكفاح في هذا العالم العائم المتحرّك الذي أنشأه مخربو الثقافة الذين تعلّمت أخيراً أن أدير لهم مؤخرتي.

سأستبدل قارئي الوحيد... في وقت لاحق بالقارئ المثالي، ذلك النذل الحميمي، ذلك الشقيّ المحبوب، الذي قد أتكلم إليه كما لو لم

يكن لشيء أية قيمة إلا له ـ ولي. ماذا يضيف لي؟ هل يمكن أن يكون أيّ شيء آخر، هذا القارئ المثالي، من ذاتي الثانية؟ هل أخلق عالماً بحد ذاته، إذا كان أيضاً سيصبح مفهوماً وذا معنى لكل من هبّ ودبّ؟ أليس للآخرين عالم يومي، يدّعون أنهم يحتقرونه ومع ذلك يتمسكون به كالجرذان الغارقة؟ أليس غريباً كيف يخلق الذين يرفضون، أو الكسالى عالماً لهم ويصرون على غزو عالمنا؟ من يطأ مشاتل الزهور في الليل؟ من يترك أعقاب السجائر في أحواض شرب الطيور؟ من يبول على أزهار البنفسج الخجولة ويجعل زهراتها تذبل؟ إننا نعرف كم كنت تعصف بصفحات الأدب بحثاً عن شيء يسرّك. نكتشف آثار روحك المخطئة في كل مكان. أنت من يقتل العبقري، أنت من يشلّ العمالقة. أنت، أنت، سواء من خلال الحبّ، أو الإعجاب، أو من خلال الحسد والنكاية والكراهية. من يكتب لك يكتب حكم إعدامه.

أيها العصفور الصغير

العقل، العقل، خارج الطريق

السيد هورس قادم.

عيسى ـ سان كتب هذا. حدثني عن قيمته.

17

حوالى الساعة العاشرة من صباح يوم السبت، وبعد دقائق قليلة من مغادرة مونا المدينة، قرعت السيدة سكولسكي الباب. كنت قد جلست إلى الآلة الكاتبة وكنت في مزاج يدعوني للكتابة.

قلت: «ادخلي». دخلت بتردد، وقفت باحترام، ثم قالت: «ثمة رجل يريد أن يراك في الطابق السفلي. يقول إنه صديقك».

«ما اسمه؟».

«لم يذكر اسمه. قال إنه لن يضايقك إن كنت مشغولاً».

(من يمكن أن يكون بحقّ الجحيم؟ فلم أعطِ أحداً عنواننا).

«قولي له إني سأنزل بعد دقيقة».

عندما وصلت إلى أعلى الدرج، كان ماكجريجور يقف هناك ينظر إلى الأعلى، وابتسامة واسعة ترتسم على وجهه. آخر رجل على وجه البسيطة كنت أريد أن أراه.

قال: «أراهن أنك مسرور برؤيتي. لقد اختفيت كعادتك. كيف حالك، أيها اللقيط العجوز؟».

«اصعد!».

«هل أنت متأكّد أنك لست مشغولاً جداً؟» قال بتهكّم شديد.

«يمكنني دائماً أن أعطي عشر دقائق لصديق قديم»، أجبت.

صعد الدرجات. «مكان جميل»، قال وهو يدخل. «منذ متى أنت هنا؟ يا إلهي، لا تهتم إن لم تشأ أن تخبرني». جلس على الأريكة وألقى بقبعته على المنضدة.

أومأ نحو الآلة الكاتبة وقال: «أما زلت تكتب؟ ظننت أنك أقلعت عن الكتابة منذ زمن بعيد. يا إلهي، كم تحب العذاب».

سألته: «كيف وجدت هذا المكان؟».

قال: «في غاية السهولة. لقد خابرت أبويك. لم يعطياني عنوانك لكنهما أعطياني رقم الهاتف. والباقي سهل».

«اللعنة!».

«ما خطبك، ألست مسروراً برؤيتي؟».

«بالتأكيد، بالتأكيد».

«لا عليك، لن أخبر أحداً. بالمناسبة، هل تلك ماذا ـ اسمها ـ ماتزال معك؟».

«تقصد مونا؟».

«نعم، مونا. لا أتذكّر اسمها».

«بالتأكيد إنها معي. لماذا لا تكون؟».

«لم يخطر ببالي أنها ستظل معك كلّ هذه الفترة، هذا كلّ ما في الأمر. حسناً، من الجيد معرفة أنك سعيد. أنا لست سعيداً! أنت في ورطة. يا لها من ورطة. ولهذا السبب جئت لرؤيتك. إني بحاجة إليك».

«لا، لا تقل هذا! كيف يمكنني أن أساعدك بحق الجحيم؟ أنت تعرف أنني...».

«كلّ ما أريده منك أن تستمع إليّ. لا تخف. فأنا عاشق، هذا كلّ ما في الأمر».

«هذا جميل»، قلت. «ما الخطأ في ذلك؟».

«إنها لم تقبل بي».

ضحكت وقلت: «هل هذا كلّ شيء؟ هل هذا ما يقلقك؟ أيها الأحمق!».

«أنت لا تفهم. الأمر مختلف هذه المرة. إنه حبّ. دعني أحدّثك عنها...». توقف لحظة كاملة. «إلا إذا كنت مشغولاً جداً الآن». ووجّه نظره إلى الطاولة التي أعمل عليها، ولاحظ الصفحة الفارغة في الآلة، ثم أضاف: «ما هي هذه المرة ـ رواية؟ أم أطروحة فلسفية؟».

«إنها لا شيء»، قلت. «لا شيء مهماً».

«يبدو شيئاً غريباً»، قال. «في قديم الزمان كان كلّ شيء تفعله مهم، مهم للغاية. هيا، ماذا تخبئ؟ أعرف أني أزعجتك، لكن هذا ليس سبباً في كتمان ذلك عني».

«إذا أردت حقاً أن تعرف، فإني أكتب رواية».

«رواية؟ يا إلهي، الجحيم، لا تحاول ذلك... أنت لن تستطيع أن تكتب رواية في حياتك».

«لماذا؟ ما الذي يجعلك واثقاً إلى هذه الدرجة؟».

«لأني أعرفك، هذا هو السبب. فليس لديك أي إحساس بالحبكة».

«هل يجب أن تكون للرواية دائما حبكة؟».

«انظر»، قال معترضاً، «لا أريد أن أمنعك من العمل، لكن...».

«لكن ماذا؟».

«لماذا لا تتمسّك بسلاحك؟ يمكنك أن تكتب أيّ شيء إلا رواية».

«ما الذي يجعلك تعتقد أنني لا أستطيع أن أكتب مطلقاً؟».

دلّى رأسه، كما لو أنه يفكّر بردّ.

قلت: «أنت لا تؤمن بي ككاتب، لا أحد يؤمن بذلك».

«أنت كاتب، حسناً»، قال. «ربما لم تنتج شيئاً يستحق أن ينظر إليه أحد بعد، لكنّ الزمن مايزال أمامك. مشكلتك أنك عنيد».

«عنيد؟».

«نعم، عنيد! عنيد كرأس البغل. تريد أن تدخل من الباب الأمامي. تريد أن تكون مختلفاً لكنك لا تريد أن تدفع الثمن. انظر، لماذا لا تعمل مراسلاً، وتصعد بالتدريج، اعمل مراسلاً، ثم إبدأ العمل العظيم؟ أجب عن هذا!».

«لأنه مضيعة للوقت، لهذا السبب».

«لقد فعل ذلك رجال آخرون. رجال أكبر منك، بعضهم. ماذا عن برنارد شو؟».

أجبت: «كان ذلك جيداً بالنسبة له، أما أنا فلديّ طريقتي».

ساد صمت لبضع لحظات. ذكّرته بإحدى الأمسيات في مكتبه منذ زمن بعيد، عندما ألقى في وجهي مراجعة كتاب جديد وطلب مني أن أقرأ قصة لجون دوس باسوس، الذي كان آنذاك كاتباً شاباً.

«أتعرف ماذا أخبرتني آنذاك؟ لقد قلت: هنري، لماذا لا تجرّب؟ يمكنك أن تكتب جيّداً مثله في أيّ يوم. إقرأها وسوف ترى».

«هل قلت ذلك؟».

«نعم. ألا تذكر؟ حسناً، تلك الكلمات التي قلتها بإهمال في تلك الليلة التصقت برأسي. سواء كتبت بجودة جون دوس باسوس أم لا. المهم هو أنك كنت تظن ذات يوم أني أستطيع أن أكتب».

«هل سبق وقلت شيئاً مغايراً، يا هنري؟».

«لا، لكنّك تتصرّف بشكل مختلف. تتصرّف وكأنك تسايرني في طيش جنوني. كما لو أنه لا يرجى مني أمل. تريدني أن أفعل كما يفعل الآخرون، أفعلها بطريقتهم، أكرّر أخطاءهم».

«يا إلهي، لكنك حسّاس! تابع، اكتب روايتك اللعينة! أفرغ ما في

رأسك الأحمق، إن أحببت! كنت أحاول فقط أن أعطيك نصيحة صغيرة من صديق... على أية حال، أنا لم آت لهذا السبب، لمناقشة الكتابة. فأنا في ورطة وبحاجة إلى مساعدة. وأنت الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يساعدني».

«كيف؟».

«لا أعرف. لكن دعني أخبرك قليلاً عن الأمر أولاً، عندها ستفهم الموضوع على نحو أفضل. يمكنك أن تمنحني نصف ساعة، أليس كذلك؟».

«أظن ذلك».

«حسناً إذن. الأمر هكذا... أتتذكر تلك الحانة التي كنا نرتادها في حي الفيليج بعد ظهر أيام السبت؟ الحانة التي كان يرتادها جورج دائماً؟ قبل شهرين كما أظن، ذهبت إلى هناك لأرى ما يجري. إنها لم تتغير كثيراً... فما يزال فيها نوع الفتيات إيّاهن. لكني مللت. احتسيت كأسين وحدي - بالمناسبة لم يعرني أحد أي اهتمام - أظن أني كنت أشعر بشيء من الأسف على نفسي، لأني بدأت أكبر في السن وما إلى ذلك، عندما لمحت فجأة فتاة على بعد طاولتين، وحيدة مثلي».

«ذات جمال أخّاذ، كما أظن؟».

«لا، يا هنري. لا، لا أستطيع أن أقول ذلك. لكنها مختلفة. على كل حال، لفتُّ انتباهها، وطلبت منها أن تراقصني، وعندما انتهت الرقصة جاءت وجلست معي. لم نرقص ثانية، بل جلست معي فقط ورحنا نتكلم، حتى موعد إغلاق الحانة. أردت أن أصطحبها إلى البيت لكنها رفضت. طلبت رقم هاتفها فرفضت أن تعطيني إياه أيضاً. قلت لها «ربما أراك هنا يوم السبت القادم؟». فأجابت «ربما». وهكذا كان... لا يوجد لديك مشروب هنا، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد عندي». توجهت إلى الخزانة وأخرجت زجاجة.

«ما هذه» قال وأمسك زجاجة النبيذ.

«إنها مقوي للشعر»، قلت. «أظن أنك تريد ويسكي؟».

«إذا كان لديك فنعم. إن لم يكن لديك فيوجد لديّ في سيارتي».

أخرجت زجاجة ويسكي وصببت له كأساً مترعاً.

«وماذا عنك؟».

«لا أمسّه أبداً. بالإضافة إلى أن الوقت مبكّر جداً على شرب الويسكي».

«هذا صحيح. لا بد أنك تكتب تلك الرواية، أليس كذلك؟».

«حالما تغادر»، قلت.

«سأجعل زيارتي قصيرة يا هنري. أعرف أنك تشعر بالضجر. لكني لا أكترث بذلك. يجب أن تسمعني... أين وصلنا؟ نعم، المرقص. حسناً، عدت يوم السبت التالي ورحت أنتظرها، لكنها لم تأت. جلست هناك فترة بعد الظهر بكامله. لم أرقص ولا مرة. لم تأت غويلدا».

«ماذا؟ غويلدا؟ هل هذا اسمها؟».

«نعم، ما العيب في ذلك؟».

«اسم مضحك، هذا كلّ ما في الأمر. ما... ما جنسيتها؟»
«اسكتلندية ـ إيرلندية ـ على ما أظن. لماذا؟».

«لا شيء، لا شيء على الإطلاق. مجرد فضول».

«إنها ليست غجرية، إذا كان هذا ما تفكر به. لكن ثمة شيء فيها أسرني. لا أستطيع أن أتوقف عن التفكير فيها. أنا عاشق، هذا كلّ ما في الأمر. ولا أظن أني عشقت من قبل. بالتأكيد ليس بهذه الطريقة».

«من المؤكد أن ما تقوله مضحك».

«أعرف يا هنري. إنه أكثر من مضحك. إنه أمر مأساوي».

انفجرت ضحكاً.

«نعم، أمر مأساوي»، كرّر. «لأول مرة في حياتي ألتقي بشخص يبدي اهتماماً بي».

«كيف عرفت؟» قلت. «هل التقيت بها مرة أخرى؟».

«التقيتها ثانية؟ يا رجل، إني أتتبع خطواتها منذ ذلك اليوم. طبعاً رأيتها مرة أخرى. تعقّبتها إلى بيتها ذات ليلة. كانت على وشك النزول من الحافلة عند بورو هول. وبالطبع فهي لم ترني. وفي اليوم التالي خابرتها. غضبت. ماذا أعني بمخابرتها؟ كيف حصلت على رقمها؟ وما إلى ذلك. حسناً، بعد عدة أسابيع رأيتها في المرقص مرة أخرى. هذه المرة كنت أنا من جثا على ركبتيه لأراقصها. طلبت مني ألا أضايقها، وقالت إني لم أثر اهتمامها، وأنا فظ... أوه، كل شيء من هذا القبيل. ولم أستطع أن أجعلها تجلس معي كذلك. وبعد بضعة أيام، أرسلت لها باقة من الورد. لافائدة. حاولت أن أخابرها ثانية، لكنها ما أن سمعت صوتي حتى أطبقت السماعة».

«لعلها كانت غاضبة منك»، قلت.

«أنا سمّ بالنسبة لها، هذا هو الأمر».

«هل عرفت ماذا تعمل؟».

«نعم. إنها معلّمة».

«معلّمة؟ هذا يفسر كلّ شيء. أتلاحق معلّمة! الآن أستطيع أن أراها على نحو أفضل ـ امرأة ضخمة خرقاء، عادية الجمال، لكنها ليست ساذجة، قليلة الابتسام، وتجعل شعرها...».

«أنت قريب يا هنري، لكنك ابتعدت أيضاً. نعم، إنها من النوع الضخم، لكن بطريقة جيدة. أما بالنسبة لقسماتها، فلا أستطيع أن أخبرك. أنا لم أر إلا عينيها ـ فهما زرقاوان خزفيتان ومشعتان...».

«كالنجوم».

«بنفسجيتان»، قال. «كالبنفسج. لا يهم باقي الوجه. ولكي أكون صادقاً معك، أظن أن لها ذقناً منحسرة قليلاً».

«وماذا عن الساقين؟.

«ليستا جميلتين كثيراً. تميلان للامتلاء قليلاً. لكنهما ليستا ساقين ممشوقتين!».

«ومؤخرتها، هل تترجرج عندما تمشي؟».

قفز واقفاً. «هنري»، قال، ووضع ذراعه حولي، «إن مؤخرتها هي التي جذبتني. كم أتمنى أن أتمكن من وضع يدي عليها ـ عندها سأموت سعيداً».

«إنها متحفظة، بمعنى آخر؟».

«لا يمكن مسّها».

«هل قبّلتها؟».

«هل أنت مجنون؟ أقبّلها؟ إنها ستموت قبل أن أفعل ذلك».

«اسمع»، قلت، «ألا تظن أنك أصبحت مهووساً بها لأنه لا يوجد فيها شيء يربطك بها؟ لقد تعرّفت على فتيات أفضل منها، مما فهمته من شكلها. إنسها، هذا أفضل شيء. لن يحطم ذلك قلبك. فليس لديك قلب. إنك دون جوان بالفطرة».

«لم أعد كذلك يا هنري. لا أستطيع أن أنظر إلى فتاة أخرى. لقد علقت بها».

«كيف تظن أنه بإمكاني أن أساعدك إذن؟».

«لا أعرف. كنت أتساءل إذا... لعلك تحاول أن تراها من أجلي، أن تكلمها، قل لها كم أنا جاد... شيء من هذا القبيل».

«لكن كيف يمكنني أن أصل إليها كمبعوث لك؟».

«سترفضني بسرعة ما أن تراني، أليس كذلك؟».

«هذا صحيح. لكن لعلنا نستطيع أن نجد طريقة تلتقي بها دون أن تعرف أنك صديقي. حاول أن تنال إعجابها وثم...».

«ثم أقفز عليها، إيه؟».

«ما الضير في ذلك؟ إنه شيء ممكن، أليس كذلك؟».

«كلّ شيء ممكن. فقط...».

«فقط ماذا؟».

«حسناً، هل خطر ببالك أني قد أعجب بها أنا نفسي؟» (بالطبع لم يكن يخيفني ذلك، بل أردت أن أرى ردّ فعله).

جعلته هذه الفكرة السخيفة يضحك. «هي ليست من النوع الذي يعجبك يا هنري، لا تقلق. أنت تبحث عن الأشياء الغريبة. قلت لك إنها اسكتلندية - إيرلندية. لا يوجد ثمة شيء مشترك بينكما. لكنك تستطيع أن تتكلّم، اللعنة! عندما تريد ذلك. كان بإمكانك أن تكون محامياً جيداً، لقد قلت لك ذلك من قبل. حاول أن تتصور نفسك وأنت ترافع في قضية... قضيتي. يمكنك أن تنزل من منصتك وتفعل شيئاً صغيراً كهذا لصديق قديم، أليس كذلك؟».

«قد يحتاج ذلك إلى قليل من النقود»، قلت.

«نقود؟ لماذا؟».

«انفق نقوداً. أزهار، سيارات أجرة، مسرح، ملاهي...».

«كفاك هذراً»، قال. «أزهار ربما. لكن لا تفكر بالأمر على أنها حملة طويلة. فقط تعرّف عليها وابدأ الكلام. لن أعلمّك كيف ستفعل ذلك. اجعلها تذوب، هذا هو الشيء. ابكِ، إذا تعين عليك أن تبكي. لو أتمكن من الدخول إلى بيتها فقط، وأراها وحدها. سأستلقي عند قدميها، وألعق أصابع قدميها، وأدعها تدوس فوقي. أنا جاد ياهنري. لن أبحث عنك لو لم أكن مستميتاً».

«حسناً»، قلت، «سأفكّر في الموضوع. امنحني بعض الوقت».

«لن تخذلني؟ أتعدني بذلك؟».

قلت: «لا أعدك بشيء، إن الأمر يحتاج إلى تفكير. سأفعل مابوسعي، هذا كلّ ما يمكنني أن أقوله».

«لنتصافح إذاً»، قال ومدّ يده.

«عندما أسمعك تقول هذا يا هنري لا تعرف كيف يجعلني أشعر. لقد فكّرت بأن أطلب من جورج، لكنك تعرف جورج. سيأخذ الأمور على أنها مزحة. إنها ليست مزحة على الإطلاق، تعرف ذلك، أليس كذلك؟ يا إلهي، أتذكر عندما كنت تقول إنك ستطلق النار على رأسك - من أجل، ما اسمها...».

«مونا»، قلت.

«نعم، مونا. كان كلّ همك أن تنالها، أليس كذلك؟ أنت سعيد الآن، أرجو ذلك. هنري، حتى إني لا أطلب ذلك كي أكون سعيداً معها. كلّ ما أريده هو أن أنظر إليها، أعبدها. يبدو ذلك شيئاً صبيانياً، أليس كذلك؟ لكني أقصد ما أقوله. إذا لم أحصل عليها فسأجن».

صببت له كأساً آخر.

«كنت أسخر منك، أتذكر؟ تقع في الحبّ دائماً. أتذكر كيف كانت أرملتك تلك تكرهني؟ كان لديها سبب وجيه لذلك. بالمناسبة، ماذا حلّ بها؟».

هززت رأسي.

«لقد جننت بها، أليس كذلك؟ الآن بعد أن أعود بذاكرتي، لم تكن سيئة. ربما كانت كبيرة في السن قليلاً، تبدو حزينة بعض الشيء، لكنها جذابة. ألم يكن لديها ابن في عمرك؟».

«نعم»، قلت. «لقد مات منذ بضع سنوات».

«لم تكن تظن أنك ستتمكن من الخلاص من هذه الورطة، أليس كذلك؟ يبدو أن هذا حدث قبل ألف سنة... وماذا عن أونا؟ لا أظن أنك استطعت أن تتغلّب على ذلك، إيه؟».

«لا أظن»، قلت.

«أتعرف ماذا يا هنري؟ أنت محظوظ. الله يهبّ لنجدتك في كلّ مرّة. انظر، لن أؤخرك عن عملك أكثر من ذلك. سأخابرك بعد بضعة أيام ونرى ما سيحدث. لا تخذلني، هذا كلّ ما أرجوه منك».

أخذ قبعته وسار نحو الباب. «بالمناسبة»، قال، وابتسم ابتسامة عريضة، وأشار إلى الآلة «ما عنوان الرواية؟».

«خيول فلاديفوستوك الحديدية»، أجبت.

«لا مزاح».

«أو ربما هذا ـ عالم الأغيار هذا».

«من المؤكد أن هذا سيجعلها من أكثر الكتب رواجاً»، قال.

«بلّغ تحياتي لغويلدا، عندما تخابرها ثانية».

«فكّر بشيء جيد الآن، إنك لقيط! وبلّغ حبّي إلى...».

«مونا».

«نعم، مونا. إلى اللقاء!».

في وقت لاحق من ذلك اليوم، سمعت طرقات أخرى على الباب. هذه المرة كان سِيد إسين. بدا مثاراً وقلقاً. واعتذر بشدة على تطفّله.

«كان عليّ أن أراك»، بدأ بقوله: «آمل أن تغفر لي. اطلب مني أن أذهب، إن كنت مشغولاً بشيء...».

«اجلس، اجلس»، قلت. «لا أكون مشغولاً كثيراً عندما أريد أن أراك. هل أنت في ورطة؟».

«لا، لا ورطة. وحيد، ربما... وأشعر بالاشمئزاز من نفسي. بينما كنت جالساً هناك في العتمة أحسست بكآبة شديدة. كدت أشعر بالرغبة في الانتحار. فجأة فكّرت بك. قلت، «لماذا لا ترى ميلر؟ فهو سيدخل البهجة إلى نفسك». فقمت وغادرت. الولد يقوم برعاية المحل... أنا خجول من نفسي حقاً، لكني لم أعد أحتمل ولا دقيقة أخرى».

نهض من الأريكة وسار إلى لوحة معلقة على الحائط بجانب طاولتي. كانت صورة لإحدى لوحات هيروزهيج، من «مراحل توكيدو الثلاث والخمسين». نظر إليها بتمعن، ثم التفت لينظر إلى الأخرى. في هذه الأثناء تغيّرت قسمات وجهه من القلق والغمّ إلى السرور والبهجة. وعندما أدار وجهه أخيراً كانت عيناه مبللتين بالدموع.

«ميلر، ميلر، يا له من بيت جميل! يا لها من أجواء! إن مجرد وقوفي هنا أمامك، محاطاً بكلّ هذا الجمال، يجعلني أشعر بانتعاش كبير. كم أتمنّى أن أستطيع أن أبادلك الأماكن! أنا رجل عنيف، كما تعرف، لكني أحبّ الفن، جميع أشكال الفن. وأنا مولع بالفن الشرقي على نحو خاص. أعتقد أن اليابانيين شعب رائع. فكلّ شيء يفعلونه فني... نعم، نعم، العمل في غرفة كهذه أمر جيد. تجلس هنا بأفكارك وتصبح ملك العالم. يا لها من حياة نقية! أتعرف يا ميلر، أنت تذكّرني أحياناً بعالم عبري. توجد مسحة قدّيس فيك أيضاً. لذلك جئت لرؤيتك. أنت تمنحني الأمل والشجاعة. حتى عندما لا تقول شيئاً. هل تمانع من قولي هذا؟ يجب أن أفرغ ما يجيش في صدري». توقّف كما لو ليستجمع شجاعته. «أنا رجل فاشل، لا شك في هذا. أعرف ذلك وأنا متوافق مع ذلك. لكن ما يؤلمني هو أن التفكير بأنّ ابني قد يفكر بذلك أيضاً. لا أريده أن يشفق عليّ. إنه يحتقرني، نعم. لكنه لا يشفق عليّ».

«ريب»، قلت، «لم أعتبرك في حياتي شخصاً فاشلاً. أنت تكاد

تكون مثل أخٍّ كبير لي. كما أنك لطيف وودود، وكريم إلى درجة الإفراط».

«أتمنّى أن تسمعك زوجتي وأنت تقول هذا».

«لا يهم بماذا تفكر. الزوجات دائماً قاسيات على من يحبّونهن».

«الحبّ. لا يوجد أيّ حبّ، منذ سنوات طويلة. لدى زوجتي عالمها الخاص، ولديّ عالمي».

ساد صمت قلق.

«هل تعتقد أنه يحسن بي أن أغيب عن الأنظار؟».

«أشكّ في ذلك يا ريب. ماذا ستفعل؟ إلى أين ستذهب؟».

«إلى أيّ مكان. أما بالنسبة لكسب قوتي، فلا أكذب إن قلت أني سأكون سعيداً إن أصبحت ماسح أحذية. فالمال لا يعني لي شيئاً. إني أحبّ الناس، وأحبّ أن أفعل أشياء لهم».

نظر إلى الحائط ثانية. وأشار إلى لوحة بريشة هوكوسي من «الحياة في العاصمة الشرقية».

قال: «أترى هذه الأشكال. أناس عاديون يقومون بأشياء يومية عادية. أحبّ أن أكون واحداً منهم، أن أقوم بشيء عادي. صانع براميل أو سمكري ـ ما الفرق؟ لكي تكون جزءاً من الموكب، هذا هو الشيء. لا أن تجلس في مخزن فارغ طوال النهار وتهدر وقتك سدى. اللعنة، ما زلت أصلح لشيء. ماذا ستفعل لو كنت مكاني؟».

«ريب»، قلت، «كنت تماماً في موقعك ذات يوم. نعم، كنت أجلس طوال النهار في دكان أبي، لا أعمل شيئاً. خيّل لي أني سأفقد عقلي. كرهت المكان. لكني لم أعرف كيف أفلت».

«ماذا فعلت إذاً؟».

«القدر هو الذي أخرجني على ما أظن. لكن أيجب أن أخبرك بهذا... إذ بينما كنت جالساً أموت حسداً كنت أصلّي أيضاً. كنت أتضرع أن يريني أحد - ربما الله - الطريق. كنت أفكّر أيضاً بالكتابة، حتى في ذلك الوقت. لكنه كان حلماً أكثر من كونه إمكانية. استغرق ذلك سنوات، حتى بعد أن تركت دكان الخياط، لأكتب سطراً واحداً. يجب على المرء ألا ييأس أبداً...».

«لكنك كنت طفلاً آنذاك. أما أنا فقد بدأت أشيخ».

«ومع ذلك. فالسنوات التي تتركك هي سنوات من عمرك. فإذا كان هناك شيء تريد أن تفعله حقاً فما يزال أمامك وقت».

«ميلر»، قال بحزن تقريباً، «لا يوجد لديّ أي حافز إبداعي. كلّ ما أطلبه هو أن أخرج من الفخّ. أريد أن أعيش ثانية. أن أعود إلى التيار. هذا كلّ ما في الأمر».

«وماذا يوقفك؟».

«لا تقل هذا! أرجوك لا تقل ذلك! ماذا يوقفني؟ كلّ شيء. زوجتي، وأطفالي، والتزاماتي. والأهمّ من كلّ ذلك أنا. أنا أحمل رأياً سيئاً عن نفسي».

لم أتمالك نفسي عن الابتسام. ثم أجبت، كما لو كنت أجيب نفسي: «يبدو أننا نحن البشر فقط من نحمل رأياً متدنياً عن أنفسنا. خذ الدودة مثلاً - هل تظن أن الدودة تنظر نظرة استصغار إلى نفسها؟».

«من الفظيع أن تشعر بالذنب»، قال. «ولأي غرض؟ ماذا فعلت؟».

«بل ماذا لم تفعل، أليس كذلك؟».

«نعم، نعم، طبعاً».

«هل تعرف ما الأهم من عمل شيء؟».

«لا»، قال ريب.

«أن تكون أنت نفسك».

«لكن إذا كنت لا شيء؟».

«إذاً فأنت لا شيء. لكن كنّ كذلك بالتأكيد».

«يبدو ذلك ضرباً من الجنون».

«إنه كذلك. لذلك فالأمر سليم».

«تابع»، قال، «أنت تريحني بكلامك».

«في الحكمة يكمن الموت، أظن أنك سمعت بهذا، أليس كذلك؟ أليس من الأفضل أن تكون مجنوناً بعض الشيء؟ من يقلق عليك؟ لا أحد سواك. عندما لا تعود تستطيع أن تجلس في المحل، فلماذا لا تخرج وتتمشّى؟ أو تذهب إلى السينما؟ أغلق المحل، أقفل الباب. فزبون لن يؤثر كثيراً على حياتك، أليس كذلك؟ متّع نفسك! اذهب للصيد بين الحين والآخر، حتى لو لم تكن تعرف كيف تصطاد. أو خذ سيارتك واذهب إلى الريف. إلى أي مكان. استمع إلى الطيور، احضر إلى البيت بعض الزهور، أو بعض المحارات الطازجة».

كان ينحني إلى الأمام، مشنفاً أذنيه، وابتسامة عريضة ترفرف على شفتيه.

«أخبرني المزيد»، قال. «يبدو هذا رائعاً».

«حسناً، تذكّر هذا... فالمحل لن يهرب منك. والعمل لن يتحسن. لا أحد يطلب منك أن تحبس نفسك كلّ يوم. إنك رجل حرّ. وإذا كنت ستزداد سعادة إذا أصبحت أكثر طيشاً وإهمالاً، فمن يلومك؟ سأقدم لك اقتراحاً آخر. فبدلاً من أن تذهب وحدك، خذ معك أحد مستأجريك الزنوج. امض معه وقتاً سعيداً. اعطه بعض الثياب من محلك. إسأله إن كنت تستطيع أن تقرضه بعض المال. اشتر لزوجته هدية صغيرة ليأخذها إلى البيت. أتفهم قصدي؟».

بدأ يضحك. «هل أفهم؟ إن هذا يبدو عظيماً. هذا ما سأفعله».

«وفي الوقت نفسه لا تسرف كثيراً، ولا تبذر على الفور»، قلت. «خذ الأمور بالتدريج وبسهولة. اتبع غرائزك. مثلاً، ربما شعرت يوماً بأنك ترغب في أن تجد فتاة جميلة. لا تدع ضميرك يؤنبك على ذلك. جرّب قطعة من اللحم الأسود أحياناً. فهي ألذّ وأطيب مذاقاً، وأقل كلفة. أيّ شيء يريحك، تذكّر ذلك. عامل نفسك دائماً بشكل جيد. إذا شعرت كالدودة، ازحف؛ وإذا شعرت كالطير، طِرْ. لا تكترث بما سيقوله الجيران أو يفكرون به عنك. لا تقلق من أجل أطفالك، فهم سيعتنون بأنفسهم. أما زوجتك، فلعلها تغيّر لهجتها معك عندما تراك سعيداً. إن زوجتك امرأة جيدة. واعية إلى درجة كبيرة، هذا كلّ ما في الأمر. إنها بحاجة لأن تضحك بين الحين والآخر. هل حاولت أن تلقي عليها قصيدة فكاهية؟ ها هي واحدة لك...

كانت توجد فتاة شابة من بيرو،

حلمت بأن يهودياً اغتصبها،

صحت في الليل،

وهي تصرخ مبتهجة،

لتجد أن الأمر كان حقيقياً!».

صاح: «جيد جيد! هل تعرف المزيد؟».

«نعم»، قلت، «لكن يجب أن أعود للعمل الآن. أتشعر بتحسّن الآن؟ سنزور السود غداً، أليس كذلك؟ ربما أقوم بجولة في الأسبوع القادم إلى بلوبوينت معك. اليس كذلك؟»

«هل تريد؟ أوه، سيكون ذلك رائعاً، رائعاً. بالمناسبة، كيف تسير الأمور مع الكتاب؟ هل أصبحت على وشك أن تنهيه؟ أموت شوقاً لقراءته، وكذلك السيدة إسين».

«ريب، أنت لن تحبّ الكتاب على الإطلاق. يجب أن أقول لك ذلك بصراحة».

«كيف تقول هذا؟» كاد يصيح.

«لأنه غير جيد».

نظر إليّ كما لو كنت قد فقدت عقلي. ولوهلة لم يعرف ماسيقوله. ثم قال «ميلر، أنت مجنون! إنك لا تستطيع أن تكتب كتاباً سيئاً. هذا مستحيل. أعرفك جيداً».

قلت: «أنت لا تعرف إلا جزءاً مني، لم تر الجانب الآخر من القمر أبداً، أليس كذلك؟ هذا هو أنا. أرض مجهولة. خذها مني، أنا مجرّد مبتدئ. ربما بعد عشر سنوات، سيصبح لديّ شيء أريك إياه».

«لكنك تكتب منذ سنوات».

«تقصد أمارس الكتابة».

«إنك تمزح»، قال. «أنت شديد التواضع».

«هنا أنت مخطئ»، قلت. «يمكنني أن أكون أيّ شيء إلا أن أكون متواضعاً. أنا مغرور وأناني، هذا أنا. لكنني واقعي أيضاً، على الأقل مع نفسي».

«أنت تبخس قدر نفسك»، قال ريب. «سأعيد عليك كلماتك ـ لا تنظر نظرة استصغار إلى نفسك!».

«حسناً. ربحت».

كان متوجهاً نحو الباب. وفجأة انتابتني رغبة جامحة في تخفيف العبء عن نفسي.

قلت: «انتظر لحظة. ثمة شيء أريد أن أقوله لك».

عاد مسرعاً إلى الطاولة ووقف هناك، مثل أحد الصبية السعاة. باستعداد. استعداد مشوب بالاحترام. تساءلت ما الذي يفكر بأني سأقوله.

«عندما جئت قبل بضع دقائق»، بدأت أقول، «كنت في منتصف جملة وسط فقرة طويلة. هل تريد أن تسمعها؟» انحنيت فوق الآلة الكاتبة. كانت إحدى تلك الفقرات الجنونية التي لم أفهم منها أنا

نفسي رأساً ولا ذيلاً. أردت أن أعرف ردّ فعله، لا رد فعل بوب أو مونا.

قرأتها له على الفور.

«ميلر!» صاح، «ميلر، هذا رائع! أنت تبدو أحد أولئك الروس. لاأعرف ماذا تعني لكن فيها جِرْس وموسيقى».

«أتظن ذلك؟ بصدق؟».

«طبعاً. لا أكذب عليك».

«جميل. إذن سأمضي في ذلك. سأنهي الفقرة».

«هل الكتاب كله بهذا الشكل؟».

«لا اللعنة! هنا المشكلة. فالأجزاء التي أحبها لن يحبها أحد آخر. على الأقل، الناشرون».

«فليذهبوا إلى الجحيم»، قال ريب. «إذا لم يقبلوه فسأنشره أنا لك، بمالي الخاص».

«أنا لا أنصح بذلك»، أجبت. «تذكّر، لا تبدد مالك مرة واحدة».

«ميلر، إذا أخذت آخر سنت أملكه، فسأفعل ذلك لأني أؤمن بك».

«لا تفكر بالأمر»، قلت. «يمكنني أن أفكّر بوسائل أخرى لإنفاق مالك».

«ليس أنا! إني أشعر بالفخر والسعادة إذا أطلقتك. وكذلك زوجتي وأطفالي. إنهم يحترمونك كثيراً. أنت مثل أحد أفراد العائلة بالنسبة لهم».

«يسعدني أن أسمع ذلك يا ريب. إني أقدّر هذه الثقة. غداً، إذن، إيه؟ لنأخذ شيئاً جيداً لهؤلاء السود، ما رأيك؟».

حين ذهب بدأت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً بهدوء، كنت أتوقف

بين الحين والآخر، لأتطلع إلى صورة لوحة ملوّنة (جيوتو، ديلا فرانسيسكا، أوشيلو، بوش، بروغل، كارافاجيو)، ثم أعود وأمشي ثانية، أصبح أكثر امتلاء، أقف ساكناً بلا حراك، أحدق في الفضاء، أدع عقلي يطوف، أتركه يرتاح حيث يشاء، فبدأ يزداد هدوءاً، ويصبح مشحوناً أكثر وأكثر بجمال الماضي. كنت سعيداً بنفسي لأني جزء من هذا الماضي (والمستقبل أيضاً)، أهنّئ نفسي لأني أعيش في هذا النوع من الوجود سواء كان قبراً أو رحماً... نعم، كانت حقاً غرفة رائعة، بيتاً رائعاً، وكلّ شيء فيه، كلّ شيء ساهمنا في جعله صالحاً للسكن، يعكس الجمال الداخلي للحياة، حياة الروح.

«تجلس هناك وتجوس بأفكارك وتشعر بأنك ملك العالم». هذه الملاحظة البريئة التي قالها ريب سكنت في دماغي، منحتني تلك الرصانة التي أحسست لوهلة أني كنت أعرف ما يقصد حقاً - أن يكون المرء ملك العالم. الملك! أي أن يكون بمقدرته أن يقدّم الولاء إلى مختلف طبقات الناس، ولاء شديد الحساسية، شديد الإدراك، ينيره الحبّ إلى حد ألا شيء يفلت من اهتمامه ولا فهمه. الشفيع الشعري، باختصار. لا حكم العالم بل عبادته بكلّ نَفَس.

وقفت ثانية أمام عالم هوكوسي اليومي... لماذا أخذ معلمّ الفرشاة العظيم هذا كلّ هذه الآلام ليعيد إنتاج العنصر الشائع جداً من عالمه؟ لكشف مهارته؟ هراء. لكي يعرب عن حبّه، ليدل على أنه واسع الأفق والانتشار، وعلى أنه يتضمّن عصي الطبل، نصل عشبة، عضلات مصارع متموّجة، قطرات المطر التي تميلها الريح، أسنان الموجة، العمود الفقري لسمكة... باختصار، كلّ شيء. مهمّة شبه مستحيلة، لو لم تنطو على البهجة والمتعة.

قال إنه مولع بالفنّ الشرقي. فيما كنت أكرّر كلمات ريب لنفسي، انبثقت فجأة القارة الهندية بكاملها أمامي. هناك، وسط خلية النحل

الإنسانية تلك، توجد آثار العالم الخافقة، التي كانت وستبقى مدهشة إلى الأبد. ريب لم يلحظ، أو لم يقل شيئاً عن الصفحات الملوّنة الممزقة من كتب الفنّ التي تزيّن الجدران أيضاً: صور عن لوحات لمعابد وقباب معبد بوذي لديكان، وكهوف ومغارات منحوتة، من لوحات جدارية ونماذج جصّية تصوّر الخرافات والأساطير لأناس ثملين بالشكل والحركة، بالعاطفة والنمو، بالفكرة، بذات واعية. مجرّد نظرة إلى مجموعة المعابد القديمة تبرز من حرارة ونباتات التربة الهندية منحتني الإحساس بأني أحدق دائماً في الفكرة نفسها، الفكرة التي تسعى للخلاصة وتحرير نفسها، الفكرة التي تصبح جمالية، ملموسة، موحية أكثر واكثر إلهاماً، هكذا أصبحت حجراً، أكثر مما يمكن أن تكون فيه الكلمات.

ولأني قرأت كلماته كثيراً، لم أعد قادراً على تذكرها. بدأ يقرصني الجوع الآن من ذلك الفيض من الصور الغزيرة، تلك العبارات، الجمل والفقرات المنمقة العظيمة ـ كلمات الرجل التي فتحت عيني على هذا الخلق المدهش للهند: إلي فور. مددت يدي لأتناول المجلد الأول ورحت أتصفحه ـ المجلد الثاني عن تاريخ الفن ـ وقلبت على مطلع الفقرة ـ «أما بالنسبة للهنود، فالطبيعة لديهم كلها مقدسة... والشيء الذي لا يوجد في الهند هو الإيمان...» ثم أعقبت ذلك السطور التي، عندما رأيتها أول مرة، أصبح عقلي يترنح.

«في الهند يحدث هذا الشيء: يجرفه الاحتلال، المجاعة، أو هجرة الوحوش البرّية، آلاف البشر هاجروا إلى الشمال أو إلى الجنوب. هناك على شاطئ البحر، عند سفح الجبل، صادفوا جداراً هائلاً من الغرانيت. ثم دخلوا جميعهم إلى الغرانيت؛ عاشوا في ظله، أحبوا، عملوا، ماتوا، ولدوا، وبعد ثلاثة أو أربعة قرون، خرجوا ثانية. مشوا بعيداً، بعد أن اجتازوا الجبل. وخلفوا وراءهم الصخرة المجوّفة، جوّفت شرفاتها في جميع الاتجاهات، جدرانها المحفورة

أو المنحوتة، أعمدتها الطبيعية أو الاصطناعية تحوّلت إلى تخريمات فيها عشرة آلاف هيئة أو إله يسحر الألباب بدون رقم وبدون اسم، رجال، نساء، وحوش ـ مدّ من الحياة الحيوانية يتحرّك في الظلام. وفي بعض الأحيان، عندما لم يجدوا درباً في طريقهم، راحوا يحفرون هاوية وسط كتلة الصخرة لحماية حجرة سوداء صغيرة».

«في هذه المعابد الحجرية الضخمة، التي على جدرانها المعتمة، أو على واجهتها التي أحرقتها الشمس، ينفق عبقري الهند الحقيقي كلّ قوته الرائعة. هنا يُسمع الخطاب المشوّش للأعداد الغفيرة المضطربة. هنا يعترف الإنسان بقوته وبعدمه...»».

واصلت القراءة، منتشياً كدأبي. لم تعد الكلمات كلمات بل صوراً حيّة، طازجة من القالب، تتلألأ، تخفق، تتموّج، تخنقني بزوائدها.

أن تحبّ الفن الشرقي. ومن لا يحبه؟ لكن أي شرق، الأدنى أم الأقصى؟ أنا أحبه كلّه. ربما أحببت هذا الفنّ على نحو مختلف عن فننا لأنه، بكلمات إلي فور، «لم يعد الإنسان في مركز الحياة». ربما كان هذا الإسقاط (والرفع) للإنسان، هذا الاختلاط مع الحياة كلها، الصغيرة بشكل لانهائي، والعظيمة بشكل لانهائي بالقدر نفسه، التي أنتجت هذا السمو عندما ووجهت بعملها، أو لصياغتها بطريقة أخرى، لأن الطبيعة كانت (معهم) شيئاً آخر، شيئاً أكثر من مجرّد خلفية. لأن الإنسان، رغم قدسيته، لم يعد قدسياً أكثر مما انبثق منه. وربما أيضاً لأنهم لم يفنّدوا الفوضى واضطرابات الحياة بفوضى واضطرابات الفكر. لأن العقل ـ أو الروح ـ أشرق من خلال كلّ شيء، مما خلق نوراً قدسياً. وهكذا، مع أنه أُذلّ وعوقب، لم يزل الإنسان أو يُسطّح. لم يُجعل ليتذلّل أمام المهيب، لكنه اندمج فيه. إذا كان ثمة مفتاح للألغاز التي تغلّفه، تتخلّله، فهو مفتاح بسيط، متاح للجميع. لا يوجد ثمة غموض حوله.

قبل كل شيء، فإن وحدة وعبثية كونك فناناً أكثر ما يثير قلقي.

حتى الآن، التقيت في حياتي بكاتبين فقط يمكنني أن أدعوهما فنانين وهما: جون كاوبير بويس وفرانك هاريس. وقد عرفت الأول لأني كنت أحضر محاضراته، وعرفت الآخر عندما كنت صبي خياط، الصبي، بمعنى آخر الصبي الذي يسلّمه ثيابه، والذي يساعده في ارتداء بنطاله. هل كان عيبي، ربما، بقيت خارج الدائرة؟ كيف كان بإمكاني أن ألتقي بكاتب آخر، أو رسّام أو نحّات؟ أشق طريقي إلى مرسمه، أقول له أنا أيضاً كنت أتوق لأن أكتب، لأن أرسم، لأن أنحت، لأن أرقص أو شيئاً من هذا القبيل؟ أين يلتقي الفنانون في عاصمتنا الواسعة؟ قالوا في حي غرينيتش فيليج. كنت قد عشت في الفيليج، أمشي في شوارعه في جميع الساعات، زرت مقاهيه وصالات الشاي فيه، أعرف مسراته، وستوديوهاته، ومكتباته، وحاناته، ومطاعمه وحاناته الرخيصة. نعم، لقد احتككت، في بعض الحانات القذرة بشخصيات مثل ماكسويل بودينهيم، وساداكيتشي هارتمان، وغيدو برونو، لكني لم أصادف أبداً دوس باسوس، وشيروود أندرسن، وألدو فرانك، وإي. إي. كمينغس، وثيودور دريسير أو بن هيتشت. ولا حتى شبح أو. هنري. أين كانوا يمكثون؟ كان بعضهم في الخارج، يعيشون حياة المنفى السعيدة أو المتمرّدة. لم يكونوا يبحثون عن فنانين آخرين، بالتأكيد لم يكونوا يبحثون عن مبتدئين مثلي. كم كان رائعاً لو تمكنت، في تلك الأيام عندما كان ذلك يعني لي الشيء الكثير، أن ألتقي بثيودور دريسير، أو شيروود أندرسن، اللذين كنت أعشقهما وأتكلّم معهما! ربما كان لدينا شيء نتحدث عنه، أنا المبتدئ الخام. ربما كنت سأستمد الشجاعة للبدء قريباً ـ أو أهرب، أبحث عن مغامرة في الأراضي الأجنبية.

هل الخجل أو الحياء، أو عدم تقدير الذات هي التي أبعدتني وجعلتني وحيداً في تلك السنوات القاحلة؟ وفجأة تذكرت حادثة سخيفة. عندما كنت أتجول مع أومارا نبحث عن الطرافة والإثارة، أيّ شيء يصلح لقبّرة، ذهبنا ذات مساء نحضر محاضرة في كلية

راند. كانت واحدة من تلك الأمسيات الأدبية التي يطلب فيها إلى الجمهور إبداء آرائهم عن هذا المؤلف أو ذاك. ربما في ذلك المساء استمعنا إلى محاضرة عن كاتب معاصر يفترض أنه كان «ثورياً». عندما وجدت نفسي فجأة أقف على قدميّ وأتكلم، عندها أدركت أنه لم يكن لما أقوله علاقة بما يقال. ومع أني كنت منبهراً ـ كانت تلك أول مرة أنهض فيها وأتكلّم أمام الناس، حتى في جوّ غير رسمي كهذا ـ كنت واعياً، أو نصف واع، بأن جمهوري كان منوماً. وكان بإمكاني أن أشعر، لا أرى، وجوههم المقلوبة تسعى جاهدة لالتقاط كلماتي. وكانت عيناي مركّزتين مباشرة إلى الأمام، إلى الشخص الجاثم وراء المنصّة الخطابية الذي كان غائصاً في مقعده، مطرقاً برأسه إلى الأرض. وكما قلت، كنت منبهراً تماماً؛ لم أكن أعرف ما أقول، ولا إلى أين كان حديثي يقودني. انطلقت كما ينطلق المرء في غيبوبة. وعن أي شيء كنت أتحدّث؟ عن مشهد من أحد روايات هامسن، شيء يتعلّق بمتلصص. إني أتذكّر هذا لأنه عندما ذكرت الموضوع، ولعلي غصت في المشهد بالتفصيل، انطلقت ضحكة مكتومة خفيفة من الجمهور تلاها على الفور صمت يدلّ على اهتمام بالغ. وعندما انتهيت دوى تصفيق، ثم ألقى رئيس التشريفات كلمة إطراء عن مدى سعادتهم لسماع هذا الضيف المتطفّل، الكاتب بلا ريب، مع أنه للأسف يجهل اسمي، وما إلى ذلك. وعندما تفرّق الناس قفز من المنصة وأسرع ليهنئني مرة أخرى، وسألني من أنا، ماذا كتبت، وأين أعيش، وما إلى هنالك. وكانت إجابتي بالطبع مبهمة وغير واضحة. كنت مرعوباً في ذلك الوقت، وكلّ ما أفكر فيه هو كيف يمكنني أن أهرب. لكنه أمسكني من ردني عندما استدرت لأذهب، وبجدية مطلقة قال ـ ويا لها من صدمة! ـ «لماذا لا تأخذ مكاني في إدارة هذه المحاضرات؟ فأنت أفضل مني بكثير. إننا نحتاج إلى شخص مثلك، شخص يستطيع أن يشعل النار ويلهب الحماس».

تلعثمت وقلت شيئاً في إجابتي، ربما وعد أخرق، وشققت

طريقي إلى باب الخروج. وفي الخارج استدرت إلى أومارا وسألته «ماذا قلت، هل تتذكّر؟».

نظر إليّ بغرابة، متسائلاً بلا شكّ إن كنت أبحث عن كلمة تقدير.

«إني لا أتذكّر شيئاً»، قلت، «فمنذ اللحظة التي نهضت فيها ووقفت على قدميّ، كنت قد خرجت. أعرف بشكل مبهم أني كنت أتحدّث عن هامسن».

«يا إلهي»، قال، «يا للشفقة! كنت رائعاً؛ إنك لم تتردّد لحظة؛ كانت الكلمات تتدفق من فمك».

«هل كان كلامي مفهوماً، هذا ما أريد أن أعرفه».

«أصبح مفهوماً؟ يا رجل، كنت جيداً مثل بويس».

«هيا، هيا، كفاك إطراء».

«أقصد ما أعنيه يا هنري»، قال والدموع تطفر من عينيه وهو يتكلم. «بوسعك أن تكون محاضراً عظيماً. لقد سحرتهم. لقد صُدموا أيضاً. لم يعرفوا من أنت على ما أظن».

«هل كان حقاً جيداً إلى هذه الدرجة؟» بدأت أدرك شيئاً فشيئاً ما حدث.

«لقد قلت أشياء كثيرة قبل أن تبدأ الحديث عن أعمال هامسن».

«هل فعلت ذلك حقاً؟ مثل ماذا مثلاً؟».

«يا إلهي، لا تطلب مني أن أكرر ما قلته. لا أستطيع. إنك تطرقت إلى كلّ شيء. حتى إنك تحدّثت عن الله لبضع دقائق».

«لا! لا أتذكر أياً من ذلك. فصفحة عقلي فارغة تماماً».

«ما الفرق؟» قال، «أتمنّى أن تكون صفحة عقولنا فارغة ونتحدث بهذه الطريقة».

ها هي. حادثة تافهة، لكنها تكشف كثيراً من بواطن الأمور،

ولم تثمر عن شيء أبداً. ولم أحاول مرة أخرى على الإطلاق، أو حتى أحلم بفتح فمي على الملأ. فإذا حضرت محاضرة، وقد حضرت الكثير منها في هذه الفترة، كنت أجلس وعيناي مفتوحتان، وفمي فاغر، وأذناي مشنفتان، مستسلماً مثل تمثال من الشمع. ولم يكن يخطر ببالي أن أقف وأطرح سؤالاً، ولم أكن أنتقد إلا الشيء القليل. فقد كنت آتي لأتعلم، لأتفتح. ولم أقل لنفسي أبداً «أنه يمكنك أنت أيضاً أن تقف وتلقي كلمة. أنت أيضاً يمكنك أن تسحر الجمهور بفصاحتك. أنت أيضاً يمكنك أن تختار مؤلفاً وتشرح مزاياه بطريقة مبهرة». لا، ليس أياً من هذه الأفكار. عندما أقرأ كتاباً، نعم، قد أرفع عينيّ عن الصفحة في خاتمة فقرة رائعة، وأقول لنفسي: «يمكن أن تفعل ذلك أيضاً. لقد فعلتها، في واقع الأمر. لكنك لا تفعلها بالقدر الكافي». وأتابع القراءة، الضحيّة الخانعة، التلميذ التابع المستسلم. التابع الجيّد الذي، عندما تحين الفرصة، عندما أكون في المزاج، يصبح بإمكاني أن أشرح، أن أحلّل وأن أنتقد الكتاب الذي أنهيت قراءته للتو، كما لو كنت أنا المؤلف، لا استخدام كلماته هو، بل تشبيهات ذات وزن وإلهام يدعوان إلى الاحترام. وبالطبع كان دائماً، وفي مثل هذه المناسبات، يُقذف أمامي السؤال ـ «لماذا لا تكتب كتاباً أنت نفسك؟» عندها أنغلق على نفسي كمحارة، أو أصبح مهرجاً لأذر الرماد في عيونهم. كنت دائماً الكاتب المقبل الذي أبثه في حضور الأصدقاء والمعجبين، أو حتى المؤمنين، لأنه كان من السهل عليّ دائماً أن أخلق «هؤلاء المؤمنين».

لكني كنت وحيداً، أراجع كلماتي أو أعمالي بجدية، وكان الإحساس بانقطاعي عن العالم يتملكني دائماً. وأقول لنفسي «إنهم لا يعرفونني». وبهذا كنت أعني أنهم لم يكونوا يعرفونني أنا نفسي ولا ماذا سأصبح. كانوا معجبين بالقناع. لم أطلق عليه هكذا، لكن هكذا كنت أفكّر بقدرتي على إدخال الإعجاب في نفوس الآخرين. لم أكن أنا الذي يفعل ذلك، بل شخصية كنت أعرف كيف أتقمصها. كانت شيئاً، في الحقيقة، أي شخص فيه قدر قليل من الذكاء وموهبة

في التمثيل يمكنه أن يتعلّم بأن يقوم بالحيل التي يقوم بها الفرد. ومع ذلك، فقد كنت أدرس هذه الأداءات في ضوء هذا، وأتساءل أنا نفسي أحياناً إن لم أكن أنا من فعل ذلك، فمن كان وراء كلّ هذه الألاعيب.

كانت تلك عقوبة أن أعيش وحيداً، أعمل وحيداً، لا ألتقي بشخص يتفق معي في الرأي، لا أتمكن من لمس حافّة تلك الدائرة الداخلية السرية، التي يمكن بوساطتها إخراج كلّ تلك الشكوك والنزاعات التي دمرتني إلى العلن، أشاطرها مع الآخرين، أناقشها، وأحللها وإذا لم يتم التوصل إلى حلها، أعبّر عنها على الأقل.

تلك الأشكال الغريبة التي تخرج من عالم الفن ـ رسامون، نحّاتون، وخاصة الرسامون ـ ألم يكن من الطبيعي أن أشعر بالراحة معهم؟ فقد كانت أعمالهم تتكلّم معي بطريقة غامضة. هل كانوا يستخدمون كلمات كان من الممكن أن تحيرني وتشوشني. إلا أن عالمهم كان بعيداً عن عالمنا. المكونات نفسها: الصخور والأشجار والجبال والماء والمسرح والعمل واللعب، والثياب والعبادة والشباب والشيخوخة، والدعارة، والعبث في الحب، والمحاكاة، والحرب، والمجاعة، والتعذيب، والإثارة، والرذيلة، والشبق، والبهجة، والحزن. لفافات الورق من التيبيت، برسومها الدائرية، وآلهتها وشياطينها، ورموزها الغريبة، وألوانها المحددة، كانت مألوفة لي، وكان بعضها جزءاً مني، كالحوريات والعفاريت، الجداول والغابات، بريشة رسّام أوروبي.

لكن ما الشيء الذي كان أقرب إليّ من أيّ شيء في الفنّ التيبتي أو الياباني أو الصيني، هو هذا الفنّ الهندي الذي ولد من الجبل نفسه. (كما لو أنّ الجبال أصبحت حبلى بالأحلام، وقد ولدت أحلامهم، تستخدم البشر الفقراء الذين حفروها وجوّفوها كأدوات). كانت الطبيعة البشعة، إذا جاز لنا القول، عن مثل هذه الفخامة ذاتها، نعم، طبيعة هذه المخلوقات البشعة هي التي تعجبني، التي تجيب عن

بعض الجوع الخفيّ في كينونتي. أما بالنسبة لشعبي، فلم أكن أعجب بأيّ من إنجازاته. لم أشعر بوجود أيّ حافز ديني عميق، ولا بأيّ باعث جمالي عظيم: فلا توجد هندسة معمارية رفيعة، ولا رقص مقدّس، ولا طقوس من أيّ نوع كان. إننا نتحرك في حشود، عازمين على إنجاز شيء واحد ـ أن نجعل الحياة سهلة. الجسور العظيمة، السدود الضخمة، ناطحات السحاب الشاهقة تثبط من عزيمتي. بوسع الطبيعة فقط أن تغرس الإحساس بالرهبة. ونحن نشوّه الطبيعة في كل مناسبة. وفي كل مرة كنت أخرج في جولة، أعود دائماً خالي الوفاض. لا شيء جديداً، لا شيء غريباً، لا شيء مثيراً. بل والأسوأ، لا شيء يمكن السجود أمامه، لا شيء يمكن احترامه وتبجيله. وحيداً في أرض يقفز فيها الجميع كالمجانين. ماأتوق إليه هو أن أعبد وأعشق. ما أحتاج إليه هو رفاق يشعرون كما أشعر. لكن ليس هناك شيء يمكن عبادته أو عشقه، لم يكن هناك رفاق أنسجم معهم. ولم يكن هناك سوى قفر من الفولاذ والحديد، من الأسهم والسندات، من المحاصيل والمنتجات، من المصانع، الطواحين، وساحات الأخشاب، قفر من السأم، من المرافق العديمة الفائدة، من الحبّ الخالي من الحبّ.

18

بعد عدة أيام، تلقيت مكالمة هاتفية من ماكجريجور.

«أتعرف يا هنري؟».

«لا، ماذا؟».

«لقد جاءت لزيارتي. من تلقاء نفسها أيضاً. لا أعرف ماذا غيّر رأيها. أنت لم تذهب لرؤيتها، أليس كذلك؟».

«لا. في الحقيقة لم يتح لي الوقت للتفكير بها».

«أيها اللقيط! لكنك جلبت لي الحظّ، النتيجة واحدة. أو بالأحرى صورك هي التي جلبت الحظ. نعم، تلك الرسوم اليابانية المعلقة على جدار غرفتك. فقد ذهبت واشتريت اثنتين منها، بإطار جميل، وأرسلتهما لها. وفي اليوم التالي خابرتني. بدت في غاية الإثارة. قالت إنهما اللوحتان اللتان تتوق دائماً لاقتنائهما. قلت لها إنك أنت من أوحيت لي بذلك. شنفّت أذنيها. اعترتها الدهشة، على ما أظن، بأن لديّ صديق يهتم بالفن. والآن هي تريد أن تقابلك. قلت لها إنك رجل مشغول، لكني سأتصل بك وأرى إن كان بإمكاننا أن نأتي لزيارتك في بيتك ذات مساء. فتاة غريبة الأطوار، أليس كذلك؟ على أية حال، هذه فرصتك لتصلح الأشياء من أجلي. بعثر الكثير من الكتب في أنحاء الغرفة، من النوع الذي لم أقرأه. تذكّر أنها معلّمة مدرسة. والكتب تعني لها شيئاً... حسناً، ماذا تقول؟ ألست سعيداً؟ قل شيئاً!».

«أظن أنه شيء رائع. انتبه، وإلا ستتزوّج ثانية».

«لا شيء سيجعلني أكثر سعادة. لكني يجب أن آخذ الأمور بروية. لا تستطيع أن تعجل الأمور معها. ليس هي! وكأنك تزيح جداراً حجرياً». تسود لحظة صمت. ثم «هل أنت هناك يا هنري؟».

«طبعاً، أنا أصغي».

«أريد أن أحصل على بعض المعلومات منك قبل أن أراك... أعني قبل أن أرى غويلدا. فقط بعض المعلومات عن الرسامين واللوحات. إنك تعرفني، فأنا لم أكن أعير أي اهتمام لمثل هذه الأمور. مثلاً ماذا عن بريوغهيل هنري - هل هو أحد كبار الرسامين؟ يبدو لي أني رأيت بعض لوحاته من قبل في محلات صنع الإطارات والمكتبات. تلك اللوحة عندك، عن الفلاح الذي يحرث الحقل... الواقف على منحدر، أظن أني أتذكر، وهناك شيء يسقط من السماء... ربما كان رجلاً... متجهاً مباشرة إلى المحيط. تعرف تلك اللوحة. ما اسمها؟».

«أظن طيران إيكاروس».

«ماذا؟».

«إيكاروس. الرجل الذي حاول أن يطير إلى الشمس لكن أجنحته ذابت، أتذكر؟».

«بالطبع، بالطبع. هذه هي إذن؟ أظن من الأفضل أن أزورك ذات يوم وألقي نظرة أخرى على تلك الصور. يمكنك أن تشرح لي شيئاً عنها. فأنا لا أريد أن أبدو كالحمار عندما تبدأ تناقش الفن معك».

قلت: «في أي وقت. لكن تذكّر، لا تمكث مدة طويلة».

«قبل أن تضع السماعة، هنري أعطني اسم كتاب يمكنني أن أقدمه لها هدية. شيء نظيف وشاعري. هلّ يمكنك أن تفكّر بعنوان كتاب بسرعة؟».

«نعم، هذا ما يناسبها: القصور الخضراء بقلم ي. هـ. هدسون. سيعجبها كثيراً».

«هل أنت متأكّد؟».

«بالتأكيد. إقرأه أنت أولاً».

«كان بودّي يا هنري، لكن ليس لديّ الوقت. بالمناسبة، أتذكر قائمة الكتب التي أعطيتني إياها... منذ حوالى سبع سنوات؟ حسناً، قرأت منها ثلاثة حتى الآن. أترى ما أعني».

«لا أمل يرجى منك»، أجبته.

«شيء آخر يا هنري. تعرف أن وقت العطلة سيحل قريباً. أفكّر بأن أصطحبها إلى أوروبا. هذا إذا قررت البقاء معها. ماذا تظن؟».

«فكرة رائعة. اجعلها رحلة شهر عسل».

«أراهن أنه كان ماكجريجور»، قالت مونا.

«صحيح. الآن يهدّد بأن يحضر صديقته غويلدا ذات مساء».

«يا له من حشرة! لماذا لا تقول لصاحبة البيت إنك لست موجوداً عندما تأتيك مخابرة في المرة القادمة؟».

«لن يجدي ذلك نفعاً. سيأتي ليتبين إن كانت تكذب. إنه يعرفني. لا، فقد وقعنا في الفخّ».

كانت تتهيأ لتغادر ـ موعد مع بوب، كانت الرواية على وشك الانتهاء الآن. مايزال بوب معجباً بها.

«سيذهب بوب إلى ميامي قريباً لقضاء عطلة قصيرة».

«هذا جيد».

«كنت أفكّر يا فال... كنت أفكّر أنه ربما بإمكاننا أن نأخذ إجازة أيضاً أثناء غيابه».

«أين مثلاً؟» قلت.

«أوه، أي مكان. ربما إلى مونتريال أو كيبيك».

«البرد شديد هناك، أليس كذلك؟».

«لا أعرف. بما أننا سنذهب إلى فرنسا فكرت لعلك تحبّ أن تتذوق طعم الحياة الفرنسية. فالربيع على الأبواب هنا، ولا يمكن أن يكون الجو شديد البرودة هناك».

لم نقل المزيد عن الرحلة ليوم أو يومين. وفي غضون ذلك راحت مونا تسأل عن هذا الأمر. فقد كانت لديها جميع المعلومات عن كيبيك، التي ظنت أني سأحبها أكثر من مونتريال. وقالت إنها فرنسية أكثر. والفنادق الصغيرة هناك ليست غالية.

بعد أيام قليلة تم البتّ في الأمر. هي ستأخذ القطار إلى مونتريال، وسأسافر أنا بالتنقل بالسيارات على الطريق. وسألتقيها في محطة سكة الحديد في مونتريال.

كان من الغريب العودة إلى الطريق مرة أخرى. فقد حلّ الربيع، لكن الطقس مايزال بارداً. وبوجود المال في جيبي لم أكترث بالتوصيلات في السيارات على الطريق. فإذا لم أجد من يوصلني كان بوسعي دائماً أن أستقل حافلة أو قطاراً. لذلك وقفت هناك، على الطريق السريع خارج باترسون في نيو جرسي، عازماً على أن أستقل أول سيارة متجهة شمالاً، لا يهم إن كانت ستذهب مباشرة أم بطريق متعرج.

استغرق الأمر ساعة تقريباً قبل أن أحصل على أول توصيلة. تقدم بي ذلك حوالى عشرين ميلاً. أوصلتني السيارة التالية مسافة خمسين ميلاً. وبدا الريف بارداً وكئيباً. لم أتمكن من الحصول إلا على توصيلات قصيرة. على كل حال، كان لديّ متسع من الوقت. وكنت أمشي أحياناً مسافة لأحرك ساقيّ. لم أكن أحمل أمتعة ثقيلة ـ فرشاة أسنان، وشفرة حلاقة، وألبسة داخلية. كان الهواء البارد المنعش منشطاً. شعرت بالمتعة وأنا أمشي وأترك السيارات تمرّ.

سرعان ما تعبت من المشي. ولم يكن هناك شيء يمكن رؤيته سوى المزارع والمقابر التي بدت متشابهة. رحت أفكّر بماكجريجور وصديقته غويلدا. قلت لنفسي إن الاسم يناسبها. تساءلت إن كان سيحطمها. يا له من غزو كئيب!

توقفت سيارة واستقليتها، دون أن أسأل عن وجهتها. كان الرجل متعصباً، متعصباً دينياً. لم يتوقف عن الكلام. أخيراً سألته عن وجهته فأجاب «إلى الجبال البيضاء». فقد كانت عنده غرفة في أعلى الجبال. وكان هو الواعظ المحليّ فيها.

«هل يوجد فندق بالقرب منك؟» سألته.

لا، لا توجد هناك فنادق، ولا فنادق صغيرة، لا شيء. لكنه قال إنه سيكون سعيداً إذا أقمت عنده. كانت لديه زوجة وأربعة أطفال. وطمأنني بأنهم جميعهم يحبون الله.

شكرته. لكن لم تكن لديّ أدنى نية في قضاء الليلة معه ومع عائلته. سأنزل في أول بلدة نصل إليها. لا أستطيع أن أرى نفسي جاثياً على ركبتي أصلّي مع هذا الأحمق.

«أيها السيد»، قال، بعد صمت ثقيل، «لا أظن أنك رجل تخاف الله، أليس كذلك؟ ما ديانتك؟».

«ليس لي دين»، أجبته.

«حسبت ذلك. أنت لا تشرب، أليس كذلك؟».

«قليلاً»، أجبت. «بيرة، نبيذ، براندي...».

«إن الله يغفر للخاطئين يا صديقي. لا أحد يفلت من عينه». وانطلق في خطبة طويلة عن الطريق القويم، وعواقب الخطيئة، ومجد الأتقياء، وما إلى ذلك. كان سعيداً بأنه عثر على آثم مثلي؛ فقد منحه ذلك شيئاً يشغله.

«أيها السيد»، قلت بعد إحدى مواعظه، «أنت تضيّع وقتك: فأنا آثم لا يمكن إصلاحه، ضال مطلق». وقد زوده هذا بغذاء أكثر.

قال: «لا أحد تحت نعمة الله». لذت بالصمت ورحت أستمع. وفجأة بدأ الثلج يهطل. كان الريف كله مكسواً بالثلج. أصبحت الآن تحت رحمته، قلت لنفسي.

«هل البلدة التالية بعيدة؟» سألته.

«بضعة أميال أخرى»، قال.

قلت: «جيد، أشعر برغبة شديدة في أن أتبوّل».

«يمكنك أن تتبوّل هنا، يا صديقي... سأنتظرك».

«يجب أن أفعل الشيء الآخر أيضاً»، قلت.

وهنا زاد من سرعته. «سنصل إلى هناك بعد بضع دقائق من الآن، يا سيد إن الله سيرعى كلّ شيء».

«حتى أمعائي؟».

«حتى أمعائك»، أجاب عابساً. «لا تخفى خافية على الله».

«بفرض أن البنزين نفد. هل يستطيع الله أن يجعل السيارة تسير بالطريقة نفسها؟».

«يا صديقي، يستطيع الله أن يجعل السيارة تسير بدون بنزين ـ لا شيء يستحيل عليه ـ لكن الله لا شأن له بهذا. إن الله لا ينتهك قوانين الطبيعة. إنه يعمل معها ومن خلالها. لكن. هذا ما سيفعله الله، فإذا نفد البنزين وكان من المهم أن أتحرك: فسيجد طريقة يجعلني أصل إلى الوجهة التي أتجه إليها. وقد يساعدك في الوصول إلى هناك أيضاً. لكن لكونك لا ترى طيبته ورحمته، فلن يخطر ببالك أبداً أن الله قد ساعدك». توقّف ليدعني أستوعب هذا، ثم تابع كلامه. «ذات مرة علقت مثلك، في مكان مجهول، وكان عليّ أن أتغوط بسرعة. ذهبت وراء بعض الشجيرات وأفرغت أمعائي. وبينما كنت أرفع بنطالي، رأيت ورقة من فئة عشرة دولارات ملقاة على الأرض أمامي. لقد وضع الله لي ذلك المبلغ هناك، لا أحد غيره. كانت تلك

طريقته في توجيهي إليها، بجعلي أذهب لأتغوط. لا أعرف لماذا أراني هذا الإحسان، لكني جثوت على ركبتي وشكرته. وعندما وصلت إلى البيت وجدت زوجتي في السرير ومعها اثنان من أطفالي. كانت مصابة بالحمّى. وبهذه النقود اشتريت لها الدواء وأشياء أخرى كانت تحتاجها... ها هي بلدتك، يا سيد. لعل الله سيريك شيئاً عندما تفرغ أمعاءك ومثانتك. سأنتظرك عند الزاوية هناك، بعد أن أشتري بعض الأشياء...».

هرعت إلى محطة البنزين، بلت قليلاً، لكني لم أتغوط. لم يكن ثمة دليل على وجود الله في المرحاض. ولم أر سوى لوحة مكتوب عليها: «الرجاء ساعدنا في الحفاظ على نظافة هذا المكان». انعطفت لأتحاشى الالتقاء بمخلصي، وتوجّهت إلى أقرب فندق. بدأ الظلام يهبط، وبدأ البرد يخترق العظام. كان الربيع مايزال بعيداً هنا.

«أين أنا؟» سألت الكاتب وأنا أوقّع على السجل. «أعني، ما اسم هذه البلدة؟».

«بيتسفيلد»، قال.

«بيتسفيلد ماذا؟».

«بيتسفيلد، ماسشوستس»، أجاب، وهو يرمقني ببرود وبمسحة من الاحتقار.

في صباح اليوم التالي نهضت نشيطاً ومبكراً. شيء جيد أيضاً، لأن عدد السيارات كان أقل وهي تأتي على فترات متباعدة، ولم يبد أن أحداً متلهّفاً لأن ينقل مسافراً معه. وفي الساعة التاسعة، وبالأميال التي قطعتها على قدميّ، شعرت بالجوع. ولحسن الحظ - ربما وضعه الله في طريقي - كان الرجل الجالس بجانبي في المقهى ذاهباً إلى منطقة قريبة من الحدود الكندية. وقال إنه سيكون سعيداً إذا رافقته. تبين لي أنه أستاذ في الأدب، بعد أن قطعنا مسافة معاً. كان رجلاً محترماً أيضاً. وكان من الممتع الاستماع إليه. أخذ

يتحدث كما لو أنه قد قرأ عن كلّ شيء ذي قيمة في اللغة الإنكليزية. فقد تحدّث بالتفصيل عن بليك، وجون دون، وتراهيرن، ولورنس سترن. وتحدث عن براونينغ أيضاً، وعن هنري أدامز. وعن آريوباجيتيكا لميلتون. كلّ الكافيار، بمعنى آخر.

«أظن أنك ألّفت عدداً من الكتب»، قلت له.

«لا، كتابان فقط»، قال. (كتابان دراسيان)» وأضاف قائلاً: «أنا أعلّم الأدب، لا أصنعه».

أنزلني قرب الحدود عند محطة بنزين يمتلكها صديق له. كان متجهاً إلى إحدى القرى في مكان قريب.

«سيساعدك صديقي في الحصول على توصيلة في صباح الغد. تعرّف عليه فهو شاب مثير للاهتمام».

وصلنا إلى هذه النقطة قبل نصف ساعة فقط من موعد الإغلاق. وسرعان ما تبين لي أن صديقه شاعر. تناولت العشاء معه في فندق صغير جميل ثم رافقني إلى نزل لقضاء الليلة.

وفي ظهيرة اليوم التالي وصلت إلى مونتريال. كان عليّ أن أنتظر بضع ساعات حتى يتوقف القطار. كان الطقس شديد البرودة. مثل روسيا تقريباً، ومدينة تكاد تكون كئيبة، بشكل عام. بحثت عن فندق، تدفأت في بهو الاستقبال، ثم بدأت طريق العودة إلى المحطة.

«هل أعجبتك؟» قالت مونا، فيما انطلقنا في سيارة أجرة.

«ليس كثيراً. إنه البرد؛ يتغلغل إلى النخاع».

«إذاً لنذهب إلى كيبيك غداً».

تناولنا العشاء في مطعمٍ إنكليزي. شيء رهيب. كان الطعام أشبه بجيفة متعفّنه دافئة قليلاً.

«سيكون الحال أفضل في كيبيك»، قالت مونا. «سنمكث في فندق فرنسي».

في كيبيك كان الثلج مكدساً إلى ارتفاعات عالية ومجمداً. وكان السير في الشوارع أشبه بالسير بين جبال ثلجية. وبدا أننا نصادف في كل مكان نذهب إليه مجموعات من الراهبات أو الكهنة. مخلوقات جنائزية المظهر يسري الثلج في عروقها. لم تعجبني كيبيك كثيراً أيضاً. كان من الأفضل لنا أن نذهب إلى القطب الشمالي. يا له من جوّ يمكنك أن ترتاح فيه!

إلا أن الفندق كان مريحاً وبهيجاً. ويا لها من وجبات طعام! هل تقدم مثل هذه الوجبات في باريس؟ سألتها. أعني الطعام. قالت إنها أفضل من باريس. ما لم يأكل المرء في مطاعم ممتازة.

أتذكر جيداً وجبة الطعام الأولى تلك. كم كان الحساء لذيذاً! كم كان لحم العجل ممتازاً! والأجبان! لكن النبيذ أفضلها جميعها.

أتذكّر كيف كان النادل يقدم لي قائمة النبيذ منحنياً. مسحتها بعينيّ، محتاراً تماماً من الاختيار المعروض عليّ.

عندما حان وقت الطلب كنت عاجزاً عن الكلام. رفعت عينيّ ونظرت إليه وقلت: «اختر لنا واحداً. فأنا لا أعرف شيئاً عن النبيذ».

أخذ قائمة النبيذ ودرسها، وراح ينظر إليّ الآن، ثم إلى مونا، ثم عاد ينظر إلى القائمة. بدا أنه يركّز جلّ اهتمامه. كرجل يدرس مخطط السباق.

قال: «أقترح أن تأخذا ميدوك. إنه خفيف، وجاف من بوردو، سيعجب ذوقكما. إذا أحببته، سنجرب غداً نوعاً آخر». وانطلق مسرعاً كملاك.

عند الغداء اقترح نوعاً آخر من النبيذ ـ أنجو. نبيذ سماوي قلت لنفسي. وتلاه في الغداء التالي فوفراي. وعلى العشاء، ما لم نتناول مأكولات بحرية، كنا نشرب نبيذاً أحمر ـ بومارد، نوي، سان جورجي، كلوس ـ فوجوت، ماكون، مولان أ فان، فليوري، وهكذا. وبين الحين والآخر، كنا نحتسي شراب بوردو مخملي بطعم

الفواكه. إنها ثقافة بحد ذاتها. (عقلياً كنت أنفحه بقشيشاً كبيراً) وأحياناً كان يأخذ رشفة بنفسه، ليتأكد من جودته. ومع النبيذ بالطبع، يقدم أكثر الاقتراحات روعة لما سنتناوله. جربنا كلّ شيء. كان كلّ شيء لذيذاً.

وبعد العشاء، كنا نجلس عادة في الشرفة (في الداخل)، ونلعب الشطرنج ونحن نحتسي شراباً أو براندي رائعاً. أحياناً ينضم إلينا حمّال الأمتعة، ثم نسترخي ونستمع إليه وهو يتحدّث عن فرنسا. وأحياناً كنا نستأجر عربة يجرها حصان، ونسير في الظلام، ملفحين في الفراء والبطانيات. بل وحتى حضرنا قدّاساً ذات ليلة لإرضاء حمّال الأمتعة.

بشكل عام، كانت أكثر عطله أقضيها هدوءاً. وكنت مندهشاً بسلوك مونا الرائع.

«سأفقد عقلي إذا كان عليّ أن أمضي بقيّة أيامي هنا»، قلت ذات يوم.

«هذه لا تشبه فرنسا»، أجابت. «ماعدا الطهي».

«وهي ليست أمريكا أيضاً»، قلت. «إنها أرض محايدة. يجب أن يحتلها الأسكيمو».

قرب النهاية ـ بقينا هناك عشرة أيام ـ بدأت أحنّ للعودة إلى الرواية.

«هل ستنهيها بسرعة الآن يا فال؟» سألتني.

«كالبرق» أجبت.

«جيد! عندها نستطيع أن نغادر إلى أوروبا».

«كلما كان أسرع، كان أفضل»، قلت.

عندما عدنا إلى بروكلن كانت الأشجار قد دخلت طور الإزهار. كان الطقس أدفأ من الطقس في كيبيك بعشرين درجة.

حيّتنا السيدة سكولسكي بحرارة. «اشتقت إليكما»، قالت.

تبعتنا إلى غرفتنا. قالت «أه، نسيت. صديقك ـ اسمه ماكجريجور ـ أليس كذلك؟ جاء إلى هنا ذات مساء مع صديقة له. بدا أنه لم يصدقني في بادئ الأمر، عندما قلت له إنك ذهبت إلى كندا. «مستحيل!» صاح. ثم سأل إن كان بوسعه أن يزور غرفة مكتبك. لم أكد أعرف ما أقوله له. تصرّف كما لو كان من المهم جداً أن يرى غرفتك لصديقته. قال: «يمكنك أن تثقي بنا فأنا أعرف هنري منذ كان صبياً». أذعنت له، لكنني بقيت معهما طوال الوقت. أراها صور اللوحات على الحائط وكتبك. تصرّف وكأنه يحاول إثارة إعجابها. جلس على كرسيك وقال لها: «هنا يؤلّف كتبه، أليس كذلك يا سيدة سكولسكي؟» ولم يتوقف عن الحديث عنك، بأنك كاتب عظيم، وصديق مخلص، وما إلى ذلك. لم أكن أعرف ماذا أفعل. وأخيراً دعوتهما إلى الطابق السفلي ليحتسيا قليلاً من الشاي معي. بقيا لمدة ساعتين تقريباً، على ما أظن. كان مثيراً للاهتمام أيضاً...».

«عم تحدّث؟» سألتها.

«عن أشياء كثيرة»، قالت. «لكن معظم حديثه عن الحبّ. بدا مفتوناً بالشابّة».

«هل قالت الكثير؟».

«لا، لم تكد تنبس بكلمة. كانت غريبة بعض الشيء، قلت لنفسي. لا تصلح لرجل مثله».

«هل كانت جميلة؟».

«حسب»، قالت السيدة سكولسكي. «لكي أكون صادقة، أظن أنها عادية جداً، وتكاد تكون ساذجة. لا توجد فيها حياة. ما يحيّرني ماذا يمكن أن يرى في فتاة كتلك؟ هل هو أعمى؟».

«إنه أحمق» قالت مونا.

«يبدو أنه في غاية الذكاء»، قالت السيدة سكولسكي.

«أرجوك يا سيدة سكولسكي»، قالت مونا، «عندما يتصل أو حتى إذا جاء إلى الباب، هل تتفضلين وتقولين له إننا خارج البيت؟ قولي له أيّ شيء، فقط لا تدعيه يدخل. إنه حشرة. شخص عديم القيمة».

نظرت إليّ السيدة سكولسكي مستفسرة.

«نعم»، قلت، «إنها محقة. بل في الحقيقة هو أسوأ من ذلك. إنه واحد من أولئك الذين لا يخدمهم ذكاؤهم في شيء. إنه ذكي بما يكفيه لأن يكون محامياً، لكنه أبله في كلّ شيء آخر».

بدت السيدة سكولسكي مشوّشة. فلم تعتد على سماع الناس يتحدثون عن «أصدقائهم» بهذه الطريقة.

«لكنه تحدّث عنك بحرارة»، قالت.

«لا فرق»، أجبت. «إنه رجل بليد، غليظ... سميك الجلد، هذه هي الكلمة المناسبة».

«حسناً... إذا كان هذا رأيك، يا سيد ميلر». وتراجعت.

«لم يعد لي أصدقاء»، قلت. «لقد قتلتهم جميعهم».

شهقت باستغراب.

«إنه لا يعني ذلك تماماً»، قالت مونا.

«أنا متأكّدة أنه لا يستطيع»، قالت السيدة سكولسكي. «يبدو الأمر رهيباً!».

«إنها الحقيقة، سواء أردنا أم لم نرد. فأنا شخص غير اجتماعي تماماً، يا سيدة سكولسكي».

«لا أصدقك»، أجابت. «ولا سيد إسين».

«سيكتشف ذلك ذات يوم. لا يعني ذلك أني لا أحبه، تفهمين قصدي؟».

«لا، لا أفهم»، قالت السيدة سكولسكي.

«ولا أنا»، قلت وبدأت أضحك.

«يوجد شيء من الشيطان فيك»، قالت السيدة سكولسكي. «أليس كذلك، يا سيدة ميلر؟».

«ربما»، قالت مونا. «ليس من السهل فهمه دائماً».

«أظن أني أفهمه»، قالت السيدة سكولسكي. «أظن أنه يخجل من نفسه لأنه شخص في غاية الطيبة، في غاية الصدق، في غاية الإخلاص، وشديد الولاء لأصدقائه». واستدارت نحوي. «حقاً يا سيد ميلر، أنت أكثر إنسان ودود عرفته في حياتي. لا يهمني ما تقوله عن نفسك ـ سأفكّر كما يحلو لي... عندما تنتهيان من إفراغ حقائبكما تعالا وتعشيا معي، كلاكما؟».

عندما ذهبت قلت: «أترين كيف أنه من الصعوبة جعل الناس يقبلون الحقيقة».

«أنت تحبّ أن تصدم الناس يا فال. توجد دائماً حقيقة في ما تقوله، لكنك تجعلها غير مستساغة».

«حسناً، لا أظن أنها ستترك ماكجريجور يضايقنا بعد الآن، هذا شيء جيد».

«سيلحق بك إلى قبرك»، قالت مونا.

«ألن يكون من الغريب أن نصادفه في باريس؟».

«لا تقل هذا، يا فال! فمجرد الفكرة تكفي لأن تفسد رحلتنا».

«إذا اصطحبها ذلك الرجل إلى باريس فسيغتصبها. أما الآن فهو لا يستطيع حتى أن يضع يده على مؤخرتها...».

«لننسهما، يا فال؟ إن مجرد التفكير فيهما يرعبني».

لكنه كان من المستحيل نسيانهما. وأمضينا فترة العشاء ونحن نتحدّث عنهما. وفي تلك الليلة حلمت بهما، بأننا التقينا بهما في

باريس. ففي الحلم رأيت غويلدا تبدو وتتصرّف كعاهرة، تتحدث الفرنسية مثل أهلها، وكانت تجعل حياة ماكجريجور سيّئة لا تحتمل بأساليبها الفاسقة. «أريد زوجة»، قال نادباً حظه، «لا عاهرة! أرجوك أصلح من حالها يا هنري؟» راح يتوسل إليّ. أخذتها إلى قس، ليستمع إلى اعترافها ويحلّها من الخطايا، لكن تبين أننا وجدنا أنفسنا في ماخور، وغويلدا الفتاة الأولى، وكان الطلب شديداً عليها، ولم نسمع منها ولا كلمة. وأخيراً أخذت القس معها إلى الطابق العلوي، عندها ألقت بها سيدة الماخور إلى الخارج، عارية تماماً، تحمل منشفة في يد ولوح صابون في اليد الأخرى.

بعد بضعة أسابيع فقط وتنتهي الرواية. كان بوب يفكّر بأحد الناشرين، صديق له يعرفه من أوروبا. وكان مصمماً على إيجاد ناشر شرعي له، وإلا سينشرها بنفسه، حسب قول مونا. كان التافه يشعر بالارتياح هذه الأيام؛ فهو يجمع مالاً بسرعة في سوق البورصة. بل كان يهدّد بالذهاب إلى أوروبا مع مونا. («لا تقلق يافال، سأصرفه عني عندما يحين الوقت». «نعم، ولكن ماذا عن ذلك المال الذي كنت ستودعينه في المصرف؟». «سأتدبر ذلك أيضاً، لاتقلق!»).

لم تكن تنتابها شكوك أو مخاوف في ما يتعلق ببوب. ولم يكن ثمة فائدة من محاولة توجيهها، أو تقديم اقتراحات لها: فقد كانت تعرف أكثر مما أعرف ما يمكنها أن تفعله، وما لا تستطيع أن تفعله. كلّ ما كنت أعرفه عن الرجل هو ما أخبرتني به. وكنت أتصوّره دائماً يرتدي ثياباً أنيقة، شديد التأدب، ويحمل محفظة منتفخة بالأوراق المالية. (مينيليك الكريم) ولم أشعر بالأسف عليه، أيضاً. فمن الواضح أنه يمتّع نفسه. والشيء الذي كنت أتساءل عنه أحياناً هو ـ كيف كان بإمكانها أن تبقي عنوانها سراً؟ فالعيش مع أمّ مقعدة شيء، والتكتم على مكان هذا المنزل شيء آخر. ربما بوب يشك في الحقيقة ـ بأنها كانت تعيش مع رجل. ما الفرق بالنسبة له إن كانت أماً مقعدة، أو عاشقاً، أو زوجاً، ما دامت تلتزم بمواعيدها؟ ربما

كان لبقاً بما يكفي لمساعدتها في الحفاظ على ماء وجهها؟ لم يكن أحمق، كان ذلك من حكم المؤكد... لكن لماذا يشجّعها على الذهاب إلى أوروبا، ويبقيان شهوراً أو أكثر؟ هنا بالطبع، كان عليّ أن أجري بعض التغييرات. عندما قالت إن «بوب يريد أن يراني ذاهبة إلى أوروبا لفترة من الزمن»، كان عليّ أن أقلّب الموضوع، وأستطيع أن أسمعها تقول لبوب: «لديّ رغبة كبيرة في زيارة أوروبا مرة أخرى، حتى لو لفترة قصيرة فقط!». أما بالنسبة لنشر الرواية، فربما لم يكن لدى بوب أي نية في عمل أيّ شيء، إما من خلال صديقه، الناشر (إذا كان هناك ناشر) أو عن طريقه هو. ربما اتفق معها هناك لإرضاء العشيق أو الزوج أو الأم المقعدة المسكينة. ربما كان ممثلاً أكثر منا نحن الاثنين.

ربما ـ كانت فكرة عشوائية ـ ربما لم تُقل كلمة واحدة بينهما عن أوروبا. ربما كانت مصمّمة على الذهاب إلى هناك مرة أخرى، مهما كان.

وفجأة برزت أمامي صورة ستاسيا. من الغرابة أننا لم نتلق منها ولا كلمة واحدة! بالتأكيد هي لا تستطيع أن تظل تائهة في شمال أفريقيا. هل كانت في باريس تنتظر؟ لم لا؟ من البساطة بمكان أن يكون لديك صندوق في مكتب البريد، وصندوق آخر في مكان آخر، لإخفاء الرسائل التي ربما تكون ستاسيا قد أرسلتها. والأسوأ من الالتقاء بماكجريجور وغويلدا في باريس هو الالتقاء بستاسيا. كم كنت غبياً ألا يخطر ببالي أبداً أن أفكّر بالرسائل السرية! لا عجب أن كلّ شيء يسير بسلاسة.

كانت هناك إمكانية أخرى واحدة فقط: ربما تكون ستاسيا قد انتحرت. لكن سيكون من الصعب كتمان هذا الأمر. فمخلوق غريب الأطوار مثل ستاسيا لا يمكن أن ينتحر دون أن ينتشر الخبر. مالم، وهذا أمر بعيد المنال، يكونا قد توغلا في الصحراء، وتاها ولم يتبق منهما الآن سوى كومة من العظام.

لا، إنها حيّة ترزق، وأنا متأكد من ذلك. وإذا كانت حيّة ترزق،

فها هنا زاوية أخرى. لعلها عثرت على شخص آخر في هذه الأثناء. رجل، هذه المرة. ربما كانت ربّة بيت جيدة. فمثل هذه الأمور تحدث بين الحين والآخر.

لا، لقد استبعدت ذلك أيضاً. فهذا غير خليق بستاسيا.

«اللعنة على الجميع»، قلت لنفسي. «لماذا أشعر بالقلق لهذه الأشياء؟ إلى أوروبا، هذا هو الشيء الهام!». وما أن قلت ذلك حتى فكّرت بأشجار الكستناء (التي لا شكّ أنها أزهرت جميعها الآن) وبتلك المناضد الصغيرة في مقاهي الأرصفة المزدحمة، وبالشرطة على الدراجات العادية الذين يسيرون اثنين اثنين. وفكّرت بالفيسباسين أيضاً. كم هو ممتع أن أتبول في الخارج، على الرصيف، وأنت تنظر إلى جميع السيدات الجميلات اللاتي يمشين أمامك... يجب أن أدرس اللغة الفرنسية... (أين هي المغاسل من فضلك؟) إذا كنا سنحصل على كلّ ما قالته مونا، فلم لا نذهب إلى... فيينا، بودابست، براغ، كوبنهاكن، روما، استوكهولم، أمستردام، صوفيا، بوخارست؟ لم لا الجزائر، تونس، المغرب؟ أفكّر بصديقي الهولندي القديم الذي خرج من بدلة الساعي ذات مساء ليسافر إلى الخارج مع رئيسه الأمريكي... الذي كتب لي من صوفيا، ومن غرفة انتظار ملكة رومانيا، في مكان ما في أعالي سلسلة جبال كارباثيان.

أتساءل ماذا حلّ بأومارا؟ كان هناك شخص واحد أحبّ أن أراه مرة أخرى. صديق، ماذا! يا لمتعة مرافقته إلى أوروبا، إذا رغبت مونا. (طبعاً هذا أمر مستحيل).

كان عقلي يدور، ويدور دائماً، دائماً عندما أكون متوتراً ومتحمساً، وعندما عرفت أنه أصبح بوسعي أن أفعلها، يمكنني أن أقولها، يبدأ عقلي يطوف في جميع الاتجاهات في الحال. وبدلاً من الجلوس إلى الآلة الكاتبة لأترك الأفكار تتدفق، كنت أجلس إلى الطاولة وأفكّر بمشاريع، أحلم بأحلام، أو أفكّر فقط بأولئك الذين

أحبهم، الأوقات الطيبة التي أمضيناها معاً، الأشياء التي قلناها وفعلناها. (هاها! هوهو!) أو أجري شيئاً من البحث الذي يكتسي فجأة أهمية بالغة، والذي يجب معالجته على الفور. أو أبتدع مناورة شطرنج رائعة، ولكي أتأكد من أني لن أنسى، أرتّب القطع، أخلطها، أهيئ الفخّ الذي خطّطت له استعداداً لمواجهة أول قادم. ثم أصبح مستعداً أخيراً للعبث بالمفاتيح، أتذكر فجأة أنه في الصفحة كذا وكذا، ارتكبت خطأ فاحشاً، وأقلب إلى الصفحة وأكتشف أن جملاً كاملة خارج السياق، ليس لها أي معنى، أو أني كتبت عكس ماكنت أعنيه تماماً. وعندما أصححها، تضطرني الحاجة إلى الإستفاضة والتوسع وكتابة صفحات، ثم أدرك لاحقاً أنه من المستحسن أن أحذفها.

أيّ شيء يجعلني أتفادي الحدث؟ أم كان عليّ، لكي أكتب بسلاسة وبثبات، أن أنفّس عما أضمره من غضب أولاً، أخفّف من غلوائه، أبرّد المحرك؟ وكان يبدو أن الأمر يصبح دائماً أفضل، الكتابة، عندما أصل إلى مستوى أدنى، أن أبقى على السطح، حيث توجد الرغوة والزبد، كان شيئاً لا يمكن أن يفعله إلا الملاح القديم.

حتى أني انغمست في إجراء محادثة خيالية مع شخص باريسي يفهم الإنكليزية جيداً كي يفهمني. أحد أولئك الفرنسيين المبهجين (لا تصادفه إلا في الكتب) الذين يهتمّون دائماً بملاحظات أجنبي، مع أنها قد تبدو تافهة. كنا قد اكتشفنا اهتماماً متبادلاً بأناتول فرانس. (كم كانت هذه الاتصالات بسيطة في عالم أحلام اليقظة!) وقد أمسكت، أنا الأبله المغرور، بالافتتاحية لذكر رجل إنكليزي فضولي كان يحبّ كذلك فرنسا ـ البلد أيضاً، لا المؤلف. مسحوراً بإشارتي إلى أحد المترددين على الجادات الباريسية المشهورة في ذلك العصر البهيج، نهاية القرن، وأصرّ رفيقي على مرافقتي إلى شارع بيغال، للإشارة إلى موعد بالأضواء الأدبية لذلك العصر ـ الجرذ الخائن. «لكن ياسيدي»، أقول، «إنك لطيف للغاية». «لكن لا يا سيدي، إنه لشرف كبير» وهكذا. هذا التملّق، هذا الاستلقاء تحت سماء خضراء

معدنية، والأرض مكسوة بالأوراق الخريفية، ممصات لامعة على كلّ طاولة، ولا يوجد حصان واحد بذيل مبتور. باختصار، باريس المثالية، الفرنسي المثالي، اليوم المثالي لإجراء محادثة بعد عشاء متنقل.

«أوروبا»، قلت لنفسي، «عزيزتي، حبيبتي أوروبا، لا تخدعيني! ومع أنك لست كلّ ما أتخيله الآن، أشتاق إليه، وأحتاج إليه كثيراً، امنحيني على الأقل وهم التمتّع بهذه القناعة العادلة التي يستدعيها ذكر اسمك. فليحتقرني مواطنوك، فليكرهونني، إذا أرادوا، لكن اجعليني أسمعهم يتحدّثون كما أتخيّلهم أبداً. دعيني أشرب من هذه العقول المتجوّلة الحادة التي تتسلّى فقط في المفكرين العالميين المدربين (من المهد) لخلط الشعر بالحقيقة والعمل، الأرواح التي تتوقد لدى ذكر فرق دقيق، وتحلق وتحلق، تحيط بأكثر التحليقات سمواً، ومع ذلك فهي تلمس كلّ شيء بذكاء، بحقد، بسعة أفق، بالملح والتوابل الدنيوية. لا تريني يا أوروبا المخلصة، أتوسل إليك، السطح الملمّع لقارة مكرّسة للتقدم. أريد أن أرى محيّاك الذي براه الزمن، بتغضناته التي أحدثها القتال لمدة طويلة في ساحة الفكر. أريد أن أرى بأم عينيّ النسور التي درّبتها على تناول الطعام من يدك. آتي كحاجّ، حاجّ مؤمن، لا يؤمن فقط بل يعرف أن الوجه الخفي للقمر عظيم، ومجيد بشكل يفوق التصور. فلم أر إلا وجه العالم الطيفي ذي النقرات والحفر الذي يدور في دوامة حولنا. أنا أعرف جيداً هذا النوع من البراكين الخامدة؛ السلاسل الجبلية القاحلة، الصحارى الخالية من الهواء التي تتوزع شقوقها الضخمة مثل عروق دوال فوق فراغ قاس فاجع. اقبلوني، أيها القدماء، اقبلوني كتائب، لا كشخص ضائع تماماً بل كآثم بعمق، أخذ يبتعد ويضل منذ ولادته عن رؤية أخوته وأخواته، مرشديه، معلميه، الذين يواسونه».

هناك يقف أولريك، في نهاية صلاتي، تماماً كما كان يبدو في ذلك اليوم الذي التقيت به على ناصية الجادة السادسة والشارع

الثاني والخمسين: الرجل الذي زار أوروبا، وأفريقيا أيضاً، والذي ما تزال تتألق في عينيه إمارات الإعجاب والافتتان بها. كان يمدني بالدم، يصبّ إيمانه وشجاعته في عروقي. «اليوم أنا، وغداً أنت» كانت هناك، أوروبا، تنتظرني. ستكون دائماً ذاتها، فلتأت الحرب، الثورة، المجاعة، الصقيع أو أي شيء. دائماً أوروبا للروح التي جاعت. تنصت إلى كلماته، تمتصّها في تيارات هوائية كبيرة، أسأل نفسي إن كانت سهلة المنال لشخص مثلي، «يجر قدميه دائماً إلى الخلف كذيل بقرة»، منتشياً، يتلمس طريقه كرجل أعمى يسير بدون عكازه، قوة كلماته المغناطيسية (الألب، أبينينيس، رافينا، فيسول، سهول هنغاريا، القديس لويس، تشارتر، لا تورين، لو بيريغورد...) سبّبت ألماً يستقر في جوف معدتي، ألم يخرج ببطء كنوع من الحنين إلى الوطن، شوق «للمملكة على الجانب الآخر من الزمن والمظاهر». («آه، هاري، يجب علينا أن نتعثّر كثيراً في الأوحال والخداع قبل أن نصل إلى البيت).

نعم يا أولريك، لقد زرعت البذرة فيّ في ذلك اليوم. عدت سيراً إلى مرسمك لترسم مزيداً من الموز والأناناس لجريدة ساترداي إيفنينغ بوست، وتركتني أهيم برؤيتها. كانت أوروبا في قبضتي. ماذا يهمّ سنتان، أو خمس سنوات، أو عشر سنوات؟ كنت أنت من أعطاني جواز سفري. أنت من جعل الدليل النائم يستيقظ: الحنين إلى الوطن.

اليوم أنا، وغداً أنت.

وفيما كنت أتمشى في عصر ذلك اليوم، أنتقل من شارع إلى آخر، كنت أودع المشاهد المألوفة من الرعب والملل، من الرتابة السقيمة، من العقم الصحي والحبّ الخالي من الحبّ. أمرّ في الجادة الخامسة، أشق طريقي بين المتسوقين والمتسكعين مثل سمك الأنقليس، احتقاري واشمئزازي من جميع من التقت عيناي بهم كاد يخنقني. أرجوك يا إلهي، لن أتحمل طويلاً هذه الفوانيس المطفأة،

بنايات العالم الجديد هذه الآيلة للسقوط، هذه الكنائس الحزينة القبيحة، هذه الحدائق التي يتناثر فيها الحمام والمشردون. من شارع دكان الخيّاط إلى بويري (الطريق الذي كنت أمشي فيه قديماً) عشت ثانية الأيام التي كنت فيها صبي خياط، وكانت أشبه بألف سنة من البؤس، من الحظ العاثر، من سوء الحظ. ألف سنة من العزلة. مقترباً من كوبر يونيون، العلامة على بدء تدني معنوياتي، عادت فقرات تلك الكتب التي كتبتها ذات مرّة في رأسي، مثل الحافات المثنية لحلم يرفض أن يصبح مستوياً. ستخفق دائماً هناك، تلك الحافات المثنية... تخفق من أفاريز الأكواخ السمراء القذرة، تلك الصالونات المشققة الوجه، الملاجئ الكريهة. يا إلهي كم تبدو بائسة، مُهدرة، وذابلة ومجوّفة! ومع ذلك، ففي هذا العالم حاضر جون كاوبير بويس، بعث أخباره من عالم الروح الأبدي المليء برائحة السخام الكريهة ـ روح أوروبا، أوروباه، أوروبانا، أوروبا سوفوكليس، أرسطو، أفلاطون، سبينوزا، بيكو ديلا ميراندولا، إراسموس، دانتي، غوته، إبسن. وفي هذه المنطقة نفسها ظهر متحمسون ناريون آخرون وخاطبوا الغوغاء، تستشهد بأسماء عظيمة أخرى: هيغل، ماركس، لينين، باكونين، كروبوتكين، إنجلز، شيلي، بليك. بدت الشوارع تماماً كما كانت أبداً، بل أسوأ في الواقع، تنفّس قدراً أقل من الأمل، من العدالة، من الجمال، من الانسجام. وأضحت الفرصة ضعيفة الآن لظهور ثورو، أو ويتمان، أو جون براون أو روبرت إي. لي. رجل يحظى بشعبية بدأ يستعيد وعيه: مخلوق غريب المظهر حزين تحركه لوحة مفاتيح مركزية، قادرة على القول إما نعم أو لا، لا أدرك الحقّ ولا الخطأ، لكني منسجم دائماً، تنشد دائماً اللحن الجنائزي.

«إلى اللقاء، إلى اللقاء!» واصلت القول، وأنا أسير.

«الوداع لكلّ هذا!» ولا توجد روح واحدة تستجيب. ولا حتى حمامة. «هل أصبتم بالصمم، أيها المجانين النائمون؟».

أسير في وسط الحضارة، وهكذا هي. ففي جانب، تجري الثقافة كجدول، وفي جانب آخر، تكون مثل مسلخ يُعلق كلّ شيء على خطّافات، تقطر دماً، وتعجّ بالذباب والديدان. جادة الحياة في القرن العشرين. قوس نصر تلو الآخر. رجال آليون يتقدّمون يحملون الكتاب المقدس بيد وباليد الأخرى بندقية. الأرانب القطبية تندفع باتجاه البحر. إلى الأمام سر، أيها الجنود المسيحيون، إلى الحرب... فليحيا الأخوة كارامازوف! يا لها من حكمة سعيدة! ابذل جهداً آخر إذا أردت أن تكون جمهورياً!

وفي منتصف الطريق. أخطو بحذر وسط أكوام روث الحصان. يا للأوساخ والخداع التي يجب أن نخوض فيها! آه، هاري، هاري! هاري هالير، هاري هيلير، هاري سميث وهاري ميلر وهاري هاريد. أنا قادم يا أسموديوس، أنا قادم! وعلى عكازين، مثل شيطان مشلول. لكني مثقل بالأوسمة. مثل هذه الأوسمة! الصليب الحديدي، صليب فيكتوريا، صليب الحرب... بالذهب، بالفضة، بالبرونز، بالحديد، بالزنك، بالخشب، بالقصدير... اختر ما تشاء!

وعلى المسيح المسكين أن يحمل صليبه!

يصبح الهواء لاذعاً أكثر. تشاثام سكوير. الحيّ الصيني القديم الجيد. وتحت الرصيف خلية من الأكشاك. عرائن تعاطي الأفيون. أرض اللوتس. الجنة. فلترقد بسلام، عمّال العالم يعملون. إننا جميعنا نعمل ـ لندخل إلى الخلود.

الآن يتأرجح جسر بروكلن مثل قيثارة بين ناطحات السحاب وبروكلن هايتس. ومرة أخرى يشق المارة المرهقون طريقهم متجهين إلى بيوتهم، الجيوب فارغة، المعدة فارغة، القلب فارغ. غورغونزولا يعرج على عكازين محروقين. النهر في الأسفل، النوارس في الأعلى. وفوق النوارس، توجد النجوم غير المرئية. ياله من يوم مجيد! نزهة على القدمين كالتي تمتّع بها بوماندر نفسه. أو أناكساغوراس. أو حكم الطعم المفسد: بيترونيوس.

شتاء الحياة، كما ينبغي أن يقول أحدهم، يبدأ عند الولادة. إن

أقسى السنوات هي السنة الأولى إلى التسعين. وبعدها، يصبح الإبحار سلساً.

يطير طائر سنونو باتجاه البيت. كلّ واحد يحمل في فاتورته فتاتاً، غصيناً ميتاً، شرارة أمل. من الكثير، واحد.

المكان المخصص للأوركسترا يرتفع، الأربعة والستون عازفاً باللون الأبيض النقي. وفي الأعلى تبدأ النجوم تظهر عبر السقف المقبّب الأزرق. أعظم عرض على وجه البسيطة على وشك البداية، كاملاً بفقمات مدرّبة، ولاعبي البهلوانات والذين يتحدثون من البطن. رئيس التشريفات هو العمّ سام نفسه، ذلك الفكاهي الطويل، النحيف، المخطّط كحمار الوحش، الذي يمتطي العالم بساقيّ بارونه مونتشوسين، ولتهبّ الريح، والبرد، والثلج، والصقيع أو يجفّ حتى العفن، مستعد لبكاء كوكادودلدو.

19

فيما كنت خارجاً ذات صباح مشرق ورائع لأبدأ جولتي في التريض، وجدت ماكجريجور ينتظرني عند العتبة.

«مرحباً!» قال، وابتسم ابتسامته العريضة المتوترة. «هذا أنت إذاً، بلحمه ودمه؟ أوقعتك في الفخ أخيراً، إيه؟» مدّ يده. «هنري، لماذا يتعين عليّ أن أكمن لك هكذا؟ ألا يمكنك أن تمنح صديقك القديم خمس دقائق بين الحين والآخر؟ مم تهرب؟ كيف حالك على أية حال؟ كيف حال الكتاب؟ هل تمانع إن مشيت معك؟».

«أظن أن صاحبة البيت قالت لك إني لست في البيت؟».

«كيف عرفت؟».

بدأت أسير. راح يخطو إلى جانبي، كما لو كنا نسير في استعراض عسكري.

«هنري، أنت لن تتغيّر، على ما أظن.» (بدا مثل أمّي على نحو مخيف) «في قديم الزمان كان بإمكاني أن أتصل بك في أيّ ساعة من النهار أو الليل، وكنت تأتي. الآن أصبحت كاتباً... رجلاً مهماً... لم يعد عندك وقت للأصدقاء القدامى».

«هيا»، أجبت، «كفاك. إنك تعرف أن الأمر ليس صحيحاً».

«ما هو إذن؟».

«هذا... كفاني مضيعة للوقت. مشاكلك هذه لا أستطيع أن

أحلّها. لا أحد يمكنه أن يحلّها، سواك. فلست أول رجل تهجره امرأة».

«وماذا عنك؟ هل نسيت كيف كنت تبقيني طوال الليل أستمع إليك عن أونا غيفورد؟».

«كنا في الحادية والعشرين من عمرنا».

«الحبّ لا يعرف العمر. لا، في هذا العمر يكون الوضع أسوأ. لاأستطيع أن أتحمّل فقدانها».

«ماذا تعني لا تستطيع أن تتحمّل؟».

«الأمر شديد القساوة على الذات. فالمرء لا يقع في الحبّ كثيراً الآن أو بالسهولة نفسها. لا أريد أن أفقد الحبّ، ستكون كارثة. لا أقول إنها يجب أن تتزوجني، لكني يجب أن أعرف أنها هناك... يمكنني أن أصل إليها. يمكنني أن أحبّها من بعيد، إذا دعا الأمر ذلك».

ابتسمت وقلت: «من المضحك أنك تقول شيئاً كهذا. كنت أعالج هذا الموضوع بالذات منذ أيام في الرواية. هل تعرف إلى ماذا خلصت؟».

«من الأفضل أن يصبح المرء عازباً، على ما أظن».

«لا، لقد خلصت إلى النتيجة ذاتها التي يتوصل إليها أي حمار... بأن لا شيء يهمّ إلا الحفاظ على الحبّ. حتى لو تزوجت شخصاً آخر، يمكنك أن تستمر في حبها. ماذا تفهم من هذا؟».

«القول أسهل من العمل يا هنري».

«بالضبط. هذه فرصتك. معظم الرجال يستسلمون. لنفترض أنها قرّرت أن تعيش في هونغ كونغ؟ ما علاقة المسافة بها؟».

«أنت تناقش اللاهوت يا رجل. فأنا لم أقع في غرام مريم

العذراء. لماذا يجب عليّ أن أقف لا أفعل شيئاً وأشاهدها وهي تبتعد عني؟ إنك لا تبدو منطقياً».

«هذا ما أحاول أن أقنعك به. لهذا السبب فإن عرض مشكلتك عليّ أمر عديم الفائدة، ألا ترى ذلك؟ إننا لم نعد نتّفق في الرّأي. إننا صديقان قديمان ولم يعد ثمة شيء مشترك يجمعنا».

«هل تظن ذلك حقاً يا هنري؟» كانت نبرته حزينة لا تأنيبية.

«اسمع»، قلت، «عندما كنّا قريبين مثل حبات البازلاء في قرن البازلاء، أنت، جورج مارشال وأنا، كنا كالأخوة. كان ذلك منذ زمن بعيد جداً. لقد حدثت أشياء. في مكان ما انقطعت الصلة. فقد استقر جورج، مثل محتال تم إصلاحه. لقد فازت زوجته...».

«وأنا؟».

«لقد دفنت نفسك بعملك في القانون الذي تحتقره. وذات يوم ستصبح قاضياً، تذكّر كلماتي. لكن ذلك لن يغيّر أسلوب حياتك. لقد مت. لم يعد شيء يثير اهتمامك ـ إلا إذا كانت لعبة بوكر. وتظن أن أسلوبي في الحياة سخيف. إنه كذلك، أعترف بذلك. لكن ليس بالطريقة التي تظنها».

فاجأتني إجابته بعض الشيء. «أنت لست بعيداً عن المسار ياهنري. لقد أسأنا التصرف، أنا وجورج. والآخرون أيضاً، في تلك المسألة». (كان يشير إلى أعضاء جمعية إكسيركسيس) «لم يصل أحدنا إلى حد اللعنة. لكن ما علاقة كلّ ذلك بالصداقة؟ هل يجب أن نصبح شخصيات مهمة في العالم لنبقى أصدقاء؟ يبدو أن ذلك نوعاً من التكبر على الأنداد. لم ندعِّ أبداً أنا وجورج بأنّنا سندمّر العالم. نحن ما نحن. ألا يكفي هذا بالنسبة لك؟».

«انظر»، أجبت، «لا يهمني إن لم تكن شيئاً إلا أن تكون شخصاً عادياً؛ إذ ما تزال تستطيع أن تكون صديقي وأكون أنا صديقك. يمكنك أن تسخر من كلّ شيء أؤمن به، إن كنت تؤمن بشيء أنت

نفسك. لكنك لا تؤمن بشيء. أنت تؤمن بلا شيء. بالنسبة لطريقة تفكيري يجب على المرء أن يؤمن بما يفعله، وإلا فإن كلّ شيء سيكون مهزلة. سأكون كليّ لك إذا أردت أن تكون شخصاً بكلّ قلبك وروحك. لكن أنت ماذا؟ إنك أحد تلك الأرواح التي تخلو من أي معنى والتي ملأتنا بالاحتقار عندما كنا شباباً... عندما كنا نسهر طوال الليل نناقش مفكّرين مثل نيتشه، وشو، وإبسن. مجرد أسماء بالنسبة لك الآن. لم تكن لتصبح مثل أبيك لا يا سيدي! لم يكونوا سيقيدونك، أو يروضونك. لكنهم فعلوا. أو أنك أنت فعلت. لقد قيدت نفسك. سلكت الطريق الأسهل. استسلمت حتى قبل أن تبدأ القتال».

«وأنت؟» صاح، ورفع يده عالياً كما لو أنه يريد أن يقول «اسمع، اسمع! نعم، أنت، ما الشيء العظيم الذي أنجزته؟ أصبحت على أبواب الأربعين، ولم يصدر لك أي عمل بعد. ما الشيء العظيم جداً فيك؟».

«لا شيء»، أجبت. «من المؤسف، هذا ما في الأمر».

«وهل هذا يؤهّلك لأن تلقي عليّ محاضرة. هو هو!».

كان عليّ أن أتملص من الإجابة. «أنا لا أحاضر عليك، كنت أوضّح أنه لم يعد يوجد شيء مشترك بيننا».

«إذا نظرنا إلى الأمر فكلانا فاشل. هذا هو الشيء المشترك الذي يجمعنا، إذا أردت أن تواجه الأمر بصراحة».

«أنا أقول إني فاشل. ربما لنفسي. كيف يمكن للمرء أن يكون فاشلاً إذا كان مايزال يكافح، مايزال يجاهد؟ ربما لن أحقق مرتبة عالية. ربما أنتهي بي الأمر إلى عازف ترومبون. لكن مهما فعلت، مهما عملت، فإن ذلك لأني أؤمن به. لن أعوم مع المدّ. أفضّل أن أقاتل... الفشل كما تقول. إني أكره أن أفعل كما يفعل الآخرون، أن أصبح واحداً منهم، وأقول نعم عندما تعني لا».

بدأ يقول شيئاً لكني لوّحت له بأن يصمت.

«لا أعني الكفاح بلا معنى، المقاومة بلا معنى. يجب على المرء أن يحاول حتى يصل إلى المياه النقية الرقراقة. يجب على المرء أن يكافح ليوقف الكفاح. على المرء أن يجد نفسه، هذا ما أعنيه».

«هنري»، قال، «إنك تتكلّم بشكل جيد، وقصدك جيد، لكنك تخلط الأمور جميعها. لقد قرأت كثيراً، هذه مشكلتك».

«وأنت لا تتوقّف قط عن التفكير»، قلت له، «ولن تقبل حصتك من المعاناة. تظن أنه توجد إجابة عن كلّ شيء. لا يخطر لك مطلقاً أنه ربما لم يكن هناك رد، وربما كان الرد الوحيد هو أنت نفسك، كيف تنظر إلى مشاكلك. أنت لا تريد أن تصارع المشاكل، بل تريد أن يخلصك أحد منها. الطريقة السهلة، هذا أنت. خذ فتاتك هذه... مشكلة الحياة والموت هذه... ألا يعني شيئاً لك أنها ترى شيئاً فيك؟ إنك تتجاهل ذلك، أليس كذلك؟ أريدها! ويجب أن أحصل عليها! هذا كلّ ما لديك لتجيب عنه. بالتأكيد ستغيّر طرقك، ستعمل شيئاً من نفسك... إذا كان ثمة شخص لطيف جداً معك ووقف فوقك وهو يحمل مطرقة ثقيلة، فإنك تحبّ أن تقول: هنري أنا لقيط أغضب بسهولة، لكنك لن ترفع إصبعاً وتغيّر نفسك قليلاً. تريد أن تُؤخذ كما أنت، وإذا لم يحبك أحد كما أنت، فعليه اللعنة! أليس الأمر كذلك؟».

أمال رأسه إلى جانب، مثل قاض يزن الشهادة المقدمة له، ثم قال: «ربما. ربما كنت على حق».

سرنا بضع لحظات صامتين. أشبه بطير يوجد مثقاب في حوصلته، كان يهضم الدليل. ثم قال وقد اتسعت شفتاه في ابتسامة عفريتية: «أحياناً تذكّرني بذلك اللقيط، تشالاكومب. يا إلهي، كم كان يغيظني ذلك الرجل! كان يتكلم دائماً من فوق منصته. وقد أعجبت أنت بكلّ فضلاته تلك. آمنت به... في هراء الفلسفة الصوفية تلك...».

«بالتأكيد فعلت!» أجبت بحرارة. «إذا لم يكن قد ذكر شيئاً أكثر من اسم سوامي فيفيكاناندا فإني سأشعر بأني مدين له بقية حياتي.

أنت تقول فضلات وهي نَفَس الحياة بالنسبة لي. كنت أعرف أنه لم يكن من النوع الذي يمكن أن يكون صديقاً لك. إنه يفوق ذائقتك كثيراً. لقد كان معلّماً، ولم تستطع أن تراه كمعلّم. من أين حصل على مؤهلاته وكلّ ذلك؟ إنه لم يدرس، لم يتدرب، لم يحصل على شيء. لكنه يعرف ما يتحدّث عنه. على الأقل، أظن أنا ذلك. لقد جعلك تتمرّغ في قيئك، ولم يعجبك ذلك. أردت أن تتكئ على كتفه وتتقيّأ فوقه - وعندها يصبح صديقاً. ولذلك كنت تبحث عن عيوب في شخصه، لقد وجدت نقاط ضعفه، أنزلته إلى مستواك. إنك تفعل ذلك مع كل من يصعب عليك أن تفهمه. عندما تستطيع أن تسخر من الشخص الآخر كما تفعل مع نفسك تصبح سعيداً... ثم يصبح كلّ شيء متعادلاً... انظر، حاول أن تفهم هذا. كلّ شيء خاطئ في العالم. في كل مكان هناك جهل، خرافة، تعصب، ظلم. وهذا الأمر منذ بداية العالم على الأغلب. وسيظل كذلك في المستقبل. وماذا في ذلك؟ هل هذا سبب للإحساس بالهزيمة، أن تبغض العالم؟ هل تعرف ماذا قال سوامي فيفيكاناندا ذات مرّة؟ قال: «هناك خطيئة واحدة فقط. وهي الضعف... لا تضف جنوناً على جنون. لا تضف ضعفك إلى الشرّ الذي سيأتي... كن قوياً!».

توقّفت، وانتظرته يعلق على ذلك باستهزاء. لكنه قال: «واصل كلامك يا هنري، أعطنا المزيد! يبدو كلامك جيداً».

«إنه جيد»، أجبت. «سيكون دائماً جيداً. وسيستمر الناس في عمل العكس. فالناس الذين صفّقوا لكلماته خانوه ما أن توقّف عن الكلام. هذا ينطبق على فيفيكاناندا، وسقراط، والمسيح، ونيتشه، وكارل ماركس، وكريشنا مورتي... سمّهم أنت نفسك! لكن لماذا أقول لك كلّ هذا على أية حال؟ إنك لن تتغيّر. ترفض أن تنمو. تريد أن تصل بأقلّ جهد ممكن، بأقلّ مشكلة، بأقلّ ألم. الكلّ يفعل ذلك. إنه لأمر رائع أن تسمع عن الأساطين والأساتذة، لكن أن يصبح المرء أستاذاً، فهذا خراء! اسمع، كنت أقرأ كتاباً قبل أيام... لأكون صادقاً

معك، قرأته منذ سنة أو أكثر. لا تسألني عن عنوان الكتاب، لأني لن أقوله لك. لكن هاك ما قرأته، ولم يكن بوسع أي أستاذ أن يكتبه على نحو أفضل. إن معنى المسيح الوحيد، هدفه، قصده، وسرّه، يا أعزّائي، لا يتمثل في فهم الحياة، أو وضعها في قالب، أو تغييرها، أو حتى حبّها، بل في أن تشرب جوهرها الأبديّ».

«أعدها يا هنري».

أعدتها.

«أن تشرب جوهرها الأبديّ»، غمغم. «رائعة. ألن تقول لي من كتبها؟».

«لا».

«حسناً يا هنري. تابع. ماذا لديك أيضاً؟».

«هذا... كيف أحوالك مع فتاتك غويلدا؟».

«انس الموضوع! هذا أفضل بكثير».

«أرجو أن لا تكون قد تخليت عنها؟».

«لقد تخلت هي عني. إلى الأبد، هذه المرة».

«وهل الأمر على ما يرام بالنسبة لك؟».

«لا تنصت إليّ؟ طبعاً لا! لهذا السبب كنت أكمن بانتظارك. لكن كما تقول، على كلّ واحد منا أن يسير في طريقه. ألا تظن أني أعرف ذلك؟ ربما لم يعد يجمعنا شيء مشترك. ربما لم يكن لدينا ما يجمعنا منذ البداية، هل فكّرت بذلك؟ ربما كان شيئاً أكثر من الشيء الذي أبقانا معاً. ليس بوسعي ألا أحبك يا هنري، حتى عندما تشويني على الفحم. أنت ابن عاهرة فظ الفؤاد أحياناً. إذا كان ثمة أحد سيء المزاج فهو أنت، ليس أنا. لكن لديك شيء، آه لو تتمكن من إخراجه. أعني شيئاً للعالم، لا لي. يجب ألا تكتب رواية، يا هنري. أي شخص

يمكنه أن يفعل ذلك. فلديك أشياء أكثر أهميّة. أنا جاد في ما أقول. أفضّل أن أراك تحاضر عن فيفيكاناندا أو عن المهاتما غاندي».

«أو بيكو ديلا ميراندولا».

«لم أسمع عنه مطلقاً».

«إذاً فهي لا تريد أن تقيم علاقة معك؟».

«هذا ما قالته. بالطبع يمكن للمرأة أن تغيّر رأيها دائماً».

«ستفعل ذلك، لا تقلق».

«آخر مرّة رأيتها فيها كانت ما تزال تتكلّم عن قضاء عطلة في باريس».

«لماذا لا تذهب وراءها؟».

«فكرت بكل هذا يا هنري. فما أن أعرف اسم الباخرة الذي ستستقلها حتى أذهب إلى مكتب السفن، وحتى إذا كان عليّ أن أرشو الكاتب، سأحصل على مقصورة بجانب مقصورتها. وعندما تخرج في صباح أول يوم، سأكون أمامها أحييها، (مرحبا يا حبيبتي! اليوم جميل، أليس كذلك؟)».

«وهل ستحبّ ذلك».

«لن تقفز من السفينة، هذا أمر مؤكد».

«لكنها قد تخبر القبطان بأنك تزعجها».

«اللعنة على القبطان! يمكنني أن أتدبر الأمر معه... ثلاثة أيام في البحر، وسواء أحبّت ذلك أم لا، سأحطمها».

«أتمنّى لك حظاً جيداً!» وأمسكت يده وصافحته. «هنا يجب أن أودعك».

«تناول معي قهوة! تعال!»

«لا. سأعود إلى العمل. كما قال كريشنا لآرجونا: إذا توقّفت عن العمل للحظة، فالكون كله سوف...».

«سوف ماذا؟».

«يتهاوى» أظن أنه قال.

«حسناً، يا هنري». استدار، وبدون كلمة أخرى، انطلق في الاتجاه المعاكس.

لم أكن قد مشيت بضع خطوات حتى سمعته يصيح. «هنري»

«ماذا؟».

«سأراك في باريس، إن لم يكن قبل ذلك. إلى اللقاء!».

«سأراك في جهنم»، قلت لنفسي. لكني ما أن استأنفت سيري حتى أحسست بوخزة ندم. «يجب ألا تعامل أحداً بهذه الطريقة، حتى أعزّ أصدقائك»، قلت لنفسي.

طوال الطريق إلى البيت تابعت المناجاة مع نفسي. وكانت على النحو التالي...

«ماذا لو كان شخصاً مزعجاً؟ بالتأكيد، على الجميع أن يحلّوا مشاكله، لكن - هل هذا سبب يدعوك لصد الرجل؟ إنك لست فيفيكاناندا. وهل كان فيفيكاناندا سيتصرف بهذه الطريقة؟ لا تزجر رجلاً حزيناً مكروباً. ولا تدعه يتقيّأ عليك أيضاً. بافتراض أنه كان يتصرّف مثل طفل، ماذا يهم؟ فهل سلوكك هو سلوك شخص بالغ دائماً؟ ألم يكن ما قلته هراء، عندما قلت له إنه لم يعد يوجد شيء مشترك يجمعكما؟ كان يجب أن يبتعد عنك في الحال. ماذا يجمعكما، أيها السوامي الجميل، إنه ضعف إنساني عادي بسيط.

ربما توقّف عن النمو منذ زمن بعيد. لكن هل هذه جريمة؟ لا يهم في أي نقطة على الطريق توقف، فهو مايزال إنساناً. تحرك، «إن أحببت... ثبّت عينيك إلى الأمام... لكن لا ترفض أن تمد يدّ مساعدة لمتخاذل. أين ستكون لو كنت ستمضي وحدك؟ هل كنت ستقف على

قدميك؟ ماذا عن جميع أولئك النكرات، أولئك الأغبياء، الذين كانوا يفرغون جيوبهم لك عندما كنت محتاجاً؟ هل أصبحوا عديمي القيمة، بعد فقدان حاجتك لهم؟».

«لا، لكن...».

«إذاً لا يوجد عندك ردّ! إنك تدّعي أنك شيء مهم بينما أنت لست شيئاً. أنت تخشى أن تعود إلى أساليبك القديمة. تطري نفسك بأنك مختلف، لكن الحقيقة هي أنك تشبه الآخرين الذين تدينهم كثيراً. كان عامل المصعد المجنون ذاك سينقض عليك. لقد رآك على حقيقتك، أليس كذلك؟ بصراحة، ماذا أنجزت بيديك هاتين، أو بذلك الفكر الذي تبدو أنك فخور به إلى هذه الدرجة؟ ففي الحادية والعشرين، بدأ الاسكندر يغزو العالم، وفي الثلاثين أصبح العالم ملك يديه. أعرف أنك لا تهدف إلى غزو العالم، لكنك تريد أن تحدث ثقباً فيه، أليس كذلك؟ تريد أن تكون كاتباً معترفاً به. حسناً، من يمنعك من ذلك؟ بالتأكيد ليس ماكجريجور المسكين. نعم، هناك خطيئة واحدة فقط، كما قال فيفيكاناندا، وهي الضعف. خذ الأمر بجدية أيها الرجل العجوز... خذ الأمور بجدية! ترجّل عن حصانك العالي! انزل من برجك العاجي وانخرط في الصفوف! ربما كان هناك في الحياة شيء أكثر من تأليف الكتب. وما هو ذلك الشيء البالغ الأهمية الذي تريد أن تقوله؟ هل أنت نيتشه آخر؟ أنت لست حتى أنت بعد، هل تدرك ذلك؟».

عندما وصلت إلى ناصية شارعنا كنت قد جلدت ذاتي بقسوة. كانت لديّ شجاعة بنفس قدر شجاعة القاقوم. ومما زاد في الطين بلة، أن سِيد إسين كان ينتظرني عند أسفل الدرجات. كانت ابتسامة عريضة ترفرف على وجهه.

قال: «ميلر، لن أضيّع وقتك الثمين. لم أستطع أن أبقي هذا في جيبي دقيقة أخرى». وأخرج مغلفاً وأعطاني إياه.

«ما هذا؟» قلت.

«هدية صغيرة من أصدقائك. هؤلاء السود معجبون بك أيما إعجاب، ويكنون لك احتراماً كبيراً. اشترِ بها شيئاً للسيدة. إنه مبلغ صغير جمعوه لك في ما بينهم».

في حالتي المكتئبة هذه كنت على وشك أن أنفجر بالبكاء.

«ميلر، ميلر»، قال ريب، وألقى بذراعيه حولي.

«ماذا سنفعل بدونك؟».

«سيكون ذلك لبضعة شهور فقط»، قلت، وقد تضرج وجهي خجلاً مثل أحمق.

«أعرف، أعرف، لكننا سنشتاق إليك. ألا تريد أن تحتسي القهوة معي؟ لن أطيل عليك. ثمة شيء أريد أن أخبرك إياه».

عدت إلى الناصية معه، إلى دكان الحلوى والقرطاسية حيث التقينا أول مرة.

«أتعرف»، قال، ونحن نجلس إلى الطاولة، «أفكّر بأن أنضم إليك. عندها أعرف أني سأكون راحلاً».

محرجاً بعض الشيء، أجبت: «أظن أن معظم الناس يحبون الذهاب إلى باريس لقضاء عطلة. وهم أيضاً، ذات يوم...».

«أقصد يا ميلر أني أحبّ أن أراها من خلال عينيك»، ورمقني بنظرة أذابتني.

«نعم»، قلت متجاهلاً كلماته، «ذات يوم لن يكون من الضروري أن تركب سفينة أو طائرة لتذهب إلى أوروبا. كلّ ما نحتاج أن نتعلمه الآن هو كيف نتغلّب على قوة الجاذبية. فقط ابق ثابتاً في مكانك ودع الأرض تدور تحت قدميك. إنها تدور بسرعة، هذه الأرض القديمة». وواصلت حديثي بهذا الشكل، محاولاً أن أتغلّب على شعوري بالحرج. المحركات، التوربينات... ليوناردو دافنشي.

ثم قلت: «إننا نتحرّك كالحلزونات. إننا لم نستخدم بعد القوى المغناطيسية التي تغلّفنا. فما نزال إنسان الكهوف، توجد محركات في ثقوب براميلنا...».

ريب المسكين لم يعرف ماذا يفعل. كان يريد أن يقول شيئاً، لكنه لم يشأ أن يكون غير مهذب ويغيّر الموضوع. لذلك واصلت كلامي.

«التبسيط، هذا ما نحتاج إليه. انظر إلى النجوم - ليس فيها محركات. هل فكرت يوماً ما الذي يجعل أرضنا هذه تدور مثل كرة؟ لقد فكّر نيقولا تيسلا كثيراً بذلك، وماركوني أيضا. ومع ذلك لم يتوصل أحد بعد إلى الجواب النهائي».

نظر إليّ في حيرة مطلقة. وكنت أعرف أنه مهما كان يفكر، فلم يكن يفكر بالكهرومغناطيسية.

«أنا آسف»، قلت. «كنت تريد أن تخبرني شيئاً، أليس كذلك؟»

قال: «نعم، لكني لا أريد أن...».

«كنت أفكّر بصوت عال فقط».

«حسناً، إذن...» تنحنح. «كلّ ما أردت أن أقوله لك هو هذا... إذا ضلت بك السبل هناك، فلا تتردّد في أن ترسل لي برقية. أو إذا أردت أن تطيل فترة إقامتك، فإنك تعرف كيف تتصل بي». أحس بالخجل وأشاح بوجهه بعيداً.

«ريب»، قلت، ولكزته بمرفقي، «إنك طيب للغاية معي. وأنت لا تكاد تعرفني جيداً. أعني، إنك تعرفني منذ فترة قصيرة فقط. ولن يفعل أحد ممن يسمون بأصدقائي ذات الشيء، أنا أراهن على ذلك».

فأجاب: «أخشى أنك لا تعرف ماذا يمكن أن يفعله أصدقاؤك من أجلك. أنت لم تمنحهم الفرصة أبداً».

انفجرت قليلاً. «لم أمنحهم الفرصة؟ يا رجل لقد منحتهم فرصاً كثيرة إلى درجة أنهم لم يعودوا يريدون أن يسمعوا باسمي».

«ألست قاسياً بعض الشيء عليهم؟ ربما كانوا لا يملكون مايقدمونه لك».

«هذا تماماً ما قالوه، جميعهم. لكن هذا ليس صحيحاً. إذا لم يكن معك فإنك تستطيع أن تستدين ـ من أجل صديق».

«صحيح؟ فقد قدّم إبراهيم ابنه، أليس كذلك؟».

«كان ذلك إلى يهوه».

«لم أطلب منهم أن يقدموا تضحيات. كلّ ما كنت أطلبه منهم الفتات: سجائر، وجبة طعام، ملابس قديمة. انتظر دقيقة، أريد أن أعدّل ما قلته. هناك استثناءات. كان هناك فتى أتذكره، أحد السعاة الذي كان يعمل معي... كان ذلك بعد أن تركت شركة التلغراف... فعندما عرف أني كنت أكرهها ذهب وسرق من أجلي. كان يجلب لنا دجاجة أو بعض الخضراوات... وأحيانا قطعة حلوى، إذا كان ذلك كلّ ما يستطيع أن يحصل عليه. وكان هناك آخرون أيضاً، فقراء مثله، أو معتوهون. إنهم لم يخرجوا لي جيوبهم ليثبتوا لي أنهم لا يملكون شيئاً. ليس للأشخاص الذين سافرت معهم الحقّ لرفضي. لم يتضور أحدهم جوعاً في حياته. لم نكن نفايات بيضاء وضيعة. كلنا أتينا من بيوت محترمة: لا، ربما كان اليهودي في داخلك هو الذي يجعلك طيب القلب هكذا، اغفر لي الطريقة التي أقولها فيها. فعندما يرى اليهودي رجلاً بائساً وجائعاً ومنهكاً فهو يرى نفسه. إنه يتماهى على الفور مع الشخص الآخر. ليس نحن. إننا لم نذق الفقر بشكل كاف، والحظ العاثر، والخزي، والمذلة. لم نكن منبوذين في حياتنا. إننا نتسيّد على باقي العالم ونحكمه».

فقال: «ميلر، لا بد أنك تحمّلت الكثير من العذاب. مهما كان رأيي بشعبي ـ فلديهم عيوبهم أيضاً، وكما تعرف ـ لا يمكنني أن

أتحدّث عنهم بالطريقة التي تتحدث بها عنهم. وما يجعلني سعيداً لدرجة أكبر هو ظني أنك ستتمتّع بوقتك لفترة من الزمن. إنها آتية إليك. لكن يجب أن تدفن الماضي!».

«تقصد أن عليّ التوقّف عن الشعور بالأسى على نفسي». ابتسمت له ابتسامة خفيفة. «أتعرف يا ريب، أنا لا أشعر دائماً هكذا. وفي أعماقي فهي ما تزال تلتهب، أما على السطح فإني آخذ الناس كما هم تقريباً. والشيء الذي لا أستطيع أن أتغلب عليه، كما أظن، هو أنه يتعين عليّ أن أخرجها من داخلهم، كلّ شيء أحصل عليه. وعلى ماذا أحصل؟ الفتات. بالطبع أنا أبالغ. لم يحبطني أحد. وربما كان للذين فعلوا ذلك الحقّ في ما فعلوه. إن الأمر يشبه الإبريق الذي تحضره إلى البئر. متأكّد من أني أعرف كيف أصبح مصدر إزعاج. لم أكن الرجل الذي يرضى بأن يأكل فطيرة متواضعة، لقد كنت متغطرساً جداً. كانت لديّ طريقة في الاقتراب من الناس بطريقة خاطئة. وخاصة عندما كنت أطلب منهم مساعدة. كما ترى فأنا أحد أولئك الحمقى الذين يظنون أن الناس، الأصدقاء على أية حال، يجب أن يعرفوا أن المرء محتاج. عندما تصادف شحاذاً قذراً فقيراً، هل يجب أن يدمي قلبه أمامك حتى ترمي له قطعة نقود! لا إذا كنت رجلاً حسّاساً محترماً. عندما تراه مطرق الرأس، يفتّش في المجاري عن عقب سيجارة مرمياً أو قطعة سندويشة بائتة، فإنك ترفع رأسه، وتضع ذراعيك حوله، وخاصة إذا كان القمل يملؤه، وتقول: «ياصديقي هل أستطيع أن أساعدك؟» إنك لا تتجاوزه وعينك مثبتة على طير يقف على سلك الهاتف. إنك لا تجعله يجري وراءك ويداه ممدودتان. هذا رأيي. لا عجب في أن الكثيرين يرفضون شحاذاً عندما يقترب منهم. فمن المهين أن يقترب أحد منك بهذه الطريقة: إنها تجعلك تشعر وكأنك مذنب. إننا جميعنا كرماء، بطريقتنا الخاصة. لكن في اللحظة التي يستجدى فيها أحد شيئاً منا، توصد قلوبنا أبوابها».

«ميلر»، قال ريب، متأثراً بما قلته، «إنك ما أدعوه يهودي جيد».

«مسيح آخر، إيه!».

«نعم، لم لا! فقد كان المسيح يهودياً جيداً، رغم أنه تعين علينا أن نعاني ألفيّ سنة بسببه».

«المغزى هو ـ لا تبذل جهداً كبيراً لكي تكون كذلك! لا تحاول أن تكون طيباً جداً».

«لا يمكن للمرء أن يفعل الكثير»، قال ريب بحماسة.

«لا، فهو يستطيع. يكفي أن تفعل ما يجب عليك أن تفعله».

«أليس هو الأمر ذاته!».

«تقريباً. إن الفكرة هي أن الله يرعى العالم، ويجب على أحدنا أن يرعى الآخر. ولو كان الله يحتاج إلى مساعدة في إدارة هذا العالم، لمنحنا قلوباً أكبر. قلوباً، لا أدمغة».

«يا إلهي» قال ريب، «إنك تذكّرني ببعض علماء الدين الذين كنت أستمع إليهم عندما كنت طفلاً وهم يشرحون الفقه. كان بإمكانهم أن يقفزوا من جانب من السياج إلى الآخر، كالعنزات. عندما تشعر بالبرودة، يثيرونك، والعكس بالعكس. أنت لا تعرف أين تقف معهم. أعني... مع أنهم كانوا متحمسين ومنفعلين كانوا يعظون بالاعتدال دائماً. كان الأنبياء متحمسين؛ كانوا في صنف منفصل. فالقديسون لا يغضبون ويهتاجون. كانوا أنقياء، هذا هو السبب. وأنت نقي أيضاً. أعرف أنك كذلك».

ماذا يمكنني أن أجيبه؟ فقد كان ريب بسيطاً، وبحاجة إلى صديق. ومهما قلت، ومهما عاملته، كان يتصرّف وكأني جعلته غنياً. كنت صديقه. وسيبقى صديقي، مهما كان.

في طريق عودتي إلى البيت استأنفت المناجاة الداخلية. «كما

ترى، فالأمر بسيط للغاية، صداقة. ما هو القول المأثور القديم؟ عندما يكون لديك صديق يجب أن تكون صديقاً».

وبطريقة ما، كان من الصعب أن أعتبر ريب صديقاً ـ أو صديق أحد. وكلّ ما يمكنني أن أراه هو أنني كنت أعز صديق لنفسي ـ وألدّ أعدائي.

فيما كنت أدفع الباب وأفتحه، قلت لنفسي: «إذا كنت تعرف كلّ هذا القدر، فإنك تعرف الكثير».

اتخذت مكاني المعتاد أمام الآلة الكاتبة. «الآن»، قلت لنفسي، «لقد عدت إلى مملكتك الصغيرة. والآن تستطيع أن تلعب دور الله مرة أخرى».

هذا الهزل في مخاطبة نفسي جعلني أتوقف. الله! كما لو كنت قد توقفت عن مناجاته ومحادثته البارحة، وجدت نفسي أتحدّث معه في السنة الماضية. «لأن الله أحبّ كثيراً العالم الذي أعطاه إلى ابنه الوحيد الذي أنجبه...» وكم قدمنا النذر اليسير لقاء ذلك. أيها الأبّ السماوي ماذا بوسعنا أن نقدم لك، مقابل بركاتك ونعمك؟ قلبي تكلّم، كما لو أني لم أكن شيئاً، وليس لديّ أدنى فكرة عن المشاكل التي واجهها خالق الكون. ولا أخجل من كوني حميماً مع خالقي. ألم أكن جزءاً من ذلك الكلّ الهائل الذي أبانه بوضوح شديد، ربما لإدراك حدود وجوده التي لا حدود لها؟

لقد مرت عصور منذ أن خاطبته بهذه الطريقة الحميمة. ماالفرق بين تلك الصلوات النابعة من اليأس المطلق، عندما دعوته للرحمة ـ الرحمة، لا النعمة! والثنائي السهل المولود من الفهم المتواضع! غريب ذكر هذا الحديث الدنيوي السماوي؟ وهذا ما يحدث غالباً عندما تسمو روحي... عندما يكون هناك سبب ضعيف، يضع إشارة لإظهار أيّ علامة للروح. متناقضة كما قد تبدو، فقد كانت روحي تسمو غالباً عندما تصيبني الطبيعة القاسية بقدر الإنسان بين عينيّ.

وكنت مثل دودة تشقّ طريقها في الوحل، عندما **تخطر لي فكرة**، ربما كانت مجنونة، حيث يرتبط الأدنى بالأعلى. ألم يخبرونا، عندما كنا صغاراً، بأن الله يراقب سقوط العصفور؟ حتى لو لم أصدقها تماماً، فقد تأثرت بها. («انظر، أنا الربّ، إله كلّ البشر هل يصعب علي شيء؟») وعي تام! سواء كان معقولاً أم لا، كانت فكرة عظيمة. أحياناً، عندما كنت طفلاً، عندما كان يحدث شيء استثنائي حقاً، كنت أصيح: «هل رأيت ذلك الله؟» كم من الرائع أن يؤمن المرء بأنه هناك، يجيب دعوة الداعي! إذن فهو موجود، وليس شيئاً غيبياً مجرداً. لقد تخلّلت روحه كلّ شيء؛ كان منها جميعها، وفوقها جميعها، في الوقت ذاته. وعندئذ ـ عندما أفكر بهذه المسألة كدت ابتسم ابتسامة ساروفية ـ ثم تأتي أوقات أهتاج فيها بجنون، يتعين فيها عليّ أن أنظر إليها (إلى طبيعة الأشياء البشعة السخيفة) بعيون الخالق، المسؤول عنها جميعها وأفهمها.

رحت أبتعد ـ بدأت أجري الآن ـ ففكرة الخلق، فكرة العين التي ترى كلّ شيء، الرحمة الشاملة، قرب الله وبعده، خيّمت فوقي مثل حجاب. من المضحك أن تكتب رواية عن شخصيات «خيالية»، وعن أوضاع وظروف «خيالية». ألم يتخيّل ربّ الكون كلّ شيء؟ يا لها من مهزلة أن تحكم هذا العالم الخيالي! ألهذا السبب رحت أتوسل لأن يمنحني الله ملكة الكلمات؟

أوقفتني سخافة موقعي المطلقة. فيم العجلة في إنهاء الكتاب؟ فهو قد انتهى في عقلي. لقد فكرت بجميع تفاصيل الدراما الخيالية حتى نهايتها الخيالية. يمكنني أن أستريح لحظة، معلقاً فوق كياني الذي يشبه النملة، وأدع بضع شعرات أخرى تبيّض.

عدت لأسقط في الفراغ (حيث الله هو الكلّ) بإحساس لذيذ بالراحة. كان بإمكاني أن أراه بكلّ بوضوح ـ تطوري الدنيوي، من المرحلة الدودية إلى الحاضر، بل وحتى ما بعد الحاضر. من أجل ماذا كان النضال أو الاتحاد؟ ربما. ماذا يمكن أن يعني غير ذلك،

هذه الرغبة في التواصل؟ للوصول إلى الجميع، جميع مشارب الناس، والحصول على رد ـ فكرة مدمّرة! يرتعش إلى الأبد، مثل القيثارة العالمية. أشياء مرعبة بعض الشيء، إذا ما دفعت إلى أبعد معانيها.

ربما لم أعن ذلك تماماً. بما كان يكفي أن يتواصل المرء مع نظائره، المقربين منه. لكن من هم؟ أين كانوا؟ يمكن للمرء أن يعرف بمجرد بإطلاق السهم.

برزت الآن صورة. صورة العالم كشبكة من القوى المغناطيسية. وكانت ترّصع هذه الشبكة التي تشبه النوى أرواح الأرض المحترقة التي تدور في شتى طبقات الإنسانية مثل المجرات. وبسبب التوزيع التراتبي للقوى والكفاءات، ساد انسجام متسام. لم يكن ثمة شقاق محتمل. كلّ النزاعات، كلّ الاضطرابات، كان كلّ التشويش والفوضى الذي يسعى إليه الإنسان عبثياً بلا معنى. الذكاء الذي استثمر الكون لم يدركه. النشاط الجنوني القاتل، الانتحاري للكائنات الدنيوية، نعم، وحتى القدسي وجميع النشاطات الإنسانية كانت مجرد وهم. وفي حركة الشبكة المغناطيسية نفسها كان العدم. لا يمكن التوجه إلى شيء، لا يمكن التراجع عن شيء، لا يمكن الوصول إلى شيء. كان مجال القوّة الواسع الذي لا ينتهي مثل فكرة معلّقة، ملاحظة معلّقة. دهر من الآن ـ وماذا الآن؟ ـ فكرة أخرى قد تحل محلها.

أوووه! رغم شدة البرودة، فقد أردت أن أتمدّد على أرض العدم وأتأمّل صورة الخلق إلى الأبد.

وخطر لي في الحال بأن عنصر الخلق، حيث ترتبط الكتابة، لم يكن لها علاقة كبيرة بالفكر. «الشجرة لا تبحث عن ثمارها، بل تنمو معها». وخلصت إلى أن الكتابة هي أن تجمع ثمار الخيال، أن تنمو في حياة العقل مثل شجرة تنبت الأوراق.

وسواء كانت عميقة أم لا، كانت فكرة مريحة. **ففي أحد الأطوار** كنت أجلس تحت رحمة الآلهة. أسمع ضحكاً عني. **لا حاجة لأن** تؤدي دور الله. لا حاجة لأن تدهش أحداً. خذ القيثارة **واعزف** مقطوعة فضية. وفوق كل هذا الاضطراب، حتى أعلى من **صوت** الضحك، كانت هناك موسيقى. موسيقى أبدية. كان ذلك معنى العقل الأسمى الذي استغل الخلق.

رحت أنزلق إلى أسفل السلّم بسرعة. وكانت تلك الفكرة الجميلة الرائعة التي أمسكت بي من شعري... أنت هناك، تتظاهر بأنك ميت ومصلوب، أنت هناك، بتاريخك المأساوي الفظيع، لماذا لا تدخله في روح المسرحية؟ لماذا لا تحكيه لنفسك وتستخلص منه قليلاً من الموسيقى؟ هل هي حقيقية، جروحك؟ هل ما تزال حية، ما تزال طرية؟ أم أنها مجرد طلاء أظافر أدبي؟

فليأتي العزف المنفرد...

«قبّلني، قبّلني ثانية!» كنا في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة آنذاك، أنا وماكجريجور، وكانت الفتاة التي جلبها إلى الحفلة تدرس لصبح مغنية أوبرا. كانت جذّابة، حسّاسة، أفضل فتاة يتعرف عليها في حياته. كانت تحبه بحرارة. أحبّته مع أنها تعرف أنه طائش وعديم الإيمان. وعندما قال بطريقته الطائشة التي تخلو من التفكير «أنا مهووس بك»، أغمي عليها. كانت هناك تلك الأغنية بينهما التي لم يملّ من سماعها. «غنّها مرة أخرى، لا يمكن لأحد أن يغنّيها مثلك». فتعيد غناءها مرات ومرات.

«قبّلني، قبّلني ثانية». كنت أشعر برغبة كبيرة على الدوام في أن أسمعها وهي تغنّيها، لكني ظننت أن قلبي سيتحطم هذه الليلة. وفي هذه الليلة، بينما كنت جالساً في زاوية بعيدة من الغرفة، أبعد ما يمكنها أن تبتعد عني، جلست أونا غيفورد القدسية، التي لاتُدرك، أجمل ألف مرة من المغنية الأولى في الأوبرا، التي أحبها ماكجريجور، أكثر غموضاً ألف مرة، وألف ألف مرة أبعد من أن

أطالها وأصل إليها. «قبّلني، قبّلني، ثانية!» كم تثير شجوني هذه الكلمات! ولم يكن أحد في تلك المجموعة الصاخبة المرحة يدرك معاناتي. عازف الكمان يقترب، سعيداً، لا مبالياً، جذاباً، وهو يلصق خدّه على الكمان، ويستخرج كلّ عبارة من الأوتار الخرساء، يعزفها بهدوء في أذني. قبّلني... قبّلني... ثانية. لا يمكنني أن أتحمّل معزوفة أخرى. دفعته جانباً، وانطلقت مسرعاً. ورحت أجري أسفل الشارع، والدموع تسيل على خديّ. وعند الناصية أصادف حصاناً يتجوّل في منتصف الشارع. الفرس الأكثر يأساً، وبؤساً يمكن للمرء أن يراه. حاولت أن أتكلّم مع هذا الحيوان التائه ذي القوائم الأربع ـ لم يعد حصاناً، لم يعد حتى حيواناً. ولوهلة ظننت أنه فهم. ولبرهة طويلة راح ينظر إلى وجهي مباشرة. ومرعوباً صهل صهلة تجمّد الدم ونهض على قائمتيه. وأطلقت صرخة قوية يائساً، وسقطت مغشياً عليّ. ملأت أصوات مرحة الشارع الخاوي. ووقعت على أذنيّ مثل ضجيج صادر من ثكنات مليئة بالجنود السكارى. ظننت أنهم يقيمون حفلاً. وكانت هناك، محبوبتي، الشقراء كالثلج، وهاتان العينان الحالمتان، اللتان يستحيل إدراكهما إلى الأبد. ملكة القطب الشمالي.

لم يعتبرها أحد آخر هكذا. أنا فقط.

جرح غائر لم ينزف كثيراً من الدم. من الأسوأ اتباعها. أسوأ بكثير جداً. أليس من المضحك أنها كلما أتت بسرعة أكبر، توقعها المرء أكثر ـ نعم، توقعها ـ أن تكون أكبر، دموية أكثر، وأكثر تدميراً. وهي كذلك دائماً.

أغلقت كتاب الذاكرة. نعم، كان ثمة موسيقى يجب انتزاعها من تلك الجروح القديمة. لكن الوقت لم يحن بعد. دعها تلتهب لبرهة وجيزة في الظلام. فما أن نصل أوروبا حتى يصبح لي جسد جديد وروح جديدة. ماذا تساوي آلام الصبي الذي ترعرع في بروكلن بالنسبة لورثة الطاعون الأسود، وحرب المائة عام، وحرب الإبادة،

والحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش، وذبح البروتستانت للفرنسيين، والثورة الفرنسية، واضطهاد اليهود. وغزوات قبائل المغول، ومجيء الأتراك، وأمطار الضفادع والجراد، والأعمال الشنيعة للفاتيكان، واندلاع جرائم قتل الملوك، والملكات المهووسات بالجنس، والملوك المخبولين، وروبسبير والقديس جستس، وملك الهوهينستوفين، والهوهينزوليرن، وصائدي الجرذان، وساحقي العظام. ماذا يمكن أن تعني بضعة بواسير مفعمة بالعاطفة من التراث الأمريكي بالنسبة لراسكولنيكوف وكارامازوف من أوروبا القديمة؟

رأيت نفسي أقف على سطح منضدة، حمامة تافهة من نوع الحمام الطابي يسقط كريات صغيرة بيضاء من زرق الحمام. سطح منضدة يسمى أوروبا، يتحلق حولها ملوك الروح، غير عابئين بأوجاع وآلام العالم الجديد. ماذا يمكنني أن أقول لهم بلغة الحمام الطابي الأبيض هذه؟ ماذا يمكن لأي شخص رُبّي في جوّ من السلام والوفرة والأمن أن يقول إلى أبناء وبنات الشهداء؟ حقاً، عندنا الأجداد ذاتهم، الأسلاف المتشابهون الذين لا اسم لهم، الذين مُزّقوا على المقصلة، وأُحرقوا، يُنقلون من مكان لآخر، لكن ـ لم تحترق ذاكرة مصيرهم فينا بعد. لقد أدرنا ظهورنا إلى هذا الماضي الشنيع، زرعنا نباتات جديدة من جذوع الشجرة الأبوية المتفحّمة روتها مياه نهر النسيان، وأصبحنا جنساً ناكراً للجميل، جاحداً، مجرداً من الحبل السرّي، مسروراً بشكل أهوج بطريقة اصطناعية.

قريبا، يا رجال أوروبا الأعزاء سنكون معكم شخصياً. إننا قادمان ـ بحقائبنا الأنيقة، جوازات سفرنا من الدرجة الأولى، بدولارتنا من فئة المائة دولار، بوليصات التأمين، كتب الأدلة، آرائنا المملّة، تحيزاتنا الصغيرة، أنصاف أحكامنا، نظاراتنا الوردية التي تقنعنا بأنّ كلّ شيء جيد، إذا كانت النتيجة جيدة في النهاية، بأن الله هو الحبّ، والعقل هو كلّ شيء. عندما ترينا كما نحن، عندما

تستمعين إلينا ونحن نتجاذب أطراف الحديث مثل طيور العقعق، ستعرفين أنك لن تخسرين شيئاً بالبقاء حيث أنت. لا يوجد عندك سبب لحسد أجسامنا الجديدة الجديدة، دمنا الأحمر الكثيف. ارفقي بنا نحن ذوو الخبرة القليلة، البالغو الهشاشة، الضعيفون جداً، الجديدون وغير الملوثين! إننا نذوي بسرعة...



الوشيجة

هنري فالنتاين ميلر (1891 ـ 1980)، روائي ورسام أمريكي، نشأ في نيويورك، وعاش شبابه في باريس، منها سنوات برفقة صديقته الروائية أنايس نينّ بشكل بوهيمي حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، حيث تُعتبر سنوات إقامته في باريس الأخصب بالنسبة لإبداعاته الأدبية. عاد بعدها إلى الولايات المتحدة، وعاش ما تبقى من حياته فيها.

عُرف عنه كسر القوالب الأدبية التقليدية، وطوّر نوعاً جديداً من الرواية دمج فيه السيرة الذاتية والنقد الاجتماعي، الذي تنعكس فيه الفلسفة والعلاقات السريالية الحرة مع الروحانيات التي تعبّر عن الحياة الحقيقية.

من أشهر أعماله: ثلاثية الصلب الوردي، مدار السرطان، مدار الجدي، ربيع أسود.

«ربما كانت (الصلب الوردي) هي رائعة هنري ميلر. إنها سرد موسع حول جهود ميلر لكي يصبح كاتباً وحول صراعاته، المالية والروحية. وفي الوقت نفسه تعيد إبداع نبرة ونسيج بيئة ميلر، وتبعث إلى الحياة أصدقاءه الحميمين. إن الكتاب المكتوب بنثرٍ أمريكي مسترخٍ وطبيعي هو مسلٍ أحياناً على نحو صاخب، وخاصة حين يسخر ميلر من نفسه. وعلى غرار فرانك هاريس في كتابه (حياتي وعلاقتي الغرامية)، تحاول الوشيجة (نكسوس) أن تروي كل شيء، وسيتأكد البعض من أن ميلر يقول الكثير بشكل كامل. مهما كانت زلات ميلر في الذوق، فإنه دوماً إلى جانب الحياة والإبداع، تفرحه الحقيقة البسيطة بأنه حي ويجرّب».